



شهريار مندني بور

قصة حب إيرانية تحت مقص الرقيب



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

شهريار مندني بور

قصة حب إيرانية تحت مقص الرقيب

ترجمة: خالد الجبيلي



منشورات الجمل

شهريار مندني بور: قصة حب إيرانية تحت مقص الرقيب

حصل شهريار مندني بور على جوائز عديدة عن الروايات والقصص القصيرة والأعمال غير الروائية التي نشرها في إيران، مع أنه لم يتمكن من نشر أعماله الروائية منذ ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٧ بسبب الرقابة في إيران. وهو ناقد سينمائي معروف، ومنذ عام ١٩٩٩ وحتى أوائل ٢٠٠٨، شغل منصب رئيس تحرير مجلة «مساء الخميس»، وهي مجلة أدبية شهرية تصدر في شيراز. وجاء إلى الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٦ للمشاركة في مشروع الكتّاب الدوليين الثالث الذي تقيمه جامعة براون. ويعمل حالياً باحثاً زائراً في جامعة هارفارد، ويعيش في كامبردج، ماساشوستس. وقد نُشرت أعماله في مجلة PEN America وThe Literary Review ومجلة Kenyon Review التي ستصدر قريباً.

شهريار مندني بور: قصة حب إيرانية تحت مقص الرقيب
ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت، ٢٠١١
ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣، بيروت - لبنان
تلفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2011
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

حكاية الرجل الذي عثر على خريطة كنز، قالت له اذهب إلى بوابة كذا، حيث توجد قبة، وإذا أعطيتها ظهرك، ووليت وجهك شطر مكة، ورميت سهماً، يقبع كنز حيثما يقع السهم. ذهب إلى هناك، ورمى سهاماً، لكنه شعر بالحزن لأنه لم يعثر على الكنز. ووصل النبأ إلى الملك، وألقيت سهام من مسافة بعيدة، وبالفعل لم يُعثر على شيء. وعندما ناشد ربه، أتاه وحي بأنه لم يأمره بأن يسحب وتر القوس. فوضع سهماً في القوس، وسقط أمامه.

شمس شبراز (توفي ١٢٤٨)

الموت للدكتاتورية الموت للحرية

في هواء طهران، يمتزج معاً أريج أزهار الربيع، وأوّل أكسيد الكربون، وروائح عطور وسموم قصص ألف ليلة وليلة وتتمايل جميعها ويعتلي بعضها بعضاً، وتتهامس. المدينة تنساب مع الزمن.

يتجمهر حشد من الطلاب في احتجاج سياسي أمام مدخل جامعة طهران الرئيسي، في شارع الحرية. قبضاتهم مرفوعة إلى الأعلى وأصواتهم تعلو: «الموت للعبودية». وعلى الجانب المقابل من الشارع، يتجمهر عدد من أعضاء حزب الله، قبضاتهم مطبقة، وربما كانت هناك سلاسل وقبضات نحاس في جيوبهم، يصيحون: «الموت لليبراليين. . .».

وكان أفراد شرطة مكافحة الشغب، المدججون بأكثر الأسلحة تطوراً، بما فيها الهراوات المستوردة من الغرب التي تحدث صدمة كهربائية، يقفون في مواجهة الطلاب. وتحاول كل من المجموعتين، قبل أن تتشابكا وتتبادلا اللكمات، أن تحقق انتصاراً على منافستها بالصياح بصوت أعلى. قطرات العرق تتصبب من الوجوه، ورذاذ من البصاق ينطلق من الأفواه. وقبل أن تهبط القبضات على الرؤوس لتسحقها، ترتفع بدون معجزة نحو السماء.

ربما بسبب هذه القبضات الموجهة إلى الأعلى لم تعد المعجزات تنزل من سماء إيران المقدّسة. فمنذ مائة سنة وسنة ـ عندما انتصرت أول ثورة للديمقراطية في إيران ـ ارتفعت قبضات تشبه هذه القبضات نحو سماء بلد

فيه أكبر عدد من رجال الدين، ويقام فيه أكبر عدد من الصلوات، وتُذرف فيه سيول من الدموع، وتُسمع في أرجائه أصوات العويل والنواح الديني: ويخيّل إليّ أنه في هذا اليوم تتوجه أعظم الدعوات إلى الله لكي يعجّل في وقوع يوم القيامة من إيران.

وعلى مسافة غير بعيدة، تقف فتاة على الرصيف، ظهرها باتجاه السياج الفولاذي المثبّت على الجدار الحجري البالغ ارتفاعه ثلاث أقدام، الذي يحيط بجامعة طهران. وبخلاف معظم الفتيات في العالم، لكن مثل معظم الفتيات في إيران، تضع على رأسها وشاحاً أسود، وترتدي معطفاً أسود طويلاً يغطي جسمها بالكامل. وتتمتع بجمال تجده لدى جميع الفتيات في قصص الحبّ، جمال ترغب الكثير من الفتيات في العالم، وفي إيران، اللاتي قرأن هذه القصص، أن يمتلكنه. ولو رأت أرواح آلاف الشعراء الذين ماتوا منذ ألف سنة، أو منذ سبعمائة سنة، أو منذ أربعمائة سنة، وأرواح الشعراء الذين سيولدون ـ الذين بخلاف الأحياء، في ديموقراطية الموت، يطوفون شوارع طهران بحب وتسامح ـ عينيها السوداوين الواسعتين، لشبّهوهما، كما كان شائعاً في أشعارهم، بعيون المها الحزينة. وهو تشبيه قديم للعيون الشرقية التي سلبت قلب اللورد بايرون، وخلبت عقل آرثر رامبو. . . ولكن بعكس هذا التشبيه المعتاد، لو ألقيت نظرة غامضة إلى عينيّ هذه الفتاة اللتين تبدوان وكأنهما تمتلكان القدرة على تجاوز الزمن، لرأيت فيهما القدرة على عبور جدران الحرملك الذهب، أو ربما الجدران النارية والمرشّحات لحجب بعض المواقع على الإنترنت.

لكن الفتاة لا تعرف أنها بعد سبع دقائق وسبع ثوان بالتمام والكمال، وفي ذروة الاشتباكات الدائرة بين الطلاب، وعندما يبدأ رجال الشرطة وأفراد حزب الله هجومهم، ويسود الهرج والمرج وتعم الفوضى ويبدأ

الطلاب الهرب ذات اليمين وذات اليسار، ستتلقى ضربة شديدة، وستتهاوى على الأرض، وسيرتطم رأسها بحافة الرصيف الإسمنت، وستغمض عينيها الشرقيتين الحزينتين إلى الأبد. . .

تلفت الفتاة انتباه الأشخاص المخفيين الذين يراقبون المشهد من زوايا غير مرئية، ويتعرّفون على أشكال الناس وهوياتهم أثناء التظاهرات السياسية في إيران، ويدلّ أحدهم الآخر عليها. ويلتقط واحد منهم، من زاوية محترفة، صورة ويسجلها على شريط.

أعرف أن هذه الفتاة ليست عضواً في أيّ حزب سياسي، لكنها مع ذلك ترفع بحياء لافتة كتب عليها:

الموت للحرية . . . الموت للعبودية

إنه شعار غريب لا أظن أن أحداً قد رأى أو سمع مثله في ظل أيّ حكم دكتاتوري أو شيوعي أو شعبي، بل حتى في ظل أي نظام ليبرالي، ولا أظن أن أحداً سيسمع به في ظل أيّ نظام يمكن أن ينشأ في المستقبل، لا يزال غير معروف حتى الآن ولا اسم له.

وعندما يتوقّف الطلاب بين الحين والآخر لالتقاط أنفاسهم خلال ترديدهم الشعارات، يشير الطلاب الذين يطلبون الحرية والديموقراطية إلى الفتاة ويسأل أحدهم الآخر: «من هي بحق السماء؟ ماذا تحاول أن تقول؟».

ويجيب الطلاب الأكثر خبرة في أمور الاحتجاجات السياسية:

«تجاهلوها تماماً. إنها متسلّلة. لقد دفع لها حزب الله لكي تزعزع الثقة بيننا، وتحدث الشقاق في صفوفنا. ولنزع فتيل المؤامرة، تصرفوا وكأنها غير موجودة على الإطلاق».

وعلى الجانب المقابل، يشير أعضاء حزب الله المتعصّبون إلى الفتاة ويسألون: «ماذا تحاول تلك الفتاة الواقفة هناك أن تقول؟».

ويسمعون قادتهم يقولون:

«هذه الفتاة الفاجرة الفاسقة واحدة من هؤلاء الشيوعيين الذين عادوا إلى الحياة مرة أخرى. فقد بدأ يشتد عود أخيهم الكبير في روسيا ثانية...

لكن لا يوجد في حزب هؤلاء الأغبياء المثيرين للشفقة سوى حفنة من الأعضاء. هكذا يأملون أن يلفتوا الاهتمام... تجاهلوها وحسب. تصرفوا وكأنها غير موجودة».

يمر رجال الشرطة السرية من جانب الفتاة ويسألون بواسطة أجهزة اللاسلكي: «ماذا يعني ذلك؟ لا توجد لدينا تعليمات كيف نتصرف في مثل هذه الحالات. كيف يجب علينا أن نتصرف معها؟». فيتلقون التعليمات:

«راقبوها جيداً بحرص شديد. لا بد أن هذه مؤامرة جديدة وخطة جديدة للقيام بثورة مخملية تدبرها الإمبريالية الأميركية... أبقوها تحت مراقبتكم، لكن لا تدعوها ترتاب بشيء. دعوها تظن أنها غير موجودة».

ظلال لا اسم لها من الغضب والكراهية، صيحات بلا أصوات من الدم والأمل والظلام، معلقة في الهواء. من أحد الاتجاهات، أي عند جادة أناتول فرانس، ومن الاتجاه الآخر، أي عند ساحة الثورة، أغلقت الشرطة الطرق وسدت المنافذ، ومنعت جميع السيارات والمشاة من المرور في هذا الجزء من شارع الحرية. واكتظت ساحة الثورة بمئات السيارات، وراح السائقون القلقون والمتعبون يطلقون أبواق سياراتهم عالياً، ووسط السيارات، وقف أشخاص فضوليون يتطلعون باتجاه جامعة طهران. في هذا المكان بالذات، ومنذ أكثر من ربع قرن، وفي يوم شتائي غائم، أسقط أهالي طهران للمرة الأخيرة تمثال الشاه المعدني وهو يمتطي حصاناً. بالطبع في تلك الأيام، عندما وصل الأمر إلى حد إسقاط تماثيل الدكتاتوريين المعدنية، كانت الدبابات الأميركية تقف إلى جانب دكتاتوريي العالم.

عندما أدرك الطلاب أنهم على وشك أن يتعرضوا للهجوم، انطلقوا يهتفون بصوت يمزق القلوب:

زملائي في الدراسة،
إنكم معي وإلى جانبي،
... إنكم دمعتي وتنهيدتي،
آثار سياط الاستبداد ترتسم على أجسادنا،
أرضنا المقفرة الجرداء، جميع أعشابها البرية نباتات ضارة،
سواء أكان ذلك جيداً أم سيئاً،
ميتة هي أرواح شعبها،
أيدينا يجب أن تمزّق هذه الستائر،
من سواي وسواكم يستطيع أن يشفي ألمنا...

بكلمات ولحن هذا النشيد، يقبع حزن إيراني قديم قدم الدهر يجلب الدموع إلى عيني الفتاة... التي تواصل رفع لافتتها إلى الأعلى. ومن وراء غلالة دموعها، يتحوّل العالم إلى بنايات متماوجة، وإلى ظلال متجهمة، وانعكاسات تترقرق على الماء... تزداد عزلة الفتاة الشابة وخوفها من الغرباء.

ترفع بصرها إلى الأعلى بحثاً عن عزاء في زرقة السماء. ترى حصاناً مجنّحاً مثل غيمة بيضاء، متجاهلاً الناس في الأسفل، ينطلق بسرعة. وبفزع، ترى لهباً يصعد من ظهر الحصان، ويختفي الحصان الملتهب وراء بناية عالية. الفتاة تنتظر، لكن الحصان لا يظهر ثانية...

ثمّ يخيّل لها أن صوتاً مكتوماً ينادي اسمها وسط صيحات الغضب والحقد.

«سارا. . . ! سارا. . . !»

تجفف الفتاة دموعها وتتطلع حولها. أناس وظلال يتحركون في كلّ اتجاه. يبدو أنهم يخشون الاقتراب منها.

«أيتها الغبية. . . ! أيتها الحمقاء. . . ! إني أحذّنك». يحمل الصوت ذات البرودة والرائحة التي تهبّ من ثلاجة لم تُفتح منذ شهر. تلتفت الفتاة وراءها. وجه داكن من دون رقبة ومن دون جذع، معلّق في الهواء. قضيبان فولاذيان في السياج الأخضر المحيط بجامعة طهران اُقتلعا من الجدار الحجري وقطعا الوجه إلى ثلاثة أجزاء. . . تظن أن هذا الوجه ينتمي إلى أحد هؤلاء الجان الذين كانت جدتها تقول إنهم يقيمون حفلات في الحمامات العامة في المدينة ليلاً، وأن الطريقة الوحيدة لتمييزهم عن البشر هي أقدامهم ذات الحوافر. . .

«هيه! أيتها الغبية! تخلصي من تلك اللافتة واهربي! إني أكلّمك. . .».

مرة أخرى، تنظر الفتاة خلفها. ترى ذلك الوجه الداكن المائع على الجانب الآخر من السياج. يخيّل إليها أنه ربما كان هناك شخص يجلس القرفصاء وراء الجدار ويرفع رأسه من فوق السياج.

«هيه! أيتها الحالمة، عودي إلى بيتك! . . . اليوم، يبيّت لك الموت شرًا. عودي إلى البيت. . . هل تفهمين؟ لقد وقع الموت في غرامك منذ نصف ساعة فقط. إنه يشحذ منجله ليغرزه في جسمك. اهربي عندما تستطيعين. . . هل تسمعينني. . . ؟».

«لا، يمكن أن يكون هذا الوجه وهذا الصوت الواهي حقيقياً. نظرت سارا عبر السياج، ووراء الجدار الحجري، ورأت هيئة الرجل: قزم أحدب يرتدي ثياباً يبدو أنها تعود إلى قرون ماضية عديدة. . . تفتح فمها لتسأل:

«ماذا تريد مني بحق السماء؟».

لكن كلماتها تختنق في حنجرتها. مذعورة، تدرك أن جميع الأسئلة وجميع الكلمات ستبدو في العالم تافهة لا معنى لها في هذه اللحظة. ويبدو أنه لا توجد مقلتان في محجري ذلك الوجه. إنهما تشبهان بئرين يعكس ضوء القمر الماء المظلم القابع في قعريهما.

«ماذا تريدين من عيني؟ فكّري في نفسك. إنك ستُقتلين... هل تفهمين؟.. اركضي! سيندلع القتال في أي دقيقة الآن»».

يبدأ العراك. هتافات الشعارات والشتائم، وتغرق صرخات الفتيان والفتيات الذين يُضربون في صخب نهار المدينة التي يزيد سكانها على أحد عشر مليون نسمة.

نتجاوز هذا المشهد لأنه يبدو أن لا علاقة له بقصّة الحبّ. لكنك لو أمعنت النظر قليلاً، فإنك ستلاحظ أنني، بمكر الكاتب المشهور، وصفت العراك الذي نشب بين رجال الشرطة والطلاب، بطريقة لا يمكن لأحد أن يتهمني فيها بالتحيّز السياسي.

وإذا سألتموني من أنا، فإني أقول:

أنا كاتب إيراني مللت من كتابة القصص الكئيبة والمريرة، المسكونة بالأشباح والرواة الموتى، ذات النهايات المتوقّعة والمليئة بالدمار. كاتب على أعتاب الخمسين من العمر، توصل إلى فهم مؤداه أنه يوجد في العالم الحقيقي المحيط بنا ما يكفي من الموت والدمار والحزن، وأنه لا يحق لي أن أضيف إليه المزيد والمزيد من اليأس بقصصي. ففي قصصي ورواياتي، رجال ذوو أجسام وشجاعة رومانسية لا أمتلكها أنا نفسي. وهناك أيضاً نساء ذوات أجساد وشخصيات أعدت رسمها من جسد وروح المرأة التي كنت أراه بشوق في أحلامي ـ مع أنه لم يكن لدي ذلك الوفاء لأمنح هذه المرأة الخيالية وجهاً دائماً لكي لا أخلط بينها وبين بعض النساء

الموجودات في الواقع. بيني وبينكم، في بعض الأحيان، كنت أخون هذه المرأة الخيالية، فأتخيّل وأكتب عن شعرها الأشقر بأنه أسود، ومرة أخرى بأنه كستنائي. في جميع الأحوال، كنت أكره نفسي عندما أرسل الشخصيات التي أحببتها، والتي خلقتها كلمة كلمة وبدقة متناهية، إلى الظلام أو إلى الموت المحقق في نهاية قصصي، مثل الدكتور فرانكشتاين.

لهذه الأسباب، ولأسباب تتعلق بكتّاب آخرين قد أكتشفها لاحقاً، أريد، بكلّ كينونتي، أن أكتب قصّة حبّ. قصّة حبّ فتاة لم يسبق لها أن رأت الرجل الذي وقع في غرامها منذ سنة، والذي تحبّه كثيراً. قصّة تشكل نهايتها بوّابة للنور. قصّة، مع أن نهايتها ليست نهاية سعيدة مثل أفلام هوليوود الرومانسية، فإنها نهاية لن تجعل قارئي يخاف من الوقوع في الحبّ. وبالطبع، قصّة لا يمكن اعتبارها قصة سياسية. إن معضلتي هي أنني أريد أن أنشر قصّة الحبّ التي سأكتبها في وطني... وبخلاف العديد من البلدان في العالم، فإن كتابة قصّة حبّ ونشرها في بلدي الحبيب إيران ليسا بالأمر الهين. ففي أعقاب انتصار إحدى ثوراتنا الأخيرة ـ التي أصمّت الكون صيحاتنا للحرية، بمساعدة أجهزة الإعلام الغربية، للتعويض عن ألفين وخمسمائة سنة من الحكم الدكتاتوري على يد الملوك ـ كُتب دستور إسلامي. ويسمح هذا الدستور الجديد بطباعة ونشر جميع الكتب والمجلات، ويمنع ممارسة الرقابة عليها بشدة وتدقيقها. لكن لسوء الحظ، لا يذكر دستورنا ما هي الكتب والمنشورات التي يُسمح لها بمغادرة أبواب المطبعة بحرية.

في الأيام الأولى التي أعقبت الثورة، أصبح يتعين على الناشر بعد أن ينتهي من طباعة كتاب، أن يقدّم ثلاث نسخ منه إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي للحصول على موافقة تمكنه من إخراج الكتاب من المطبعة

وتوزيعه. أما إذا رأت الوزارة أن هذا الكتاب قد يؤدي إلى نشر الفساد، فإن نسخ الكتاب المطبوعة تظل حبيسة في مخازن المطبعة المظلمة، وعندها يتعين على الناشر، الذي يكون قد دفع تكاليف الطباعة، أن يدفع أيضاً أجور التخزين، أو يعيد تحويل النسخ إلى ورق مقوّى. وقد أوصل هذا النظام العديد من الناشرين إلى حافة الإفلاس.

وفي السنوات الأخيرة، وبغية التخفيف من المخاطر المالية التي يتعرض لها الناشر، ولكي لا تقبع الكتب حبيسة مخازنه لسنوات عديدة، وينمو عليها العفن، وهي تنتظر صدور الموافقة لكي تخرج، واستناداً إلى اتفاق شبه رسمي، ونصف شفوي، يسلم الناشر الإيراني المستقل ثلاث نسخ من مخطوطة الكتاب جاهزة للطباعة إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي قبل طباعته وتجليده، بكامل إرادته، وبيديه وقدميه، لكي يحصل على موافقة قبل طباعته.

في إحدى إدارات هذه الوزارة، هناك رجل يحمل اسماً مستعاراً وهو بورتفيري بيتروفيتش نعم، المخبر المكلف بفك ألغاز الجرائم التي ارتكبها راسكولنيكوف، مسؤول عن قراءة الكتب بدقة شديدة، وخاصة الروايات والمجموعات القصصية، وبالتحديد قصص الحبّ. ويضع خطوطاً تحت كلّ جملة، أو كلّ فقرة، أو حتى كلّ صفحة يرى أنها مخلّة بالآداب وخادشة للحياء، وتعرّض المبادئ الأخلاقية العامّة وقيم المجتمع الأصيلة للخطر. وإذا تبين وجود خطوط كثيرة، فمن المرجح أن الكتاب غير جدير بالطباعة؛ أما إذا لم تكن فيه خطوط كثيرة، فيطلب من الناشر والكاتب أن يعيدا النظر في بعض الكلمات أو الجمل. وبالنسبة للسّيد بيتروفيتش، فإن هذا العمل ليس مجرد وظيفة يؤديها، بل مسؤولية أخلاقية ودينية تقع على كاهله. وبعبارة أخرى، إنها مهمة مقدّسة. إذ يتعين عليه ألا يسمح بظهور

كلمات وعبارات لا أخلاقية ومفسدة للأخلاق أمام عيون الناس البسطاء والأبرياء، وخاصة الشباب، وتفسد عقولهم النقية وتلوثها. وهو يقول لنفسه أحياناً:

«انظر هنا يا رجل! إذا أفلتت كلمة أو عبارة من قلمك وأثارت جنسياً أحد الشباب، فإنك تشاركه في الإثم الذي يقترفه، بل والأسوأ من ذلك، فإنك ستتحمل وزراً مثل هؤلاء المفسدين الذين ينتجون الأفلام والصور الإباحية، ويوزّعونها بصورة غير قانونية على عامة الناس».

وهو يرى أن الكتّاب أشخاص لا أخلاق لهم، مخادعون، غير مؤمنين عامة، وبعضهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، عملاء للصهيونية والإمبريالية الأميركية، ويحاولون أن يخدعوه بألاعيبهم وحيلهم. وبسبب شدة إحساسه بالمسؤولية، فإن قلب السيّد بيتروفيتش يخفق بقوة عندما يقرأ المخطوطات المطبوعة. وعندما يمضي في قراءتها صفحة صفحة، تبدأ الكلمات تتحرك أمام عينيه ببطء وتتقافز أمامه في حركات غريبة. وفي وسط أصداء الكلمات، يسمع في رأسه همسات غامضة تجعله متيقظاً شديد الحذر. تساوره الريبة، ويعود إلى قراءة الصفحات التي كان قد قرأها سابقاً، ويقرأها بتمعن أشد ويتفحصها بدقة أكثر. ويبدأ العرق يتفصد من وجهه، وترتعش أصابعه وهو يقلّب الصفحات. وكلما ازداد تركيزاً، ازدادت الكلمات المجرمة مراوغة. وتبدأ الجمل تدور وتتشابك. وتبدأ العبارات المضمرة، والعبارات الصريحة، والإشارات، والدلالات المخفية وراء الظلال، تظهر وتدور في رأسه وتحدث فيه صخباً وتشويشاً. ويرى أن بعض الكلمات اللعينة تمنح إحداها الأخرى حروفاً لتخلق كلمات سوقية أو صوراً شبقة. ويشبه صوت تقليبه الصفحات وهو يقرأها، صوت نصل المقصلة وهي تهوي، فيسمع السيّد بيتروفيتش شكل الكلمات وصراخها وهي تتفجر داخل أذنيه. ويصرخ:

«أغلقوا هذا الجحيم».

يضع القلم على الورقة ليضع خطاً تحت كلمة «يرقص»، لكنه يدرك أنّ الكاتب نفسه قد استخدم بدلاً منها عبارة «حركة إيقاعية». يخبط بقبضته على الصفحة. يهدأ عندما يقرأ بضع كلمات جبانة ومحافظة أكثر، وفي وسط صخب الكلمات الأخرى وخداعها، يسمع ضحكة ساخرة. وينهض السيّد بيتروفيتش بحماسة من وراء طاولة مكتبه.

ويسبب هذه العذابات النفسية، قد يستغرق فحص كتاب واحد أحياناً سنة كاملة، أو خمس سنوات، بل حتى خمساً وعشرين سنة.

لذلك يصبح الكثير من القصص، وخاصة قصص الحبّ التي تجد سبيلها إلى خارج مبنى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي من خلال المناورة واللف والدوران، جريحة، أو مبتورة الأطراف، أو يُحكم عليها بالإعدام في نهاية المطاف.

في قصّة الحبّ التي أريد أن أكتبها، لن أعرّض نفسي لأيّ متاعب أو صعوبات ما دمت أصوّر في جملي الاستهلالية جمال أزهار الربيع، والنسيم العليل العطر، والشمس المتلألئة في السماء الزرقاء. لكن ما إن أبدأ في الكتابة عن الرجل والمرأة في قصتي، وعن تصرفاتهما والأحاديث التي تدور بينهما، حتى يظهر السيّد بيتروفيتش بوجه يتصبب عرقاً، غاضباً، مؤنباً، أمام عينيّ.

اسألني:

ماذا تقصد؟

وهكذا أجيب:

في قصّة الحبّ هذه، يجب أن أضع بطلة أنثى وبطلاً ذكراً، أو بالعكس. من المؤكد أنك تريد أن تسأل الآن، *بخفّة فضول لا تحتمل*: ألا يجب أن يكون هناك رجل وامرأة في قصّة حبّ إيرانية؟

اسألوا، وسأجيبكم:

حسناً، في إيران، هناك فرضية دينية سياسية تقول إن اقتراب أي رجل وامرأة غير متزوجين، أو ليسا على صلة قرابة مباشرة، من بعضهما، أو التحدث أحدهما إلى الآخر، مقدّمة لحدوث خطيئة مميتة. وأولئك الذين يضعون مثل هذه المقدّمات في نصوصهم، ويعرّضون هذه النصوص للإثم، فإن المحاكم الإسلامية في هذا العالم، فضلاً عن العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، ستحكم عليهم كذلك بعقوبات كالسجن، أو الجلد، بل حتى الموت. وللحيلولة دون وصول مثل هذه المقدّمات والخطايا المميتة في إيران، تُعزل الإناث عن الذكور في المدارس، والمصانع، والمكاتب، والحافلات، وفي حفلات الزفاف. بمعنى آخر، تتم حماية أحدهما من الآخر. وبالطبع، اقترح عدد من رجال الدين الأجلاء أنه يجب أن يُعزل المشاة على أرصفة الشوارع. وبما أنهم يعرفون أنه يجب عليهم أن يقدّموا في هذا العالم الحديث خططاً تستند إلى أبحاث علمية، لذلك، واستناداً إلى النتائج التي توصل إليها خبراؤهم وعلماؤهم، عرضوا خطتهم على هذا النحو: في الصباح مثلاً، يُسمح للرجال بالسير على الأرصفة من جهة اليمين من الشارع، بينما تسير النساء بعد الظهر. وفي المقابل، يُسمح للنساء أن يغدين ويرحن في الصباح على الأرصفة على الجهة اليسرى من الشارع، بينما يسير الرجال عليها بعد الظهر. وبهذه الطريقة، سيكون بوسع كل من الجنسين ارتياد المحلات على كلا الجانبين. بل إن حفنة من رجال الدين هؤلاء أبدوا اعتراضهم على الأفلام التي تمنحها وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي موافقة لعرضها، لأنه في مشاهد نادرة، يظهر الممثل والممثلة اللذان يؤديان دور الزوج والزوجة، أو الأخ والأخت، وحدهما في المطبخ، أو في غرفة الجلوس. ويقول

هؤلاء السادة المحترمون إنه يجب ألا تكون هناك خلوة بين رجل وامرأة ليسا محرمين ـ أي ليسا متزوجين وليسا من الأقارب المباشرين ـ في غرفة أو في أيّ مكان مغلق وحدهما.

وردّاً على هذا النوع من الانتقاد، أوضح عدد كبير من الخبراء والوزراء في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، بالإضافة إلى مخرجي الأفلام، والعاملين في مجال السينما، وآخرين ممن يشاركون في الإنتاج السينمائي، في مقالات مسهبة ومقابلات متكرّرة: «أيها السادة المحترمون! لا تقلقوا. ففي المشاهد التي يظهر فيها ممثل وممثلة وحدهما، يكون هناك في الواقع، وراء الكواليس، أي على مسافة قريبة من آلة التصوير، عشرات العاملين بمن فيهم المخرج، ومساعد المخرج، والمصور، ومساعدوه، وطاقم الإضاءة، و...». وعلى الرغم من هذه التوضيحات، فقد اقترح عدد من السادة المحترمين المتذمرين:

«لنفترض أن الأمر هكذا. لكن المشاهدين لا يشاهدون إلا رجلاً وامرأة وحدهما في غرفة واحدة. وإن وجود رجل وامرأة وحدهما يؤدي إلى وقوع ألف خطيئة في مخيلة المشاهدين».

أرجو أن تكون هذه المقدمة قد ساعدتكم على فهم أن نشر قصّة حبّ في إيران ليست مهمة بسيطة...

اسألوني الآن كيف أتمنّى أن أكتب قصّة حبّ وأنشرها، لكي أتمكن من التوضيح لكم:

يخيّل إليّ أنه بما أنني كاتب متمرس، فربما أستطيع أن أكتب قصّتي بطريقة تنجو من مقص الرقيب. فخلال حياتي ككاتب، تعرفت جيداً على جميع الرموز والاستعارات الإيرانية والإسلامية، كما توجد في جعبتي خدع كثيرة أخرى لن أكشفها. وفي الواقع لم أكن أنوي حقاً أن أكتب

قصّة حبّ منذ زمن بعيد. لكن ذلك الفتى والفتاة اللذين التقيا بالقرب من مدخل جامعة طهران الرئيسي، في خضم فوضى التظاهرات السياسية، عندما أخذ أحدهما يحدّق في عينيّ الآخر بمودّة ومحبة، اقتنعت بأنني يجب أن أكتب قصتهما.

كانت قد مضت سنة تقريباً على تعرّف أحدهما على الآخر، وعلى تبادلهما بضع كلمات وعبارات. لكنّ في هذا اليوم الربيعي، ترى عينا الفتاة وجه ذلك الفتى للمرّة الأولى... لا تفاجأ بهذا التناقض الوارد في جملتيّ الأخيرتين، فإيران أرض التناقضات... إذا سألتم:

هل التقيا في أحد مواقع «الخاطبات» على الانترنت؟

فإني أؤكد قائلاً:

لا...

وبتأكيد أشد، سأوحي بأن هاتين الشخصيتين البريئتين والخياليتين لا يسمح لهما بالالتقاء على أحد مواقع «الخاطبات» التي تعمل على التوفيق بين قلوب الذكور والإناث على الانترنت، أو على مواقع الانترنت التي يبحث فيها شخص عن شريك من الجنس الآخر... إذ إن هذه المواقع محظورة في إيران. لكن اسمحوا لي أن أروي قصتي.

وكما تعرفون، فإن الفتاة تدعى سارا، ويدعى الفتى دارا. لا تسألوني، لأني أعترف بأن الاسمين هما اسمان مستعاران، ولا أريد أن يتعرّض الشخصان الحقيقيان إلى أيّ مشكلة بسبب الآثام أو التصرفات غير الشرعية التي قد يرتكبانها خلال أحداث قصّتي... بالطبع، فإن لاختيار سارا ودارا باعتبارهما اسمين مستعارين من بين آلاف الأسماء الإيرانية، قصّة بحد ذاتها، ويجب أن أحكيها:

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ومنذ عهد غابر عندما كنت

تلميذاً في المدرسة، كانت سارا ودارا شخصيتين تردان في كتبنا المدرسية في الصف الأول الابتدائي. وكانت سارا هناك لنتعلم حرف السين ودارا لنتعلم حرف الدال... منذ عهد غابر في إيران، عندما لم يكن فيها نظام إسلامي، بل نظام ملكي. ومن وجهة نظر ذلك النظام، لم تكن هناك مشكلة بأن تظهر سارا ودارا، بعد تقديمهما إلى التلاميذ، وحدهما في غرفة يتحدثان مثلاً عن ببغاء لنتعلم حرف الباء. في تلك الأيام السالفة، كانت سارا تُرسم في صورة فتاة ذات شعر أسود طويل، وترتدي قميصاً ملوّناً، وتنورة، وجورباً، وكان دارا يُرسم في صورة صبي يرتدي قميصاً وبنطالاً. كانا جميلين، لكننا عندما كنا تلاميذ، كنا نرسم شاربين لسارا ولحية لدارا... وبعد سنوات، أي بعد أن أصبحت طالباً في جامعة طهران، مللنا نحن الإيرانيين من النظام الملكي، وبدأنا الثورة، وبدأت صحوتنا تظهر عندما ادعى الشاه، في أعقاب نصيحة الرئيس الأميركي جيمي كارتر، بأن يمنح الشعب الإيراني حرية سياسية وحرية التعبير والتفكير، ولإثبات حسن نياته، حلّ حزب راستاخيز (النهضة) ـ الحزب السياسي الوحيد في البلاد الذي أسسه هو نفسه. وبدأنا نصيح «الحرية»، وأخذنا نصرخ «الاستقلال»...

وبعد بضعة أشهر من انطلاق ثورتنا، أضفنا إلى صيحاتنا «جمهورية إسلامية»... وفي أرجاء البلد أضرمنا النار في المصارف، لأنه بحسب دعاية الشيوعيين السرية والعلنية، فإن المصارف أحد رموز النظام البرجوازي المتعطش للدماء. وأحرقنا دور السينما لأنه بحسب الدعاية الخفية والعلنية للمثقّفين، فإن السينما سبب الانحطاط الثقافي وانتشار قيم الغرب، وتأثير ثقافة هوليوود الأميركية المتزايد. وأحرقنا الملاهي والحانات وبيوت الدعارة، لأنه بحسب الدعاية السرية والعلنية للمؤمنين،

فإنها بؤر الفساد وتفشي الخطايا المميتة. . . وبعد بضع سنوات على انتصار الثورة، أصبح في كتب الصف الأول الابتدائي، غطاء يغطي شعر سارا الأسود، وعباءة سوداء طويلة تغطي ثيابها المتعددة الألوان. ولم يكن دارا في سن تجعله يرخي لحيته، لذلك، أرخى أبوه لحيته. وبحسب تعاليمنا الدينية، يجب على الرجل المسلم أن يرخي لحيته، ويجب ألا يشذّبها بشفرة حلاقة لكي لا يتشبّه بالنساء.

وإذا لم تخني ذاكرتي، فقد اختفى دارا وسارا تماماً من صفحات الكتب المدرسية بعد سنوات قليلة، وحلّ محلهما فتاة وفتى آخران ـ شقيقان بدون تذكّر نظام الشاه الفاسد والاستبدادي. . . الآن، أظن أنكم بدأتم تفهمون أن اختيار الاسمين سارا ودارا كان مجرد خدعة إيرانية لرواية القصة. وبدون إعطاء السيّد بيثروفيتش أي عذر لكي يوّجه لي اللوم، فإنه سيذكّر قارئي الإيراني بظهور واختفاء سارا ودارا من الكتب المدرسية، تماماً مثل السيّد كليمينتيس، الشخص الذي لم يكن مرغوباً فيه والذي أزاله الرقيب السوفياتي من الكتب المدرسية، وأزالوه من الصورة بطمسه بصباغ، لكن القبعة التي كان قد أعارها إلى رجل برفقته كانت لا تزال على رأس ذلك الشخص.

عندما تغيّرت شخصيتا سارا ودارا، كانت ابنتي في الصف الأول، وفي بعض الليالي كانت قوتي تضعف وتتلاشى ولا يصبح بإمكاني أن أحكي لها حكاية جديدة. لذلك اشتريت لها كتاباً فيه حكايات أفضل من الحكايات التي كنت أحكيها لها لأنها كانت مصحوبة بالرسوم. وذات ليلة، عندما فتحت على قصة «سنو وايت والأقزام السبعة» لأقرأها لها، رأيت مذعوراً أن سنو وايت تضع وشاحاً على رأسها، وخطين أسودين غليظين يغطّيان ذراعيها العاريتين. وسألتني ابنتي الصغيرة:

«لماذا لا تقرأ؟».

أغلقت الكتاب وقلت:

«لن نحكي قصّة الليلة. نامي لكي تري حلماً جميلاً يا ابنتي... نامي يا باران».

كنا نطلق على ابنتنا اسم باران في البيت، أما اسمها المسجل في شهادة ميلادها فكان الاسم الذي لم أكن لا أنا ولا أمها ننوي أن نطلقه على ابنتنا. ومن هنا، توجد أيضاً قصة لاسم باران سأحكيها لكم في ليلة أخرى. أما الآن، وبعد إذنكم، يجب أن أعود إلى قصّة الحبّ التي سأكتبها:

اسألوني، مع أن اللقاء بين رجل وامرأة أمر بعيد الاحتمال في إيران، كيف تمكن دارا وسارا من اللقاء؟

كما قلت، مع أن سارا ودارا كانا قد التقيا وجهاً لوجه للمرة الأولى على هامش تظاهرة سياسية قام بها الطلاب، كانا في حقيقة الأمر قد بدآ يكتبان قصّة حبّهما قبل سنة من لقائهما. وفيما يلي القصّة التي أريد أن أحكيها لكم الآن:

سارا تدرس الأدب الإيراني في جامعة طهران. ~~لكن، امتثالاً لقانون غير مكتوب، يمنع تدريس الأدب الإيراني المعاصر في المدارس والجامعات الإيرانية~~. وشأن جميع الطلاب الآخرين والطالبات الأخريات، يتعين على سارا أن تحفظ مئات الأبيات الشعرية والسير الذاتية لشعراء ماتوا منذ ألف، سبعمائة، أربعمائة... سنة. وبالرغم من ذلك، فإن سارا تحبّ الأدب الإيراني المعاصر لأنه يشحذ مخيلتها.

فهذا الأدب يخلق في مخيلتها مشاهد لم يسبق لها أن تجرأت على تخيّلها أو قولها، وبطبيعة الحال، لم يكن هذا الأدب أيضاً يجرؤ على كتابة مثل هذه الكلمات والمشاهد بصراحة ووضوح. وفي الواقع، عندما تقرأ سارا

قصّة معاصرة، فإنها تقرأ البياض الذي يتخلل السطور، وعندما تترك جملة دون أن تكمل وتنتهي بثلاث نقاط هكذا «. . .» فإن النشاط يدّب في عقلها ويبدأ بتخيّل الكلمات المحذوفة التي من الممكن أن تكون مكتوبة هناك. وكان خيالها يشطح أحياناً إلى مسافات بعيدة ويصبح أكثر عرياً من الكلمات التي يفكّر بها الكاتب. وإن كانت تتمتع بذكاء أي فرد يعمل في الاستخبارات، وتتمتع بقوّة حلّ الرموز التي تقبع في ظلال العبارات المرعبة، وفي الهمسات الخفية للكلمات المحافظة في الأدب الإيراني المعاصر، فإنها ستجد الأشياء التي تحبّها. إذ إن سارا تحبّ هذه النقاط الثلاث لأنها تجعلها كاتبة أيضاً. . . لكنّها لا تستعير أيّ كتاب من كتب الأدب المعاصر من مكتبة كليتها أو من المكتبة المركزية في جامعة طهران، وحتى لو أرادت ذلك، فلا أظن أنها ستجد أيّ كتاب لكتّاب مثلي.

اسألوني لماذا، لأتمكن من أن أوضح:

أتمنى على الأشخاص الذين يعيشون في البلدان التي يفتخرون بأنظمتها الديموقراطية مطمئنين إلى أن لديهم مستقبلاً آمناً، ولا يتنابهم القلق إذا ما استعاروا كتاباً من المكتبة العامة، أن يحاولوا، عندما يرغبون، وبدون خوف من المستقبل، أن يقرأوا رواية «الغابة» بقلم أبتون سينكلير، أو الرواية المملة التي تخلو من أي فن بعنوان «الكعب الحديد»، وهي رواية سيئة لكاتب جيد نوعاً ما كان يجرع كميات كبيرة من الويسكي، ويرغب أن يستبدل بالديمقراطية الأميركية ديموقراطية «مزرعة الحيوانات».

كما كنت أقول، لقد علّمتنا التجربة نحن الإيرانيين، نحن الذي عشنا في ظل حكم دكتاتوري على يد ملوك على امتداد ألفين وخمسمائة سنة، ألا نترك وراءنا أيّ سجلات أو وثائق، ويتملكنا خوف أبدي من أن المستقبل يحمل لنا في طياته ظروفاً سياسية أشد وأقسى، لذلك يجب أنّ نكون

شديدي الحرص واليقظة تجاه الأمور التي تتعلق بحياتنا والآثار التي تصاحبنا في صحوتنا. ولهذا السبب تقتصر سجلاتنا التاريخية في غالب الأحيان على قصص الرّحالة الغربيين والتقارير التي كتبها الجواسيس الغربيون. وتعرف سارا جيداً أن نظام تداول الكتب في مكتبة جامعة طهران محوسب، وأن أيّ كتاب تستعيره قد يُستخدم ذات يوم دليلاً ضدها، ومن الممكن أن تُطرد من الجامعة. لكن بالطبع، لا تزال الظروف في بلدي الغالي، إيران، تسمح بفتات من الحرية، لذلك كانت سارا تفضّل أن تستعير كتبها التي تؤثر قراءتها من إحدى المكتبات العامّة، ولذلك انتسبت إلى إحداها في الحيّ الذي تسكن فيه. وقبل سنة من قيام التظاهرة السياسية التي حدثتكم عنها، وفي يوم ربيعي ـ في معظم قصص الحبّ الإيرانية القديمة هناك يوم ربيعي جميل تغرد فيه العنادل، وتتردد في جملها طيور أخرى جميلة الأصوات ـ تأتي سارا إلى المكتبة العامّة، التي قُسّمت غرفة القراءة الصغيرة فيها إلى قسمين بجدار من الكتب والكتالوغات لكي لا يتمكن الفتيان والفتيات الجالسون إلى طاولاتهم من رؤية أحدهم الآخر.

الآن لعلكم تريدون أن تسألوا، ماذا يمكن أن يفعل الفتيان والفتيات إذا كانوا بحاجة إلى مناقشة واجب مدرسي، أو إذا أرادوا أن يتبادلوا الآراء ووجهات النظر؟

إذا سألتم سؤالاً آخر كهذا، فإني سأضطر إلى القول:

سيداتي! سادتي! لماذا لا تستطيعون أن تتصوروا أنه توجد ثقافة أخرى غير ثقافتكم؟ أيّ نوع من الأسئلة هذا؟ من الواضح أنه لا توجد لدى الفتيان والفتيات في إيران مناقشات تتعلق بالمدرسة، ولا توجد هناك حاجة لتبادل المعلومات الدراسية فيما بينهم. ومثل أي مكان آخر في

العالم، فإن مناقشة «الفرق» لدريدا، ومناقشة حائط بلانك، أو نظرية الهيولى، وتأثير الفراشة، ما هي إلا أعذار واهية، سواء كانت ناشئة عن وعي أو بدون وعي يختلقها الفتى والفتاة بهدف إقامة علاقة خاصة بينهما تنتهي بارتكاب الخطيئة. ولهذا السبب بالتحديد، إذا كلّم أحدهما الآخر في حرم الجامعة، فإنهما يتلقيان تحذيراً خطياً من اللجنة التأديبية. والحديث بينهما ليس محظوراً في المكتبات العامة فقط، بل حتى إنهما لا يستطيعان أن يتسلقا حائط بلانك بلغة عينيهما ليتبادلا المعلومات...

لذلك أرجو أن تدعوني أواصل رواية قصتي.

تسير سارا نحو طاولة أمين المكتبة... بهذه الجملة تبدأ قصّة الحبّ التي أريد أن أكتبها وأقدمها إلى البيّد بيتروفيتش.

تسأل سارا أمين المكتبة:

«هل توجد لديكم «البومة العمياء؟»».

فيجيب أمين المكتبة بحزم:

«لا، يا آنسة. لا توجد لدينا «البومة العمياء» في هذه المكتبة».

لكن سارا لا تستلم بسرعة.

«طبعاً أعرف أنكم لا تضعون رواية «البومة العمياء» على رفوف المكتبة. أقصد إن كانت من بين الكتب التي رفعتموها من على الرفوف، هل يمكنك أن تعيرها لي لبضعة أيام... فانا أدرس الأدب ويجب أن أقرأ «البومة العمياء» لإعداد مشروع مهم».

أمين المكتبة، هذه المرة بصرامة أشد، يقول:

«يا آنسة! لقد قلت لك إنه لا توجد لدينا مثل هذه الكتب الممنوعة، وبالمناسبة، أنت هي الحمقاء لا أنا. فأنا أعرف أنه لا يمكنهم أن يعطوك مشروعاً عن «البومة العمياء» في الجامعة».

بعد أن يأس سارا من إمكانية الحصول على نسخة من رواية «البومة العمياء»، تخرج من المكتبة العامّة. وخلال صحوتها، لا تلاحظ أن شاباً خرج من قسم الرجال وبدأ يتبعها على مسافة منها طوال الطريق حتى بيتها. لذلك، عندما رأت الشابّ نفسه في اليوم التالي بالقرب من بيتها، لم تعرفه. كان الشابّ يبيع كتباً مستعملة افترشها فوق صفحات من الجرائد على الرصيف. وبالتأكيد، كان هناك بين الكتب نسخة من «البومة العمياء» بطبعة ذات غلاف ورقي. لكن سارا، الفخورة بجمالها والمعتادة على تجاهل الشبان من حولها، سارت إلى الجامعة من دون أن تتوقف. كان الجزّار في الحيّ ينزع جلد تنين صغير أخضر معلّق على خطّاف متدلٍ من السقف. . .

في اليوم التالي، كان الشابّ نفسه يجلس في البقعة ذاتها تماماً، وبالطبع، كان عدد الكتب قد تضاءل. والشيء ذاته ينطبق على الأيام التي أعقبت ذلك.

في إيران، فإن عشاق الكتب الذين يرتابون بالعالم كله، يظنون أحياناً أنّ الباعة المتجولين الذين يبيعون الكتب الممنوعة أو النادرة في الشارع ما هم إلا عملاء مهمتهم الأساسية التعرّف على القرّاء وتعقبهم.

في اليوم السابع، تتوقّف سارا أخيراً عند بائع الكتب التي يفرشها على الرصيف وتبدأ تستعرض الكتب، وفجأة، ترى رواية «البومة العمياء». تسأله عن ثمنها. ويعكس الطريقة المتبعة في بيع الكتب النادرة أو الممنوعة بأسعار أعلى بكثير من السعر المذكور على الغلاف الخارجي للكتاب، يطلب الشابّ منها مبلغاً زهيداً ثمناً له. وبصوت مرتعش يضيف:

«. . . إنه ثمن سيجارة واحدة من نوع ونستون يا آنسة، بشرط أن تقرإيها بإمعان. أرجوك أن تحرصي على هذا الكتاب. . . اقرإيه بعناية شديدة، أكثر بكثير مما تقرإين الكتب الأخرى. . . بعناية، بدقّة. . .».

لم يحدّث أي بائع متجول أو بائع كتب في الشارع سارا بهذه الطريقة من قبل. قالت لنفسها، ها هو شخص آخر من المختلين عقلياً الذين تزداد أعدادهم في إيران. تشتري الكتاب بسعادة وتضعه في حقيبتها اليدوية. يبعث الكتاب فيها طاقة غامضة. وفي سنتها الأولى في الجامعة، وبينما كان الأستاذ منهمكاً في شرح قصيدة طويلة كُتبت منذ سبعمائة سنة تعج بالكلمات العربية الغريبة والمعقّدة، تفتح سارا الكتاب تحت المقعد الذي تجلس فيه وتبدأ تقرأ تلك القصّة السريالية التي يُعتقد في إيران بأنها تجعل قرّاءها الشباب يفقدون الأمل في الحياة وينتحرون ـ تماماً كما انتحر مؤلفها صادق هدايات في باريس منذ عدة سنوات.

لكن بالإضافة إلى الطاقة الغريبة التي تبعثها الكلمات المهدئة والدنيوية، بدا أن الكتاب يحمل سرّاً آخر، سرّاً ظنت سارا أنها رأته في عيني بائع الكتب على الرصيف. ففي ذلك اليوم، عادت سارا إلى البيت من الجامعة بسرعة على غير عادتها. وأغلقت على نفسها باب غرفتها، واستلقت على سريرها، وراحت تقرأ الكتاب من صفحته الأولى.

أظن أنكم أدركتم الآن أنّ الكلمات المشطوبة في النصّ هي من عملي أنا. ويجب أن تعرفوا أنّ مثل هذه الغرابة الخيالية لا تنتمي إلى ما بعد الحداثة أو إلى الهاديغرية. في الواقع...

ولا بد أنكم فطنتم الآن إلى أهمية... الأدب الإيراني المعاصر.

وفي الصفحة السابعة، لاحظت سارا عدّة نقاط أرجوانية اللون. لم تولها أي اهتمام وتابعت قراءتها بنهم. إذ إنّ رواية البومة العمياء تبدأ بأحداث مرعبة في حياة فنان إيراني يرسم على أباريق. وذات يوم توجّه الفنان إلى الخزانة في كوة الحائط في منزله ليأتي بقنينة من النبيذ المعتق كان قد ورثها عن أمّه ـ راقصة هندية تراقص ثعبان فرس في معبد لينغا. وعندما

مدّ يده ليتناول قنينة النبيذ، رأى فتحة في الحائط المطل على الأرض المقفرة وراء البيت. رأى جدولاً. وكان هناك رجل عجوز محني الظهر يجلس تحت شجرة صفصاف، وعلى الجانب الآخر من الجدول، كانت تجلس امرأة جميلة تشبه النساء المرسومات في المنمنمات الإيرانية، تنحني إلى الأمام، وتمدّ يدها الممسكة بزنبقة سوداء إلى الرجل العجوز.

وفي اليوم التالي، يدرك الفنان أنه لا توجد فتحة في كوة الحائط. لكنّه وقع في غرام تلك المرأة الأثيرية، وأمضى أيامه وهو يجوب الأرض المقفرة حول بيته النائي بحثاً عنها، وعن الجدول، وعن شجرة الصفصاف... وفي الصفحة السابعة عشرة، قالت سارا في نفسها إنه مهما كان صاحب هذا الكتاب فهو إمّا لا يعرف قيمة الكتاب جيداً أو أنه لم يكن يحسن استخدام الكتاب الذي وضع عليه إشارات وعلامات شوّهت صفحاته بالنقاط الأرجوانية... وواصل الرجل الذي لم يعثر على المرأة الأثيرية بحثه عنها. وذات ليلة، وبعد أن عاد خائباً بعد رحلة مضنية في البحث عنها، رأى المرأة جالسة بجوار باب بيته الأمامي. أخذها إلى البيت وقدّم لها قليلاً من ذلك النبيذ المعتق. ثم نعلم أنه يوجد في النبيذ قليل من السمّ بسبب أنياب ثعبان الفرس. وماتت المرأة وفي عينيها نظرة عتاب شديد، وظلت صورة نظرتها الغامضة محفورة في عقل الفنان إلى الأبد.

قطّع البوم الأعمى جسد المرأة المحاط بنحل ذهبي اللون، ووضع أجزاء جسدها المقطّعة في كيس. وفي الخارج، بدا وكأن العالم قد تحوّل إلى كابوس. وفي الظلام، كان ينتظره رجل عجوز يجلس في عربة متداعية يجرها حصان. انطلقت العربة إلى أطلال مدينة راي القديمة، وبينما راحا يدفنان الكيس، اكتشفا قِدراً من الصلصال يعود عمره إلى عدة قرون رسمت عليه عينا امرأة غامضتان... نفس الصورة التي سيستمر البوم

الأعمى في رسمها خلال الفترة المتبقية من حياته على الأباريق المصنوعة من الصلصال . . .

وفي الصفحة السادسة والستين، أدركت سارا أنّ النقاط الأرجوانية لم تكن قد وضعت هناك عشوائياً، بل وضعت بدقّة متناهية تحت أحرف بعض الكلمات. فعادت إلى النقاط الأولى في الصفحة الأولى من الكتاب. وكانت توجد تحت الأحرف س، ا، ر، ا، م، ر، ح، ب، ا. ولم تستغرق طويلاً لتدرك أن الأحرف الأربع الأولى هي أحرف اسمها، والأحرف الأخرى هي أحرف كلمة «مرحبا». . . كان لحكاية البوم الأعمى الغامضة سحر يثير الجنون، لكن سارا وقعت أسيرة الأحرف على صفحات الكتاب. فراحت تتصفّح الكتاب صفحة صفحة وتتمعن فيها. ودوّنتها جميعها على ورقة، وبدأت تربط فيما بينها. كانت أحياناً تربط حرفين أو أكثر، وأحياناً أقل. . . لكنها أخيراً، وبعد ثماني ساعات، قبعت الرسالة بكاملها أمامها.

«مرحباً سارا،

«وأنا أضع هذه النقاط الأرجوانية، فإني أرجو من الله أن تكتشفي رموزي السرية. ففي ذلك اليوم الذي كنت تسألين فيه أمين المكتبة عن رواية البوم الأعمى، كنت موجوداً هناك. وعندما تذهبين إلى المكتبة، أكون هناك أيضاً، لكن بطاقات الكتب والمراجع لا تمكنني من رؤية وجهك، لكنني أستطيع أن أرى حذاءك. وهكذا أصبحت أعرف جميع أحذيتك جيداً. لقد أطلقت على كلّ واحد منها اسماً. فمثلاً سميت حذاءك البني الذي يوجد عليه خدش، ربما كان ذلك بسبب سلك شائك أو شوكة من شجيرة أزهار، «الماطر»، لأنك تنتعلينه في الأيام الماطرة. وأعرف أنه لا توجد في تلك المكتبة رواية «البوم الأعمى»، كما لا توجد روايات كثيرة عظيمة

أخرى. وحسب ما قاله أمين المكتبة الجديد، فقد رفعوا جميع الروايات اللاأخلاقية من الرفوف. وكنت أمتلك مكتبة صغيرة في بيتي وأعتبرها كنزاً ثميناً. لكني بدأت أبيع الكتب على الرصيف القريب من بيتك لكي أستطيع أن أقدم لك رواية «البوم الأعمى». ولكي يصدق الناس أنني بائع متجول حقاً، اضطررت لأن أبيع العديد من كتبي. فقد اضطررت لأن أبيع «مائة عام من الوحدة»، و«آنا كارينينا»، و«غاتسبي العظيم»، والمسلخ - خمسة... حتى إنهم اشتروا مني رواية «المدن المخفية» لإيتالو كالفينو. وبعت المجموعة التي تضم قصائد لوركا ونيرودا وفوروغ. لكنني رفعت ثمن «البوم الأعمى» إلى درجة أن الناس سخروا مني. إذا لم تكن لهذه الرسالة أي قيمة بالنسبة لك، فعلى الأقل، أرجو أن تقدّري هذا الكتاب. ولكي نتحرر من نفاقنا، فقد هرب مؤلفه إلى باريس وانتحر هناك. كم أتمنّى أن أكون كاتباً قوياً مثله، لأتمكن من كتابة رسالة جميلة واستثنائية لك. فإن استطعت أن أكتب لك رسالة لم يستطع أي رجل عاشق أن يكتبها في حياته، فإني لا أريد شيئاً آخر في حياتي كلها، وعندها سيصبح الموت سهلاً بالنسبة لي... أرجوك لا تخافي. وكما كنت مغرماً بك منذ فترة طويلة ولم تلحظي ذلك، ثقي تماماً بأنك لن تشعري بوجودي إلا إذا سمحت أنت بذلك. في يوم الخميس القادم، عندما تذهبين إلى المكتبة العامة، استعيري كتاب «الأمير الصغير» إذا أحببت...».

حاولت سارا أن تتذكر وجه الشابّ، أو صوته على الأقل، لكن، وعلى نحو غريب، لم تكن في مخيلتها أي صورة عنه. وكأن يداً ما قد محتها.

استعارت سارا كتاب «الأمير الصغير». في قراءتها الأولى لم تفهم الكثير من هذه القصّة الجميلة لأن انتباهها كله كان مركّزاً على تفسير الرموز التي تضمها الرسالة في الكتاب، التي كانت كما يلي:

«مرحبا سارا،

«لماذا بدأت تلتفتين فجأة وتنظرين خلفك منذ أن قرأت رسالتي؟ إنك لن تستطيعي أن تميزيني بين جميع هؤلاء الناس على الرصيف. لقد درست فن المكياج جيداً، ومنذ أن اشتريت الكتاب مني، غيّرت قسمات وجهي.

«إني أكون على مسافة بعيدة منك دائماً. لكن السير وراءك، حتى من مسافة، يمنحني متعة المعرفة بأنني أتنفس الهواء الذي انبعث منك. وأحياناً، طبعاً ليس غالباً، أسير نحوك من الجانب المقابل للشارع لأتمكن من رؤية وجهك، لأرى إن كنت سعيدة أم حزينة. إني أعرف جميع القسمات التي ترتسم على وجهك، حتى إنني أستطيع أن أعرف، من الطريقة التي تحمل بها أصابعك الجميلة الطويلة كتبك، إن كنت متعبة أم أنك مفعمة بالحيوية. في الليالي التي أتجوّل فيها في الشوارع، أمرّ في بعض الأحيان من أمام بيتك الكبير. لا تقلقي، فإني لا أتوقّف، ولا حتى لثانية واحدة، بل أمرّ أمامه وأنظر إلى نافذتك.

لا أحبّ ستائر الغرفة الثقيلة. لماذا تبقينها مسدلة معظم الأحيان؟ افتحيها. دعي شعاع القمر يتسلل إلى غرفتك من خلالها. إذ إن ضوء القمر المرسل من وراء البحر سيضفي لوناً جديداً جميلاً على الجدران. في الليل، عندما يضاء النور في غرفتك وأعرف أنك هناك، تصبح غرفتك نجمتي. لكن هذه النجمة تختلف عن جميع النجوم الأخرى التي تتلألأ في السماء بالنسبة لي، لأنه توجد لدي هناك وردة حمراء تختلف عن جميع الورود الحمر الأخرى في العالم، التي أتمنى لها السعادة من كلّ قلبي. لقد تعلّمت ذلك من الأمير الصغير. وبعد أن أصبح هناك شخص في حياتي أتمنّى له السعادة بكلّ جوارحي، حتى لو لم أكن جزءاً من تلك السعادة في حياتي، فقد أصبح لحياتي معنى جديد جميل. إذ أصبح

بإمكاني الآن أن أتحمّل الناس، حتّى إنني بدأت أحبّهم، لأنه يخيّل إليّ أنه يوجد بينهم أشخاص تحبّينهم ويجعلونك سعيدة. . . لا يهمّ من أنا وما هو اسمي. كنت طالباً في جامعة طهران أيضاً، ودرست الإخراج السينمائي. لكني طُردت من الجامعة. أما اسمي، فلنقل إنه دارا. إنه اسم مستعار سيستحضره الكاتب الذي سيكتب عن حياتي ذات يوم دون كثير من التفكير. وسيرفضون توظيفي في أي شركة أو مصنع. إني أغطّي نفقاتي بالمبلغ اليسير من المال الذي أكسبه من طلاء البيوت. عندما أطلي جداراً، أكتب عليه اسمك أولاً بلون أزرق بحري، ثم أغطّيه باللون المطلوب. في الشهر الماضي، كنت أطلي بيتاً حديث البناء بالدهان وجاء المقاول فجأة، ورأى كيف أن كلمة سارا مكتوبة على جميع الجدران. . . تشاجرنا. طردني. . . سأكتب الرسالة التالية في كتاب «دراكولا» لبرام ستوكر. إن الأشخاص الذين يقرّرون نوعية الكتب التي يجب أن تكون موجودة في المكتبات العامة إما أنها غير متوفرة لديهم، أو أنهم لا يفهمون هذه النوعية من الكتب الجيدة. وإن كنت ترغبين في الردّ علي، ضعي إشارة على الأحرف في هذا الكتاب بالحبر الأزرق. وإذا لم ترغبي، فسأخبرك في «رسالة دراكولا» في أي كتاب سأكتب لك رسالتي التالية. . .». اضطرت سارا أن تنتظر أسبوعين كاملين لاستعارة كتاب «دراكولا»، لأن أحداً كان قد استعاره من المكتبة. قرأت الرسالة الثالثة، لكنّها لم ترد عليها. مهما كان الشخص الذي يكتب هذه الرسائل فهو يعني حقاً ما يقول، ويتحرّك مثل شبح على هامش حياة سارا، التي على الرغم من فضولها، لم تستطع أن تعرف من هو. في بعض الأحيان، بعد أن كانت تعود إلى البيت سيراً على الأقدام في طريقها المعتاد من الجامعة أو المكتبة، كانت تصعد إلى غرفتها، وتنظر من الفتحة الضيّقة في الستائر

الثقيلة لترى الشخص الذي يتبعها. كانت ترى المارة، صغاراً وكباراً، يمرّون من أمام بيتها، لكن لم يكن ثمة أحد يبدي اهتماماً بنافذتها... ولسبع ليال متتالية، جلست سارا بالقرب من النافذة تتطلع إلى الرصيف، لكن دون جدوى.

أحبّت سارا قصّة «دراكولا».

«مرحبًا سارا»

«لقد أحببت حقاً حذاءك الرياضي، الحذاء ذا الخطوط الزرق. إن لخطواتك الواسعة الجميلة خفة رائعة فيه عندما تنتعلينه. لقد سميته «شيرين تمشي فوق الماء»، وسأطلق عليه أحياناً «أوفيليا». هل تغيّر أيّ شيء في الجامعة حتى بدأوا يسمحون لك الآن بانتعال أحذية ملوّنة؟ أحياناً عندما أتبعك على الرصيف، أحاول أن أسير على وقع خطواتك.

«أتمنى أن أمتلك القوة التي يمتلكها الكونت دراكولا. لا لكي أدخل إلى غرفة نومك في الليل وأمصّ دمك، بل لأتمكن من حمايتك طوال حياتك من دون أن تعرفي ذلك».

«بدأ المشرف في المكتبة العامّة يرتاب بي. هدّدني أنه إذا لم أنتبه لتصرفاتي سيطلب من أفراد دورية حملة مكافحة الفساد الاجتماعي إلقاء القبض عليّ. لم أردّ على أيّ إهانة وجهها لي. كنت في حالة غضب شديد، وكان دمي يغلي، لكنني مع ذلك، تمالكت نفسي واعتذرت منه. لو كنت دراكولا، لشربت دمه. لذلك الآن، عندما تغادرين المكتبة، بدأت أنتظر قليلاً، ثم أجري لألحق بك في مكان قريب من بيتك. أتمنّى أن أستطيع أن آتي إلى قاعة الدروس في الجامعة وأجلس في الزاوية لأراقبك فقط.

لكنهم في الجامعة يعتبرون الأشخاص من أمثالي وحوشاً سوقية وقذرة.

وفي نسخة فيلم دراكولا الذي أخرجه فرانسيز فورد كوبولا، الذي يمكنك أن تجديه بسهولة في السوق السوداء، هناك مشهد يحوّل فيه دراكولا العاشق دموع مينا إلى حبات من الزمرد في راحة يده. حتى لو كنت ذات يوم وحشاً ممتلئاً بالحقد، حتى لو كنت ذات يوم دراكولا، فقد تغيّرت منذ اللحظة التي عرفتك فيها. لقد وجدت خصلة من شعرك بين صفحات «الأمير الصغير». لا أصدق أنها كانت موجودة هناك عمداً، لكنّها أصبحت الآن كنزي... إن خصلة الشعر الأسود هذه تعني لي العالم برمّته. شيرين حبيبتي. كلّ ما أتمنّاه أن أكون فرهاد حبيبك. كم أتمنّى أن يكون لديّ جبل لأحفر لك فيه قصراً بمعول فقط. استعيري كتاب «خسرو وشيرين».

في العديد من الأشعار الصوفية الإيرانية التي يعود تاريخ بعضها إلى ألف سنة تقريباً، يتحدث الشاعر الصوفي ـ كان معظم الشعراء الإيرانيين الكلاسيكيين صوفيين ـ عن محبوب دنيوي، سماوي، محبوب يمكن أن يكون امرأة، ومع ذلك فهو تمثيل لله. وكان يستخدم كلمات كثيرة لتشبيه جمال محبوبته بالطبيعة والفاكهة والأزهار. طبعاً، بشكل غير مباشر، بل باستخدام التشبيهات المألوفة. إذ يبدأ بقامتها التي تُشبّه غالباً بشجرة السرو. ولفهم هذا التشبيه الإيراني، فإنها لا تستحضر إلى الذاكرة طول شجرة السرو الباسق، بل انظر إلى رحابة واتساع قاعدتها ورهافة وضيق قمتها. ثم يبدأ شاعرنا بمقارنة عينيّ محبوبته بأزهار النرجس أو بعيون الغزال، وإذا كانتا عينين شرقيتين، فإنه يقارنهما بحبتي اللوز. ويقارن حاجبيها بقوسين أطلقا سهام رموشها إلى قلب المحبوب، وشفتيها، إذا كانتا رقيقتين، نحيفتين، فإنه يقارنهما بخيط منسوج غالباً من الحرير، أما إذا كانتا مكتنزتين، فإنه يقارنهما بالياقوت الذي هو بالطبع حلو كالسكّر. ثمّ يشبّه الشاعر نهديّ محبوبته بالرمانتين. ولا ينتقل الشاعر الإيراني

الصوفي عادة أبعد من ذلك، ويمارس رقابة ذاتية على باقي تشبيهاته، ويسمح لخيال القارئ بأن يهبط جنوباً من تلقاء نفسه. والقلة القليلة التي تجرأت وانتقلت إلى المنطقة التي تقع تحت نهديّ محبوبتهم، كانت تستخدم لغة الطبيعة وأنواع الطعام المثير للشهوة. ومن الواضح أن الإيرانيين لم يكونوا يعرفون في تلك الأيام الموز، أو زهرة الأوركيد، التي استخدمت لهذا الأمر في فيلم «الحائط». ومنذ قرابة تسعة قرون، خلق نظامي، الشاعر الإيراني العظيم، مشهدين جميلين، ومع ذلك غريبين، في قصيدة رومانسية مشهورة تدعى «خسرو وشيرين». إذ تحكي هذه القصة المروية شعراً قصّة خسرو، أحد أعظم ملوك بلاد فارس، الذي يقع في غرام أميرة أرمنية تدعى شيرين. تخلع شيرين ثيابها لتستحم في بركة الماء. كان خسرو قد خرج إلى الصيد، ووصل بالصدفة إلى بركة الماء تلك ويبدأ ينظر إلى شيرين من وراء الأجمة:

عروساً رأى، ناضجة ريانة كالبدر...

...

في الماء اللازوردي، تطفو كزهرة،
في الحرير اللازوردي، تنغمر سرتها.

...

من رحيق تلك الزهرة، البركة كلها،
أضحت زهرة لوز، حبة لوزة في قلبها.

...

وإلى جميع الجنبات، مشّطت ضفائرها،
بنفسج يتوّج زهرة مشّطتها.

...

مثل صندوق مليء بالكنز، كنوزه من الذهب الخالص،
ضفائرها المجعدة مثل أفعى تتلوى حول نهديها.

. . .

من يد حارس البوابة سقط مفتاح باب الحديقة،
فتبدى نهداها كرمانتين في بستان.

. . .

لم تشعر بنظرات الملك التي غمرت ذلك الياسمين،
لأن رؤية زهرة نرجسها، أعماه عن رؤية الياقوتة الزرقاء.

. . .

وعندما أطل القمر من وراء الغيمة الداكنة،
أدركت عينا شيرين نظرات الملك.

. . .

لكن بركة السكّر لم تلحظ شيئاً،
سوى شعرها كالليل ينتشر فوق السديم.

. . .

في هذه القصة الرومانسية، كما في جميع القصص الرومانسية، نرى أحداثاً كثيرة تحول دون التقاء شيرين وخسرو وحدهما بعيداً عن عيون المؤمنين المتشددين الذين تشبه تصرفاتهم كثيراً تصرفات أجهزة الرقابة المعاصرة.

وأخيراً، تصل شيرين إلى المدائن، عاصمة حبيبها. . .

في تلك الأيام، كانت المدائن أكبر العواصم في العالم وأكثرها ثراء وروعة. ولا يزال بقايا السقف المقنطر الضخم من قصرها الملكي موجوداً في العراق ـ أعني ذلك البلد الذي كان ذات يوم جزءاً من الإمبراطورية

الفارسية، والذي لم يعد الأميركيون الذين يفتقرون إلى معلومات جغرافية جيدة، يخلطون بينه وبين إيران بسبب الحرب الدائرة هناك.

لقد مضى وقت طويل على التقاء شيرين وخسرو، ووقوع أحدهما في عشق الآخر، لكنّهما مع ذلك، لم يفعلا شيئاً. وفي ليلة زفافهما التي طال انتظارها، تلقي شيرين محاضرة على خسرو وتقول: بعد كل الخمر الذي احتسيته في حياتك، يجب ألا تشرب شيئاً هذه الليلة. لكن بسبب شدة إثارته وحماسته البالغة للدخول إليها، بدأ خسرو يشرب في وقت مبكّر من بعد الظهر. وعند هبوط الليل، يصبح في حالة شديدة من السكر، وينتظر دخول شيرين إلى مخدع الزوجية، بعد أن تكون قد تحممت، وتجمّلت، وتعطّرت، وارتدت غلالة لم تحلم فيكتوريا سيكريت بتصميمها بعد. تخيّل المخدع الزوجي، لا بخيالك الجامح والعلمي، بل بالخيال اللاعلمي والغبي لفيلم مثل فيلم «ألكسندر» من بطولة أوليفير ستون. تخيّل الغرفة مزيّنة بديكور مصري - عربي - هندي - إيراني - صيني، يتوسطها سرير مرصع بكمية كبيرة من الذهب أو الزمرد أو الماس، بحيث لا يوجد لك مكان تضطجع فيه. وفي إحدى الزوايا ينتصب الإله الهندي شيفا، وفي زاوية أخرى، ينتصب تمثال يشبه الإله المصري رع، وفي زاوية أخرى، ترى دخاناً يتصاعد من موقد بخور صيني. وفي وسط السرير، يضطجع خسرو، إمبراطور بلاد فارس، ممدداً على السرير بكامله. لا أستطيع أن أجد صورة إيرانية عن خسرو، لذلك، ومثل أفلام هوليوود التي تخلط كلّ شيء معاً، سأقارنه بغانيشا، راعي الفنون والعلوم الهندوسي وإله الفكر والحكمة الذي أحبّه كثيراً. ولغانيشا رأس فيل وجسم إنسان. إنه يحبّ الحلوى، ويعني اسم شيرين باللغة الفارسية «حلوى»، لكنني اخترت هذا التشبيه، لأنه ربما كان خرطوم غانيشا يشبه خرطوم خسرو الرجولي.

بغضّ النظر عن خرطوم الفيل، عندما يتبين لشيرين أنّ خسرو قد أصبح في حالة شديدة من السكر في تلك الليلة التاريخية، ترسل له إلى مخدع الزوجية، نكاية، زوجة أبيها، ولا تأتي هي. وفيما يلي وصف للمرأة العجوز:

إنها تشبه ذئباً، لا ذئباً صغيراً، بل ذئباً عجوزاً، ولها ثديان متهدلان يشبهان إلية غنمة، وتعلو ظهرها حدبة قديمة، ووجهها مجعّد مثل ثمرة جوز الهند، وفمها عريض بعرض قبر، لا يوجد فيه إلا سنان اثنان صفراوان، ولا توجد على عينيها... وهكذا تدخل المرأة العجوز الغرفة. ينظر خسرو السكران إليها بدهشة. ما هذا؟ كيف يمكن لشيرين أن تصبح فجأة في هذه الهيئة؟ ويخلص في قرارة نفسه إلى أنه بما أنه كان ثملاً جداً فإنه يرى شيرين هكذا، ويعلّق خطافه فيها. المرأة العجوز تصرخ متألّمة: شيرين أنقذيني. تدخل شيرين إلى الغرفة، ويدرك خسرو الخطأ الذي ارتكبه.

وللمرة الثانية يقدّم الشاعر وصفاً مطولاً عن محاسن شيرين وجمالها، فيشبّه جسدها بجميع أنواع الأزهار، وجميع أنواع الحلويات والأطعمة النادرة. وبالطبع، فإن هذه الأوصاف غنية وجميلة حقاً من الناحية الإبداعية الأدبية والإبداعية الشعرية.

إذ يقول الشاعر إن شفتي شيرين وأسنانها مصنوعة من رحيق الحبّ، وإن شفتيها لم تريا أسنانها قط، وإن أسنانها لم تر شفتيها قط. ويقدم هذا الشطر من القصيدة مثالاً على الغموض الذي يكتنف الأدب الإيراني، لأن المرء يستطيع أن يستنتج منه تفسيرات مختلفة. فربما كانت شفتا شيرين مكتنزتين وبارزتين بحيث إنهما لا تلمسا أسنانها. أو ربما كانتا، كما نقول باللغة الفارسية، مثل ضفيرة مستدقة جميلة، لذلك، فهما رفيعتان ورقيقتان

بحيث لا تستطيع الأسنان قضمهما. بمعنى آخر، من المحتمل أن يعني هذا الشطر أن شفتي شيرين لم تلمسهما شفتا رجل، أو أن شفتيها لم تلمسا قط أسنان رجل، بل حتى إنّ أسنانها لم تقضم ولم تلمس شفتي رجل. هل تظن أن هناك وسيلة أفضل من هذا لوصف عذرية امرأة، بالتلميح إلى أنها لم تذق قط طعم قبلة مسروقة؟

في الماضي، وفي زمننا الحاضر، عندما يبدأ الرجل الإيراني عملية البحث عن امرأة ليتخذها زوجة له، فإنه يبحث عن امرأة لم تلمس شفتاها أسناناً، ولم تلمس أسنانها شفتين. وعندما يبحث عن عشيقة، فإنه يبحث عن امرأة ذات خبرة واسعة في العض والتقبيل. ولسوء الحظ، فإنهم في غالب الأحيان لا يعثرون على امرأة كهذه، أو أن الأمر ينتهي بهم إلى النقيض...

وفي الأبيات التالية، يصف الشاعر جسد شيرين بهذا الأسلوب:

وجهها يشبه الأزهار... وجسدها من الأمام والخلف يشبه قاقم أبيض ناعماً، وأصابعها تشبه عشرة ذيول من ذيول القاقم الطويلة... وجسدها مصنوع من الحليب والعسل، ويمتد قوسا حاجبيها حتى شحمتي أذنيها، وتنحدر ثنية لغدها حتى أسفل كتفيها.

من المعلومات التي يعرضها الشاعر، نعرف أن شيرين امرأة جاءت من أرمينيا، وبما أن الرجال الإيرانيين يفضّلون النساء الشقراوات ذوات البشرة البيضاء، فقد بقيت النساء القادمات من أرمينيا ـ التي كانت في فترة ما جزءاً من إيران، ولم تكن في فترات أخرى ـ رمزاً للجمال. وبهذه التشبيهات التي وصفتها، من المؤكد أن شيرين هذه لم تعد النموذج المطلوب في هذا القرن.

في جميع الأحوال، تهرب العجوز من الغرفة، وتظهر شيرين أمام خسرو. تتسّع عينا خسرو عندما يرى كلّ هذا الجمال والجاذبية الجنسية،

وهنا تكمن في الواقع ذروة القصّة. تتألف قصيدة «خسرو وشيرين» من ستة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر، تروي أربعة أخماسها تقريباً كيف أنّ خسرو سمع مديحاً بمحاسن شيرين وجمالها، لذلك أراد أن ينالها، وكيف انتقلت شيرين من أرمينيا إلى إيران، وكيف التقيا، وكيف وقعا في حبّ أحدهما الآخر، وكيف كانا في غاية الشوق لأن يضم أحدهما الآخر. وتروي القصيدة أيضاً كيف أن رجلاً بريئاً يدعى فرهاد، كان فقيراً ويتعرض إلى معاملة سيئة، ولم يكن يمتلك المركز أو النفوذ أو الممتلكات والإمكانيات التي يمتلكها الإمبراطور خسرو، كان قد وقع في حبّ شيرين، وكيف تتحول هذه القصة الرومانسية إلى مثلث من الحبّ، وكيف يبدي فرهاد قوة حبّه لشيرين ـ أو ربما يعرض بسالته وشجاعته الرجولية ـ حيث يبدأ بحفر نفق في جبل ضخم بمعولٍ فقط. أي حبيب من هذين الحبيبين يجب على شيرين أن تختار برأيك: السكير الذي يغط في النوم، أم الشاب الذي يحفر نفقاً في عمق الجبل؟

في جميع هذه الأبيات، نصادف عقبات وأحداثاً كثيرة جداً، بل حتى إن فراقهما يحول دون أن يستلقي خسرو وشيرين في أحضان أحدهما الآخر. لكن بعد كل ما قيل وجرى، ومثل جميع العشاق في العالم، سواء أكانوا في مقديشو أم في سراييفو، أم في طهران أم في بغداد أم في باريس، يلتقي خسرو وشيرين أخيراً في تلك الليلة التي طال انتظارها، ويبدآن يغرسان الأزهار ويشربان الحليب المحلّى بالعسل... بمعنى آخر، ألّف الشاعر خمسة آلاف ومائتي بيت، واستحدث عدداً كبيراً من الأحداث قبل أن يجمع المخدع الزوجي خسرو وشيرين، ويضاجع أحدهما الآخر.

هل تستطيع أن تخمّن ما حدث في تلك الليلة؟

في شطر واحد، يلمح الشاعر إلى أن خسرو يرى محاسن شيرين الحسيّة، ويتحوّل إلى وحش عندما يرى القمر الجديد ـ أو أين لنا أن نجد

استعارات وتشبيهات تتناغم مع الثقافة الأنغلوسكسونية، فنقول إنه يتحوّل إلى غول عندما يرى البدر.

احزروا!

أرجو أن لا تلمحوا إلى تجاربكم الشخصية.

أظن أنكم خمنّتم خطأً. لا، لم ينقض خسرو على شيرين، بل على العكس، سقط فوق السرير، وغطّ في سبات عميق. نعم، في تلك اللحظة الدقيقة والحاسمة بالذات...

بدأت أفكّر الآن أنه ربما كان هذا هو السبب الذي جعل المقدونيين والعرب والأتراك والمغول والأفغان والإنكليز يحتلون إمبراطوريات إيران العظيمة بهذه السهولة. فقد دأب ملوكنا على أن يغطّوا في سبات عميق في اللحظات الحرجة والحاسمة، اللحظات التي يجب أن يكونوا فيها رجالاً، أن يثبتوا أنهم أقوياء وأشداء، يقومون بغزو شيء صغير وجميل، وعندما يستيقظون، يكون كل شيء قد ضاع، لا ممالكهم فقط، بل زوجاتهم أيضاً، وجواريهم، وأخواتهم.

لكن لحسن الحظ، في قصة خسرو وشيرين على الأقل، لا يستيقظ الملك ليرى وجهاً غاضباً لفتاة مقدونية أو مغولية أو أفغانية، بل يرى حبيبته شيرين نائمة إلى جانبه مثل زهرة؛ وأخيراً، يبدأ العمل الذي تأخر في إنجازه كثيراً.

في النصوص الإيرانية القديمة التي يعود تاريخها إلى حوالى أربعمائة سنة، في زمن لم تكن فيه الرقابة قويّة وذات طابع مؤسسي، عندما كان الكاتب الإيراني يريد أن يصف مشهد لقاء زوجي، كان يستخدم استعارات الحرب والأسلحة بنجاح تام. فقد كان يقول: «رفع صولجانه اللحمي: وراح يدكّه في الدرع المكسوة بالدهن».

أما نظامي، ذلك الشاعر ذو الأحاسيس المرهفة، فلم يكن يفضّل

استخدام تعابير تنم عن العنف، بل صوّر مشاهد ممارسة الحبّ هكذا. فقد عيل صبر خسرو، وراح يقبّل شيرين ويلاطفها. بمعنى آخر، بدأ يلعق الحلوى ويمتصّ قطعة السكر. بالإضافة إلى هذه المقارنات، مثل الإعادة البطيئة في شريط عند تسجيل أهداف في إحدى المباريات، يقارن الشاعر مرة أخرى هذه الأعمال بزراعة الحدائق:

في البداية، راح يقطف الأزهار،
وكالوردة، تفتحت تلك الضحكة على ذلك الوجه.

...

ومعاً، يبدأ الشاعر وخسرو يقطفان الثمار:

ومن التفاح والياسمين، راح يلعق الحلوى،
وبين الحين والآخر، كان يداعب الرمانتين
وزهرة النرجس.

...

أظن أنكم تستطيعون معرفة ماذا تمثّل التفاحة والياسمين في أعضاء الجسد، ولكي تحسّن معرفتك بعلم الفواكه، فإني أكرّر أن ثمرة الرمان تُستخدم في الأدب الإيراني للتحدّث عن، أو لعدم التحدث عن، نهدين صلبين صغيرين يملآن يداً واحدة. أما زهرة النرجس فهي تشير بصورة عامة إلى العينين الجميلتين، لكني أشكّ في أنّ خسرو، وهو في ذروة حماسته وإثارته، سيبدي اهتماماً بمداعبة عيني شيرين. لذلك، ربما كانت زهرة النرجس عبارة عن استعارة لزهرة الأوركيد لدى شيرين.

في بعض الأحيان، قد يشمل عرض الأهداف المحرزة بالصورة البطيئة حياة بريّة أيضاً:

وبين حين وآخر، يفلت الصقر الأبيض من قبضة الملك،

وبين حين وآخر، يجثم الحجل فوق صدره.

...

وبين حين وآخر، تنبعث المتعة من التحليق،
عندما تهيمن الحمامة على الصقر.

...

إن هذه الأشعار عمل عبقري في تصوير مشهد جنسي يكون فيه المرء في حركة حيوية دائبة.

ويتشابك الظبي والأسد في معركة،
وفي النهاية، يتغلّب الأسد على الظبي.

...

ثمّ يأتي الغوص في صندوق المجوهرات ذاك:

وبمتعة يغوص في أعماق الكنز الدفين،
وبياقوتته يفتح عقيقتها المختومة.

...

وهذا يعني أن خسرو تمكن من فتح عقيق بكارة شيرين المختومة.

ثم نأتي إلى وصف بعض أنواع الطعام والفاكهة، فنقرأ عن حبة تمر خالية من العظام، أي حبة تمر لا توجد فيها نواة يخترقها. لا، لم ينته الأمر بعد. وتصبح الآن رواية ممارستهما الحب أكثر إنسانية، وبكلمات شاعرية جميلة، ومقفاة على نحو رائع نقرأ: جسد ملتف حول جسد، وروح بلغت روحاً أخرى. لا، لم ينته الأمر بعد. في الواقع، فقد حان الوقت للتوجه إلى البحر والغطس باستخدام جهاز التنفس:

محارة تقبع فوق قرن مرجاني،

الآن يلتقي الماء والنار.

. . .

وينتهي أخيراً:

ومن النار والمياه الملوّنتين،
يكتسي المخدع الزوجي لوناً أحمر زاهياً.

وهو يقصد أن المكان مليء بمياه بلون الفضة واللون الأحمر.

بتجوالهما في الحديقة، وبطوافهما في حديقة الحيوانات، يقطفان الثمار والفاكهة، ثم يغطس في المياه العميقة، وهكذا يمضي الحبيبان يوماً وليلة كاملين، ثم ينامان نوماً هانئاً يوماً وليلة كاملين. . .

وهذا أيضا اكتشاف آخر عن السبب الذي مكّن المحتلين من احتلال بلادنا بهذه السهولة. فعندما يمضي ملك أربعاً وعشرين ساعة في سرير تغطيه الأزهار، ويطوف في أرجاء الحديقة، وفي حديقة الحيوانات، ويغوص تحت الماء، ثم يغط في النوم لمدة أربع وعشرين ساعة، فمتى يجد الوقت لإدارة البلاد؟

آمل أنكم، بعد هذا المثال الطويل بعض الشيء، قد بدأتم تفهمون السبب الذي يجعل الرقابة معقّدة إلى هذه الدرجة في إيران، ولماذا تصعب ترجمة الأدب الإيراني الثري، وقراءته.

قد تستغرق قراءة ستة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر وقتاً طويلاً، لكن سارا أنهت قراءة الكتاب بسرعة. وبخلاف توقّعاتها، كانت رسالة دارا في هذا الكتاب قصيرة جداً:

«سارا، لعلك أحببت خسرو، الملك الغني، الرجل الوسيم، الطائش، وكذلك الرجل القوي، الشجاع الذي انتصر في معارك عديدة، وألحق الدمار بالرومان. لا أظن أنك ستحبين فرهاد، الحبيب الخجول،

المخلص، الفقير، الذي يقتل نفسه عندما يفقد الأمل في الزواج من شيرين. ومع ذلك، فإنه لم يخن حبيبته لكي ينسى. . . لكنني أظن أن خسرو وفرهاد وجهان لعملة واحدة. أحدهما يكمّل الآخر. وعندما يُجمعان معاً، فهما يشكلان محبوباً حقيقياً. . .».

وكان الكتاب التالي «كائن لا تحتمل خفته» لميلان كونديرا. كان من المستحيل أن تكون هذه الرواية ذات الأبعاد الجنسية السياسية من بين الكتب الموجودة في المكتبة العامة. لكن سارا، بعد اتباعها التعليمات الواردة في الرسالة، وجدته مخبأً وراء كومة من كتب ابن سينا التي يكسوها الغبار، الفيلسوف والطبيب الأسطوري الإيراني الذي عاش في القرن العاشر. حلّت رموز الرسالة أولاً، وبعد أن قرأتها مرة تلو المرة، قرأت الرواية. قرأتها بنهم شديد، وكان ينتابها بالطبع توتر وإجهاد شديدان في أماكن عديدة منها. فقد حُذفت من الرواية مشاهد عديدة وحلّت مكانها فراغات شنيعة.

مرّ شهران على قراءة سارا الرواية الأولى تلك، وأصبحت الستائر في غرفتها الآن مفتوحة طوال الوقت، إلا عندما كانت تريد أن تغير ثيابها. إن صورة فتاة جميلة تجلس عند نافذة بيت جميل، مشهد رومانسي يحبّه الذكور في جميع أنحاء العالم. ونتيجة لذلك، وجدت سارا عدداً من المعجبين الجدد. فعندما كانوا يرونها جالسة بالقرب من النافذة، كانوا يصطفون في طوابير على رصيف الشارع المقابل لبيتها ويحدّقون فيها. لكن سارا كانت واثقة من أن دارا لم يكن بينهم، لأنهم كانوا جميعهم يبدون أجلافاً غير مثقفين. وكان بعضهم سوقيين مبتذلين، فكانوا يصفّرون لها، أو يبدون حركات مضحكة بأيديهم وعيونهم وشفاههم. فاستشاط والد سارا غضباً، ذلك الرجل التقليدي الذي يحرص أشد

الحرص على ألا تُمسّ زهرة ابنته. ونتيجة لاستمرار تدفق الشبان ووقوفهم أمام نافذة بيته، قرّر أن يستدعي الشرطة. وبعد ثلاثة أيام، اختفى جميع المعجبين الذين كانوا يضايقونها. وبدأ القلق يعتري سارا التي كانت ترقب ذلك اليوم الذي ترى فيه دارا. وبالطبع، فقد اعتبرت هي نفسها أن عواطفها تلك مجرّد شعور بالفضول. وخلقت صورة غامضة عن وجهه في مخيلتها، وبمخيلتها كانت تضيف صفات وقسمات أخرى إلى هذه الصورة الغائمة، مما أجج من سعير فضولها.

قرأت في الرسالة التالية:

«لا تكترثي لهذه الآفات، فهم لا يجرؤون على السير أمام بيتك، لكنك يجب ألا تجلسي لفترة طويلة أمام النافذة أيضاً. لا لأنني لا أحبّ ذلك، بل لأني أخشى أن يكون أحد المعجبين بك فظاً وعنيفاً، فلا تزال عيني اليسرى مكدومة لأن أحدهم ضربني... لماذا لا تكتبين لي؟ ألم أقنعك بأنه يمكنك أن تثقي بي؟ ما المشكلة التي يمكن أن تواجهيها إذا ما كتبت لي بضع كلمات مشفّرة؟ ولا تكتبي الرسالة بخط يدك لكي تتمكني من إنكارها عندما تريدين...». حاولت سارا أن تبحث عن شاب عينه اليسرى مكدومة، لكنها لم تجد دارا، بل رأت عدّة نساء ذوات عيون أو خدود مكدومة نتيجة ضرب أزواجهن لهن.

كانت قد فقدت الأمل تماماً، عندما أحسّت ذات يوم، وهي تقترب من بيتها، أن قلبها قد بدأ يخفق فجأة، وبدأت ركبتاها تشعران بالوهن. كانت تسير نحوها. عين يسرى ذات كدمة سوداء واضحة تحتها. مستثارة ومحرجة، نظرت سارا في الاتجاه الآخر، حتى أنها فكرت بأن تستدير وتسير في الطريق الآخر. عندما هدأت وتمالكت نفسها، التفتت ونظرت في وجه الشابّ ثانية. عرفته. كان أحد المعجبين الذين كانوا اعتادوا

الوقوف أمام بيتها ومضايقتها. كان يرفع إبهامه وخنصره ويضعهما على أذنه وكأنه يتحدث على الهاتف، ثم يشير إلى الجدار وراءه، حيث كتب بطلاء أحمر رقم هاتفه الخليوي، ورسم بجانبه صورة قلب يخترقه سهم.

اعترت سارا الصدمة وخيبة الأمل، وانتابها القلق من أن يكون هذا الشاب القبيح، السوقي، المبتذل، هو دارا أحلامها. وعندما رأى المعجب المزعج سارا أيضاً، استدار بسرعة ومشى بخطوات واسعة وسريعة في الاتجاه المعاكس. لقد هرب. تنفّست سارا الصعداء. تأكدت الآن من أن الرجل لم يكن دارا. وفي اللحظة الأخيرة قبل أن يستدير، لاحظت سارا عين الشابّ اليمنى. كانت تحتها كدمة سوداء أيضاً.

«مرحباً سارا،

«أشكرك لأنك كتبت تلك الرسالة من جملتين. لقد تشرّفت بها، لكنها أنهكتني حقاً. فعندما أخذت أفتّش في كلّ صفحة من صفحات رواية «الحرب والسلام» لأجد الأحرف التسعة والخمسين التي وضعت عليها علامات، تورّمت عيناي، حتى ناتاشا لم تكن مؤذية مثلك. ولكي لا يتمكن أحد من اكتشاف رسالتك، مع أن هذا الأمر بعيد الاحتمال، محوت جميع النقاط وأعدت الكتاب إلى المكتبة؛ تماماً كما أمحو جميع النقاط من الرسائل التي كنت قد أرسلتها لك. إن الحياة ليست جميلة جداً هذه الأيام. فقد لا أتمكن من الكتابة إليك أو حتى أن أراك بعد الآن فقد كنت في السجن، وأطلقوا سراحي شريطة ألا أغادر المدينة. ويجب أن أذهب وأريهم نفسي وأوقّع مرة كلّ أسبوع. في هذه الأيام، كلما أقسمت بأنني لن أعود للانخراط في أي نشاط سياسي، ازداد ارتيابهم بي. حتى إنني اعترفت لهم بأنني وقعت في غرام فتاة وقد أصبحت أمقت جميع الإيديولوجيات، لكن . . . كالعادة، أتمنى لك السعادة. . .».

كانت هذه آخر رسالة فكّت سارا رموزها من صفحات كتاب «عدو الشعب» لإبسن، وكان هذا الكتاب مخبأً أيضاً بحرص شديد وراء كومة من الكتب المغبرّة. لكن سارا لم تعد ترى أي إشارة أو نقطة من دارا. . .

اختفى دارا.

شيء ما ضاع من حياة سارا. أحست بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. وقرأت عدداً من الروايات والقصص أكثر مما قرأته من قبل. قالت لنفسها إن دارا قد قرأها أيضاً، أو إنه يقرأها الآن. وعلى غير عادتها، راحت تتطلع في وجوه الناس في الشارع؛ وشعرت بأنها بدأت تحبّهم لأن أحدهم قد يكون تكلّم مع دارا أو ربما كان يعرفه. كانت تنظر بصورة خاصة إلى وجوه الباعة المتجولين في الشارع، لكنها لم تر أي علامة مألوفة في عيونهم. كانت تفكر أحياناً بأنه ربما كان لدارا نوع من الإعاقة الجسدية. وكانت تقول لنفسها أحياناً إن دارا قد خدعها، فلو كان أي شخص آخر لكشف عن نفسه ولو لمرة واحدة. إلى أن جاء ذلك اليوم الربيعي، أمام مدخل جامعة طهران الرئيسي، على هامش التظاهرات الطالبية الحماسية، قدّم دارا نفسه لها وهكذا بدأت مغامرتهما. . .

قبل عدة سنوات من أول لقاء بين سارا ودارا، كان لي الشرف بأن ألتقي بالسيد بيتروفيتش. في تلك الأيام، كنت كاتباً شاباً أمضى سنوات عمره منعزلاً يقرأ الروايات والقصص بعناية. حتى إنني انتزعت أساليب وتقنيات جميع أنواع الكتّاب الكلاسيكيين والحديثين من كتبهم، وسجلت ملاحظات عنها في عدد كبير من البطاقات. ثم خلصت إلى نتيجة مفادها أنه يجب أن تكون لكلّ كاتب نظرته إلى العالم وفلسفته الخاصة به.

لذلك قرأت ما استطعت من كتب الفلسفة. ولكي أتمكن من تحليل شخصياتي جيداً، قرأت كتباً تعادل شهادة جامعية في علم النفس. وكنت

أحمل فرويد ويونغ وأتباعهما بيد، وبافلوف وأتباعه باليد الأخرى، حتى وصلت إلى علم النفس الأميركي. ثم قلت لنفسي إن الكاتب العظيم لا يصبح كاتباً عظيماً ما لم يكن واسع الاطلاع في التاريخ والسياسة في العالم. لذلك، كمسؤولية اجتماعية وأدبية، وبالرغم من ذعر أسرتي، اخترت أن أدرس في الجامعة مادة العلوم السياسية. وقبل أن أغادر شيراز إلى طهران وجامعة طهران، أخذني أبي، الذي كان رجلاً عصامياً غنياً، جانباً وقال:

«انظر يا بني، ليس لديك مستقبل في العلوم السياسية. إذ إن أفضل الوظائف التي يمكن أن يحصل عليها خريجو العلوم السياسية هي في وزارة الخارجية، لكن مناصب كالسفراء والمديرين العامين والوظائف الأخرى مخصصة لأقرباء الشاه وحاشيته. حتى إنهم لن يعينوك مجرد كاتب».

كان أبي محقاً تماماً، ولهذا السبب اختلفت معه.

ومضى يقول:

«والأهم من ذلك، أنك إذا درست العلوم السياسية، ولأنك شخص عاطفي جداً، فثمة إمكانية كبيرة بأن ينتهي بك الأمر بأن تلتحق بإحدى الجماعات السياسية المناوئة للحكومة، وقد تصبح شيوعياً، وتشارك في حرب العصابات، وينتهي بك الأمر أن تقع في قبضة الشرطة السرية. وإذا أطلقوا سراحك، هذا إذا لم تُعدم أو يُحكم عليك بالسجن المؤبّد، وبسبب البطاطا المسلوقة الحارة وقناني الكوكا كولا التي سيحشرونها في مؤخرتك، فإنك ستسير في الشوارع مخبولاً طوال حياتك... اذهب إلى أميركا، ادرس الهندسة أو الطبّ لترفع رأس عائلتك وبلدك».

في ذلك الوقت، لم يكن بإمكاني أن أقول لأبي إنني لم أكن أريد أن

أصبح شيوعياً، ولم أكن أريد أن أصبح سفيراً. . . لذلك، خلافاً لنصيحته، ذهبت ودرست العلوم السياسية. كنت أريد أن أدرس لأحصل على درجة الدكتوراه، لكن الثورة جاءت أولاً، ثمّ جاءت الحرب، وأنا الذي كنت أريد أن أصبح كاتباً عظيماً قلت لنفسي إن العديد من الكتّاب العظماء في العالم شهدوا حروباً، لذلك ذهبت لأداء الخدمة العسكرية وتطوّعت للذهاب إلى الجبهة. كانت أولى نتائج الحرب العراقية ـ الإيرانية ملايين القتلى والجرحى والمعوقين، وكانت النتيجة الثانية أننا أدركنا بعد انتهاء الحرب وعقد السلام مباشرة أننا بلدان إسلاميان، لذلك فإننا إخوة. ويبدو أن الحرب كانت تريد أن تقدم للعالم أيضاً كاتباً عالمياً عظيماً آخر، ولهذا السبب، وبعد ثمانية عشر شهراً، أعادتني إلى موطني، شيراز، حيّاً سالماً. وأنا الذي كنت أمضي جلّ وقتي، حتى عندما كنت في الخنادق، في قراءة الروايات الآتية من أكثر أصقاع العالم بعداً، مثل «الروح المفتونة» و«ديفيد كوبرفيلد»، و«الطاحونة الحمراء»، و«البعث»، و. . . و. . . ولم أتوقف عن مزاولة الكتابة، وكنت مسلحاً وجاهزاً لكتابة تحفتي الأدبية الأولى لكي أقدمها إلى العالم.

اسألوني:

هل كلّ ذلك مديح ذاتي، كما يحدث مع الكتّاب المغرورين الآخرين، فقط لتدّعي أنك كاتب عظيم؟

وسأجيبكم:

إنكم مخطئون للمرة الثانية. فأنا لم أقل كلّ ذلك لأوحي لكم بأنني كاتب عظيم. لقد قلت ذلك لأوضح لماذا لم أصبح كاتباً عظيماً. بمعنى آخر، أريد أن أقول إنني كنت مجرد شابّ آخر أحمل آمالاً عظيمة لمستقبلي ككاتب. وفي عام ١٩٩٠، غمرتني السعادة عندما علمت أنه

بناء على نصيحة هوشانج غولشيري، أحد كبار الكتّاب في إيران، وافقت دار نشر محترمة على نشر مجموعتي القصصية القصيرة الثانية بعنوان «اليوم الثامن للأرض». كنت أجلس كلّ يوم أنتظر سماع رنين الهاتف لأسمع صوت ناشري يخبرني بأنّ كتابي قد طبع. انتظرت قرابة السنة، حتى جاء ذلك اليوم الذي سمعت فيه صوته أخيراً على الهاتف.

«شهريار! إننا في ورطة حقيقية! لقد خُرب بيتي... إن وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي تشتكي من وجود ثلاث عشرة نقطة في كتابك ـ تتضمن جميعها كلمات وعبارات جنسية... يجب أن تأتي إلى طهران بسرعة. لقد ارتكبت خطأ كبيراً عندما قبلت أن أنشر كتاباً لكاتب شاب. لقد ضاع رأسمالي... لقد خُرب بيتي!».

تساءلت، متى كتبت قصصاً جنسية؟ لكني لم أجد جواباً. لذلك، ركبت الحافلة بسرعة وتوجّهت إلى طهران. إن الطريق بين شيراز وطهران الذي يبلغ طوله ستمائة ميل يمر من أمام أطلال لبيرسيبوليس القديمة التي يعود تاريخها إلى خمسة آلاف وخمسمائة سنة، ويمر من أصفهان، إحدى أجمل المدن الإيرانية التي كانت عاصمة الأسرة الصفوية قبل حوالى خمسمائة سنة، وتمرّ من أمام مدينة قم الدينية، المركز التعليمي الذي يخرّج رجال الدين، ويمرّ من أمام صحراوين كبيرتين أيضاً. في أثناء اللّيل، عندما كان سائقا الحافلة المدمنان على الأفيون يبدلان نوبتيهما في بقعة ما عند مفترق بين الصحراوين، كان لدي وقت كاف لحساب عدد صفحات الكتاب التي يجب استبدالها لتنقيح ثلاث عشرة جملة في ثلاث عشرة صفحة مختلفة. وخلصت إلى أنه يجب استبدال مائة وتسعين ألف صفحة.

ستقولون:

لا تسخر منا! مثل جميع الكتّاب السيئين الذين تصبح كتب بعضهم من

أكثر الكتب رواجاً، فإنك أيضاً تعتبر أن قرّاءك أغبياء! ما هذا؟ أنت الذي تدّعي بأنك أعددت وسلّحت نفسك لتصبح كاتباً عظيماً، ألا تعرف شيئاً عن الرياضيات؟

في واقع الأمر،لم أدرس الرياضيات فقط، بل حشوت رأسي كذلك بنظرية آينشتاين في النسبية التي كتبها راسل. لذلك أنتم الذين بحاجة إلى تعلم الرياضيات. . . انظروا هنا!

في الأيام الأولى التي أعقبت الثورة، أصبح يتعين على الناشرين أن يحصلوا على تصريح للسماح بإخراج الكتاب من المطبعة بعد طباعته. وكان قد تم طباعة وتجليد ثلاثة آلاف نسخة من هذا الكتاب المنكود، تنتظر تصريحاً لتتمكن من مغادرة أبواب المطبعة. وكان ناشري قد أوضح لي أنه من أجل تغيير كلمة واحدة أو جملة واحدة في صفحة واحدة، يجب استبدال ست عشرة صفحة من الكتاب، لأن الكتاب يُطبع في ملازم تتكون من ست عشرة صفحة. ولتنقيح ثلاث عشرة عبارة جنسية، يجب انتزاع أربع ملازم يتألف كل منها من ست عشرة صفحة من الكتاب.

أربع صفحات ضرب ست عشرة صفحة يساوي أربعاً وستين صفحة. الآن أربع وستّون صفحة ضرب ثلاث آلاف صفحة.

جاء دوركم في الحساب الآن. حتى من دون حساب كلفة الحبر ورواتب العاملين في المطبعة، قدّروا كمية النفط التي يجب استخراجها من باطن أرض وطني المحبوب، لتباع بدولاراتها النفطية وتُرسل إلى البرازيل لشراء الورق، واحسبوا عدد الأشجار في البرازيل التي يجب أن تضحّي في سبيل صناعة كل هذا الورق.

إن الكتاب الذي يمكن أن يلحق كلّ هذا الضرر بالطبيعة، سواء أكان عملاً رائعاً أم تافهاً، هو عمل قاتل.

الآن بدأت أفهم السبب الذي ألهمني لأن أضع عنواناً للكتاب «اليوم الثامن للأرض»، والآن بدأت أفهم لو أن الله لم يتوقف ليستريح بعد أن خلق العالم، ولو بذل جهداً في كتابة قصص وروايات بنفسه بدلاً من ذلك، لما لحق ضرر شديد بجمال الطبيعة التي خلقها.

في جميع الأحوال، في يوم من أيام الخريف، عندما كان الهواء في طهران مزيجاً من أوّل أكسيد الكربون، ورائحة المطر، وعطر خلّفته فتاة سيُطلق عليها بعد سنوات اسم سارا، صعدت، بكلّ طموحاتي، وجلست في المقعد الخلفي للدراجة النارية المتهالكة التي يقودها ناشري، وتوجّهنا معاً إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. كانت الأمطار قد توقفت عن الهطول.

كان الوحل يتناثر ويتطاير علينا من عجلات السيارات المارة. اجتزنا جامعة طهران. لم تكن هناك تظاهرات أمام مدخلها الرئيسي، لأن الطلاب المناهضين للحكومة كانوا قد طُهّروا آنذاك، وكانت الجامعة لا تسجّل إلا الطلاب المفضّلين الذين سيصبحون بالطبع، لاحقاً، معارضين للحكومة أيضاً.

في رحلتنا المحفوفة بالخطر عبر غابة حركة السير المرعبة في طهران، لم يتوقف ناشري عن ترديد أنه لو كان ينشر كتباً إرشادية للشبان حول أساليب النجاح في الامتحانات، وخاصة للقبول في كليتي الهندسة والطبّ، بدلاً من قيامه بنشر كتب أدبية دعماً لكتّاب القصة الشباب الأغبياء، لأصبح غنياً الآن، وأنه بدلاً من أن يركب دراجة ياماها عمرها عشر سنوات، لكان من الممكن أنه يقود سيارة مرسيدس جديدة الآن.

ورحت أقول لنفسي إنني بدلاً من كلّ هذا الجهد المضني في كتابة الأدب، لو أنني استمعت إلى أبي ودرست الهندسة أو الطبّ في الولايات المتحدة، لكنت أقود الآن سيارة بورش بدلاً من ركوبي الآن في المقعد

الخلفي لهذه الدراجة النارية المتهالكة، ولتوقفت أمام مكتبة هذا الناشر، وأدخلت السعادة إلى نفسه، واشتريت الكتب القيّمة التي لم تلق رواجاً لأضمها إلى مكتبتي الخاصّة. لكن الحقيقة هي أنني بدأت أشعر بالخجل، لأن اكتشاف ثلاث عشرة عبارة جنسية في كتاب واحد يتألف من مائة صفحة، ليس إثماً يستهان به في بلد إسلامي. وأخيراً، ومثل أفكار من رواية «آباء وأبناء» و«الجريمة والعقاب»، وفي أحد المكاتب في مبنى مقر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي الضخم المهيب، مثل نسختين من جوزيف ك. جلسنا أمام السيد بيتروفيتش.

كان السيد بيتروفيتش، يجمع بين وظيفة مخبر، ووظيفة قاض في محكمة الجنايات، مهيباً للغاية، جالساً وراء طاولة مكتب كبيرة. كان في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، وله عينان ثاقبتان، ولحية قصيرة مشذّبة بعناية. أمر سكرتيره بأن يجلب ملف «اليوم الثامن للأرض». وخلال الدقائق الثلاثين التي استغرقها إحضار الملف، أخذ السيد بيتروفيتش يناقش التقدّم الذي حصل في تكنولوجيا الطباعة في الغرب والسرعة التي أصبحت تتميز بها آلات الطباعة الكبيرة، مع رجل ملتح متوسط العمر يجلس في كرسي ذي مسند بجانب طاولته. كان هدوء الرجل المتوسط العمر يبدي أنه شخص مهم يكنّ له السيد بيتروفيتش احتراماً كبيراً. في تلك اللحظة، تمنّيت بحماقة أن يغادر الرجل قبل أن يُفتح الملف الذي يحتوي على العبارات الجنسية على تلك الطاولة. لكن من حسن الحظ، أنه لم يذهب.

قدّم السيد بيتروفيتش ورقة إلى ناشري تضم قائمة بأرقام الصفحات والسطور التي تُعتبر ذات إشكالية. ومثل أب رأى مولوده الجديد للمرة الأولى، ألقيت عيني على كتابي. لكن، مثل أب داكن البشرة رأى فجأة

أن طفله المولود أبيض البشرة، اعترتني الصدمة أيضاً. ولم يكن لكتابي غلاف أيضاً.

كانت الجملة الأولى التي وضع تحتها خط باعتبار أنها تحتوي على معانٍ مثيرة جنسياً:

«انتقلت عيناي من وجهها إلى عنقها، ثم هبطتا إلى الأسفل قليلاً، وانتابني شعور بالاشمئزاز لأن ثدييها لم يوقظا فيّ...»

ربما حسبت أن الجملة تنطوي على معان جنسية. اسألوني إن كان الثديان عاريين، وسأقول لكم لا. فهذه الجملة ترد في قصّة قصيرة بعنوان «خميس سارا». ففي القصّة، أصيب ضابط شاب بشظية في الحرب وأصيب بشلل من وسطه حتى جزئه الأسفل، وكما كان يفعل في أيامه ولياليه الأخرى، كان يستلقي على السرير في بيت أمّه. كانت الأمطار تهطل، وخطيبته الحزينة التي جاءت لتزوره تقف بجانب النافذة وترسم خطوطاً على الزجاج المغبّش بالبخار. كان الحبل الشوكي للرجل قد قُطع، وكان قد قال لخطيبته إن علاقتهما قد انتهت. لكن خطيبته، وهي ممرضة تعمل في مستشفى للأمراض العقلية، لا تتوقف عن زيارته كلّ يوم خميس، وتحدثه عن فتاة اسمها سارا ـ أول ظهور لسارا في قصصي. وسارا هذه فتاة مفعمة بالحيوية، فتاة لعوب تستطيع أن توقظ شجاعة أيّ رجل ليقع في حبها. لكن يبدو أنه لا توجد لدى سارا ذاكرة. وفي كلّ يوم خميس، كانت الممرضة تحكي لخطيبها المشلول قصة من مغامرات سارا. وفي نهاية قصتي، يساور الشابّ الشك إن كانت سارا موجودة حقاً، أم أنها كانت موجودة فقط في مخيلة خطيبته، وأنها في الحقيقة، لم تكن تحكي إلا عن أحلامها الضائعة...

في ظل هذه الأجواء، ينظر الرجل إلى وجه خطيبته، وعنقها، وجذعها.

وهكذا بدأ النقاش بيني وبين السيد بيتروفيتش. قلت:

«سيدي. ما الشيء الجنسي في هذه الجملة؟ إنها على العكس تماماً. فالرجل مشلول، وقد فقد رجولته. ولهذا السبب فإن رؤية ثديي خطيبته يثير اشمئزازه... أرجو أن تنتبه إلى عبارة «يثير اشمئزازه». من في العالم ستثيره قراءة هذه القصّة الحزينة ووصف مشاعر بالاشمئزاز؟».

كان للسيد بيتروفيتش رأيه الخاص، وكان حساساً للغاية لكلمة «ثدي». وفي الجملة التالية، في قصّة أخرى، ورد فيها شيء على النحو التالي:

... «بغتة، وكأن العطش والقيظ الشديد قد أفقدا المرأة عقلها، فراحت تمزّق ثيابها بعنف وتصبّ الماء المتبقي في الإبريق على رأسها ـ الكمية الوحيدة المتبقية لهما في الأيام القليلة القادمة ـ وكان زوجها، الذي أوهنه جفاف الماء في جسده، ممدداً في زاوية الكوخ، وراح يراقب بنظرات بليدة قطرات الماء المتساقطة من بين تجاعيد وثنايا فخذي امرأته الشاحبين، وهي تتساقط على الأرض العطشى...». بنظرة لوم وتأنيب، قال السيد بيتروفيتش: «وماذا عن هذه؟ أليست حقاً مشهداً حقيراً وقذراً؟».

وكما لو كنت أدافع عن حقوق المرأة في رواية هوثورن «الحرف القرمزي»، وبحماسة وبحدس أدبي، بل في الواقع بحدس قانوني، رحت أدافع عن كلّ كلمة وردت في تلك القصّة، فقلت:

«سيدي الجليل، لقد قرأت القصّة. هناك جفاف. هناك شح في الماء في هذه القرية الجنوبية. وقد أصاب الناس ما أصابهم من البؤس والموت. وذات ليلة، انتاب جميع أهالي القرية الكابوس ذاته، كابوس أسود كالقطران. وقد حدث ذلك في الليلة التي نجح فيها الانقلاب الأميركي في طهران، وألقي القبض على مصدّق بسبب الجريمة التي ارتكبها لأنه أممّ البترول، وأصبحت عودة الشاه إلى البلاد وشيكة. الأهم من ذلك، فإن عمر المرأة في القصّة لا يقل عن الستين سنة...» إني

أعتذر لجميع السيدات الجميلات ممن هن في الستين من عمرهن. وفي تلك الأيام، لم تكن هناك مواقع على الإنترنت يمكن فيها إرسال صور عن أجمل عشر نجمات في هوليوود وأكثرهن إثارة اللاتي يتجاوزن الخمسين سنة من العمر.

بدون هوادة، رحت أناقش:

«سيدي تخيّل التجاعيد في جلد جاف، والخطوط البيض تحت بشرة ذاوية، والأقذار والأوساخ التي لم تُغسل منذ شهور... مليئة بالدهن، خشنة... ما الشيء الجنسي في كلّ هذا؟ وتُشبَّه المرأة الجميلة الوحيدة في القصّة، كما قرأت، بزهرة ولم يرد أي وصف لوجهها أو هيئتها». من دون أن يقتنع، قال السيد بيتروفيتش:

«لا أفهم لماذا تصرّون أنتم معشر الكتّاب على تصوير مثل هذه المشاهد القذرة وتقدمونها إلى خيال القارئ».

«سيدي. لا يتعلق الأمر بالإصرار، بل إنها الحياة. صدقني، لكي تجعل القصّة مقنعة وقابلة للتصديق، يجب أن تصوّر الشخصيات الواردة فيها، وإلا فلن يصدقها القارئ... لقد قرأت أنت نفسك كيف أن موقع القرية موصوف بالتفصيل، وقد صوّرت الصحراء المحيطة بها في جمل عديدة، حتى الحيوانات والرجال».

«حسناً، لم أقل مطلقاً إننا ضدّ الأوصاف. إن ما نقوله هو أنك يجب أن تصف محاسن الطبيعة، مجد السماء والمجرة، أي جميع مظاهر الجمال التي خلقها الله. وإذا كتبت عن هذه الصور، فستكون مباركاً في يوم الآخرة أيضاً، لأنه إذا كان قراؤك أذكياء، فإنهم سيكتشفون من كتاباتك عظمة الله وسيقوّي ذلك من إيمانهم».

فقلت:

«سيدي، ليس ذنب الكاتب إن كانت هناك أشياء قبيحة أيضاً ونساء غير

مستحمّات في هذا العالم. . . وبالمناسبة، ألسن هن أيضاً مخلوقات الله؟».

حدّق السيد بيتروفيتش فيّ، وكأن حاجبيه المقطبين يقولان، لقد بدأت تصبح أكبر من حجمك. وبدا أن عينيه الغاضبتين تقولان، إن كلامك يسبق لسانك».

لكن ربما لأنني كنت كاتباً شاباً، لم يشأ أن يدفعني نحو المعسكر المعادي للثورة، فكتم غيظه وتابع قوله:

«حسناً، في هذا المقطع، لو أنك لم تصف جسد المرأة، لما شاب قصّتك أي عيب».

«على العكس. أظن أن المشهد الذي تتساقط فيه قطرات الماء على التراب صورة أدبية جميلة. أظن أن القصص تكتب لتخلق مثل هذه الصور».

«في واقع الأمر، إن هذه الأوصاف الطويلة تجعل القصّة مملة ومضجرة. ففي القصّة، يجب أن تتوالى الأحداث الواحدة تلو الأخرى. فقد كان عليك مثلاً أن تكتفي بكتابة: أفرغت إبريق الماء فوق رأسها».

«هذا غير ممكن يا سيدي، لأن القارئ لن يعرف أن المرأة قد فقدت عقلها».

«حسناً، إنك تريد حقاً أن تري في قصّتك أن المرأة قد فقدت عقلها».

«سيدي، إن نوعي الجنون مختلفان تماماً. ففي القصص الضعيفة، تفقد الشخصيات عقلها بدون منطق ومن دون إحساس أدبي، وعندها سيبدو كأنّ جميع العظام في القصّة مكسورة. ولكي نكتب قصّة جيدة، يجب أن نظهر أن الشخصيات التي تفقد عقلها، تفقد عقلها لسبب منطقي. . .».

خرج السيد بيتروفيتش من الغرفة، ثم عاد وهو يمسك كأس ماء مليئة بالثلج. ولإطفاء لهيب غضبه، جرعها مرة واحدة.

إن السيد بيتروفيتش ليس وحيداً في ذلك. إذ يتملك الكثير منا، نحن الإيرانيين، غضب شديد إذا ما قام أحد بتعليمنا شيئاً لا نعرفه. لكن شدة حماستي للدفاع عن قصصي جعلتني لا أدرك آنني أصبحت عدوانياً وجارحاً. ثم انتقل جدالنا إلى عبارات أخرى وردت في الكتاب، كانت فيها أيضاً إما كلمة «ثدي» أو عبارات استخدمت لوصف جمال أو قبح شفتي أو ذراعي أو فخذي امرأة... في تلك اللحظات، كان العرق يكسو وجهي، ورحت أحلف بالله وبالنبي بأن القارئ الذي يفهم هذه القصص لن تثيره هذه الأوصاف جنسياً على الإطلاق، وأنه إذا كان هناك شخص يبحث عن الإثارة، فمن الأفضل له أن يبحث عنها في مكان آخر. وأقصد بدلاً من أن يقرأ كلمة «ثدي»، يمكنه أن يخرج إلى الشارع حيث توجد الكثير من الأثداء والأفخاذ...

وبعد ساعة من المناقشة الحامية الوطيس، لم أقتنع أنا، ولم يقتنع السيد بيتروفيتش. وأخيراً، مضجراً ومنهكاً، قال السيّد بيتروفيتش الذي ربما كان لا يزال لا يريد أن يحطم فؤاد كاتب شاب:

«لا.. مهما قلت، يجب أن تأتي بعشرة تبريرات لها»، وبدون ترو واضح، انطلق قائلاً:

«كمراقب نزيه، لنأخذ رأي هذا الرجل المحترم».

وقدّم كتابي إلى الرجل المحترم الوقور، الذي يحتوي على الجمل التي وضع تحتها خط.

«كقارئ نزيه، احكم أنت بيننا».

بدأ الرجل المحترم الوقور يقرأ السطور الثلاثة عشر السيئة السمعة، بجدية وإمعان... مرت عشر دقائق... خمس عشرة دقيقة. كان قلبي يخفق بقوة في صدري. كنت أعرف أن لحظة إطلاق الحكم باتت وشيكة.

كانت قطرات العرق، مثل قطرات الماء التي كانت تتساقط من ثنايا فخذ متغضنة تسقط على الأرض. كان الناشر لا يزال جالساً بهدوء ووداعة، ثم عاد الرجل المحترم الوقور ليقرأ ثانية من الجملة الأولى... مرت ثلاث وعشرون دقيقة... لم أفهم ماذا كان يفعل بالأثداء والأفخاذ الواردة في قصّتي... وخلال كل ذلك، كان السيد بيتروفيتش جالساً ينظر إليّ بزهو المنتصر. ذاب الثلج في كأسه... مرت نصف ساعة... وأخيراً بدأ الرجل المحترم الوقور يتكلّم:

«ماذا يمكنني أن أقول... ليس من السهل الحكم... في جميع الأحوال، ربما... لا أعرف... ربما بالنسبة للرجال في عمرنا فهي ليست مثيرة، أما بالنسبة للشباب... ماذا يمكنني أن أقول؟».

فقلت باندفاع:

«سيدي المحترم، إنك لا تزال شاباً. فهل أثارتك حقاً هذه الجمل؟».

كانت تلك إحدى اللحظات النادرة في حياتي التي كنت فيها ذكياً فطناً... كان من الواضح أن الرجل المحترم الوقور، حتى لو كان قد استثير جنسياً، فإنه لن يستطيع أن يعترف أمام ثلاثة رجال بأن قراءة بضع جمل قد أثارته جنسياً. لذلك قال:

«لا».

فقلت بدوري للسّيد بيتروفيتش:

«أترى يا سيدي...».

الآن، وفي جو مفعم بالتفاهم المتبادل، استمرت مناقشتنا لمدة عشرين دقيقة أخرى. ووافق السيّد بيتروفيتش على ألا يحذف بعض الجمل، ولم أشأ أن أستسلم في بعض الجمل الأخرى، لكن ناشري همس في أذني وقال إنني تماديت كثيراً، وإنه يجب عليّ ألا أغضبه أو أرهقه أكثر من ذلك.

غادرنا مبنى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. صعدت وراء ناشري على دراجته النارية وانطلقنا. بدأت قطرات صغيرة من الماء تتساقط من أفخاذ الغيوم المتغضنة فوق طهران وتهطل على وجهينا. كان سائقو مئات الدراجات النارية والسيارات التي تلوّث الجو بدخانها يطلقون زماميرهم، وكان أحدهم يلعن ويشتم الآخر.

أما على الأرصفة المكتظة بالبشر، فكان الناس يمضون في سبيلهم لقضاء حاجاتهم وصداعهم اليومي. ولم يكن أحد منهم يعير اهتماماً لمرور دراجة نارية تصدر صوتاً صاخباً يقودها أحد كبار الناشرين وأكثرهم تقديراً، ويركب وراءه أحد أعظم الكتّاب في المستقبل في بلدهم. ففي تلك الأيام، كان الكثيرون من الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة يضطرون لاتخاذ عملين لتدبر أمورهم المعيشية، ولم يكن أحد منهم يبدي أي اهتمام إذا ما ورد في مشهد في إحدى القصص، أن رجلاً انتقلت نظراته من ثديي خطيبته أم لا، أم أن رجولة رجل كانت سليمة أم لا، أو حتى إن كان يوجد لخطيبته ثديان أم لا. لذلك، أخذت ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب تتقلص أكثر وأكثر. لكني مع ذلك، كنت أشعر وكأني فقدت جزءاً من روحي، أو كأن أجزاء من جسمي قد تعرّت، ويحدّق فيها الآخرون، وتُقطّع إرباً. قلت للناشر:

«لقد سامحنا السيد بيتروفيتش بثلاثة أثداء وفخذين».

لم يجب، ولكي يتحاشى الازدحام، انعطف إلى شارع فرعي. لعله كان يتساءل في سريرته لماذا لم يكن ينشر كتباً تعليمية دينية أو كتباً عن عقائد ومبادئ الإسلام للعامة سيشتريها ملايين الأشخاص الذين يبحثون عن وظائف حكومية، والذين يرغبون في الالتحاق بالجامعة، للتحضير للأسئلة المتعدّدة الاختيارات لاجتياز اختبار المبادئ الإسلامية، بدلاً من أن ينشر كتباً لكتّاب شباب يثيرون له المشاكل.

لو كان ذلك حقاً ما يفكّر به، فعليّ أن أفكّر أنا أيضاً: فبالإضافة إلى ملايين الأشخاص الذين يبحثون عن وظائف، والشبان الراغبين في دخول الجامعة، وآلاف من أتباع حزب تودة الشيوعي الذين سيشترون هذه الكتب وسيحفظونها عن ظهر قلب بدقة أكثر من أي شخص غير شيوعي ليتمكنوا من التسلل إلى المكاتب الحكومية والجامعات.

تجاوزنا بناية عالية حديثة جميلة تضم في بنائها مزيجاً من عناصر الهندسة المعمارية اليونانية القديمة والهندسة الإيرانية من القرن السابع عشر. وفجأة توقّف هدير الدراجة النارية، وأخذ الناشر المصعوق يلعن قطرات المطر. ترجلنا عن الدراجة، وبدأ يعبث بمآخذ الإقلاع.

بالقرب من الدرج الأمامي للبناية العالية ذات الواجهة التي تعود إلى فترة ما بعد الحداثة، كان يجلس على الرصيف بائع متجول يرتدي ثياباً تشبه ملابس تعود إلى ثمانمائة سنة ويضع أمامه صندوقاً. نحن الإيرانيين معتادون على رؤية مثل هؤلاء الأشخاص، الذين توجد في صناديقهم طلاسم وتعاويذ تجعل العدو أخرس... ومحلول تصبّه أمام باب خصمك كي لا ينبعث منه صوت ضحكة ثانية... وبيض أفعى لكي يقع أحدهم في الحبّ... وفرج أنثى الضبع يُمزج بعظام جيفة عمرها مائة سنة وتُقدم للزوج لكي لا يفكّر بالزواج من أخرى... وقصاصات ورق كتبت عليها تعاويذ ورقى بخطوط غريبة تُنقع في الماء للشفاء من الأمراض... خواتم لتصبح غنياً... رفع البائع المتجول رأسه. التقت عينانا. قلت لنفسي، ذات يوم سأكتب قصّتك أيضاً، وسمعت صوته عميقاً في مكان ما في أذني، يقول اكتب! يوجد عندي أيضاً مسحوق خصية فيل هندي تذاب في محلول غانيشا، والكاتب الذي يشربه يفوز بجائزة نوبل... وإذا فزت بها، اكتب في قصّتك أن هذه المحاليل

والرقى والتعويذات الطبية التي يصفها العرّاف جعفر بن جعفري فعالة أكثر من كلّ تلك التي يصفها العرّافون الآخرون. . .

وبأعجوبة دار محرّك الدراجة النارية ثانية، فركبنا. وبدأنا نبتعد عن بائع الطلاسم والتعاويذ. التفت إلى الوراء ورحت أحدّق في درب نظرته المظلمة وقلت لناشري: «لم يكن الأمر سيئاً. . . ثلاثة أثداء وفخذان. . .»

لم يبد ناشري أيّ بهجة. مررنا من أمام مستشفى تابع لجامعة طهران، عُلِّقت فوق مدخله الرئيسي راية ضخمة طولها ثلاثون قدماً وعرضها ستّ أقدام، كُتب عليها بخط يدوي جميل بأحرف كبيرة:

حلقة دراسية طبية حول أسباب سرطان الثدي والوقاية منه

لنعد إلى جامعة طهران. . .

~~لا يزال الطلاب يتعرضون للضرب. . .~~

لا، لن تروق للسيد بيتروفيتش هذه الجملة على الإطلاق. بل الأكثر من ذلك، فهي ليست مثيرة من وجهة نظر الأدب الإيراني، لأنه في بلادي، منذ أن أسست أول جامعة، كان الضرب والزج في السجن مادة من المواد الرئيسية بالنسبة للطلاب. . . لذلك، سأعود إلى قصّتي: دعونا نعد معاً إلى ذلك اليوم الربيعي الجميل في شارع الحرية. . .

تتواصل الجهود التي تبذلها شرطة مكافحة الشغب لتفريق الطلاب. لا تزال هناك ثلاث دقائق وثلاث ثوان تماماً حتى اللحظة التي ستلقى فيها سارا على الأرض ويرتطم رأسها بحافة الرصيف الإسمنتية. وللتهرب من وجه ذلك الأحدب السرمدي المرعب، تقترب بضع خطوات من المنطقة التي يسودها الهرج، وهي لا تعرف أنها اقتربت بضع خطوات أخرى من موقع موتها. ترفع سارا التي لا تزال عيناها مغرورقتين بالدموع، يافطتها التي تحمل الشعار الغريب إلى الأعلى، فتجذب انتباهاً أكبر وخطراً

أعظم. في إيران، يجلب أيّ عمل، أو إبداع، أو حتى فنّ لا ينطوي على أشياء مألوفة ولا يستند إلى تقاليدنا أو إلى ما يدعى بتقاليدنا المعاصرة، أشد أنواع التهديدات، والهجمات، والكراهية من جميع الجبهات. وفي هذه اللحظة بالذات، تسمع سارا ثانية:

«سارا! غادري هذا المكان...».

غاضبة من مضايقة الأحدب لها، تنظر سارا مرة أخرى من وراء السياج. لا يوجد شيء هناك إلا جذوع أشجار الجمّيز القديمة وأشجار السرو في الحرم الجامعي... ثمّ تسمع:

«أنا دارا»

تنظر سارا إلى جانبها الأيسر وترى شاباً يقف على مسافة ثلاث خطوات منها متكئاً على الجدار الحجري القصير وينظر في الاتجاه المعاكس منها. يقول دارا، من دون أن يلتفت لمواجهتها:

«ماذا تفعلين؟ فكلّ شخص هنا ينتمي إلى فئة سياسية. وكل فئة تتربص بالفئة الأخرى. إنك وحيدة ومعرضة للخطر أكثر من أي شخص آخر...».

الآن بدأت قصّة الحبّ التي نرويها تقترب من نقطتها الأولى ببطء.

يتابع دارا حديثه مع سارا بطريقة لا يلاحظها أحد.

«أرجوك ألقي اللافتة من يدك. لنغادر هذا المكان».

سارا، المضطربة والمغرورقة عيناها بالدموع، لم تر بعد وجه دارا بوضوح. تراه يمرّ من أمامها. تدرك أنه عندما يمرّ من جانبها، يأخذ اليافطة من يدها ويلقي بها وراء سياج الجامعة. ثم تسمع:

«أرجوك إلحقي بي على مسافة»...

مندهشة، تبدأ سارا تسير على مسافة عشر خطوات وراء دارا. لم تكن تخشى أن تضيّعه بين الحشد، فهي متأكّدة من أنه يراقبها. يتركان وراءهما

الغضب والفوضى التي تعمّ شارع الحرية. غبار العفن والخراب من بسط الريح التي تحوم فوق سماء طهران. . .

وأخيراً، يتوقّف دارا أمام أطلال دار سينما كانت قد أُحرقت منذ سنوات، في أيام الثورة. تتوقّف سارا تلقائياً إلى جانبه. لدى دارا منديل جميل جديد كانت جدته المرحومة قد قدمته له كتذكار. لم يكن يعرف ما الذي يجعله يحمله معه دائماً. كلّ ما أعرفه هو أنه سيكون للمنديل دور في قصّتي، تماماً كما كان لبندقية تشيخوف المعلقة على الحائط. حافة المنديل الحريري الأبيض مطرّزة بورود حمر ناعمة. جفّفت سارا عينيها به، وفي هذه اللحظة الرائعة، وللمرّة الأولى، ترى وجه دارا. . . الذي هو في قصّتنا وجه رقيق ولطيف. جبهة عالية، حاجبان سميكان، عينان سوداوان كبيرتان، شفتان مقوّستان ظامئتان، أسنان تتلألأ مثل لآلئ قادمة من البحرين، وشعر أسود ذو خصلات تتدلى فوق حاجبيه.

إني أحاول أن أثيرك. إن دارا في قصّتي لا يشبه هذا على الإطلاق. لو كنتم مهتمين حقاً بتصوير وجهه، إذاً دعوا مخيلتكم تعمل. وكإشارة تلميحية، يمكنني أن أخبركم بأن وجه دارا في هذه الرواية وجه ضبابي غائم.

~~وللمرّة الأولى في هذا الكون، تلتقي عيناهما.~~

هنا بالذات أصادف، أنا الكاتب، بضع عقبات. وفي جميع الاحتمالات، وفي هذه اللحظة بالذات، ستتصاعد دقة السيّد بيتروفيتش الذي سيضع على الفور خطاً تحت عبارة «تلتقي عيناهما». وتتمثل مشكلتي الثانية في أنه حتى أمام أطلال السينما التي لا تعرض أيّ فيلم رومانسي، حيث تجري على مسافة بضعة شوارع تظاهرات سياسية، لا يستطيع فتى وفتاة إيرانيان ببساطة أن يقفا على الرصيف، ويحدّق أحدهما في عينيّ الآخر، فهناك احتمال كبير بأن تعتقلهما دورية من دوريات حملة مناهضة الفساد الاجتماعي.

إن مشكلتي المائة وواحد ـ لا أزال لا أعرف ما هي المشكلة الثالثة بعد المائة ـ تكمن في أنّ سارا ودارا لا يعرفان تلك السطور الاستهلالية للحوار الذي يدور عادة بين رجل وامرأة والذي يتشابه في جميع أنحاء العالم، وفي جميع قصص الحبّ المضجرة. وحتى لو كانا مطلعين على روايات دانييل ستيل وما يعادلها من القصص الإيرانية، فإن هذه الأحاديث المليئة بالكليشيهات ستبدو في هذه اللحظة مملّة وغبيّة... قد لا تصدقوني، فقد تُرجمت روايات عديدة من روايات دانييل ستيل إلى اللغة الفارسية وأعيدت طباعتها بالإضافة إلى الروايات الإيرانية التي تقلد أسلوبها عشرات المرّات في طبعات كبيرة. إني أريد حقاً أن ألتقي بدانييل ستيل ذات يوم وأن أسألها على الفور، ماذا فعلت للسيّد بيتروفيتش لكي يصدر تراخيص تسمح بطباعة رواياتك بعد حذف مشاهد التقبيل منها؟ ماذا لو كان السيد بيتروفيتش من الذكاء بمكان ليعرف أن مثل هذه الروايات تروّض المواطنين على أن لا يتساءلوا في أيّ شيء؟ أو لعلك اشتريت تعويذة من جعفر بن جعفري لتثيري مشاعر الطيبة في قلبه؟

سارا تريد أن تشتكي:

أين اختفيت فجأة؟

لكنّها لم تختف. وأكتب:

في هذه اللحظة الغريبة، كلّ كلمة، كلّ جملة، تبدو فارغة وسخيفة...

من المرحوم هنري جيمس، تغمد الله روحه برحمته، أعرف أنه من أجل تصعيد الطاقة المثيرة لقصّتي، يجب أن أقصر أبعادها على سارا أو دارا. وبغية احترام الصدق الروائي، يجب أن أتحدث عن الأفكار الخفية التي تدور في خلد تلك الشخصية ورغباتها. وإذا ما وقعت في هذا الفخّ،

فإني سأقع أيضاً فريسة للسيّد بيتروفيتش. لكني لا أريد حقاً أن أصوّر شخصية في قصّتي بشكل بارد أو أخفي عواطفها أو مشاعرها في عروق همنغواي وخلفائه الأمريكيين.

ماذا عليّ أن أفعل؟ في رأيك، ماذا يمكن للمرء أن يفعل بالكلمات التي تكون غبية أحياناً لدى كتابة مشهد بسيط عن شابّ وشابة ينظر أحدهما في عيني الآخر فوق أحد الأرصفة في أحد شوارع طهران؟ لندع الأمر لهذه الكلمات القديمة وأرى ماذا ستكتب هي نفسها.

بغتة، انطلقت من عيني سارا السوداوين صاعقة من الوميض الخاطف، وأشعلت النيران في حقول قمح روح دارا...

قلت إن الكلمات تصبح أحياناً غبية. ومنذ وفاة مدام بوفاري، تبدو هذه الجمل وكأنها تافهة بعض الشيء.

لنكتب:

أربعة مآق مثل أربع مرايا سود في مواجهة بعضها البعض...

أربع نوافذ مفتوحة على ظلام بعضها البعض...

لكن أين يوجد في العالم شيء يدعى أنف بين مرآتين أو نافذتين. لذلك يجب أن نتخلّى عن هذه العبارة المكررة (الكليشيهات) وهذه التصويرات الفضولية. سأكتب:

افتقاراً للكلمات، بؤبؤا عينين يعتمان معاً في صمت طويل.

أظن أننا، نحن الكتّاب الإيرانيين، إذا واصلنا مثل هذه الممارسات المنهكة، فإن حلمنا المصاب بمرض الزهري للفوز بجائزة نوبل سيصبح أخيراً حقيقة واقعة. ويجب أن أتذكّر أن أخبر ذلك الكاتب المحظوظ، أو الكاتب التعيس، لأنه هو أو هي، في إيران، سُيتهم بالتعاون مع دوائر الاستخبارات الغربية، للتأكيد ولشكر السيّد بيتروفيتش عندما يوجه كلمة إلى لجنة نوبل.

وفي جميع الأحوال، بالضرورة، تبدأ سارا ودارا، يسيران جنباً إلى جنب...

وتمشياً مع خطوات شخصيتينا المتّحدتين في قصّتنا، يتغير القدر. وفي فوضى الاشتباكات التي تدور بين الطلاب والشرطة، والمتعاطفين مع الحكومة، يتلقّى القزم الأحدب الضعيف ضربة قوية من أحدهم، إما أنه أحد الهاربين أو أنه كان منطلقاً بسرعة ليضرب أحداً، يسقط القزم على الأرض، ويرتطم رأسه الصغير بحافة إسمنت، وتغمض عيناه إلى الأبد...

باران ودانييل

في هذا الجزء من القصّة، بدأت أقول لنفسي إن اختيار اسم دارا بطلاً للقصّة كان خطأ كبيراً. فقد تذكّرت الآن أنّ دارا لم يكن اسم الفتى المذكور في كتب الصف الأول المدرسية فحسب، بل هو كذلك اسم ملك من ملوك إيران. وقد يجعل ذلك السيّد بيتروفيتش يشك في قصّتي كلها، وبعينيه اللتين تبحثان عن المؤامرة، يمكنه أن يتفحص كلّ كلمة وكلّ جملة فيها ويخامره الشك بأنني من أنصار الملكية. وبما أنني كتبت للتو عشرات الصفحات في قصّتي، فإنني لا أستطيع أن أستخدم وظيفة «إيجاد واستبدال» في برنامج مايكروسوفت وورد لأغيّر اسم الشخصية في قصّتي. إن تغيير اسم دارا في هذه المرحلة أشبه بأن يطلب منك أخوك أو تطلب منك زوجتك أو صديقتك فجأة أن تتوقف عن مناداتهم باسمهم القديم وأن تبدأ تناديهم باسم جديد، ببساطة لأنك لا تريد أن يظن أحد أنك من أنصار الملكية. وفي هذه الحالة، ستكون مشكلتك أسهل من مشكلتي، لأن لأخيك أو لزوجتك أو لصديقتك وجوداً حقيقياً، ويمكنهم بهذا الوجود الحقيقي أن يحذفوا اسمهم القديم ويستبدلوه باسم جديد. لكنني منذ بداية هذه القصّة، رأيت دارا بشكل الكلمة «دارا»، وارتبطت به، وبهذا الاسم طوّرت شخصيته. وبحسب نظرية سندباد، فإنني إذا غيّرت اسمه في هذه المرحلة، فإنه يتعين عليّ أن أغيّر شخصيته أيضاً.

وبالنسبة للكاتب، يشبه ذلك ارتكاب جريمة قتل وحشية عن سابق تصوّر وتصميم.

صحيح أنّ كتاباتي كئيبة ومظلمة بسبب الظلام الذي يخيم على عقلي، فقد أرسلت عدّة شخصيات في قصصي إلى الموت والدمار. لكنني في هذه الأيام، وأنا بكامل قوتي العقلية وكياني، كوصية أخيرة، أريد أن أكتب قصّة حبّ زاهية الألوان لا يوجد فيها حزن، ولا يموت فيها أحد، ولا توجد فيها قلوب تعاني، ولا حتى رأس قلم رصاص ينكسر. وهنا يتعين عليّ أن أروي قصّة تسمية ابنتي؛ وحتى لو لم تسألوني، فإني سأحدثكم عنها:

عندما ولدت ابنتي، أردت أن أسميها باران (مطر). ولكي أعثر على هذا الاسم الفريد والنادر، كنت قد فكّرت ملياً وبحثت كثيراً لمدة تزيد على الشهر. وقلت لنفسي إن ابنة شابّ يريد أن يصبح ذات يوم واحداً من كبار الكتّاب في بلده، بل حتى في العالم، يجب أن تحمل اسماً إيرانياً، جميلاً، نادراً، أدبياً، ويمثل رمزاً للحياة، ويعكس الذوق الإبداعي الخاص لأبيها وأمها... لكنني عندما ذهبت إلى دائرة الأحوال الشخصية لأحصل على شهادة ميلاد لها، قال لي الموظف المسؤول عن إصدار شهادات الميلاد إنني لا أستطيع أن أسمّي ابنتي باران، فسألته:

«لماذا لا يمكنني أن أسمّي ابنتي باران؟ رمقني الموظف الشاب ذو اللحية المحفوفة، وكأنه ينظر إلى أحمق لم يفكر بمستقبل ابنته ومصيرها، وقال:

«لم أسمع في حياتي قط عن شخص يريد أن يسمي ابنته باران».

«لكني أريد أن أسمّي ابنتي باران».

فقال ساخراً:

«أيها الرجل الطيب، هل هناك شخص يتمتع بعقل سليم يرغب في أن يطلق على طفلة بريئة اسم «باران»؟ هل خطر لك أنها بعد أن تكبر

وتذهب إلى المدرسة، وتبدأ تدرك الأشياء حولها، وأنه لا توجد واحدة من زميلاتها تحمل اسم باران، فإنها ستكون محل سخرية، وستضايقها زميلاتها ويقلن لها لا بد أن يكون أبوك غيمة... هل فهمت قصدي، «بابا غيمة»؟».

«يا سيدي! إن لاسم باران معنى رومانسياً وجميلاً. فالمطر في بلدنا الصحراوي يعتبر منحة إلهية. دعني اسميّ ابنتي باران. إني واثق من أن الكثيرين سيطلقون على بناتهم اسم باران بعد الآن».

اعتراه الغضب، وزمجر قائلاً:

«لا! لن أفعل ذلك... لقد أعددنا قائمة بالأسماء الإسلامية التي تحمل معاني جميلة. انظر في هذه القائمة واختر اسماً لطفلتك المسكينة».

ووضع أمامي قائمة فيها مئات الأسماء، معظمها أسماء عربية. بإصرار، وبالطبع لم أكن أرغب في أن أبدي غضبي، قلت:

«سيدي، هل يمكنني أن أسمّيها روجا؟».

عقد حاجبيه اللذين كانا أثخن من لحيته. وأضفت:

«إنه اسم معروف في شمال إيران. وروجا تعني «نجمة الصباح».

فوافق.

في تلك الأيام، كانت الأحزاب الشيوعية لا تزال نشيطة في إيران، وكانت تطلق على مجموعاتها الفنية وفرقها الموسيقية التي تعزف أناشيدها الثورية في معظم الأحيان اسم روجا أو النجم الأحمر... ويبدو أن عالم الشيوعيين قد امتلك جميع النجوم، كما امتلك عالم المسلمين الهلال... وبالرغم من ذلك، لم يصبح اسم ابنتي روجا بهذه السهولة. فعندما عدت بعد شهر لآخذ شهادة الميلاد، اكتشفت أنهم كتبوا اسم «رجا» بدلاً من «روجا»، إما عمداً أو خطأً. وهذا الاسم ليس اسماً عربياً فقط، بل اسم

رجل أيضاً. ويقتضي القانون في إيران أنك إذا أردت أن تغيّر اسماً، يجب أن تتقدم بطلب إلى المحكمة. لذلك اضطررنا إلى تعيين محام، وعندما وافقت المحكمة بعد سنة على تصحيح اسم ابنتي، كان اسم روجا قد سرى عليها. ولم أكن في حياتي شيوعياً، لا لأنني كنت قد ولدت في عائلة برجوازية فقط، بل لأنني كنت قد قرأت أيضاً كتباً مثل رواية «مزرعة الحيوانات»... كما لم أكن يهودياً طوال حياتي. وعندما ذهبت إلى مكتب الأحوال الشخصية للحصول على شهادة ميلاد لابني بعد عدة سنوات، قال لي الموظف المسؤول بشيء من الخبث:

«كان عليك ألا تتسرع! كان من الأفضل لك أن تنتظر حتى يبلغ عمر بول ابنك سنة لكي تستخرج له شهادة ميلاد».

كان محقاً. فقد أمضيت أنا وزوجتي ثلاثة أشهر في جدال وبحث مستمرين، بل كنا أحياناً نتشاجر كي نعثر على اسم أدبي مميّز وجميل لابننا. فقد كنا نطلق على ابنتنا في البيت اسم باران، لذلك كنا نرغب في أن نجد لابننا اسما يتناغم مع اسم باران. وأخيراً، وكالوحي، خطر لي اسم ماهان. قلت للموظف المسؤول إني أريد أن أسميّ ابني ماهان... فقطّب حاجبيه اللذين كانا أثخن من لحيته... وقال إنه لن يسمح بذلك. فسألته عن السبب، فقال:

«أولاً، إن ماهان اسم قديم وبال. وثانياً، إن زملاءه سيسخرون منه عندما يكبر ويذهب إلى المدرسة».

ثمّ بدت على وجهه نظرة زائفة وأضاف قائلاً:

«وثالثاً، فإن ماهان اسم جمع».

في ذلك الوقت كنت كاتباً معروفاً، ولكي أتمكن من كتابة نص بأسلوب نقي ومتميز، كتبت آلاف الصفحات من القصص، وقرأت آلاف

الصفحات من النصوص الفارسية القديمة، وعشرات الكتب عن قواعد اللغة الفارسية واللسانيات المتعلقة بها، ومع ذلك، فقد قلت بتواضع:

«أخي العزيز! أولاً، إن ماهان اسم مكان يكسوه العشب الأخضر في الصحراء في شرق إيران».

«ألا تخجل من نفسك؟ فبعد سنوات، سيسخر الأطفال في المدرسة من هذا الطفل البريء المسكين، ويعيّرونه بأنه ربما كان اسم أبيه: بابا صحراء».

«ثانياً، في اللغة الفارسية فإن آن لا تدلّ على الجمع. إن ماهان تعني «مثل القمر».

تملكه الغضب فجأة، وراح يهدر:

«لا تقل لي هذا الهراء. اذهب واجلب لي موافقة من مدير دائرة الأحوال الشخصية لأسجّل اسم طفلك ماهان».

في هذه المرة، كنت عازماً على أن أتمسك بحقوقي كأب، ولم تكن لدي النية لأن استسلم بسهولة. ركبت سيارتي، واجتزت في طريقي ضريح شاعرنا المشهور في أرجاء المعمورة الذي مات منذ سبعمائة سنة، متوجهاً إلى الطرف الآخر من المدينة في طريقي إلى المكتب المركزي لإدارة الأحوال الشخصية. انتظرت ثلاث ساعات حتى أُذن لي أخيراً بمقابلة المدير العام. غاضباً ومصمماً على استرداد حقوقي، دخلت إلى مكتبه. لكن ما إن رأيته جالساً وراء طاولة مكتبه الضخمة، وحتى قبل أن يرفع رأسه ليرى مظهري اللاإسلامي، استدرت بسرعة وخرجت من المكتب. وعدت أدراجي إلى الجانب الآخر من المدينة، لرؤية الموظف المسؤول عن إصدار شهادات الميلاد. وهذه المرة، سألت بعناد، وبغضب مكتوم:

«يا أخي، هل يمكنني أن أسمّيه دانيال؟»

ولدهشتي سمعت:

«لم لا. إن دانيال اسم نبي».

أظن أنه على الرغم من مظهر هذا الموظف الإسلامي ـ لحيته الطويلة، والقميص بلا ياقة الذي يرتديه ـ لم يكن هذا الموظف يشارك في التظاهرات في الشوارع ويصلي الجمعة، لأنه كان يجب أن يعرف أنه في جميع صلوات الجمعة، وفي جميع التظاهرات في الشوارع، وبعد ترديد شعارات الموت لأميركا، وللاتحاد السوفياتي، ولإنكلترا، ولفرنسا، وبصوت أعلى بكثير، كان المتظاهرون يرددون: الموت لإسرائيل... وتذكّر أننا من أقوى المؤيدين للشعب الفلسطيني، وأن بلادنا في حالة حرب غير معلنة مع إسرائيل... وهكذا انتهى الأمر بأن أصبح اسم أحد أطفالي شيوعياً، واسم طفلي الآخر يهودياً. وإني في غاية السعادة لأنني لم أنجب ابناً ثالثاً، لأني لا أعرف ما هو الاسم الذي يفضله أعداؤنا والذي كان سيطلق على ابني.

اسألوني:

هل لهذا الفصل أي علاقة بقصّة الحبّ التي تكتبها وبالرقابة؟

بكل تأكيد. فلكي تفهموا جيداً الرموز والاستعارات في قصتي، فإني مضطر لأن أقدم لكم شكلاً آخر من أشكال الرقابة ـ وهي الرقابة الاجتماعية والثقافية ـ التي يعود تاريخها في إيران إلى أكثر من ألفي سنة... إنها ظاهرة تماثل شفرتي مقص محرم علي خان اللتين كانتا تبدوان كزهرتي ياسمين رقيقتين.

الآن لا بد أنكم ستسألون، من هو محرم علي خان هذا بحق السماء؟

هل هذا غريب! إنكم تعرفون أشخاصاً من أمثال داموكليس وسيفه، وكبار مبارزي الملك آرثر، السير لانسلوت، وجوزيف إغناس غويلوتين، وجوزيف مينغيل، الطبيب في أوشفيتز الذي أجرى بمبضعه تجارب طبية على السجناء؛ بل حتى إنكم تعرفون قتلة آخرين مثل القاتل في فيلم

«صمت الحملان» الذي كان يسلخ جلود البشر ويخيّط جلدهم بثيابهم، لكنّكم لا تعرفون من هو محرم علي خان؟

في ثلاثينات القرن العشرين، كان محرم علي خان مسؤولاً عن رقابة المنشورات في طهران. وكان مدججاً بسلاحه المختار، أي مقص يشبه فكيّ ثعبان الفرس، يظهر صباح ومساء كلّ يوم ما أن تُرسل الصحف إلى المطبعة. وكان يقرأ المقالات المعدة للطباعة بدقة متناهية، وعندما يجد جملة أو جملاً تخالف مصالح الملك أو الحكومة أو الحاكم، أو حتى الدوائر الحكومية الصغيرة، كان يستأصلها جراحياً بمقصه بمهارة كبيرة...

الخصيات المستأصلة

تمتلئ سماء طهران بالدخان المنبعث من المصانع المتناثرة في ضواحي المدينة، ومن ألسنة اللهب الأرجوانية التي يطلقها خيميائي من القرون الوسطى في حكايات ألف ليلة وليلة. وتنتقل الدراجات النارية التي تضاعفت أعدادها، والتي أصبحت تستخدم كتاكسي سريع، بصعوبة بين السيارات المكتظة. وعلى الرصيف، تفوح في الهواء رائحة عطر «كلينيك هابي» عندما تمر امرأة جميلة متشحة بالشادور وتضع على رأسها غطاء أسود. . . يتفيأ دارا وسارا في ظلّ بناية عالية تعود إلى عصر ما بعد الحداثة، ثم يقتربان من بائع متجول. ملابس الرجل مزيج من الملابس العربية والأفغانية والتركية التقليدية. . . وقد أطلقت حكومة الجمهورية الإسلامية على هذه السنة اسم «سنة التقدّم وتفتح البراعم»، لذلك، سيكون لدينا نحن الإيرانيين، هذه السنة، ربيع يدوم خمسة أشهر. لذا، سيتوفر لسارا ودارا وقت كاف لاستمرار علاقتهما الرومانسية في هذا الفصل. لدى رؤية شاب وشابة أنيقين، وبصوت يبدو أنه ينبعث من أعماق مصباح سحري، يقول البائع المتجول:

«تعويذة للسعادة. . . رقية للحبّ. . .» يقرفص دارا وسارا أمام صندوقه، وينظران إلى القناني الداكنة الصغيرة، والمساحيق الملوّنة،

والأقفال، واللوحات المنقوشة بكلمات، والطلاسم المعدنية الصدئة المحفور عليها أشكال وتصاميم غريبة.

تسأل سارا:

«هل عندك تعويذة للكراهية؟».

ويقول دارا:

«طلسم يحرر العقل لكي لا يشغل أحدهم بالك ليلاً ونهاراً...».

خبا الوميض الرائع الذي كان في عينيّ الرجل العجوز وأصبح معتماً. عيناه تفيضان بالحزن، حزن عاشق عجوز يتذكّر حبّاً ذهب مع الريح... تغوص يده في جيبه العميق ويخرج لفافة من ورق أصفر رقيق. يمزّق منها قطعة. ومن جيب صدره، يخرج قلم حبر باركر، ويبدأ برسم إشارات وعلامات غريبة. ينتشر الحبر على الورقة، ويجعل الإشارات تبدو أكثر شؤماً... تأخذ سارا الورقة السحرية.

«بعد أن يسري مفعول الرقية، أطلب منكما أن تخبرا أصدقاءكما بأن المشروب السحري والتعويذات والطلاسم التي يقدمها الطبيب جعفر بن جعفري فعالة أكثر من تلك التي يقدمها العرافون الآخرون...».

سارا تسأل:

«كم تريد أن أدفع لك؟».

«إذا أخذت نقوداً منك فإن مفعول التعويذة سيبطل».

ويلتفت بائع السحر إلى دارا. يحدّق في عينيه. ثمّ، بالألم الذي يشعر به أب يقود ابنه إلى مذبح التضحية، يقول:

«سيدي! في جيبك خمسة وتسعون توماناً. أعطني إياها هدية».

يضع دارا يده في جيبه ويخرج بضع أوراق نقدية مجعدة وبعض قطع معدنية. يعدّها ويحدّق في الرجل العجوز مندهشاً. يقبّل الرجل العجوز

النقود وكأنها شيء مقدّس، ويلمسها بجبينه، ثم يغمض عينيه. . . وبعد أن يبتعدا بضع خطوات، يقول دارا لسارا:

«في الحقيقة، أنا الذي أحتاج إلى هذه الرقية. أعطيني إياها لأتخلص من عذاب التفكير بك ليلاً ونهاراً».

فتقول سارا، وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيها:

«لماذا لست واثقاً تماماً من أنني مثلك بالضبط وأن حالي لن يزداد سوءاً بعد أن رأيتك. . . فقد انخفضت الدرجات التي كنت أحصل عليها في معظم موادي الجامعية خلال هذا الفصل. . .».

يجتازان الآن جسراً على الطريق السريع. نهر السيارات الذي لا يلاحظ وجودهما، يسيل تحت أقدامهما.

يقول دارا:

«أتمنّى لو كانت عندي سيارة. ففي السيارة يصبح خطر الإمساك بك أقل».

«هل تريد حقاً أن تكّف عن التفكير بي؟».

«. . . هل كنتِ تقولين الحقيقة عندما قلت إنك تفكرين بي؟».

يجتازان ثلثي الطريق عبر الجسر. تتوقّف سارا. تُخرج الورقة السحرية من جيبها وترفعها أمام دارا.

«ماذا سنفعل؟ هل نتخلّص منها؟».

يمسك دارا الطرف الآخر من الورقة ويشدها منها. تتمزّق الورقة إلى قطعتين. ويمزّق كلّ منهما النصف الذي يمسك به إلى قطع صغيرة. لن يعرف السائقون المارون تحت الجسر أبداً ما هو السحر الذي أبطلته هذه القصاصات الصغيرة التي راحت تتساقط على سياراتهم مثل ندف الثلج الأصفر. . .

وسيقول السيد بيتروفيتش:

إنك حقاً كاتب رديء. . . إنه مشهد جميل. على الجسر، شابّ وصبية يودع أحدهما الآخر. بعد أن كتب أحدهما رسائل إلى الآخر، وهو أمر خاطئ أخلاقياً، في أول يوم للقائهما، وإن الشيء الأكثر عقلانية الذي يمكنهما أن يفعلاه هو ما يخطر لهما الآن، وهو أن يفترقا وأن لا يفكّر أحدهما بالآخر ثانية. . . وإذا جعلتهما يفترقان فوق هذا الجسر بالذات، فإنها ستصبح قصّة جميلة. تخيّلوا. أحدهما يسير إلى يسار الجسر، والآخر إلى اليمين. . . ولا يلتفت أحدهما لينظر إلى الآخر.

وسأقول:

سيدي، إن افتراق شابّ وصبية فوق جسر أمر لا يخلو من الخطر كما يخيّل إليك. فالجسور ليست أماكن لا نهاية لها. حتى أطول الجسور في العالم، من اليمين واليسار، تفضي إلى شوارع وأحياء، وفي هذه الشوارع والأحياء، تجد الكثير من الفتيات والفتيان والرجال والنساء. ومن الممكن، في الواقع، أن تقع سارا الجميلة في براثن إحدى تلك العصابات التي بدأت تخطف الفتيات في الآونة الأخيرة، أو تقع في فخ شخص وسيم يجعل فتاة بريئة تقع في حبّه، ويصطحبها إلى البيت، وهناك يصوّر بالفيديو مشهد مضاجعة أو اغتصاب ويبيع نسخاً منه في السوق السوداء. ولعلك لا تعرف أن أكثر أفلام البورنو الأمريكية واليابانية إثارة تباع في السوق السوداء بألفين أو ثلاثة آلاف تومان، أما هذه الأفلام الإيرانية، مع أنها رديئة الصنع ولا يوجد فيها إضاءة، ومع أن الفتاة ليست شقراء حقيقية، فإن الفيلم يباع باثني عشر ألف تومان. وعلى الجانب الآخر من الجسر أيضاً، كيف يمكننا أن نعرف أنّ دارا، الشابّ الوسيم، الذي خلّف حزن الحبّ في عينيه نظرة رومانسية، لا يسير في شارع يمكن أن تقع فيه فتاة سيئة في حبّه. أرجوكم اسمحوا لهذه الفتاة ولهذا الفتى البريئين أن يمشيا معاً.

لكن مشكلتي هي أن سارا ودارا لا يستطيعان أن يسيرا معاً مسافة طويلة. فمن الممكن أن تصل في أيّ لحظة دورية من حملة مكافحة الفساد الاجتماعي، مدججة ببنادق الكلاشنيكوف، وتعتقلهما.

لعلكم ستقولون:

حسناً، يمكنهما أن يدّعيا بأنهما أخ وأخت.

وسأجيبكم:

لا، لا يمكنهما ذلك.

اسألوني عن السبب وسأشرح لكم:

فإذا ادّعيا أنهما شقيقان، أو حتى ابني عم، فإن فردين من الدورية، أحدهما رجل والآخر امرأة، سيأخذ كلّ منهما جانباً، ويستجوبهما على حدة.

وسُيسألان مثلاً ما اسم جدّهما، أو اسم صهرهما. وإذا كان دارا وسارا قد تبادلا هذه المعلومات، فإن الأسئلة ستمتد بعد ذلك لتشمل لون ونوع الثلاجة في بيتهما، وما اسم كنية جارهما، وبعض الأسئلة الأساسية المشابهة. وإذا لم تكن إجاباتهما متوافقة، سيؤخذ دارا وسارا إلى مركز اعتقال الفاسدين أخلاقياً واجتماعياً، حيث ينضمان إلى مجموعة من المشرّدين والمدمنين والقوادين والمومسات، وإلى أناس آخرين فاسدين أخلاقياً. في إحدى قصصي، أخذت بطليّ القصة إلى مقبرة ليلتقيا هناك. جلسا على حافة قبر أمّ الفتى، وراحا يتحدثان بهدوء. في ذلك الوقت، لم يتسع خيال أفراد دورية مكافحة الفساد الاجتماعي وتصوّروا أن الفتاة والفتى قد استغلا قبر أمّ ميتة، لا تعرف، ولا تشك، ولا حول لها ولا قوة، وجعلاه مسرحاً لارتكاب آثامهما.

يسألها دارا:

«ما لون الثلاجة في بيتكم؟».

«لماذا تسأل؟».

«لا أعرف. حتى إنني لا أعرف كيف خطر لي ذلك... أخبريني، ما نوع الأزهار والأشجار الموجودة في حديقتكم الأمامية؟».

«عندنا ورد وبنفسج، وشجرة تفاح. لماذا؟».

لم تتلق سارا رداً على سؤالها. تقول لنفسها إن شخصية دارا تتسم بالكتمان والسرية وله عقل معقّد. وبالطبع فإن الكتمان والهدوء والتعقيد سمات جيدة في شخصية الشاب لإثارة فضول واهتمام فتاة. طبعاً، إلى أن يتزوجا فقط.

تمرّ الآن سارا ودارا من أمام محل نظارات قاجار، الذي لا يقل ديكوره جمالاً وروعة عن أكثر المحلات العصرية في باريس.

تقول سارا:

«يجب أن أشتري نظارة شمسية كبيرة».

يحتييهما صاحب المحل، آغا محمد، الذي لا تكسو وجهه لحية وينم سلوكه على سلوك أنثوي.

منذ عدّة قرون وعدة سنوات، كان آغا محمد ينتمي إلى أسرة قاجار، أحد ملوك إيران المحاربين، الذي أصدر أمراً، بعد أن انقض على إحدى المدن الإيرانية واحتلها، بأن تفقأ عيون أهل المدينة من محاجرها وأن تكدس في ساحة المدينة.

تجرّب سارا عدّة نظارات شمسية شهيرة، معظمها مصنوع في الصين، ثم تخرج من المحل بنظارة من طراز «راي بان» كبيرة تغطّي عينيها السوداوين. يتبعها آغا محمد بعينيه وهي تمر من أمام واجهة المحل الزجاجية ويطلق تنهيدة ويقول:

«من العار أن تختبئ هاتان العينان الجميلتان ~~وذلك الوجه المثير~~ وراء هذه النظارة».

عندما كان شاباً، أُخذ آغا محمد رهينة في بلاط ملك إيراني آخر أمر بأن تُستأصل خصيتاه من جسده بمقصّ خاص.

لو سألتموني لماذا رويت لكم هذه التفاصيل التاريخية التي يبدو أن لا علاقة لها بقصّتنا، لأجبتكم على الفور:

من الواضح أنكم لا تزالون لا تعرفون الرموز الإيرانية كما ينبغي... أعزّائي! إن هدفي من رواية هذه التفاصيل التاريخية هو أن أذكّركم بأنه كانت للمقصّ في إيران استخدامات أخرى غير الاستخدام المعروف، وغير قطع جمل زائدة من الصحف والروايات...

يصل دارا وسارا إلى أحد مقاهي الإنترنت.

اسألوني إن كانت هناك مقاهٍ للإنترنت في طهران.

طبعاً هناك مقاهٍ للإنترنت. ما هي الصورة التي في مخيلتكم عن إيران؟ هل تُشبهون ذلك الرجل الذي التقيت به ذات يوم في أحد المهرجانات الأدبية في ستافانجير بالنرويج، والذي سألني بعد أن تحدثت بإسهاب عن الأدب الحديث وما بعد الحديث في إيران:

«هل سمعتم عن الإنترنت في إيران؟».

أو مثل زميل ابني في المدرسة في مدينة بروفيدانس بولاية رود آيلاند، الذي سأله:

«لا توجد لديكم سيارات في إيران، إنكم تمتطون الجمال؛ لماذا إذًا تريدون أن تصنعوا قنبلة نووية؟» ورداً على هذه الأسئلة، يحلو للكثير من الإيرانيين أن يتحدثوا على الفور عن أمجاد أسلافنا الماضية، ويشرحوا لهم أنّ إيران هي بلاد فارس، ويذكّروهم بأنّ لبلادنا أكثر من ألفين وخمسمائة سنة من التاريخ والحضارة. لكن بما أنني كاتب وأتمتع بشيء من الخيال، فلن أرتكب مثل هذا الخطأ، لأني أعرف أنكم بعد أن أوضح لكم ذلك، فإنكم ستقولون: حسناً، نعم، كانت لديكم إمبراطورية عظيمة

وكلّ هذه الحضارة والتاريخ المفعمين بالثقافة والعلوم والهندسة المعمارية. لكن لا بد أن شيئاً ما قد ذهب في الطريق الخطأ وجاءتكم أيام سيئة تثير الشفقة جعلت الروس يبنون لكم محطة نووية، لكن لو كان هؤلاء الروس يعرفون كيف يبنون مفاعلاً نووياً، لما أصاب مفاعلهم في تشيرنوبل ما أصابه.

ردّاً على هذا التعليق سألوذ بالصمت. لا لأنكم محقّون فيما تقولونه، بل لأننا في إيران، ولأنني إيراني، وسواء كنت صحافياً أو كاتباً أو حتى عالماً نووياً بشكل خاص، فإنه لا يسمح لي أن أعبّر عن رأيي في السياسات المتعلقة بالطاقة النووية لحكومتنا. وبما أن الأمر كذلك، فسيكون لديّ ما يكفي من الصداع في قصّة الحبّ هذه وحدها.

إذًا تعالوا ودعوني آخذكم، مع بطليْ قصتنا، إلى أحد مقاهي الإنترنت الإيرانية.

هنا أيضاً أفضّل ألا أكتب أن عيون سارا ودارا قد التقت سرّاً. إلا أنني ملزم الآن، كما دأبت قصص الحبّ جميعها، على أن أصف سارا ومحاسنها الأنثوية، وإلا فلن تقرأوا لا أنتم ولا السيد بيتروفيتش قصتي... وبالإضافة إلى عينيها السوداوين الواسعتين، فإن أولى السمات البارزة والجميلة في وجه سارا هي شفتاها الريانتان اللتان تحترقان دائماً بدون لهب وكأنهما تحترقان من العطش. حسناً، إذا كتبت مثل هذه الجملة، فإن السيد بيتروفيتش سيطلب مني أن أحذفها على الفور.

لذلك سأكتب:

شفتا سارا تشبهان حبتي كرز ناضجتين مكتنزتين وكأن قشرتيهما الرقيقتين توشكان أن تنفلقا وتتشققا بسبب حرارة الشمس.

حتى الآن لم تتقدّم قصّتنا بشكل سيئ، مع أنني يجب أن أبني حبكة يوافق عليها النقاد. وتبرز ورطتنا التالية في الحوار الذي يتبع ذلك.

تقول سارا:

«إنهم حقاً يضربون بقوّة بتلك الهراوات».

فيقول دارا:

«بعض الهراوات تحدث صدمة كهربائية. إنهم يشلّونك لفترة من الوقت».

اسألوا:

حسناً، وما الخطأ في ذلك؟

فأجيب:

هذه السطور مرعبة. لا أعني من الناحية السياسية... ألم تفهموا؟

إن كنتم تعيشون في بلد تحتوي لغته التي يزيد عمرها على ألف وأربعمائة سنة على رموز واستعارات وتشبيهات تهمس، بالإضافة إلى معانيها وتفسيراتها الباطنية، بدلالات غرامية وجنسية، وإن كنت شخصاً عملك الوحيد أن تقرأ من مطلع الفجر حتى غروب الشمس قصصاً وقصائد بعناية شديدة لكي تكوّن فيها رموزاً واستعارات تنطوي على إيحاءات جنسية، فلا بد أن يساور عقلك الشك غريزياً من كلّ حرف لكي لا ترتكب دلالاته إثماً في ظلال عقل القارئ.

أظن أنكم أدركتم الآن المشكلة التي تعتري قصّتنا. نعم، تكمن الصعوبة في اسم العصا وشكلها... لذلك يجب على سارا ودارا أن يتحدّثا عن شيء آخر. لكنني لا أستطيع أن أجعل أحدهما يقول للآخر:

لنتحدّث عن شيء آخر...

لأنه يمكن تفسير كلمة «شيء»، بالغموض الكامن فيها، بأنها أكثر الكلمات سوقية في اللغة الفارسية. فعند تفسير كلمات بما تحمله من دلالات جنسية، فإن اللغة الفارسية غنية بها وذكية إلى درجة كبيرة. ومع

ذلك فإنني لا أستطيع أن أضع بطليّ قصتي المثيرين للشفقة في مقهى للإنترنت من دون أن يدور بينهما حوار أو يقوما بعمل ما. دعونا نتصوّرهما:

سارا تريد أن تحرّك كوب الشوكولا الحارة، لكن ملعقتها تسقط على الأرض. يأخذ دارا ملعقته من كوب الشاي الذي يحتسيه ويقدمها لها...

إن هذا ليس مشهداً سيئاً لإثراء مشهد بسيط للتواصل بينهما. ومع أنه يمكن اعتبار ذلك أيضاً أنه ينطوي على دلالات جنسية.

اسألوني كيف، وسأقول لكم:

منذ سنوات، في رواية كتبها أحد الأصدقاء، نفد الوقود من دراجة نارية يقودها شخص على طريق ترابي في الصحراء. وعلى مسافة أميال عديدة حوله، لم تكن هناك امرأة على مرمى البصر، ولا حتى فلاحة. وأخيراً، توقف سائق شاحنة صغيرة لمساعدته... وكانت الجملة التي وضع السيد بيتروفيتش خطاً تحتها لحذفها: «يولج سائق الدراجة النارية خرطوماً بلاستيكياً في خزان بنزين الشاحنة الصغيرة ويمصّه. وما إن بدأ البنزين يتدفق، حتى أدخل الخرطوم في خزان بنزين دراجته النارية...». ولو وضعنا جميعنا، أنا وصديقي الروائي وجميع الكتّاب الإيرانيين الآخرين رؤوسنا معاً، لما تمكّنا من أن ندرك بوعينا أن نصّ هذا المشهد الثانوي لسائق الدراجة النارية والمتعلق بالبنزين، فاضح جنسياً... لذلك تُطبق نظرية المرحوم رولان بارت عن موت المؤلف، في وطني الغالي، على نحو لا شعوري. لذلك يجب أن نحذف المشهد الذي يقدم فيه لها الملعقة. ولكي أجعل إحدى الشخصيتين في قصّتي تقول للأخرى شيئاً في نهاية الأمر، فإني سأعطيهما بضعة سطور مخفّفة.

تقول سارا:

«إن جمال الربيع يحزنني... وبخلاف الربيع، فإن الخريف فصل متواضع بسيط يجمع الأصدقاء بسرعة ويجعلهم أعزاء».

وتضيف:

«أتمنّى لو كنت في السبعين من عمري».

ثمّ يعلنان معاً:

«... نعم، نحبّ الخريف...».

عندما ينطقان هذه الجملة الرومانسية البسيطة والبريئة، يتحوّل كلاهما إلى شخصية سعيدة خالية من الهموم من الشخصيات المعروفة في الروايات الرومانسية الرخيصة. لكنّي أعرف أن مثل هاتين الشخصيتين تنتميان إلى باريس القرن التاسع عشر، لا إلى طهران. لذلك، فإنني على قناعة بأن مصيرهما سيشبه مصير العشاق المنكفئين في مسرحيات وليام شكسبير، الذين يعلقون في دوامة أبدية من المأساة المشؤومة.

اسألوني كيف يمكن أن تؤدي مثل هذه البساطة الرومانسية في القرن الحادي والعشرين إلى مأساة معقّدة؟

وسأجيبكم:

كما ترون، في الثانية والعشرين وفي الثلاثين ونيف من العمر، لا تزال سارا عذراء ولا يزال دارا بكراً. وبالطبع فإن عذرية سارا أمر محتوم، لأنه وفق القيم الإيرانية (التقليدية والثقافية) فإن الفتاة غير المتزوّجة وغير العذراء، لا تستطيع أن تحبّ، إذ يكون قد خدعها أحدهم بحبّ زائف، وأفقدها بكارتها، ولهذا السبب، يجب أن تصبح امرأة سيئة السمعة. وإذا ما اكتشف سرّها أبوها أو إخوتها المتعلّمون، الذين لا يكفون عن ملاحقة صديقاتهم غير العذراوات ليلاً ونهاراً، فإمّا أن يقودوها إلى الانتحار، أو إذا كانوا متشددين كثيراً، فإنهم يقتلونها. إذ يمنحهم قانون الأرض الحقّ بحماية شرفهم... وينبغي ألا تثير بكارة دارا أيضاً دهشتنا. فبعد انتصار الثورة الإسلامية ببضعة أشهر، أُغلقت جميع بيوت الدعارة التي لم تكن

قد أحرقت بعد، وصدر أمر بحذف كلمة «مومس» المخزية من معجم اللغة الفارسية، واستُبدلت بها عبارة «سيدة غير محصنة». وأُعدم عدد من السيدات اللاتي كن يدرن تلك البيوت، وهُجّرت الكثيرات من السيدات غير المحصنات وتركن في الشوارع يهمن على وجوههن. الآن، متأثرين بالقانون والثقافة الألمانيتين، تريدون أن تقولوا:

إذًا بما أن الشبان من أمثال دارا يمكنهم أن ينالوا سيدات غير محصنات في الشوارع، فلا يتعين عليهم أن يظلوا عذارى وهم في حوالى الثلاثين من عمرهم.

لتكن لديكم الشجاعة لتقولوها كما قالها أحد سكان برلين الشجعان لأردّ:

أولاً، منذ أن بدأت السيدات غير المحصنات العمل في الشوارع، ازدادت نسبتهن. وثانياً، لكي تتمكن من جعل سيدة محصنة في إيران امرأة غير محصنة، يجب أن يتوفر لديك على الأقل بيت فارغ في مكان ما. وثالثاً، إذا ألقي القبض عليك وأنت منهمك في جعل سيدة محصنة امرأة غير محصنة، وكنت متزوّجاً، فسيكون عقابك الرجم حتى الموت، أما إذا كنت أعزب، فستجلد حوالى ثمانين جلدة، كما هو حال السيدة غير المحصنة تلك... لكن عذرية دارا لا تعزى إلى أي من هذه الأسباب. ومشكلته أنه لا يستطيع حتى أن يلمس سيدة غير محصنة.

اسألوا:

لماذا...؟

وسأجيبكم:

لأن دارا مهتم بقراءة القصص والروايات. لا أعرف ماذا يجري في بلدكم، لكن في بلدي، فإن الكثيرين ممن يقرأون لا يستطيعون أن

يضاجعوا مومساً. لأنهم يجدون أن هذا التصرف مخزٍ ومثيرٍ للخجل...

بالطبع، يريدني دارا، بعد أن احمرَّ وجهه خجلاً وارتباكاً، أن أحذف هذا الفصل من القصّة كرمى له. حسناً... لكن كيف يمكنني أن أنقل هذه المعلومة الحيوية والمهمة عن الشخصيات في قصّتي إلى قرّائي؟ وهنا يجب على الفن الجميل في رواية القصة الإيرانية أن يتدخل ويخلق لنفسه شيفرة يقوم القارئ الإيراني الذكي بفكّها بسرعة بعد نشر الكتاب مباشرة.

أتردّد في كتابة: «لم تقم أيّ فراشة بنقل غبار الطلع من زهرة الإثم من جسد دارا إلى جسد سارا...» إنه استخدام علمي بحت، وقديم جداً، ويذكّرنا بالفوضى الناجمة عن تأثير الفراشة. لذلك سأكتب:

إن عرق فاسال (اتحاد، نيل، بلوغ) لم يرشح من مسامات خيال جسديهما...

ولكلمة فاسال في الأدب الإيراني الذي تمتد جذوره إلى عصور قديمة، إيحاءات ودلالات دينية، وصوفية، وغرامية، وجنسية واضحة وضمنية، لذلك تصعب ترجمتها. إذ يستطيع الصوفي، بعد الكثير من الانضباط الذاتي والعبادة أن «يبلغ»، أو فاسال مع الله. والحبيب الذي يكون قد عانى الكثير يستطيع بعد سنوات أن «يتّحد» أو فاسال مع محبوبته. ويمكن أيضاً لكاتب قصّة أن «ينجز» أو فاسال قصّة جيدة. لذلك لا أظن أن السيد بيتروفيتش سيدقق كثيراً في هذه الكلمة. مع إنني أشكّ في أنه من الممكن أن تجعل كلمات مثل «عرق» و«مسامات» قرّاءنا يتعرّقون، وستوجههم كلمة «خيال» إلى إيحاءات ضمنية أخرى.

في هذه اللحظة بالذات، ينظر شبح الشاعر المتوفى الجالس في ركن من أركان مقهى الإنترنت إلى عيني سارا وهما تنظران بقلق باتجاه النافذة، ويُلهم أن يستنبط تشبيهاً جديداً: زهرتان سوداوان من أكلة اللحوم تكمنان لفراشات مقتلعة الأجنحة، ونحلات أثيرية، ونحلات شبقة...

تفتح سارا فمها لتقول جملة مهمة تكشف عن سرّ مفزع وشيطاني. لكن مثل فيث في رواية «غودمان براون الشاب»، بقلم ناثانايل هاوثورن، تؤثر أن تلوذ بالصمت عندما تودع حبيبها، وهكذا تفعل سارا. ويدور في رأس دارا أيضاً السؤال الذي لم يُطرح أبداً، لكنّه يلوذ بالصمت أيضاً. وهكذا، فإن مصيراً مشؤوماً ينتظر حبّهما.

ومثل أي فتاة صالحة، تبدأ سارا تحتسي كوب الشوكولا الحارة. ومثل أي فتى صالح، يرشف دارا كوب الشاي.

~~سارا تقول:~~

~~«إنه حار جداً».~~

~~فيقول دارا:~~

~~وخاصتي كذلك.~~

قبل أن أتمكن من اتخاذ قرار بشأن كلمة «حار»، يندفع إلى مقهى الإنترنت فتى قَصّة شعره تشبه قَصّة شعر قوطية مثل بعض المراهقين الأميركيين، ويرتدي قميصاً قطنياً مكتوباً عليه «حديقة لينكين» ويقول محذراً بصوت مكتوم:

«دورية... !».

يعمل الفتى مراقباً لصالح صاحب مقهى الإنترنت. وبسرعة ينفصل الفتيان عن الفتيات، ويعيدون ترتيب الطاولات والكراسي. وتسحب الفتيات غطاء رؤوسهن ويغطين شعورهن المصبوغة، ويخبئ الفتيان قلائدهم تحت قمصانهم القطنية. وعندما تدخل دوريتان إلى المقهى، تتجمع الفتيات معاً في طرف المقهى، ويتكدس الفتيان في الطرف المقابل، ويحدّقون جميعهم باهتمام شديد في شاشات كمبيوتراتهم. ويشعر دارا وسارا، اللذان تعوزهما الخبرة، بالخطر في آخر لحظة

وينفصل أحدهما عن الآخر. وتفتش الدوريتان جميع الشاشات بدقة. ولحسن الحظ، كان الجميع يتصفحون مواقع تعليمية على الإنترنت، مواقع فيها صور طبيعية جميلة، ومواقع الصحف التي ترعاها الحكومة. ففي إيران يتم حجب ملايين المواقع على الإنترنت التي تحتوي على مواد غير أخلاقية باستخدام برامج باهظة الثمن تشتريها الحكومة من شركة أمريكية على درجة عالية من الأخلاق.

ومن بين هذه المواقع، المواقع السياسية المناهضة للثورة، وحتى مواقع إذاعة صوت أميركا والإذاعات التي تدعمها الولايات المتحدة. وبالطبع، فإن الرجل المسؤول عن رقابة الإنترنت ليس السيد بيتروفيتش؛ فكل ما يعرفه السيد بيتروفيتش عن الكمبيوتر أنه جهاز يرتكب عادة أخطاء فظيعة في إيران. فقد طبع جهاز الكمبيوتر مثلاً مبلغ مليون تومان بدلاً من عشرة آلاف تومان على فاتورة الكهرباء الخاصة به، وهو خطأ استغرق شهوراً من الذهاب والإياب إلى الدوائر الحكومية لتصحيحها.

أما اليوم، فقد كانت الفتيات والفتيان محظوظين. واعتقلت الدوريتان الفتى الذي يرتدي القميص المكتوب عليه «حديقة لينكين» بتهمة الظهور بمظهر غربي. لكن سارا لا تشعر بالارتياح. فهذه أول تجربة لها من هذا النوع، فامتقع وجهها، وراحت تتخيّل أباها واضعاً يده على قلبه المريض بعد أن أصابته أزمة قلبية عندما تناهى إليه أن ابنته قد ألقي القبض عليها وهي برفقة شابّ. وإذا اكتشفت أيّ أوجه تشابه بين والد سارا والسيد بيتروفيتش، فلا بد أنني سأنكرها.

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تعود سارا إلى البيت بعد قليل، فلا ريب أن أمّها قلقة عليها. ومع أن أخبار حوادث مثل ضرب الطلاب المحتجّين أمام الجامعة لا تذاع عبر وسائل الإعلام، فإنها تنتشر بسرعة في أرجاء

المدينة عن طريق السماع. ويتبادل دارا وسارا عنوانيهما الإلكترونيين ويودعان المشهد الأول في قصّتنا.

في غضون ذلك، تستيقظ إحدى زميلات سارا في غرفتها الرثّة المستأجرة في بناية قريبة من جامعة طهران. وكانت تعرف أنه ستقام تظاهرات في الجامعة، لذلك وجدت أن من الأفضل أن تمكث في البيت. وهي طالبة مولعة بالقراءة ومثقّفة ولا تريد أن تتعرض لأيّ مشكلة. وكلّ ما تريده هو أن تنال شهادتها بأسرع ما يمكنها، وتعود إلى بلدتها الصغيرة، وتجد عملاً، وتساعد أبويها المسنين اللذين يعملان فيورديتين في اليوم... وتحضيراً لامتحانها القادم، تضطر للسهر حتى الساعة الرابعة صباحاً لتحفظ عن ظهر قلب مائة بيت من الشعر تعود إلى ألف سنة بترتيبها الصحيح. منهكة، تفتح جفنيها الثقيلين. وأول شيء تتذكّره أنها في الليلة الماضية نسيت أن تقفل الباب. تنظر باتجاه جهاز التسجيل الصغير ـ الشيء الوحيد الثمين الذي تمتلكه، وتشعر بالارتياح عندما تراه لا يزال قابعاً في مكانه، وعندما تفتش عند الباب، تمتلئ عيناها بالرعب.

إذ ترى قزماً أحدب يجلس على الأرض، يستند إلى الباب وساقاه منفرجتان. ورأسه يتدلّى على صدره، وعيناه اللتان تخلوان من الحياة مثبتتين على فخذيه.

بئر لا قرارة لها

في المشهد التالي من قصّتنا، الوقت منتصف الليل. الهلال الذي يشبه ~~شفتي مهرج ساخرتين~~، يتألق في السماء البنية فوق طهران. سارا في غرفتها، ~~تحت الشرشف~~، تهمس بصوت خافت وتجري دردشة على الكمبيوتر مع دارا. وبما أنه ليس لها تجربة سابقة، فهي شديدة الحذر. ~~مع أنها قد تصبح أكثر جرأة لاحقاً~~. والداها مثقفان، لكنهما يخشيان أن تقتلع يد شرّيرة وردتهما الجميلة التي يحميانها. لذلك، أخذا يراقبان علاقاتها بدقة. وربما تغاضى السيد بيتروفيتش عن جملة سترد في قصّتنا قد تكون جديرة بأن يحذفها.

دارا في غرفته أيضاً، يهمس.

اسألوني ماذا يتهامسان، وسأقول:

إنهما يتناقشان حول «جرف صخري في مكان ما»، وهي قصّة كتبها شهريار ماندانيبور.

يقول دارا:

«إنها قصّة جبانة وجديرة بالازدراء، حتى لو لم يكن باستطاعة الرجل والمرأة أن يتمشيا معاً في الشارع، وحتى لو كانا يخشيان الجلوس في مقهى ليتحادثا، ها هما الآن فوق قمة جبل، فلماذا لا يكلّم أحدهما

الآخر بصراحة؟ حيث لا توجد دوريات من حملة مكافحة الفساد الاجتماعي، ولا مخبرون يمكنهم الوشاية بهما».

فتقول سارا:

«تذكّر أنهما يجلسان بجانب بئر قديمة».

«لم أنس ذلك. أعرف أن البئر موجودة فوق قمة جبل في شيراز».

«البئر التي يعتقد سكان المدينة أنها عميقة جداً، لا قرارة لها».

«سارا، أعرف كلّ ذلك. إن سؤالي هو لماذا يتعين على رجل وامرأة كانا عاشقين ذات يوم أن يتكلما دائماً بالرموز والاستعارات. فبإمكانهما أن يتحدثا عن مشاكلهما بصراحة. إذ يستطيع الرجل مثلاً أن يقول إنه يدرك أنهما لم يعودا حبيبين، فقد أمضيا فترة من الزمن معاً، واستخدم أحدهما جسد الآخر بقدر ما أمكنهما ذلك، ومارسا الجنس سرّاً حيثما تمكّنا، وربما لهذا السبب قضي على حبّهما».

«لكن ليس هذا هو المهم. المهم هو أن البئر كانت عميقة جداً أم لا. يريد الكاتب أن يخبرك ويخبرني ويخبر قرّاءه، أن العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة تشبه تلك البئر. وربما كان لها قاع أحياناً، وفي أحيان أخرى، ربما لم يكن لها قاع، وإن ألقيت فيها حجراً فلن تسمع صوت وصوله إلى القعر».

«لا، لقد أسأت فهمي. تكمن مشكلتهما في أنهما ذهبا شأواً بعيداً في علاقتهما الجسدية، إلى درجة أنهما عندما يمارسان الحبّ، يستحضران صور أناس آخرين إلى سريرهما، وهذا ما يمثل الوصول إلى قاع البئر. لكنني أتساءل لماذا أخذ الكاتب الشاب والفتاة المسكينين إلى قمة جبل إن لم يكن يمتلك شجاعة كافية ليضع كلمات صريحة وصادقة في فميهما. وبدلاً من أن يتكلّما وهما هناك على قمة الجبل، يجلسان ويلقيان أحجاراً

في البئر، وينصتان إلى صوتها وهي تهبط إلى القاع . . . قولي لي بربك من في هذا العالم يفعل ذلك؟».

«حسناً، إن تكلما بصراحة، فلن تحصل القصّة على موافقة لنشرها».

«ممتاز. ولهذا السبب فإني أقول إنها قصّة جبانة. فقد تحايل الكاتب ليتمكن من الهروب من مقص الرقيب. أنا لا أحبّ الكاتب الذي يتلاعب هكذا. فالكاتب الذي يستطيع أن يخدع جهاز الرقابة، يستطيع أن يخدع قرّاءه أيضاً».

«لكن إن لم يجلسا بجانب تلك البئر، ولم يتحدثا وكأنهما ليسا بحاجة لأن يقولا المزيد، فلن تكون هناك قصّة».

«هل تظنين أنها قصّة؟».

«لا أعرف. لكنّها أصبحت غامضة قليلاً. لقد جعلتني أفكّر».

إن كنتم تظنون أنني سأضع هذا الحوار في قصّة الحبّ التي أكتبها، فإنكم مخطئون. لكن الرقابة الذاتية ليست لأنه لم ترق قصّتي لدارا، بل لأنني أريد أن أكتب قصّة حبّ وأرجو أن أحصل على موافقة لإعادة طبعها ذات يوم. لذلك أكتب:

يقول دارا:

«أظن أن العاشقين ليسا بحاجة إلى كلمات، أو إلى رسائل، أو إلى أحاديث. ينظر أحدهما إلى الآخر ويقرأ كل منهما أفكار الآخر. هكذا فقط». يروق لسارا ما قاله دارا، فهي تفكّر بنفس الطريقة. ربما كان العشاق قد خلقوا أكبر عدد من القصص الرائعة والساحرة في العالم، لكنّهم ليسوا بحاجة إلى كلمات.

وماذا عن الحاجة إلى اللقاء؟ مشكلتي بالتحديد. إذ يجب أن يلتقي العاشقان في قصتي في مكان ما ليقرأ أحدهما عينيْ الآخر وذاكرته.

في جميع الأحوال، يفضي الحديث البريء الذي يدور بين سارا ودارا إلى مناقشة الأفلام، الفن الأثير لدى دارا. وبما أن سارا لا تستطيع أن تذهب إلى السوق السوداء لشراء أفلام فيديو وأقراص «دي في دي»، فلم تتمكن من مشاهدة العديد من الأفلام.

يبوح دارا بجزء يسير من سرّ في حياته لسارا.

«لقد خسرت كلّ شيء بسبب أحد تلك الأفلام، حتى مستقبلي».

تعرف سارا أنها لكي تطّلع على أسرار حياة هذا الشاب الغريب، يجب أن تتحلى بالصبر وأن تتخلى عن فضولها السطحي. ويفضي حديثهما إلى الأفلام التي شاهداها مؤخراً على قناة التلفزيون الحكومي.

في الليلة الماضية، وبعد شهر كامل من الإعلان، بثت القناة الثانية نسخة قديمة جداً من فيلم «عطيل».

دارا يسأل:

«. . . لكن هل رأيت ديدمونة في الفيلم؟».

«. . . في المشهد الأخير فقط. عندما أظهروا جثّتها وهي ممددة على السرير لبضع ثوان لا أكثر».

«أظن أنّها كانت ترتدي ثوباً واسع الصدر بدون أكمام في المشاهد الأخرى جميعها».

كان تخمين دارا صحيحاً. ولهذا السبب بالذات لن أذكر شعر سارا الأسود الطويل فقط، بل إنني لن أصفها من دون غطاء رأسها وعباءتها ـ تماماً مثل الأفلام الإيرانية التي تُظهر النساء وهن لا ينزعن الغطاء عن رؤوسهن في جميع الأوقات، حتى في بيوتهن. لكن إذا قرّر كاتب إيراني ذات يوم أن يصف شلال شعر سارا الأسود التي يكتب عنها، فإن أفضل خدعة يمكن أن يتبعها هي عملية الإيهام التي كان يتبعها أنصار الشكلية الروس، حيث يستطيع

الكاتب، من دون أن يذكر كلمة «شعر» أن يكتب: «ضفائر متموجة كالليل تتدفّق من الرخام الحيّ تقودها الرياح السود نحو الضوء...».

يحدّث دارا سارا عن الأوقات السعيدة التي أمضاها في الجامعة، ويقول لها بما أن جميع الشركات رفضت أن توظفه لديها، فهو لا يزال يعيش مع والديه... وتقول له سارا إنها في سنتها الأخيرة في الجامعة وإنها تدرس الأدب. وبما أنها تعرف حياة مؤلفها ـ الذي هو أنا ـ فإنها تعرف أنها عندما تتخرج وتحصل على شهادتها في الآداب، لن تكون لديها آمال كبيرة في إيجاد عمل أيضاً. ففي إيران، عندما يسألني أحدهم عن عملي وأجيب أنني أعمل كاتباً، يقول على الفور: «أقصد ما هي وظيفتك. ماذا تعمل؟» وذلك لأنه، بخلاف السيد بيتروفيتش ورؤسائه، فإن تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمائة من الإيرانيين لا يدركون أن الأدب عمل جدّي.

يتحدث دارا وسارا عن الحبّ العفيف الطاهر، الحبّ الذي لم تلوثه الرغبات والشهوات الدنيوية. ويرددان معاً عبارة «الحبّ الأفلاطوني». لا يهمّ، وشأن الكثير من الإيرانيين، فإنهما لا يعرفان أن أفلاطون كان معنياً في معظم فلسفته المتعلقة بالحبّ الأفلاطوني بفتيان صغار وسيمين. ويعزى سوء الفهم هذا إلى أخطاء ارتكبت في ترجمة كتابات أفلاطون، بنفس الطريقة تقريباً التي نُسب فيها أحد أعماله إلى أرسطو، وأصبح يُدَرَّس في الكليات على هذا النحو.

لا أعرف ما العلاقة بين أفلاطون والتفاح، لكن سارا بدأت تتحدّث عن شجرة التفاح المنتصبة في حديقة بيت أبويها التي أزهرت الآن، للمرة الثانية في هذا الفصل.

تريدني أن أعطيها جملة رومانسية لكي تقولها. جملة عن تطاير أزهار

التفاح وتراقصها في نسائم طهران الربيعية. لكن لأسباب مختلفة، نختلف أنا ودارا على جملة كهذه.

يقول دارا بمرارة:

«أنا لا أحبّ التفاح. أحد الكوابيس التي أراها باستمرار هي أنني أقضم تفاحة حمراء ثم أتبين أن أسناني قد بقيت فيها».

لا ينطوي نفور دارا من التفاح على أي توارد في الأفكار لفكرة الثمرة المحرّمة القديمة، ودأبت على القول له إنني سئمت من استخدام الرموز، وخاصة الرموز التي غالباً ما يساء تفسيرها والتعامل معها منذ أيام حواء الأولى. لكن معارضتي بأن كتابة أزهار التفاح الأبيض ترقص أكثر واقعية من هذا. وأذكر أن السيد بيتروفيتش كان قد حذف منذ عدة سنوات جملة وردت في قصّة كتبها صديق لي، تقول: «الأوراق تتساقط من الأشجار وهي ترقص» لأن كلمة «ترقص» تعتبر سوقية ومحرّمة.

السّاعة الآن الواحدة صباحاً. سارا تودّع دارا وتهرع إلى الفراش لتحلم أحلاماً جميلة...

وقبل أن تفعل ذلك، كان عدد كبير من سكان طهران، المدينة التي كانت تضم ذات يوم أجمل المشاهد المضيئة والمتلألئة من الجو في العالم، قد أطفأوا الأضواء في بيوتهم وخلدوا إلى النوم آملين في أن يروا أحلاماً جميلة. فقد أصدرت الحكومة الجديدة أمراً يقضي بأن تغلق جميع المطاعم ومحلات بيع الأطعمة في الساعة الحادية عشرة ليلاً، حرصاً منها على ألا يسهر المواطنون حتى ساعة متأخرة من الليل بشكل غير ضروري ولكي لا يلحقوا الضرر بصحتهم. وأذكّركم بأن التسلية الوحيدة لشعب إيران، بعد أن يهبط الظلام ويحلّ الليل، هي أن يجوبوا الشوارع ويتناولوا الطعام. فيتوجه الأغنياء إلى المطاعم، ويتوجه أفراد الطبقة الوسطى إلى

محلات بيع الهمبرغر. ولكي يذهب أفراد الأسرة أو عدد من الأصدقاء إلى أحد محلات بيع الهمبرغر، ولكي يشقّوا طريقهم في زحمة المرور في وسط المدينة باتجاه شمال المدينة للذهاب إلى أحد محلات بيع الهمبرغر التي تشبه محلات ماكدونالدز، فإن ذلك يستغرق ثلاث أو أربع ساعات، فيقتلون المساء الممل والمضجر. (هل لاحظت التناقض بين الفلسفة التي يستند إليها مفهوم الهمبرغر في الغرب والمسار الذي يتطلبه تناول الهمبرغر في إيران؟). الآن اطرحوا السؤال الذي يدور في خلدكم. لا تخجلوا. اسألوا.

وسأجيبكم:

لحسن الحظ لا توجد مطاعم ماكدونالدز في إيران. ولم يدم الاختراع الجريء الذي توصل إليه صاحب محل لبيع همبرغر عندما وضع حرف M على لافتة النيون على محله أكثر من يوم واحد. ففي اليوم التالي، داهمت حفنة من الأشخاص محله الصغير، وأحرقوه، معلنين أن ماكدونالدز رمز لأميركا التي تلتهم العالم. وقد جرى ذلك قبل سنوات عديدة من تجربة السيد مورغان سبورلوك في كتابه «أنا الحجم الكبير». لذلك فإنكم أحرار في أن تفكروا بأن هؤلاء قلقون من أن يزداد وزن الإيرانيين. وإذا كان هذا هو السبب، فإننا نشعر بالامتنان للمطاعم ومحلات بيع الأطعمة لأنها تغلق في الساعة الحادية عشرة.

لعلكم ستتساءلون: ما علاقة ساعة الإغلاق التي فرضتها الحكومة على المطاعم بالأدب؟

في الواقع، هناك صلة دقيقة جداً. فما الشيء الذي يمكن أن يفعله الأشخاص الذين لا يوجد لديهم شيء مهم يفعلونه لكي يشغلوا وقتهم من الساعة السابعة حتى الحادية عشرة ليلاً؟ هؤلاء الأشخاص الذين يكونون

متعبين ومنهكين إلى درجة أنهم لا يقوون على المشاركة في مهمّة زيادة عدد السكان المسلمين في العالم، كما توحي الحكومة ضمناً. نعم، يكون بانتظارهم القراءة واللجوء إلى الأدب الإيراني.

لنفترض أن الحكومة تدعم الأدب بسبب توجيهاتها بإغلاق المطاعم، فإن. . . السيد بيتروفيتش لن يوافق تماماً على النتيجة التي توصلنا إليها.

«يستحيل على الحكومة الإيرانية أن تدعم الأدب الفاسد واللاأخلاقي الموجّه فقط إلى الغرب والترويج لحرياته الجنسية المنحطة. لا تضحك على نفسك. . .».

السيد بيتروفيتش على حقّ. فلكي يشغل السكان الإيرانيون وقت فراغهم، فقد استثمرت الحكومة، ولا تزال تستثمر، في البرامج التلفزيونية وسلسلة من الأفلام التي تصوّر، في كثير من الأحيان، الكتّاب والشعراء والمثقّفين على أنهم جبناء، ومفسدون، ومحتالون، لا مبادئ لهم، تماماً كما يُصوّر الجواسيس الغربيون دائما بأنهم رجال يرتدون بزات أنيقة وربطات عنق. وربما كان حظر ارتداء ربطات العنق في إيران ـ الموضوع الذي سأتحدث عنه بإسهاب لاحقاً ـ يعزى إلى أن ربطة العنق قد يُنظر إليها على أنها سهم يشير إلى عضو الرجل في المنطقة السفلى.

قتلت عقارب الساعة في طهران للتو الساعة الثانية صباحاً. سارا تغط في نوم هادئ رائع. إنها تحلم بقصيدة خسرو وشيرين الرومانسية. ترى نفسها واقفة بالقرب من بركة جميلة. والبركة تشبه مرآة. سارا ترى خيالها منعكساً على صفحة الماء. ترتدي ثوباً أبيض رائعاً، ~~مثل رداء أميرة~~، ويطوق جيدها الجميل عقد من اللؤلؤ يتلألأ مثل القمر. تتطلع سارا حولها لتتأكّد من أنه لا يوجد هناك رجل مختبئ وراء الشجيرات يتلصص عليها. ثمّ تتجه ببطء إلى بركة الماء، وعندما يصل الماء إلى خصرها، تثني

أطراف تنورتها، ومثل بتلات الزنبق المائي، تطوف وتنتشر حولها. تخوض عميقاً في البركة. كأن الماء يطهّر جسمها. تبدأ اللآلئ في قلادتها تطفو حول عنقها، وتزداد حدة لمعانها. وميضها يزيد الماء بهاء وإشراقاً، مما يزيد من بهجة سارا. في كلّ خطوة تخطوها، ترى أولاً سهام نهديها الثلاثية الأبعاد الناتئة، ثمّ شكل ركبتيها الجميلتين البيضاوين، وربلتي ساقيها الرشيقتين... لكن متعتها لا تدوم طويلاً. تشعر بثقل عينين شبقتين من فوق كتفيها. وبإحساس عميق من الخوف، تنظر إلى الوراء باتجاه الشجيرات الداكنة؛ اليراعات تومض حولها. وفجأة تحسّ بالماء يلامس جسدها مباشرة، ترى رداءها الأبيض، مثل زنبقة ماء تتبرعم، يطفو نحو الجهة المقابلة من الشاطئ. تمدّ يدها إليه، لكنها لا تستطيع أن تصل وتمسك بثوبها الذي يطفو. تتقدم خطوة. يصل الماء إلى شفتيها العطشتين، لكن ثوبها يطفو بعيداً عنها. مذعورة، تمد يدها نحو ثوبها، تتقدم خطوة إلى الأمام. وبخلاف توقّعها، لا تصل قدمها إلى أرضية البركة. وكأن تنيناً يفتح فكيه تحتها. تغوص إلى هاوية عميقة. تنظر إلى الأعلى. سطح البركة الفضي يبتعد عنها. هلعة، تدرك أنّ نهاية حلمها قد وصلت إلى بداية موتها. تشعر بفم التنين الفاغر، ولسعات لسان التنين البغيضة على ربلتي ساقيها... تبذل ما بوسعها لكي تسحب نفسها وتنتصب في وقفتها. يتغيّر لون سطح البركة ليصبح أخضر داكناً. وكما لو كانت قد استنشقت لهب النيران، تحترق تجاويف منخريها، وتصعد إلى الأعلى حتى جبهتها. لم يعد بوسعها أن تمسك الهواء المحبوس في رئتيها. تسمع صوت الفقاعات تتفجر. يلتف لسان التنين المحرق حول جسدها... تصبح عيناها مظلمتين.

في تلك اللحظة النهائية، عندما تستسلم للغرق، تحسّ بأن رأسها يطفو

فوق سطح الماء على الجانب الآخر من العالم. تفتح عينيها الملتهبتين. ترى نفسها تغوص في البحر حتى صدرها. وترى حولها في الماء، نساء يرتدين كامل ثيابهن، ويضعن أغطية على رؤوسهن. تحدق النساء فيها فزعات. ترتطم موجة بظهر سارا. ماء بحر يتدفق نحو أسفل كتفيها وفوق نهديها المتصلبين النافرين اللذين يشبهان مقدمتي سفينتين يريدان أن يشقا طريقهما في مياه البحر... تنحسر الموجة ويغوص الماء تحت نهدي سارا. تشير النساء بأصابعهن إليها ويصرخن مذعورات. تغطّي نهديها اللذين يطوفان فوق الماء بيديها. عندها فقط تدرك أنها في الجزء المخصص للنساء في البحر. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت المنطقة مغلقة من الجانبين، بستائر من القماش الأخضر. وقد ساهمت الشمس والماء المالح في اهتراء النسيج، وتمزّق في أماكن عديدة. كانت الأمواج تسحب الأجزاء الممزّقة إلى الأمام وإلى الخلف، وترى على بعد نصف ميل أجساداً بدينة ومشعرة في الجزء المخصص للرجال من البحر.

أشعر بالسعادة للجملة الأخيرة من هذا المشهد. فعندما كنت أكتبها، وصلت إلى حالة عقلية تدعى «أول مضاجعة بين الكاتب والكلمات»، ففي غالب الأحيان، يلتقي كلّ كاتب بكلماته، وتدور بينهما أحاديث متكرّرة، بل يمكن أن يغازل أحدهما الآخر.

لكن تمرّ لحظات نادرة تقترن فيها الظلال والأجسام العارية لكل من الكاتب وكلماته، في إطار زمن واحد في القصّة، في مكان واحد من القصّة، ويصبحان حبيبين يعرف أحدهما الآخر منذ فترة طويلة، يخفيان في لقاءاتهما السرية أشواق كل منهما تجاه الآخر. والآن، وللمرة الأولى، يبدأ الكاتب والكلمات مضاجعة غريبة، مثل مخلوقين ثنائيي الجنس خلقا توليفة جديدة.

إني متأكد من أن السيد بيتروفيتش لن يتمكن من إيجاد عيب في الكابوس الفرويدي الذي تراه سارا في منامها، لكن من المؤكد أنه لن يحب المشهد الذي تخرج فيه من البحر. لذلك، بيدي أنا، شطبت المشهد الذي مارستِ فيه الجنس بسرعة...

لا تشفق عليّ يا قارئي العزيز! حيثما كنت في أرجاء هذا العالم، حتى لو كنت ترقد في سريرك في إحدى ناطحات السحاب في نيويورك، وتقرأ قبل النوم، فلا ترث لحالي. وإن كنت جالساً في يوم جميل مشمس في غابة بولونيا في باريس وتقرأ، لا تشفق عليّ. وإن كنت في مكتبة، تبحث عن كتاب لتقدمه إلى حبيبتك، وفتحت بالصدفة هذا الكتاب وقرأت فيه هذه السطور، لا ترث لي. وحتى لو كنتِ قد انتهيتِ للتو من أول مضاجعة هانئة سعيدة مع حبيبك الجديد، وبدأتِ تغفين وتغطين في نوم هادئ هانئ، ووجدتِ إلى جانب سريره هذا الكتاب وفتحتيه، فليس من حقك أن ترثي لحال سارا، أو دارا، أو أنا! لأن المشاهد والجمل التي لا أستطيع أن أكتبها وأنشرها في كتابي هذا، سأكتبها في عقلي، وخاصة أنه لا يستطع أحد حتى الآن أن يقرأ أفكاري وتخيلاتي ليعاقبني عليها، وسأضاجع هذه الكلمات بذات الطريقة التي يعيش فيها دارا سحر السينما ويقع في الحبّ، ويحلم من أجل محبوبته بأشياء رومانسية...

كيف؟

هذه هي القصّة التي أريد أن أحكيها الآن:

عندما كانت سارا تسبح في البركة والبحر، كان دارا في الجانب الآخر من المدينة مستلقياً على سريره غارقاً في أفكاره الرجولية. وبغية نقل أفكاره المحرّمة إلى قارئي، فإن أفضل خدعة يمكن اتباعها هي استخدام تيار الوعي. لكنني في هذه المرة، لم أختر هذه الحيلة في السرد لأفي

بمتطلبات شكل القصّة، بل أريد أن أكتب سطوراً تبدو مشوشة في الظاهر، جملاً لا توجد فيها أفعال، بل عبارات تعود إلى أزمنة مختلفة، تخرج جميعها من تعرّجات الذاكرة وثناياها، وأريد أن أكتبها بطريقة تتلاءم مع الصور التي تنتج عنها، مثل دمى ماتريوشكا الروسية، التي توضع الواحدة منها داخل الأخرى. وبهذه الطريقة، أرجو أن أتمكن من أن أسير بهدوء على أطراف أصابعي حول جدران ذكاء السيد بيتروفيتش، وأبلغ سهول خيال وذكاء قارئي الفسيحة. يتأمّل دارا كاحليْ سارا البيضاوين ـ إن صورة كاحل امرأة لا يكسوه جورب يسترق النظر من تحت بنطال يغطيه الشادور هي من أكثر الصور المثيرة جنسياً التي يمكن للمرء أن يراها في شوارع طهران. وعلى كلّ كاحل من كاحليّ سارا البيضاوين، يرى دارا عرقين لازورديين تحت نتوء كاحليها، وبعد ارتفاعهما وهبوطهما على الجانب الآخر، يلتقيان ليشكلا عرقاً قرمزياً شاحباً يختفي تحت حاشية بنطالها. ومثل جدولين ضيّقين، بعد جريانهما في مسارات متعرّجة وملتوية، يلتقيان في مكان ما على الخريطة، ويستمرّ جريانهما في غالب الأحيان حتى يتجاوزا حافة الخريطة.

ثمّ، في تيار وعي دارا، أكتب:

خطوة خطوة، أبيض، انعكاس الضوء من بياض كاحلين فوق سواد الإسفلت... خطوة خطوة، أبيض، عرقان لازورديان في بياض الكاحلين، إلهام لمخترعي الكتابة وسط أسرّة مصنوعة من القصب تقبع بين نهري دجلة والفرات. ورقة خريفية جافّة تتطاير بجانب نهرين لازورديين تذكّر بخضرة الربيع... نهران يفترقان ويلدان... خطان متصلان في راحة يدي، أحدهما خطّ حياتي، والآخر خطّ موتي، أحدهما خطّ وحدتي، والآخر خطّ وحدتك، يا سارا... وتسقط فوق حافة بركة

نحاسية اللون. وعلى الجانب البعيد، يقف طائر البشروش على ساق واحدة، ينبعث من تحت جناحيه لهب قرمزي اللون، ويحلم بالهجرة. وفي الأفق أرى أسطوانة برج بابل المعتمة إزاء الضوء، منتصبة وصلبة تحلّق باتجاه السماء، ومن ذروتها، تهطل أمطار من غيمة لونها أبيض مائل للصفرة، ينبوع تخيلات الرجال الفاقدي البصر، ينبوع إلهام طيور البشروش المهاجرة والمطهر الذي يفصل بين الجنة والنار تحت أجنحتها... سارا... سارا...

بعد أن أكتب هذه السطور، يقطع تيار وعي دارا الغاضب الذي ينضح عرقاً صورة تمارين منهكة على السير في قاعدة عسكرية. وعلى أصوات ذكور تلهث، ترتفع سيقان تكسوها عضلات، وتنتعل أحذية عالية تضرب الأرض بصوت واحد، وبالقوّة التي نصبت برج بابل وأبراج العاصمة ودمرتها، يخبطون بأرجلهم فوق بطن أمّنا الأرض. والآن، يسافر عقل دارا، في «ذكرى الأشياء الماضية»... إلى ذكرى جدته في طفولته. المرأة العجوز تطلب من الطفل ذي السبعة أعوام أن يسدّ أذنيه بأصابعه.

«ماذا تسمع، يا بني؟».

«صوتاً يشبه الريح...».

«لا، احشر إصبعيك أكثر في أذنيك. انصت! ماذا تسمع؟».

«صوت يشبه هسيس النار».

«ممتاز! هذه النار الهادرة هي الجحيم الذي سنهبط إليه عقاباً على الذنوب التي اقترفناها. ثمة أفاع تنتشر على طول الشوارع يخشى المذنبون الاقتراب منها. حفر مليئة بالماء المغلي الحارق، تنبعث بثور في أجسامنا، ونحترق حتى نصبح أجساداً هشّة».

وفجأة، يعتري دارا إحساس يحرق يده. يهزّ ذراعه، ويمدها بالقرب

من ذراع سارا العارية التي رآها في مخيلته. ويتواصل تيار وعي دارا، وهنا يجب أن أتمكن من كتابة شيء يفوق إبداع جيمس جويس، لأن الجهود الأخيرة التي بذلها جويس في روايته «عوليس» ومترجمه الإيراني، وناشره من أجل الحصول على موافقة لنشر الترجمة الفارسية لروايته باءت بالفشل. ففي ذلك الحين، عندما حاول السيد بيتروفيتش أن يتساهل مع الكتّاب والمترجمين الإيرانيين، وأراد أن يحلّ مشاكلهم بطريقة ما، اقترح أن يُكتب تيار الوعي المنبعث من مولي، الشخصية النسائية التي تأتيها رؤى بالزنا، باللغة الإيطالية في الترجمة الفارسية.

وهكذا، فإن الكتاب لن يتعرض وحده لمقص الرقيب الثقيل، بل إن القارئ الإيراني لن يتعرض أيضاً للإثارة الجنسية... لأنها مكتوبة باللغة الإيطالية، لا باللغة الإنكليزية، وذلك لأن اللغة الإيطالية لغة غير معروفة كثيراً في إيران، ولن يتمكن القرّاء الفضوليون من العثور على قاموس بسرعة لترجمة تلك الجمل فيُستثارون جنسياً.

لكن لدي ما يكفيني من المشاكل لكي أشغل بالي بمشاكل نشر رواية جويس في إيران. إذ إن إحدى مشاكلي الحالية هي أن دارا، في غرفته، كما هو الحال في الكثير من الليالي الأخرى، يعاني من الأرق.

ولا يزال صوت سارا يتردّد صداه في أذنيه وفي أفكاره. يظل في صراع مخيف مع نفسه، لكي يتخيّل، بالإضافة إلى كاحلي سارا، باقي جسدها وهي ترتدي الشادور وغطاء الرأس فقط. لا بسبب عفته الجنسية، بل لأنه يعتقد بأنه إذا تخيّل سارا بأي طريقة غير تلك التي سمحت بأن تظهر فيها، فإنه يخونها... ويخلص أخيراً إلى أنه لكي يتحاشى أن لا يكون مخلصاً لصورة سارا، عليه أن يحاول أن يبعدها عن عقله. لذلك، مثل الكثير من الليالي المؤرقة الأخرى، يستلقي دارا على ظهره ويحدّق في السقف

الأبيض. لو كان بوسعه أن ينسى ببطء وزن جسمه، لو كان باستطاعته أن يركّز، لو كان بإمكانه أن يتوقف عن أن يرمش بعينيه حتى عندما تبدأ عيناه تدمعان، بعد ساعة تقريباً، شيئاً فشيئاً، ستبدأ ألوان سحرية تتراءى في السقف الأبيض مثل بقع ماء، وسترتبط إحداها بالأخرى، وستظهر أمام عينيه صورة ملونة. صورة آل باتشينو الأعمى وهو يرقص مع تلك المرأة الجميلة في فيلم «عطر امرأة». ويجلب هذا المشهد الدموع إلى عيني دارا كلما تذكره. فهو يحلم منذ سنوات عديدة بمشاهدة هذا الفيلم والأفلام الأخرى التي يفضّل أن يشاهدها على شاشة كبيرة بصوت ستريو ليتمتّع بالإطار الكامل للفيلم وبالعمل الذي قام به المخرج. إلا أن فيلم «الرقص مع الذئاب» كان أحد الأفلام الأمريكية القليلة التي عرضت في دور السينما في إيران خلال السنوات العشرين الماضية، بالطبع، بعد أن طاله مقص الرقيب. لذلك، كان من المستحيل على دارا أن يشاهد الرقصة الجميلة التي رقصها رجل فاقد البصر مع امرأة رائعة الجمال على شاشة السينما. لكن أحد أسرار دارا هو أنه لم يعد بحاجة إلى الذهاب إلى السينما ثانية. فقد بدأ سحر السينما يتكون لديه، لا السحر الذي تراه على الشاشات العريضة في العالم، بل السحر الحقيقي للسينما، منذ عدّة سنوات، عندما قضى سبعة أشهر في السجن الانفرادي.

أرجح أنكم لا تعانون من فكرة المعاناة والرعب التي يمكن أن تنتابكم عندما تكونون نزلاء زنزانة انفرادية، ولن ألومكم على ذلك بأي شكل من الأشكال. بل إنني، في حقيقة الأمر، أريد أن أهنئكم لأنكم تعيشون حياة متحضّرة، لذلك فلن تفهموا كيف يمكن أن يكون السجن الانفرادي. في جميع الأحوال، وبينما أكتب هذه الجمل، أجد أنني ربما أصبحت، في فترة زمنية معينة، نزيل زنزانة انفرادية لأنني كتبت هذا. ولا أعرف إن كنت

سأتمكن من إيجاد وسيلة للبقاء على قيد الحياة، وأن لا يزج بي في زنزانة صغيرة جداً لا نوافذ فيها، ولا يستطيع المرء أن ينام فيها وساقاه ممدودتان.

ألقي القبض على دارا لأنه يقوم بتأجير وبيع أشرطة فيديو ممنوعة وخليعة.

الآن من الممكن أن تقولوا:

إذًا فإن دارا في قصّتك ليس شخصية نظيفة ومستقيمة كما وصفتها لنا، لأنه يبيع ويؤجر أفلاماً خليعة.

إنكم مخطئون. فقد كان دارا يؤجّر ويبيع نسخاً من روائع الأفلام العالمية، الأفلام التي أخرجها المخرجون الذين يحبهم مثل جون فورد، وهيتشكوك، وأورسن ويلز، وأنتونيوني، وبيرغمان، وكوبريك، وبولانسكي، وأوليفر ستون، وغارموش وديفيد لنتش و. . .

الآن اسألوا:

هل تريد حقاً أن تخبرنا أن دارا قد وضع في زنزانة انفرادية لأنه كان يبيع ويؤجر روائع سينمائية فنية؟

عندها يمكنني أن أجيب:

لا. ففي أرض بلادي الحبيبة، لا يُحكم على المرء بالسجن الانفرادي لأنه وزع أفلاماً ممنوعة، إلا إذا كان يُعتقد بأنه عميل يعمل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية أو لصالح الاستخبارات البريطانية وتكمن مهمته في زعزعة القيم الدينية والثقافية والأخلاقية للمجتمع الإيراني، وخاصة إذا كان متورطاً في الماضي في أنشطة مناهضة للثورة. أرجوكم لا تقولوا شيئاً. أعرف أن الحبكة ازدادت تعقيداً وتشابكاً، لذلك يجب أن نستدعي الماضي. كما ذكرت آنفاً، فقد ألقي القبض على دارا قبل سنوات لأنه كان عضواً في حزب سياسي يساري، وحُكم عليه بالسجن لمدة سنتين. وعندما زُجّ به في السجن، أُرغم على توقيع عدّة بيانات مشفوعة بقسم بأنه بعد أن

يطلق سراحه، لن يشارك في ممارسة أيّ نشاط سياسي أو أي نشاط مناهض للثورة. وفي اليوم التالي لإطلاق سراحه وتحرره، زار دارا كليّة الفنون الجميلة في جامعة طهران ليتأكد من وضعيته كطالب. فقد كان قد أنهى جميع المتطلبات اللازمة لدراسة الإخراج السينمائي قبل أن يُلقى القبض عليه، ولم يتبق له إلا أن يقدم أطروحته ليتخرج ويحصل على شهادته الجامعية. وكانت أطروحته دراسة مقارنة ورمزية بين فيلم «المحاكمة»، الذي أخرجه أورسن ويلز وبين رواية «المحاكمة» التي كتبها فرانز كافكا.

في الكليّة، لم يُعثر على ملف أو سجلّ يخص طالباً سابقاً يدعى دارا م. وبعد بحث طويل، عاد الموظف المعيّن حديثاً، المتململ، إلى طاولته، فألقى نظرة تشوبها الريبة إلى دارا، وسأله:

«ماذا قلت اسمك؟».

«دارا. . . دارا م..يا أخي».

في تلك الأيام، كان من الشائع ومن المستحسن مخاطبة الرجل بعبارة «يا أخي» ومخاطبة المرأة بعبارة «يا أختي»، بدلاً من عبارة «يا سيدي» أو«يا سيدتي».

يتصرّف الموظف وكأنه يتعامل مع رجل مختل عقلياً.

«هل أنت واثق من أن هذا هو اسمك؟».

«نعم يا أخي».

أيّ نوع من الأسماء اسم دارا هذا؟ يجب أن تذهب إلى دائرة الأحوال المدنية غداً وتغيّره. لديهم قائمة بجميع الأسماء الجيدة، وإن كنت لا تعرف، فإن دارا اسم ملك مستبدّ، كافر، وثني، كان يهاجم الجزيرة العربية ويأسر المسلمين قبل سبعمائة سنة، وكان يحفر ثقوباً في أكتافهم، ويمرر عبرها حبلاً لكي لا يتمكنوا من الهرب».

يقول دارا، محاولاً مداراة غضبه:

«أولاً، كان دارا ملكاً منذ حوالى ألفي سنة. وثانياً، لم يكن نبي المسلمين قد ولد بعد. وثالثاً، لم يكن دارا وثنياً، وفي واقع الأمر، فإن الاسكندر المقدوني الذي هاجم إيران وقتل دارا، هو الذي كان وثنياً. ورابعاً، كان اسم الملك الذي كان يثقب أكتاف العرب سابور. ولو لم يفعل ذلك، لكان العرب قد هربوا، وذاقوا طعم الحرية، ولما أسست مجموعة منهم حزب البعث والقاعدة...».

يتوقف دارا. عينا الموظف تحدّقان فيه بنظرة توحي: أيها الفتى، إن كلماتك أكبر من فمك.

ومع ذلك يواصل دارا:

«خامساً، عندما ولدت، كان اسم دارا مذكوراً في كتب الصف الأول الابتدائي».

فانفجر الموظف ضاحكاً:

«إذًا، يا دارا الصغير، فإنك لا تزال في الصف الأول الابتدائي. لماذا أنت هنا إذًا وتقول إنك طالب جامعي. اخرج من هنا ولا تزعجني مرة أخرى».

فقال دارا محتجاً:

«يا سيدي، لماذا تسخر مني؟ كنت طالباً في هذه الكليّة قبل سنتين».

رفع الموظف صوته وقال:

«اسمع يا فتى، أيها الأحمق، كم مرّة يجب أن أقول لك إنه لا توجد لدينا وثائق، ولا يوجد عندنا طالب اسمه دارا م.. لقد أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أبحث عن اسمك في الكمبيوتر، ثم فتّشت في جميع الملفات في الأرشيف».

ويري دارا يديه المكسوتين بالغبار. أخرج دارا من جيبه نسخاً من كشف علاماته، وجميعها درجات ممتازة، وأبرزها للموظف.

ألقى الموظف نظرة على الوثائق ورماها على الطاولة.

«سأصنع لك معروفاً وأنسى قصاصات الورق هذه».

«يا أخي، لست بحاجة لكي تصنع لي معروفاً. لقد أعطتني هذه الكلية هذه الوثائق».

«الآن إني واثق من أنك فقدت عقلك. انظر هنا، يمكنني بكل بساطة أن أستدعي رجال الأمن الآن وأطلب منهم أن يلقوا القبض عليك».

«بأي تهمة؟».

«بتهمة تزوير وثائق جامعية سرّية».

«لكن هذه الوثائق صحيحة وأصلية. انظر، عليها خاتم وتوقيع رئيس الجامعة».

تفحص الموظف بدقة خاتم وتوقيع رئيس الجامعة.

«إنس الأمر! فقد طُرد الأخ الذي كان رئيس الجامعة السنة الماضية، وهو يبيع الآن تذاكر في إحدى دور السينما. اذهب وقابله، لعله يدبّر لك وظيفة».

«إذًا فإنك توافق على أن هذه الوثائق ليست مزيفة».

«لا تصرّ على أنني أوافق. فإذا وافقت سأستدعي رجال أمن الجامعة لاعتقالك».

«بأي تهمة؟»

«بتهمة السرقة. هل تعرف كم سنة يمكن أن تُسجن بسبب سرقة وثائق حكومية؟».

«هل تريد أن توحي بأنني سرقت وثائق كشف العلامات من أرشيف الجامعة؟»

«نعم. تماماً».

«حسناً، لو أنني سرقت هذه النسخ من أرشيف الجامعة، إذًا فأنا طالب هنا».

«لا، لم تكن، لأننا لا نثق إلا بالوثائق الموجودة لدينا».

«إذا كنت قد قبلت بأنني سرقت هذه الوثائق من الجامعة، إذًا يجب أن تقبل بأنّني كنت طالباً هنا».

«من تظن نفسك لكي تقول لي ماذا يجب أن أقبله أو ماذا يجب ألا أقبله؟».

«أولاً، إني لا أقول لك، بل إني أسألك. ثانياً، أنا شخص نكرة، حتى إني لست كائناً بشرياً، بل أنا قصاصات الورق هذه التي تثبت أنني كنت طالباً هنا».

يخبط الموظف بقبضته على طاولة مكتبه.

«لا، لم تكن. بحسب ما تقوله وثائقنا لم تكن».

«إذاً اكتب ذلك وأعطني إياه».

«لا أستطيع أن أفعل ذلك. فلو فعلت ذلك، لاصطف منذ يوم غد هنا ألف مجنون مثلك وطلبوا مني شهادات بأنهم لم يكونوا طلاباً هنا».

يفقد دارا أعصابه أخيراً ويصرخ:

«سأقدم شكوى. سأذهب إلى رئيس الجامعة وأقدم شكوى».

«اذهب واشتكِ لأيّ أحمق تريد».

تصاعد شجارهما. بدأ دارا يصرخ مثل مجنون ويلوّح بذراعيه. جاء موظفان آخران مستخدمان حديثاً لمساعدة زميلهما، وبقلة تهذيب، وبوقاحة، ألقيا بدارا خارج المبنى. مضطرباً، مرتعشاً بالغضب، وبعينين مستعدتين لأن تصرخا من اليأس، جلس دارا إلى جانب أشجار جامعة طهران. جلس في المكان الذي وقع فيه بعد سنوات قزم أحدب وارتطم رأسه بحافة إسمنت... راقب دارا بحسد الطلاب الخارجين من مباني

الكليّة القديمة من جامعة طهران. إنه لا يعرف السيد بيتروفيتش، وإلا لعرفه من بين طلاب الدكتوراه في الأدب، الذي، بحقيبته السامسونايت الصينية الصنع، تكسو وجهه لحية محفوفة، ويرتدي قميصاً أبيض محلولاً، متعجرفاً، نائياً بنفسه عن الطلاب الجامعيين.

ورأى دارا جعفر بن جعفري الذي يحمل بيديه مجلدات ثقيلة، متجهاً إلى كليّة الفيزياء. ابتسامة تقدير ترتسم على شفتي الرجل، لكنه سرعان ما يندم على ذلك، ويبتعد عن دارا. تنهد دارا وقال:

«ماذا يجب أن أفعل؟ ماذا يجب أن أفعل؟».

بدأ يعتقد أنه لعله لم يكن طالباً جامعياً، وأن جميع الذكريات الجميلة لم تكن سوى تخيلات من أيام سجنه.

لكنه ما إن بدأ يشكّ حتى باسمه، وأراد أن يعود إلى البيت ليرى هل كان عليه أن يتخيّل بيتهم أيضاً، ناداه أحدهم باسمه من الجانب الآخر. نظر دارا من وراء الأشجار ورأى أحد موظفي الكليّة المسنين جالساً هناك. محاولاً أن يسيطر على صوته، ومن دون أن ينظر إلى دارا، قال الموظف العجوز بسرعة:

«لا تنظر إليّ يا فتى. اجلس هناك واعطني ظهرك واستمع إليّ».

عاد دارا وجلس وراح يستمع إلى الموظف العجوز وهو يهمس:

«أيها الأحمق. لماذا أتيت إلى هنا؟ لقد طُردت من الجامعة. لا تسبب مشكلة غير ضرورية لنفسك. اذهب إلى البيت وفكّر بشيء آخر من أجل مستقبلك».

انفجر دارا باكياً.

«لكني درست هنا طوال ستّ سنوات وحصلت على درجات ممتازة».

«مهما كان الأمر... لقد جازفت بنفسي بسبب تعاطفي معك وجئت

إلى هنا لأنصحك. . . لا تبك، إنك رجل، والرجال لا يبكون. انهض واذهب إلى بيتك. لا تخبر أحداً أنني تحدثت معك. لقد تم تطهير عدد كبير من الموظفين القدامى. إن ملفي على طاولة لجنة التطهير أيضاً. اذهب وكن قوياً يا فتى. . . إلى اللقاء».

نفّذ دارا نصيحة الموظف العجوز وقرر أن يكون قوياً وألا يكون عبئاً على أسرته، وانطلق يبحث عن عمل. لكنه شهراً إثر شهر، بدأ يدرك أكثر وأكثر أن العثور على عمل أمر مستحيل. راجياً أن يجد عملاً في مجال اختصاصه الذي يحبه، قدّم بسذاجة طلبات توظيف إلى محطات التلفزيون، لكن ما إن كان المسؤولون فيها يكتشفون أنه كان سجيناً سياسياً، حتى كانوا يقودونه إلى الباب بكل أدب وتهذيب.

وتقدّم دارا بطلب للعمل في استوديوهات صناعة الأفلام آملاً أن يحصل فيها على وظيفة في أحد أقسامها التي تنتج أفلاماً كان يرى أنها عادية وتافهة. (في تلك الأيام، كان قد فُرض على مخرجي السينما الإيرانيين المبدعين أن يلزموا بيوتهم، ولم يعد يسمح لهم بالعمل). وبعد شركات إنتاج الأفلام، توجّه دارا إلى وكالات الإعلانات التي كان يعتبر أن العاملين فيها مجرد فناني تجميل يجمّلون وجه البرجوازية السوقي. ولم يعد الآن شيوعياً، ولا اشتراكياً أو ليبرالياً. بمعنى آخر، أصبح بنجاح رجلاً يخلو من أي عقيدة سياسية. حتى في البيت، عندما كانت أمّه تتذمر من ارتفاع أسعار المواد الأساسية، كان دارا يقول:

«أماه! أنتِ أيضاً؟ هذه كلّها إشاعات نشرها المعادون للثورة. وبحسب الإحصائات الحكومية، لم تتجاوز نسبة التضّخم في إيران الخمسة في المائة، وهي نسبة طبيعية جداً».

بالطبع، كان يحاول أن يتناول قدراً أقل من الخبز والرزّ، من دون أن تلاحظ أمّه.

على أيّ حال، عندما فقد دارا الأمل في العثور على وظيفة ملائمة، فكّر بأن يتجه إلى المهنة غير الشرعية، وهي بيع وتأجير الأفلام المستنسخة. في ذلك الحين، كانت دور السينما التي نجت من الحرق في الأيام الأولى للثورة، قد بدأت تواجه الإفلاس بسبب حظر عرض الأفلام الغربية، واستمرت محطات التلفزيون الحكومية تعرض حفنة من الأفلام القديمة، بالإضافة إلى مسلسلات وبرامج حوارات مملة تتناول المبادئ الأخلاقية وآداب السلوك. وحتى لو أرادت هذه المحطات أن تعرض أفلاماً جديدة، فلم يكن بإمكانها أن تفعل ذلك. وقد اكتشف مديرو المحطات مؤخراً، بالإضافة إلينا نحن الإيرانيين، أن هناك عدداً قليلاً جداً من الأفلام في هذا العالم التي لا توجد فيها نساء، بل وعدد أقل بكثير من الأفلام التي تظهر فيها نساء يتمسكن بأسلوب اللباس الإسلامي. ونتيجة لذلك، بعد أن صدر أمر بمنع أجهزة عرض الفيديو VCR وأشرطة الفيديو، كان لدى عدد كبير من الإيرانيين أجهزة سوني قديمة وبالية من طراز T 7 أو من طراز أحدث من هذه الأجهزة. ومن وجهة نظر دارا، لم يكن عمله هذا غير شرعي ولا غير أخلاقي، لأنه بخلاف الشبكات السرية التي تتداول أفلام الأكشن الأمريكية وأفلام البورنو والأفلام التافهة المصنوعة في الهند وهونغ كونغ، كان يبيع ويؤجر نسخاً من روائع الأفلام العالمية. لكن المشكلة كانت تكمن في أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل جداً من الزبائن المهتمين بمشاهدة أفلامه، وكانت أعدادهم تتضاءل يوماً بعد يوم. ومن الجلي أن أذواق الناس كانت قد بدأت تتغيّر، وبدأ بعض الإيرانيين يبدون ولعاً خاصاً بنوع معيّن من الأفلام الإيرانية الرديئة التي كانت قد أُنتجت قبل الثورة. ففي أثناء نظام الشاه، كانت هذه الأفلام تُنتج خلال أسبوع واحد في معظم الأحيان، وكانت تصوّر

شخصيات تمثّل في غالب الأحيان مجرمين وسفلة وومومسات، وكانت تعرض عادة مشاهد عن مجرمين يحتسون الخمر في ملاءٍ رخيصة تعج بنساء بدينات شبه عاريات، يغنّين ويرقصن، ثم يعقب ذلك شجارات بين المجرمين السكارى. وفي معظم الأحيان، كانت راقصة أو عاهرة تقع في غرام مجرم يشهر سكينه باستمرار، وتتوب وتندم على ممارستها لهذه المهنة، ثمّ يوسع المجرم الشهم المجرمين الآخرين ضرباً، ويأخذ الراقصة أو العاهرة إلى مكان مقدّس ليصب على رأسها ماء التوبة، ويتزوّجان ويعيشان بسعادة أبدية.

في ظل هذه الظروف، كان دارا يعتقد بأن العمل الذي يقوم به ما هو إلا جهد ثقافي ثمين حقاً، وكان واثقاً من أنه إذا ما ألقي القبض عليه، وما إن يرى أفراد الشرطة الأفلام التي بحوزته، فإنهم سيثنون على ما يفعله. لكن في إحدى الليالي، وبينما كان يغادر بيت أحد الزبائن، توقفت إلى جانبه سيارة دورية تابعة لحملة مكافحة الفساد الاجتماعي، وفتّش الضباط حقيبته، فوجدوا بحوزته سبعة أشرطة فيديو، وهي: «المحاكمة»، و«طيران فوق عشّ الوقواق»، و«زد»، و«الانفجار»، والنسخة الأصلية لفيلم «المرآة» لتاركوفسكي، و«الانهمار» لبهرام بيزي، وفيلم الرسوم المتحركة «سنو وايت والأقزام السبعة».

وخلال استجوابه في مكتب حملة مكافحة الفساد الاجتماعي، قالوا لدارا إنه إذا تعاون وأبدى أسفاً، ودوّن أسماء وعناوين جميع زبائنه في محضر التحقيق، فلن يُحكم عليه بالسجن إلا بضعة أشهر، أو بالجلد ستّين أو سبعين جلدة، أو تُفرض عليه غرامة نقدية فقط. وبعكس توقعاته، لم يكن المحقق رجلاً قاسياً، بل كان شاباً، بنفس عمر دارا تقريباً، يضع نظّارات طبية ذات عدسات سميكة جداً. وفي غرفة معتمة

ورطبة، كان يجلس وراء طاولة معدنية صدئة مليئة بالثقوب والطعجات. كان دارا يقف أمام الطاولة، نظر المحقق في عينيه البريئتين بلطف وفضول وبصوت رقيق قال:

«لا أصدق أنك شخص فاسد».

فأجاب دارا بلطف مماثل:

«يا أخي، في هذا العالم، يدّعي كل شخص أنه أفضل إنسان، لكن لا يعرف إلا الله من هو الصالح ومن هو الطالح... لقد درست قليلاً».

فقال المحقق بدرجة أشد لطفاً:

«في عملي هذا أصادف جميع أنواع البشر، من أميّين وجهلة إلى خريجي جامعات وأساتذة جامعيين. حتى إنهم ألقوا القبض ذات مرة على شخص يحمل درجتي دكتوراه، واحدة في الاقتصاد والأخرى في إدارة شيء نسيته».

«حسناً، يا أخي، لا توجد هناك وظائف».

«أظن أنه إذا كان هناك شخص أمّي نشأ وترعرع في الشوارع، ولا يميّز الخير من الشر، وعمل في توزيع أفلام منحطة، فإن ذنبه أقل من ذنب شخص متعلّم يفعل ذلك».

«إنك محقّ تماماً. أتفق معك بالكامل».

رأى دارا عينيْ المحقق الشاب تمتلئان بالأسى، وسمع صوتاً يشوبه ألم راسخ:

«الجميع يقولون ذلك. عندما يلقى عليكم القبض، فإنكم تبدون الأسف والندم وتطلبون المغفرة».

«لكني كنت صادقاً ومخلصاً».

«لا أريد أن أهينك أنت ولا أمثالك. لكنني لا أفهم لماذا تتورطون في مثل هذه الأعمال القذرة. عندما تخرجون جميعكم من هنا، وتنهون

الحكم المفروض عليكم ثم تواصلون حياتكم. لكن ماذا عن أمثالي؟ فأنا لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير لماذا يرتكب الناس مثل هذه الجرائم، ويقترفون مثل هذه الذنوب. أشعر بالأسى عليك. ففي هذه الليلة بالذات، سأرى وجهك البريء في أحلامي، ويتعين عليّ أن أنهض وأدعو الله من أجل صلاحك».

أصبح وجه المحقق الشاب الآن يشبه وجه قدّيس معذّب.

قال دارا:

«شكراً لتعاطفك».

«هل تهزأ بي؟».

«لا . . . لا على الإطلاق».

«لقد أحسست ذلك في صوتك. إنك تسخر مني».

«أقسم بأنني لا أسخر منك. إني ممتن حقاً لك. لكنني أجد أنه من الغريب جداً أن يوجد شخص مثلك هنا. . .».

«إن أناساً مثلي هم الذين يجب أن يكونوا هنا. هنا، في هذه الإدارة، وفي منظمات تشبه إدارتنا، تقع على عاتقهم أشد المسؤوليات حساسية. إذا كان بإمكاننا أن نستأصل الفساد الاجتماعي، عندها نستطيع أن ندّعي أن الثورة قد انعطفت إلى آخر منعطف لها بنجاح. عندها نستطيع أن نري ثورتنا للعالم برمته وندعو شعوب العالم، وخاصة الغربيين الفاسدين، أن يسيروا على نهجنا». كانت عينا المحقق الشاب تلمعان ومبللتين بالدموع، وكان يضغط بيديه على صدغيه. وبنفس الصوت الحزين والمتألم سأل:

«إذًا لماذا؟ لماذا تفعل مثل هذه الأشياء؟ كيف يمكنك أن تتناول طعاماً اشتريته بمال كسبته بالحرام. . . كيف يسمح لك ضميرك أن تنام في الليل وأنت تعرف أنك تفسد بأشرطتك الوضيعة أرواح معات الشباب النقية والبريئة؟».

«لكن يا أخي، إن ضميري صاف، على الأقل لما فعلته. فأنا لم أفسد روح أي شخص، بل على العكس تماماً، فإنني أتيح لزبائني فرصة رؤية الأعمال الرائعة. أعلّمهم أنه لا يزال يوجد جمال في هذا العالم. جمال الفنّ، الإبداع...»

بعينين واسعتين، حدّق المحقق في دارا:

«ماذا تقصد؟ لقد قلت منذ لحظات إنك توافقني الرأي».

«أقولها مرة أخرى. إني أعتقد أيضاً أن الأشخاص الذين يؤجّرون أفلاماً عديمة القيمة يقومون بعمل سيئ. أما أنا فإني أؤجّر أفلاماً من إخراج ألتمان وفورمان وكوبريك وويلز».

«هؤلاء الأشخاص، من أين هم؟».

«إنهم أمريكيون... هل سبق لك أن شاهدت فيلم «المحاكمة» لأورسن ويلز؟».

«لا».

«عليك أن تشاهده يا أخي. يجب أن تراه... إن الفيلم مستمد من رواية «المحاكمة» لكافكا».

«من أين كافكا؟».

«كان من تشيكوسلوفاكيا».

«تقصد أنه كان شيوعياً؟»

«لا... كان يهودياً».

«إذًا فقد كان صهيونياً؟»

«لا، كان مجرد يهودي».

«حسناً، ماركس كان يهودياً أيضاً».

«لا، كان كافكا فناناً. إن روايته تحفة أدبية رائعة. في معظم الحالات،

عندما كانت السينما تريد أن تقتبس تحفة أدبية لتحوّلها إلى فيلم سينمائي، كانت تفشل، باستثناء...».

دارا، الذي كانت تشتد حماسته عندما يدور أي حديث عن الأفلام والسينما، كان ينسى كل شيء حوله. وواصل مناقشته بحماسة شديدة:

«في حالات نادرة... أعتبر أن فيلم «المحاكمة» الذي أخرجه أورسن ويلز واحداً من أروع الأفلام السينمائية لم يحظ بالتقدير الذي يستحقه. إنه حتى أفضل من فيلم «المواطن كين». إن فيلم «المحاكمة» غني بالرموز. وعندما تدور مناقشة عن هذا الفيلم، لإثبات أن رموز اللغة السينمائية تختلف عن رموز اللغة الأدبية، فإني أستخدم كمثال على ذلك النسخة الأمريكية من فيلم «الحرب والسلام»، الذي فشل فشلاً ذريعاً. ولن أنسى ما حييت، أنني ما إن وضعت عيني على ميل فرير الذي قام بدور الأمير أندريه، حتى انفجرت في الضحك. إذ لا يملك هذا الرجل كرامة وفخامة الأمير أندريه على الإطلاق».

«هل أنت من أنصار الملكية؟».

«لا، أبداً. اسمح لي أن أنهي حديثي».

«تابع. إني أستمع».

«أقصد أن فنّ السينما قد يكون أقوى وأجمل من الأدب».

«إننا نؤمن بذلك أيضاً. إذ إن أعداءنا يعرفون جيداً أن السينما قد تكون فعّالة ومدمرة. وقد اختبر الأمريكيون ذلك، وعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يركعوا ثورتنا إلا بالانقلابات العسكرية والحروب، لذلك لجأوا إلى الأفلام القذرة التي يصدّرونها لنا للنيل من إرادة شبابنا وإيمانهم».

«أوافقك على ذلك. أتفق معك تماماً. لكن... هل أسبب لك صداعاً؟».

«لا، لا على الإطلاق. تكلّم. إن تعليقاتك جديدة بالنسبة لي. لم أصادف أحداً مثلك في هذا المكان».

«ألا تدرك أنّ بعض الناس قد بدأوا يحبون مثل هذه الأفلام التافهة التي كانت قد أُنتجت قبل الثورة؟ قل لي لماذا تظن ذلك...؟».

كان المحقق الشاب ينصت إلى دارا بلهفة شديدة، وقال:

«أخبرني. أجد هذا مثيراً للاهتمام».

كان دارا منبهراً من الإثارة التي سببها الحديث والهواء الرطب الخانق في الغرفة. وواصل كلامه:

«عندما أسمع أحد مواطني بلدي يمتدحون فيلماً إيرانياً أو هندياً تافهاً، فإن ذلك يغضبني حتى الجنون».

فقاطعه المحقق الشاب:

«أرى أنّك غاضب جداً».

«أنا آسف، يا أخي. لكن أقول لك الحقّ، إني غاضب».

«هيا، اضربني، اركلني».

«المعذرة؟».

«إن كان ذلك سيهدّئ أعصابك، أفرغ شحنات غضبك على هذه الطاولة. لا أريدك أن تتكلّم بغضب... في الإسلام إن الغضب إثم».

بركلة أضاف دارا طعجة أخرى إلى الطعجات في الطاولة، وأحسّ بالفعل أن غضبه وقلقه بسبب إلقاء القبض عليه قد بدآ ينحسران. بهدوء، واصل كلامه.

«حسناً، يجب أن تسمح لمن هم من أمثالي أن نواصل عملنا لتعريف الناس بفنّ السينما. إذ إن للغة السينما رموزها المتميّزة الخاصة بها. يجب على الناس أن يتعلّموا هذه الرموز، وعندما يتعلّمونها، فإنهم يتعلّقون بلغة السينما تماماً».

هنا بدأت عينا المحقق الشاب تلمعان.

«رموز؟ هل توجد رموز في الأفلام؟».

«نعم. لقد أنجز الكثير في علم الرموز في السينما، وفي رموز الخيال بشكل عام».

«وهل تعرف هذه الرموز؟».

«قليلاً. إلى الحدّ الذي يسمح به تعليمي، أحاول أن أتعلّمها».

«لقد عرفت منذ البداية بأنّك مختلف عن تجّار الأفلام القذرة. أخمّن أنك شخص مثقّف وواسع الاطلاع وذكي. ماذا درست؟».

«لقد درست السينما حتى الدراسة العليا».

«أتقصد أنك تحمل درجة الماجستير؟»

«لا... لم يمنحوني شهادتي».

«لماذا؟»

اعترف دارا بصدق أنه كان قد ارتكب أخطاء سياسية في الماضي، وأنه أمضى فترة من الوقت كسجين سياسي. أخذ المحقق الشاب يضغط بيديه ثانية على صدغيه. وبدلاً من ألق الفضول، غشت عيناه مرة أخرى سحابة من الحزن. لكنه بأناة شجّع دارا على مواصلة كلامه، ولساعتين أخريين راح ينصت إلى حججه ومنطقه ويدوّن ملاحظات. وأخيراً، عندما صمت دارا من الإعياء وجلس على الأرض إلى جانب طاولته، نهض المحقق الشاب وصافحه باحترام.

توقّف عند الباب، وملف دارا تحت ذراعه، وقال:

«لقد تعلّمت بعض الأشياء المثيرة للاهتمام منك. شكراً لك... سأصلّي من أجلك».

كان دارا واثقاً من أن المحقق قد غادر الغرفة لترتيب أمر إطلاق سراحه.

لكن في منتصف تلك الليلة، جاء ضابطان وعصبا عينيه ونقلاه إلى السجن الخاص بالمعتقلين السياسيين.

في حقيقة الأمر، فإن اعتراف دارا بماضيه السياسي، بالإضافة إلى الأفلام الغربية التي أخذوها منه كدليل، والتعليقات التي أبداها عن الرموز في لغة السينما، زادت الأمور سوءاً. إذ إن أي شخص سيكون في مكان المحقق الشاب سيرتاب أيضاً بأن دارا يؤدي الدور الذي لعبته إذاعة أوروبا الحرّة من وراء الستارة الحديدية - بل والأهم من ذلك، أنه عندما فكّ الرموز الخفية لبعض الأفلام، فقد تبين أنه متورط أيضاً في بعض النشاطات السريّة.

نُقل دارا إلى سجن ذي حراسة شديدة، وألقي به في زنزانة انفرادية صغيرة إلى أن يثوب إلى رشده ويكشف عن اسم الشخص الذي يتصل به، أو الأشخاص الذين يتصلون به في وكالة التجسّس تلك، ويكشف عما تعني تلك الرموز. إن الزمن الذي يمضيه المرء في الزنزانة الصغيرة أشد قسوة وإيلاماً من أي أداة تعذيب. فالعذاب والألم في السجن الانفرادي ليس مردهما أن الزمن يمر ببطء شديد، بل إنه يبدو أنه لا يمر على الإطلاق. ولم يعد دارا يعرف ليله من نهاره. إذ فقد متعة مرور الزمن. وبعد فترة، كانت بالنسبة للأشخاص خارج الزنزانة مدة شهرين، أدرك أنه بدأ يرقص مثل زوربا اليوناني فوق الدرج بجنون، وراح يتكلّم مع نفسه باستمرار، ولم يكن يعرف هل كان ذلك جيداً أم سيئاً لاستقراره العقلي.

وفي بعض الأحيان، كانت الدموع تترقرق في عينيه، وكانت الرغبة في البكاء تغص في حنجرته، لكن طاقة غامضة كانت تمنعه من الاستسلام للدموع. ولعل هذه الطاقة قد تسربت من جدران زنزانته بسبب مقاومة السجناء السابقين، وقد بدأت تنعكس عليه الآن. وكان بين الحين والآخر

هنا بدأت عينا المحقق الشاب تلمعان.

«رموز؟ هل توجد رموز في الأفلام؟».

«نعم: لقد أنجز الكثير في علم الرموز في السينما، وفي رموز الخيال بشكل عام».

«وهل تعرف هذه الرموز؟».

«قليلاً. إلى الحدّ الذي يسمح به تعليمي، أحاول أن أتعلّمها».

«لقد عرفت منذ البداية بأنّك مختلف عن تجّار الأفلام القذرة. أخمّن أنك شخص مثقّف وواسع الاطلاع وذكي. ماذا درست؟».

«لقد درست السينما حتى الدراسة العليا».

«أتقصد أنك تحمل درجة الماجستير؟»

«لا... لم يمنحوني شهادتي».

«لماذا؟»

اعترف دارا بصدق أنه كان قد ارتكب أخطاء سياسية في الماضي، وأنه أمضى فترة من الوقت كسجين سياسي. أخذ المحقق الشاب يضغط بيديه ثانية على صدغيه. وبدلاً من ألق الفضول، غشت عيناه مرة أخرى سحابة من الحزن. لكنه بأناة شجّع دارا على مواصلة كلامه، ولساعتين أخريين راح ينصت إلى حججه ومنطقه ويدوّن ملاحظات. وأخيراً، عندما صمت دارا من الإعياء وجلس على الأرض إلى جانب طاولته، نهض المحقق الشاب وصافحه باحترام.

توقّف عند الباب، وملف دارا تحت ذراعه، وقال:

«لقد تعلّمت بعض الأشياء المثيرة للاهتمام منك. شكراً لك... سأصلّي من أجلك».

كان دارا واثقاً من أن المحقق قد غادر الغرفة لترتيب أمر إطلاق سراحه.

طوال هذه الأحاديث، كان يحفر صورة أذن وفم على الحائط بأظافره، ووصل إلى مرحلة أنه عندما كان يتكلّم مع الأذن، كانت الصور تظهر له في محيط رؤيته. وفي بعض الأحيان، لم يكن يعرف هل كان الوقت ليلاً أم نهاراً. وفجأة ظنّ أن الفم يشبه فم ستيف ماكوين بلا أسنان في فيلم بابيون. كان فم رجل كبر في السن قبل أوانه، لكنه تمكن من اجتياز مرحلة السجن الانفرادي، وقد أطلقوا سراحه الآن، وارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه المتجعدتين. عندما تذكّر دارا مقاومة بابيون التي تجاوزت طاقة البشر، ازداد عزيمة وقوة. ووصل إلى مرحلة أصبح بإمكانه أن يكمل السمات المفقودة حول الأذن والفم، ويرى وجه ستيف ماكوين. ثمّ قرّر أن يرى صورة أجمل من عالم السينما السحري وتراءت أمام عينيه سلسلة من القبل المتداخلة من «سينما باراديزو». ولم يعرف دارا هل كانت هذه السخرية متجذّرة في شعوره الباطني أم في شعور الإسمنت الباطني. لكنّه كان يعرف أنّه يرتكب خطيئة، وأنه يفقد رحمة ومغفرة الله في هذه الظروف البالغة الصعوبة.

وبخلاف بعض الشيوعيين، حتى عندما كان دارا شيوعياً، لم يستطع أن يمحو الله من أعماق قلبه. ففي تلك الأيام، عندما قرأ المانفستو البيان الشيوعي الأول ثانية وثالثة لكي تنحفر كلماته في خلايا دماغه، أحسّ بأنه كان يسمع من مكان عميق في روحه، همسة خجل يتردد صداها في أذنه، في ذلك المكان الذي طلبت منه جدته أن يضع أصابعه فيه. . . لكن في تلك الأيام من اكتشاف متعة التمرد والتحدي، لم يكن يعرف من أين وممّن يصدر هذا الهمس. وحتى آونة أخيرة، وخلال فترة سجنه الأولى، اكتشف دارا أن الخجل كان يعتريه طوال ذلك الوقت من نفسه أمام الله، رفيق طفولته.

وفي كلّ ليلة، عندما كان يزيل القيح الذي تغطيه الضمادات من قدميه وينظر ملياً في الجروح المتقيحة بسبب ضرب السياط على باطن قدميه، كما كان

يفلّي نفسه ساعة إثر ساعة مفتشاً عن القمل تحت إبطيه أو في شعر عانته، ولأنه لم يكن يمتلك الشجاعة لقتلها، كان يريد أن يرسلها إلى حرّاس السجن من تحت باب الزنزانة. ووضع دارا النظرية الفلسفية المادية جانباً وبدأ يحدّث ربه. وفي الأيام الأولى من إيمانه الذي اكتشفه ثانية، لم يسمح دارا لنفسه بأن يستغل رحمة الله وشفقته. فقد كان يعتقد بأنه إذا طلب من الله أي شيء وهو في مثل هذه الظروف الصعبة، فإن إيمانه سيكون نفاقاً، ومثل الكثيرين، فإنه يحاول أن يخدع بحماقة الله الذي يعرف كل شيء. لكن بعد عدة أشهر، عندما شعر بأنه مثل النبي يونس الذي كان في بطن سمكة ضخمة (حوت)، والذي غفر له الله أيضاً، فقد طلب من الله أن يفعل شيئاً لكي يطلقوا سراحه. وفي فترة سجنه الثانية أيضاً، أحسّ بالخجل نتيجة رؤية صور القبل التي حذفها مقص الرقيب في «سينما باراديزو»، وكان يريد من الله أن يفعل شيئاً لكي يكفّ عن رؤيتها.

وأخيراً، ازدادت قدرته الإبداعية البصرية قوة إلى حد أنه أصبح بوسعه أن يصنع شاشة سينمائية بيضاء تظهر أولاً على الجدار الإسمنتي ثم الصور المؤثّرة من أخذ مشاهد الفيلم. فقد رأى المشهد الأول بوضوح وتألق سينمائي تام ـ بعد أن طلب المغفرة من الله، أكبر مخرج مبدع في هذا الكون ـ كان المشهد الذي يحكم فيه ستان لوريل قبضته، ويحشو فيها تبغاً وكأنها غليون، ويشعلها، ويمصّ إبهامه المرفوع، وينفث الدخان من فمه. وعندما أعاد تصور هذا المشهد، ضحك دارا لأول مرة خلال سجنه الانفرادي. وعندما سمع حارس السجن ضحكته، خيّل إليه أن هذا السجين قد فقد عقله أيضاً وبلغ مرحلة متقدمة من الجنون، ومنذ ذلك الحين، لم يعد يلقي الطعام أمام دارا، بل بدأ يضعه باحترام وشفقة على الأرض أمام باب الزنزانة. كما غيّر المحقق الذي يستجوب دارا سلوكه معه أيضاً. لا

لأنه اعتقد أن دارا قد فقد صوابه، بل لأنه رأى أنّ هذا السجين قد تمسك، بمثابرة وبدون تردد أو ضعف، والأهم من ذلك، بدون ازدواجية، بما قاله في البداية، ورفض أن يعترف بأنه جاسوس. . . وأصبح بإمكان دارا الآن، عندما يشاء، أن يجعل مشهد الفيلم الذي يراه بالحركة البطيئة، وإذا أراد أن يشاهد فيلماً كلاسيكياً، مثل فيلم «كازابلانكا»، أصبح باستطاعته أن يراه بالألوان. ومع أن حبّه للسينما كان حقيقياً، فقد كان ينتابه شعور في الحال بأنه ربما خان محبوبته عندما يلوّن الفيلم.

وفي أحد الأيام شاهد نسخة من فيلم «تايتانيك» لمدة سبع ساعات. لا تستعجلوا وتقولوا لي إنه لا توجد نسخة كهذه. أعرف، ودارا يعرف ذلك أيضاً. لكن المثير في الأمر، أنّ دارا لم يسبق له أن شاهد حتى جيمس كاميرون في التايتانيك، بل قرأ فقط بعض الأخبار عن إنتاج هذا الفيلم وقرأ خلاصة عن السيناريو، مرفقة بصورتين مقرّبتين مغبشتين للبطلين، في إحدى المجلات السينمائية. حتى إنهم وضعوا خطاً أسود على عنق كايت وينسليت. لكن قوة إرادة دارا وقدراته كانت أعظم من أي منتج في هوليوود. وبتوظيف تأملات طويلة، تمكّن من عرض فيلم التايتانيك الخاص به على الجدار الإسمنتي في زنزانته.

لم يجلب إنتاج فيلم التايتانك الشهرة وجوائز الأوسكار لدارا، بل جلب له شيئاً أكثر أهمية. ففي اللحظة التي يودّع فيها الحبيبان في فيلمه بعضهما وداعاً أبدياً، أدرك دارا أنه لم يقع في الحبّ من قبل. نعم، صحيح أنه كان مغرماً بالسينما، وصحيح أنه كان يستطيع وهو في زنزانته الانفرادية أن يضاجع السينما عندما يشاء من دون الحاجة لأن يتحمل الصداع والعواقب الناجمة عن مضاجعة امرأة. لكنه في تلك اللحظة، أدرك شيئاً كان يفتقده في حياته دائماً: وهو حبّ امرأة حقيقية. لذلك سأل ربه متضرعاً أنه إذا ما أطلق سراحه ذات يوم من هذا السجن، أن يهبه نعمة الحبّ. . . وحدثت

المعجزة بأقرب مما كان يتوقّع بكثير. إذ قبل المحقق أخيراً الحقيقة بأن دارا ليس عميلاً للاستخبارات الأمريكية. وفي أحد الأيام، أدرك دارا أن الوقت نهار، فتح الحرّاس باب زنزانته، وطلبوا منه بتهذيب شديد أن يخرج. دارا، الذي لم يكن يريد حقاً مغادرة زنزانته وجدارها السحري، لم يتزحزح من مكانه. إذ كان يشاهد فيلم «الدوار» لهيتشكوك. واضطر الحرّاس إلى أن يجرّوه إلى خارج الزنزانة ثم إلى خارج السجن وهو يركل ويصرخ. وعاد دارا، المشوش والفاقد الإحساس بالزمن بسبب ضياء الشمس الطبيعي، إلى بيته. وعندما رأته أمّه بكت وضمته بين ذراعيها. وبكى دارا على كتفها، غير عارف هل كانت الدموع التي يذرفها دموع فرح أم دموع حزن. وفي ذلك اليوم، عندما رأى وجهه في المرآة، اعتراه الذعر. فقد أصبح لون بشرته بلون الكافور، وغار خداه إلى درجة أن أنفه الآري الجميل أصبح ناتئاً مثل منقار نسر أصلع. وبعد شهر، اختار الرسم مهنة له وأصبح يرتاد المكتبة العامّة... حيث رأى سارا للمرة الأولى...

في اليوم الذي رأى فيه دارا سارا وقال لنفسه إن هذه هي الفتاة التي وقع في حبّها، اعترتني نوبة مألوفة عندما كنت في شيراز باكتشاف وحدتي. وكانت تعتريني بين الحين والآخر هذه النوبات العاطفية، وخاصة عندما أكون سعيداً، عندما أكون قد حققت نجاحاً في شيء ما، وفي تلك المناسبات النادرة التي أكون فيها سعيداً مع نفسي، يبتلع بغتة حزن مهدّئ رقيق كياني برمته. وفي واقع الحال، كنت أرى نفسي دائماً شخصاً وحيداً، مع أنه يوجد لديّ أصدقاء جيدون، مع أنني محاط بأسرة محبة. إنّ النوبة التي تعتري المرء باكتشاف وحدته تختلف عن مشاعر الوحدة الشائعة... ومع أن عملي يرتبط بالبحث عن الكلمات، فلا توجد لديّ كلمات أستطيع أن أصف فيها هذا الشعور. لعلي أكتب قصصاً لأثبت أنه توجد في الحياة

لحظات، عواطف، ومشاعر، وأحداث لا يمكن تفسيرها بالكلمات.

في ذلك اليوم الخريفي، توجّهت إلى حدائق شيراز القديمة. كان المطر يهمي خفيفاً، ولم يكد يمر أحد في تلك الدروب المتعرّجة الضيّقة بين الجدران الطينية التي تحيط بالحدائق. وكانت الرياح التي هبّت في الأيام الماضية قد كوّمت أوراق الأشجار الجافة عند أسفل الجدران، وبدأ المطر الآن يجعلها ثقيلة وتتكوم في كتلة. وكان الشاعر الذي توفي قبل سبعمائة سنة واقفاً عند نهاية الدرب يكرر إحدى أجمل قصائده في «الغزليات» لنفسه منذ سبعمائة سنة.

لقد أغلقوا باب الحانة، يا إلهي لا ترض،
لأنهم يفتحون الباب أمام الخداع والنفاق. . .

ثمّ فتح فمه العطشان ووجهه إلى السماء ليشرب غبار الكرمة المتكومة منذ قرون في قطرات المطر. ومن دون الحاجة لاستخدام كلمات، بدأ أحدنا يلوّح للآخر. تتبعت خطواتي ثانية. فمنذ سنوات ألهمني هذا الشاعر أن أكتب واحدة من قصص الحبّ النادرة. وفي تلك القصّة، كتبت عن ثرى جسده المتناثر في أنحاء مدينة شيراز، وكتبت بأنّه يؤمن بأنه كلما استطاع الناس أن يخلقوا حباً حقيقياً ودائماً، سيتجمّع ثراه ويصبح له شكل ولون. محظوظ هو، ومحظوظون أولئك الذين يستطيعون أن يعشقوا.

كنت سارحاً في مثل هذه الأفكار عندما أدركت أنني كنت أمشي في جادة زاند. وربما ساهم الرصيف المزدحم في أحد أقدم شوارع شيراز في تضخيم إحساس المرء بالوحدة. وفي كلّ مرة يهطل فيها المطر، تتضوع في سماء شيراز أشباح أريج الورود التي أزهرت وذبلت قبل سبعمائة سنة، وتفوح أشباح روائح النبيذ الذي احتساه الشعراء سراً قبل سبعمائة

سنة. ويحفّ أحد جانبي الرصيف محلات تبيع ملابس رخيصة مصنوعة في الصين، وتحفّه على الجانب الآخر أشجار القيقب التي تصل أغصانها العارية إلى الغيوم مثل الأعصاب، وأشباح ثمرة سمارا المجنّحة تتلوى وهي تتساقط كالمطر على الرصيف.

وفجأة رأيت السيد بيتروفيتش يسير باتجاهي. كانت قد مضت سنوات على لقائي الأول به. لا بد أنه جاء إلى شيراز لقضاء عطلته. حاولت أن أختبئ وراء السابلة، لكنّه رآني وسار باتجاهي.

«كيف حالك؟ تبدو مثل فأر مبلول... ماذا تفعل هنا؟».

«أنا بخير. لقد خرجت للتو لأتمشى قليلاً».

«لاحظت أنّك سارح في أفكارك. هل حدث شيء؟».

«لا، لا على الإطلاق. كنت أفكّر فقط».

«بماذا كنت تفكّر؟».

«كنت أفكّر كم سيكون رائعاً إذا لم نفكّر على الإطلاق».

حدّق السيد بيتروفيتش في عيني. تجمّدت أوصالي. شعرت أنه يستطيع أن يقرأ عقول الناس. قال:

«لم أسمع منذ فترة شيئاً عن قصّة الحبّ التي كنت تريد أن تكتبها».

لم أكن أعرف أنني سأحاول أن أكتب قصّة حبّ بعد سنوات، لكنه كان يعرف. قلت:

«لم أقرر بعد أن أكتب قصّة حبّ. في بعض الأحيان أشعر بالرغبة في كتابتها، لكنني لم أجد الشجاعة لكتابتها حتى الآن».

«لماذا؟»

«كما تعرف، فإن كتابة قصّة حبّ أمر صعب مثل صعوبة إقامة علاقة حبّ والحفاظ عليها».

«لقد فاجأتني. إنك تشعر بالراحة وأنت تشاطرني مشاعرك».

«إني أفاجئ نفسي أيضاً. أمارس الرقابة على نفسي دائماً مع الآخرين، لكن عندما يتعلق الأمر بك أنت، ثمة شيء يجعلني أحكي لك ما يجيش في نفسي».

صوّب نَصْليْ عينيه المثلمين والمتعرجين نحوي.

«انظر هنا! لا أظن أنك تلعب معي لعبة القطة والفأر؟ ألا تضمر شيئاً؟».

«لا أظن».

تمر بجانبنا نساء مكسوات بعباءات سود ورجال يرتدون ثياباً داكنة رثّة وأحذية يكسوها الطين. وفي أعلى الشارع، هناك بساط ريح يذوب قطرة قطرة في المطر. قطرات مطر بلون الفيروز، وبلون أوكسيد الرصاص تتساقط فوق المدينة.

تضيق السجادة وتنكمش وتطير بعيداً.

قال السيد بيتروفيتش، بتلك النبرة المريبة بإصرار:

«إني أعرف جيداً تقلّب أمزجتكم يا معشر الكتّاب. أعرف أنكم هشّون وحسّاسون، ولهذا السبب يتوجه إليكم الشيطان اللعين أكثر مما يتوجه إلى الناس العاديين. إنه يحاول إغراءكم وخداعكم لتكتبوا أشياء ليست في صالحكم. أتساءل إن كنت تدرك أنني لا أريد إلا الخير لك ولأمثالك».

«شكرا لاهتمامك».

«هل تسخر مني؟».

«لا... لا على الإطلاق».

«أحسست بنبرة تهكّم في صوتك».

«لا. إني حقاً أشعر بالامتنان لك. لكني أجد أنه من الغريب أن شخصاً مثلك...».

«حسناً، أشخاص مثلي بحاجة إلى عطلة أيضاً بين الحين والآخر. إذ لا يمكننا أن نجلس في غرفة طوال حياتنا ونقرأ كتباً تافهة».

استنزفت طاقتي المتبقية على الكلام بسرعة. سادت فترة طويلة من الصمت. وكالعادة، فإني أحاول أن أتحاشى النظر إلى عيني السيد بيتروفيتش.

«صدقاً إنني أشعر بنوع من الألفة الودّية نحوك. ينتابني شعور بأنّك تفكّر بكتابة أشياء يجب ألا تكتبها، وأنك إذا كتبتها، فإن كتابتها لن تكون في صالحك. إنه مثل التفكير بقتل شخص في حين لا يوجد لديك سبب عقلاني يجعلك تفعل ذلك. احذر ولا تقتل براءتك بالتفكير بأشياء محرّمة».

«إنني واثق من أنني قتلت الرغبة في القتل في روحي بقتل الكثير من شخصياتي الخيالية».

«في هذا العالم من الحساب والعقاب، يوجد جميع أنواع القتل. تذكّر أن مجرد التفكير بالإثم هو إثم بحد ذاته. يجب أن تعرفوا أيها الكتّاب أنه إذا طرأت ببالكم فكرة كتابة قصّة آثمة، فإن الإثم الذي ترتكبونه أعظم بكثير من الإثم الذي يرتكبه شخص عادي، لأن إثمكم يلوّث عقول قرّائكم، وكلما كان عدد القرّاء أكبر، أصبح ذنبكم أعظم. هل تفهم؟».

«نعم، أفهم يا أخي. . .»

ولتغيير الموضوع، قلت بصوت بدا أنه ينبعث من حفرة بئر عميقة:

«أثناء إقامتك في شيراز، احرص على زيارة وكيل بازار. وإذا لم تنس أنه كان قد شُيِّد منذ مئات السنين، فإنك سترى أنه يجلس عند الناصية بائع متجول يبيع طلاسم وتعويذات ورقى تجعل الرغبات تتحقّق. ويمكنك أن تطلب منه تعويذة تجعل جميع الكتّاب الإيرانيين يتوقفون عن

التفكير بأي مشهد فيه آثام، وإذا اشتريت هذه التعويذة، فإنها لن تريح عقلك فقط، بل ستريح عقولنا نحن معشر الكتّاب أيضاً».

«ما هي المأكولات الطيبة التي تشتهر بها مدينتك شيراز والتي يستطيع المرء أن يأخذها معه هدية؟».

«حسناً، مثل الرمان المشهور من مدينة سافيه، أو اللوز من أي مكان، والمرجان من بعض البحار، كانت شيراز مشهورة قبل الثورة بالنبيذ. أما بعد الثورة، حسناً. . . فقد أصبحوا الآن يصنعون نبيذ شيراز في أستراليا وكاليفورنيا».

«من أين تأتي بمثل هذه المعلومات الدقيقة؟ لا تقل لي إنك كنت . . .».

«لا، لا أبداً. . . لقد أخبرني بذلك أحد أصدقائي. . . أنا آسف يا أخي، فإني متوعك قليلاً. إن كنت لا تمانع، يجب أن أعود إلى البيت».

شيراز أيضاً مدينة تتذبذب مع الزمن؛ ففصولها في الماضي، حتى ماضيها الذي يعود إلى سبعمائة سنة، مرآة تعكس زمنها الحاضر، أسير مبتعداً. ولفترة طويلة أشعر بوطأة عيني السيد بيتروفيتش على قفا رقبتي. أستدير وألتفت إلى الوراء. كان لا يزال واقفاً هناك يراقبني. هذه المرة، كان لوجهه الذي يتحرك كالسائل حاجب قصير، وأنف عربي، وعينان منغوليتان، وشفتان غليظتان يكسوهما الدهن تبدوان كأنه تناول لحم خروف سمين يقطر دهناً.

أفضّل أن أكون عصفوراً على أن أكون أفعى

يبدأ المشهد التالي من قصّتنا في إحدى دور السينما. بعد الدردشة ورسائل البريد الإلكتروني على الكمبيوتر بعد الساعة العاشرة ليلاً، خطّطت سارا ودارا لأن يلتقيا في السينما. كان قد رأى أحدهما الآخر لمدة عشر دقائق فقط في القاعة المُنارة، وهما يجلسان الآن في الظلام.

لم تكن في الفيلم الذي اختار دارا وسارا مشاهدته، صور عن سكان المدن في الحياة الإيرانية الحديثة. بل، شأن الكثير من الأفلام الإيرانية المتطفلة على الفن التي تتلقى جوائز ذهبية في مهرجانات سينمائية محترمة في العالم، يصوّر الفيلم حياة البؤس والفقر واليأس في إيران. وفي الدقيقة الرابعة والأربعين من الفيلم، أخيراً، وللمرة الأولى، استندت ذراع دارا اليمنى، وذراع سارا اليسرى، على المسند المشترك بينهما. وما هي إلا دقائق، حتى بدأت ذراع المقعد تهتز.

اسألوني هل هذه هي نقطة الذروة في قصّتي، لكي أقول:

لا . . . ماذا يخطر ببالكم؟

لا علاقة لاهتزاز ذراع المقعد بالتصرفات التي يمكن أن تحدث في قاعات دور السينما المعتمة في الغرب. فقد بدأت ذراع سارا وذراع دارا ترتعشان

بسبب قوة غامضة، من نوع تخاطر الأفكار. إنها القوة ذاتها التي دفعت رجال كهوف لاسكو في فرنسا إلى حفر رسوم سحرية على جدران الكهوف، وربما كانت القوة نفسها التي يمكن أن تشعل فتيل انتحاري في بغداد...

الآن بدأتم تعرفون أنكم لستم إزاء قصّة حبّ عادية. لذلك لا تسألوني ودعوني أخبركم:

كان أحد أكثر المشاهد الجنسية التي رأيتها في السينما إثارة يعود إلى فيلم أُنتج في إيران بعد الثورة الإسلامية. ففي أحد المشاهد، يجد الرجل والمرأة طيراً صغيراً في الشارع. عصفور سقط من الأعلى. يأخذان العصفور إلى مقهى، ويجلس أحدهما قبالة الآخر إلى طاولة صغيرة. وكالعادة فإن المرأة تضع وشاحاً على رأسها وترتدي الشادور، أما الرجل فيرتدي قميصاً ذا كمين طويلين. لأنه يحرّم على الرجال في إيران ارتداء أكمام قصيرة.

تبدأ المرأة بمداعبة العصفور. ثمّ يمدّ الرجل يده فوق الطاولة، وبحرص شديد، لكي لا تلامس أصابعه يد المرأة، يبدأ يداعب رأس العصفور ورقبته. وبشكل متتابع، مداعبة من المرأة، ومداعبة من الرجل... وهما يتحدثان أثناء ذلك عن مشاكلهما اليومية وعن العصافير.

لو سألت دارا، لأمكنه أن يشرح لك ألف مرة عن سير عميلة إنتاج فيلم سينمائي في إيران. فأولاً، يجب الحصول على موافقة إنتاج الفيلم. لذلك، يُسلّم السيناريو والحوار إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي التي تقرر هل من المناسب إنتاج الفيلم أم لا. ثمّ كفاءة كاتب السيناريو، وكفاءة المخرج، وكفاءة الممثلين والمشاركين الآخرين الذين يجب أن تصدّق عليها الوزارة. وبعد كل هذه المراحل التي يمكن أن تستغرق سنة، وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك، تبدأ عملية تصوير الفيلم. لكن المحنة لم

تنته بعد. فبعد المونتاج، يجب أن يُقدم الفيلم ثانية إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي كي تشاهده الجهات المسؤولة بدقة شديدة، وهي إما أن تمنع عرضه على شاشات السينما منعاً باتاً، أو إذا كان منتج الفيلم محظوظاً، فإن هذه الجهات تصدر أوامرها بإعادة النظر في بعض المشاهد أو قطعها كي يحصل على الموافقة لعرضه. وفي المرحلة الأخيرة، تقرر الجهات المسؤولة الموقرة في أيّ دور سينما يمكن أن يعرض الفيلم - في دور السينما في المحافظات، في دور السينما التي توجد فيها مقاعد يمكن الجلوس عليها، أو التي فيها أجهزة عرض تعمل، والتي فيها مكبرات صوت تمكّن المشاهدين من سماع الحوار بين الشخصيات، أو في دور السينما الخربة ذات المقاعد الخشب أو المعدن، وذات الأجهزة السمعية التي تمزج الأصوات كما تشاء، والتي تعبق بالروائح الطبيعية المنبعثة من دورات المياه فيها.

أظن أنه عندما أُنتج فيلم العصفور، كان الشخص المسؤول عن إصدار الموافقة على العرض هو ذاك الرقيب الأعمى المشهور.

لا تبتسموا. إني في غاية الجدّية. فخلال آلاف السنين من تاريخنا، كنا نسعى، نحن الإيرانيين، إلى جعل المستحيل ممكناً. وخلال فترة معيّنة، عندما كانت الرقابة المفروضة على الأفلام والبرامج التلفزيونية على أشدّها، كان الرقيب المسؤول عن القناة الرسمية الثالثة رجلاً أعمى. ولكي يقرر هل كان ينبغي بث أو تنفيذ الأفلام أو البرامج التلفزيونية، كان يجلس شخص أو عدّة أشخاص مع هذا الرجل الأعمى ويصفون له المشاهد، مشهداً مشهداً. وكان هو الشخص الذي يقرّر هل كان هذا المشهد أو ذاك ملائماً للبث أم لا.

هنا يجب أن أبوح بسرّ من أسرار دارا. إذ شارك في اجتماعين اثنين من هذه الاجتماعات.

كيف؟

حسناً، يحبّ بعض الإيرانيين أن يفعلوا أشياء متناقضة. ففي الصباح نمشي في الشارع ونحن نصيح: «عاش مصدّق، رئيس وزراء إيران الوطني»، وبعد الظهر، نسير في الشارع نفسه ونصيح، «الموت لمصدّق، المرتد، الخائن، الانتهازي». وبهذه الطريقة، وبصعوبة، فإننا نساعد مصمّمي عملية أجاكس الذين فقدوا كلّ أمل، والذين يراقبون بذهول تام أن انقلابهم الفاشل قد نجح على أيدي مجموعة من الإيرانيين... وتكراراً لهذا الأمر المتناقض الذي يصنعه الإيرانيون، طُرد عدد كبير من المهنيين المهرة بعد الثورة الإسلامية من وظائفهم، لأنه بدا أنهم لم يلتزموا بالثورة. وللاستعاضة عنهم، تم توظيف الأشخاص الذين التزموا بالثورة، لكنهم لم يكونوا مهنيين مهرة. وكانت الخطة أن يصبحوا بعد عدّة سنوات، وبقوة التزامهم، مهرة أيضاً. لكن العديد من الذين تم توظيفهم مجدداً، كانوا ملتزمين بشدة إلى درجة أنهم لم يكتسبوا المهارة المطلوبة في عملهم. وبعد فترة طويلة، قرر عدد من هؤلاء أن يستغلوا مهارات المحترفين المهرة الذين طُردوا من وظائفهم سرّاً. وبالصدفة، أصبح دارا طرفاً في إحدى هذه العمليات السرية. ففي ذات مساء، عندما أنهى طلاء أحد البيوت وقبض أجره، قرّر أن يذهب إلى المقهى ويدخّن نرجيلة. وبينما كان يدخّن، كان ينصت إلى شابّين يناقشان مشهد مداعبة عصفور في فيلم إيراني. وكدأبه، لم يستطع أن يمسك لسانه، وشارك في الحديث بتقديم نقد حادّ للفيلم من وجهة نظر صاحب النظريات السينمائية المشهور روبن وود. وكان الشابّان اللذان لم يفهما معظم ما كان يقوله، يلاحظان حماسته وشدة إثارته بإبداء سخريتهما صامتين. وعندما أنهى دارا كلامه، التفت إلى الشخص الآخر وسأله:

«هيه، أبتشوك إسي، هل سعدت بتباه هذا الرجل المحترم وغروره؟»

«الرجل المحترم هو خبير في شؤون السينما. إن معلوماته تتجاوز شهادة الذكتوراه التي حصلنا عليها. أظن أنه ابن عم جون واين».

«وأمه صوفيا لورين».

أدرك دارا أخيراً أنهما يسخران منه. استدار، ووقعت عيناه على عينين تنبعث منهما نظرة غريبة. كان الرجل، برفقة شخص ضخم الجسم يبدو أنه حارس شخصي، كان يجلس إلى الطاولة القريبة.

قال:

«يا أخي، يبدو أنك تعرف شيئاً أو شيئين عن السينما».

«قليلاً».

«تعال إلى محطة التلفزيون غداً، إلى القناة الثالثة. عندي عمل لك».

«سيدي! لن يدعوني أدخل إلى مبنى محطة التلفزيون. إن اسمي مدرج على القائمة السوداء».

«ما اسمك؟»

«دارا م.».

«تعال غداً صباحاً في الساعة الحادية عشرة وقل للحارس إن اسمك هو م. دارا. من الآن وصاعداً سيكون هذا هو اسمك في محطة التلفزيون... لا تنس! إذا زلّ لسانك وقلت لهم اسمك الحقيقي، فستوقعني في ورطة. اعتباراً من هذه الدقيقة، ستصبح الخبير لديّ في أمور السينما».

نهض الرجل، وأومأ لحارسه أن يدفع ثمن نرجيلة م. دارا أيضاً. ووضع يده على كتف الحارس، وراقبهما دارا، فاغر الفم، وهما يغادران. التفت أويتشوك إسي إلى صديقه وقال:

«ألم أقل لك إن جون واين هو ابن عم هذا الرجل المحترم؟ فقد

استخدم وسائله الخاصة وحصل على وظيفة. . . وانظر إلينا نحن التعيسين البائسين، حتى جاكي شان لن يشغّلنا لديه كأحمقين يشبعنا ضرباً».

الآن دعونا نتصوّر معاً أحد تلك الاجتماعات التي يعقدها الرقيب الأعمى وفريقه من الخبراء المستشارين الذي يشاهدون الأفلام. في هذا الاجتماع، يتعين عليهم أن يتّخذوا قراراً بشأن فيلم أمريكي مناهض للأمريكيين ـ لم يعد من الصعوبة بمكان العثور على مثل هذه الأفلام في أيامنا هذه، وتمكّن المخبرون في محطة التلفزيون من العثور على هذا الفيلم بعد عملية بحث شاملة في أنحاء العالم. وكان من المقرر أن يُبث في يوم عطلة وطنية، عندما تتصدق محطات التلفزيون على الجمهور وتبث له أفلاماً طويلة. يعقد الاجتماع في غرفة عرض صغيرة خاصّة فيها أثاث رائع، ومكبرات صوت غالية الثمن.

وقبل العرض الخاصّ، يقول الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية:

«سيدي، أنا ضد بثّ هذا الفيلم كلية».

وعندما يُسأل عن السبب، يجيب:

«لأن كلمة «رقص» تظهر في العنوان، وكما تعرفون فإن كلمة رقص نابية وبذيئة».

فيقول دارا بصفته الخبير في الشؤون السينمائية:

«لكن عنوان الفيلم هو «الرقص مع الذئاب». ولا يوجد ثمة عيب في عبارة الرقص مع الذئاب».

فيقول الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية:

«الرقص رقص. هل تظن أن الإيرانيين سيفكّرون بالرقص مع الذئاب عندما يسمعون كلمة «رقص»؟ سيخطر ببالهم على الفور الرقص الشرقي

العربي. أما الذين يقلّدون الغرب، فستخطر لهم رقصة التانغو، وفي اللحظة التي يفكّرون فيها بالرقص، فإنهم سيبدأون بالرقص في الحال. . . إن وزر خطيئتهم تقع على كاهلك يا أخي».

فيقول الخبير في شؤون مناهضة أميركا:

«لكنهم يظهرون في هذا الفيلم كيف كان الهنود الحمر أناساً متحضرين ورائعين وكيف كان الأمريكيون متوحشين. يجب أن نبث هذا الفيلم لكي يدرك الشعب الإيراني أنه من دوننا، إما أن يذبحهم الأمريكيون أو يطردوهم إلى بقعة من الأرض اليباب في أميركا».

ويقول الرقيب الأعمى الذي سنطلق عليه اسم السيّد سين:

«يبدو أنكم جميعكم قد شاهدتم الفيلم. الآن أعيدوا عرضه وأخبروني ما ترونه».

يبدأون عرض الفيلم مشهداً مشهداً، ويضغطون زر «توقف» ويشرحون كل مشهد يرونه في الفيلم بتفصيل شديد، وكل تصرف من تصرفات الشخصيات، حتى إنهم يصفون قسمات وجوهها وحركات أيديها. وكان السيّد سين، بخلاف الخبراء الآخرين، يجيد اللغة الإنكليزية، ولم يكن يجد صعوبة في فهم الحوار في الفيلم، بل كانت المشكلة التي يعاني منها تكمن في المؤثرات الصوتية.

«ما هذا الصوت؟».

يشرحون له أنه صوت عواء الذئب.

«هل أنتم متأكدون؟ لقد سمعت ذلك الصوت في أحد الأفلام الجنسية القذرة. تطلعوا بعمق في المشهد وتأكدوا هل هناك عمل قذر يجري في مكان ما في الخلفية».

يعيدون إرجاع الشريط ويدققون النظر. لا، للأسف لا يوجد شيء يجري في الخلفية. يتابعون تشغيل الفيلم، ووصف مشاهده للسيد سين،

حتى تظهر أول امرأة في الفيلم على الشاشة. وفي أول مشهد للمرأة، يصيح الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية:

«قصّه! قصّه. لا يمكنكم أن تعرضوا هذا المشهد».

يسأل السيّد سين:

«هيا أخبرني، ماذا ترى على الشاشة؟».

«سيدي، دخلت امرأة إلى المشهد وشعرها سافر تماماً».

«هذه ليست مشكلة. إن رؤية شعر امرأة غير مسلمة ليس مشكلة».

«سيدي، هذا ليس كلّ شيء. فجميع الهنود عراة من الخصر وحتى الأعلى».

فيقول الخبير في الشؤون السينمائية:

«حسناً، هكذا كان الهنود يلبسون. إنهم لا يستطيعون أن يُظهروا الهنود وهم يرتدون ملابس عربية».

فيسأل السيد سين:

«وماذا ترون أيضاً؟».

فيقول الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية الذي أصبح في حالة شديدة من الانفعال:

«سيدي، اسأل الخبير في الشؤون السينمائية. في رأيي أصبح بروز نهديها ملحوظاً تماماً».

فيقول السيد سين:

«إذا لم يكونا مكشوفين، فلا توجد مشكلة».

«إنهما ليسا مكشوفين. لكن ماذا عن الهنود الرجال؟ لقد صبغوا وجوههم بألوان غريبة، والطريقة التي يرفعون بها شعر رؤوسهم وأذرعهم العارية شيء مخيف».

فيقول السيّد سين:

«حسناً، لا توجد مشكلة إذا ارتعب المشاهدون».

«لكن يا سيدي، ليس الهنود هم الذين يخيفونني. إذ إن زوجاتنا وزوجات شعبنا الأخريات سيشاهدن هذا الفيلم أيضاً. ألا ترى أن رؤية أجسام هؤلاء الهنود الضخمة قد...».

فيقول السيد سين:

«لقد بثثنا عدّة أفلام كاوبوي إيطالية، وكما قيل لي كان الهنود الحمر الإيطاليون نصف عراة أيضاً، ولم يتذمّر أحد. لذلك لا توجد مشكلة».

فصرخ الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية:

«سيدي! لماذا ليست مشكلة؟ فهؤلاء الهنود المثيرون مشكلة من رأسهم حتى أصابع أقدامهم».

فرد السيد سين صائحاً:

«يا رجل، لقد قلت لك إنها ليست مشكلة. كفّ عن التوتر هكذا!».

ثمّ سأله بذكاء:

«النر. كم طوله؟»

وهنا تدخّل الخبير في الشؤون السينمائية مبتهجاً:

«سيدي، إن طوله حوالى أربع أقدام وله بطن كبيرة جداً».

ويستمر العرض.

وقُصَّ المشهد الذي يضاجع فيه الزوج الهندي زوجته الهندية.

وهنا يصيح الخبير في الشؤون المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية:

«توقف! يا سيدي! أوقف الفيلم».

السيد سين الذي يمسك بنفسه بجهاز التحكّم عن بعد يضغط زر التوقف.

«لا تتجادلا. فقط أخبراني ماذا تريان».

«سيدي، تقف المرأة في بركة ماء وترفع تنورتها. كأنها شيرين وهي تستحمّ في بركة الماء، ونحدّق فيها نحن مثل خسرو، زير النساء الفاسق، شارب الخمر».

«حسناً، النساء جميعهن يرفعن تنانيرهن إلى الأعلى عندما يخضن في الماء. ليس الأمر كما لو كانت تلبس بيكيني».

«لكننا نستطيع أن نرى ربلتي ساقيها عاريتين».

«ماذا عن الأعلى؟ هلّ تستطيعان رؤية ركبتيها؟».

«نعم يا سيدي. الأكثر من ذلك، بعض أجزاء من فخذيها مكشوفة أيضاً».

«حسناً، قص هذا المشهد».

ويُقص أيضاً مشهد التقبيل، وكذلك المشهد الذي ينكشف فيه بطن الممثلة.

فيقول دارا الذي أصبح غاضباً الآن:

«سيدي، في هذه الحالة، لم يعد للفيلم أي معنى. ففي المشهد التالي عندما يتحدث الرجل والمرأة بحميمية، سيتساءل المشاهدون ماذا حدث، متى أصبحت هذه المرأة ودودة مع كيفين كوستنر؟».

فيقول السيد سين، وقد لاحت على وجهه ابتسامة خبيثة:

«إن مشاهدي هذه الأفلام أذكياء وسيعرفون ما حدث من تلقاء أنفسهم. وإن كان بإمكانهم تخيّل ما حدث في المشاهد التي قطعناها، يكون الفيلم عندها قد أحدث تأثيره من دون أن نبثّ المشاهد اللاأخلاقية».

ويقول الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«سيدي، عند دبلجة الفيلم، يمكننا أن نجعلهما شقيقين كان قد أضاع

أحدهما الآخر منذ زمن بعيد، ثم وجدا بعضهما الآن. في تلك الحالة، يمكننا أن نعرض مشاهد من حديثهما معاً».

يعارض الخبير في الشؤون السينمائية:

«سيدي! لكنْ هناك مشهد يتزوّجان فيه بحسب التقاليد الهندية. فقد أُرسلا إلى خيمتهما الهندية، وهو يمسك بيدها. وتهلل النساء الهنديات كما تزغرد نساؤنا في حفلات الأعراس».

فيجيب الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«لهذا حلّ أيضاً. عند دبلجة الفيلم، يمكننا أن نجعل أحد الهنود يقول إن هذه إحدى العادات الهندية القديمة حيث يعود الأخوة والأخوات الذين أضاعوا بعضهم منذ سنوات والذين وجد أحدهم الآخر ويصبحون أخاً وأختاً مرة أخرى».

يقول السيد سين:

«قُصّ هذا المشهد».

في عمليات التوقيف، والتشغيل، والإعادة، والمناقشات بينهم، كانت قد مضت سبع ساعات الآن، ولا يزال الزمن يمر إلى أن يصيح الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية في منتصف أحد المشاهد فجأة:

«اقطعه! اقطعه! لقد تباوسا. لقد قبّل أحدهما الآخر».

وتعقب ذلك مناقشة بما ينبغي عمله حيال هذا المشهد. فيقول الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«كنت أتمنى أن يقبّل أحدهما الآخر كما يقبّل الأخ أخته. في هذه الحالة، إذا صوّرناهما كشقيقين، فإن المشاهد سيجد ذلك شيئاً مقبولاً تماماً».

فيقول السيد سين:

«في تلك الحالة، لو رأى المخرج نسختنا المدبلجة فمن المؤكد أنه

سيوافق عليها، لأنهما لو كانا شقيقين، ولو وجد أحدهما الآخر بعد سنوات عديدة، لأصبح الفيلم أكثر درامية».

يرتعش دارا غضباً ويقول هادراً:

«عندها سيصبح فيلمه مثل أفلام بوليوود، أو الأفلام الإيرانية».

محبطاً، يقول السيد سين:

«حسناً. . . اقطع هذا المشهد أيضاً، لكن لا تقطع المشهد السابق الذي يقرّب فيه أحدهما رأسه من رأس الآخر. بهذه الطريقة سيظن الجمهور أنهما يريدان أن يتهامسا بأحد الأسرار المهمة عن الذئاب أو الهنود».

تستمرّ عملية الرقابة من دون أيّ مشاكل أخرى، ويتنفس كلّ منهم الصعداء لأنه لم تكن هناك مشاهد أخرى تستحق القص والبتر.

في الوقت نفسه تقريباً، بينما نشاهد فيلماً على التلفزيون، نرى فجأة أنه بعكس أسس صناعة الأفلام، وعلى نقيض المبادئ الأساسية في صناعة السينما، تتغير لقطة متوسطة فجأة لتصبح لقطة قريبة. لقطة مجسّمة باهتة جامدة. يستغرق الأمر لحظة لندرك أن هذا لا يحدث إلا عندما تدخل الممثلة إلى المشهد. وبعد الكثير من البحث، علمنا أنه لكي نتجنّب تقطيع الأفلام بحوالى خمس وأربعين دقيقة، ولأن حذف بعض المشاهد يُفقد الفيلم معناه، وجد المسؤولون عن مراقبة البرامج التلفزيونية، باستخدام أحدث التقنيات حلاً فنياً سينمائياً. فإذا كانت الممثلة في أحد المشاهد المهمة ترتدي قميصاً من دون كُمّين أو تنورة قصيرة، فإنهم يعيدون أخذ لقطات من وجهها في لقطات مقرّبة ويحشرون هذه اللقطات في الفيلم. وإذا أتيحت لكم المناسبة لتروا إحدى تلك النسخ المعدّلة أو المرمّمة بدقة، أرجوكم أن تنقلوا للمخرج دهشتي الحقيقية بالنيابة عني.

«ماذا توقّعتم؟ توقّف عن الرفس وعن الصراخ وتوجه للصلاة وحمد الله.

أليس هذا أفضل من أن تقص بمقصك الأذرع والسيقان والنهود في فيلمك؟».

في مثل هذه الظروف نزل الوحي الأوليمبي في ذلك المشهد الخلاّق الذي يصوّر رجلاً وامرأة يداعبان عصفوراً على صانعي ذلك الفيلم. وثمة نقطة مثيرة أخرى تتعلق بهذا الفيلم وهو أن العصفور كان أفضل ممثل فيه، لأنه لم يبد أي محاولة للهرب من قبضة ذلك الرجل وتلك المرأة، ولم يبد أي اعتراض على ظروفه التعذيبية المؤلمة. فقط تخيّل نفسك عصفوراً لا حول لك ولا قوة في يدي رجل وامرأة يشتهي أحدهما الآخر على نحو يائس، لكن لم يلمس أحدهما الآخر أبداً. والآن، رغماً عنهما، يرتديان ثيابهما بالكامل، وهما في مكان عام، ويجلس أحدهما قبالة الآخر، ويتناوبان على مداعبتك. يمر الوقت، وتبدأ الهرمونات المستترة ترشح وتنضح، وهما يواصلان مداعبتك، والمخرج، الذي ربما كان معجباً بإلهامه بهذا المشهد الفني، يدعو إلى تقديرات متعدّدة. فلو كان أيّ منّا في مكان ذلك العصفور، بين قبضتي رجل وامرأة مستثارين إلى أبعد درجة، فإني أشكّ في أنه ستبقى فيه عظمة واحدة سليمة. . .

ما زال دارا وسارا في صالة السينما، يجلسان وذراع أحدهما قريبة من ذراع الآخر. ومن دون عصفور يداعبانه، لا يوجد لديهما الكثير يفعلانه إلا أن يشاهدا هذا الفيلم الإيراني الفني. وتدور قصة الفيلم عن فتاة وفتى عاشقين. وكان الفتى قد طلب يد الفتاة للزواج، وقال له والد الفتاة لأنه لا يملك بيتاً، لن يقبل به زوجاً لابنته. ثم حدث زلزال، ودُمّرت جميع البيوت، فعاد الأمل إلى نفس الفتى، لأن الجميع أصبحوا الآن مشرّدين، لا يوجد بيت يؤويهم، وربما أصبح والد الفتاة الآن يوافق على زواجهما. سارا ودارا مأخوذان بمشاهد فيلم عباس كياروستامي، والحزن والألم يعتصرهما

إلى حد أنهما نسيا أن هذه هي المرة الأولى التي يجلسان فيها قريبين من بعضهما. وخلال المشاهد النهائية من الفيلم، تترقرق الدموع في عينيهما.

بعد أن يغادرا دار السينما، يسيران معاً صامتين لفترة طويلة. ثمّ تلاحظ سارا أن دارا يتعمد أن تتوافق خطوته مع سير خطوتها، وكأنهما يسيران في عرض عسكري.

سارا تبتسم وتشير إلى قدميّ دارا وتسأله:

«لماذا تفعل ذلك؟».

«لا أعرف. اسألي قدمي».

«لماذا صوتك يرتعش؟».

«اسألي قلبي».

بهذه الجملة، يبدأ قلب سارا يخفق بسرعة.

يسألها دارا:

«ماذا يجب أن نفعل الآن؟».

«لا أعرف، اسأل قدرنا».

«أين هو قدرنا؟».

«لا أعرف، اسأل مصيرنا».

يقول دارا في نفسه، أدعو الله ألا يكون مصيرنا بين يدي كاتب جبان، بائس، يناله مقص الرقيب... وبلا وعي، وبخلاف العشاق في أرجاء المعمورة، يتجنبان أن يتمشيا في الشوارع الهادئة والأزقة الجميلة التي تحفّها الأشجار. إذ إن السير فوق رصيف مزدحم، يعجّ بالمارة، يقلّل من خطر رؤيتهما واعتقالهما. لكن لا تستطيع سارا، ولو للحظة واحدة أثناء جولتهما البريئة هذه، أن تنسى الخوف الذي يسيطر عليها من إلقاء القبض عليهما. ففي السنة الماضية، عندما عادت إحدى زميلاتها إلى الجامعة بعد

غياب شهر كامل، وهي في حالة نفسية سيئة، أخبرت سارا أنه ألقي القبض عليها هي وصديقها قبل شهر عندما كانا يتفرجان على العصافير في حديقة عامة هادئة. وفي الليلة الأولى من توقيفهما، أخذوها إلى الطبيب الشرعي للتأكد هل كانت لا تزال عذراء أم لا. ثمّ اتصلوا بأبويها. وقبل أن يطلقوا سراحها، أخذوا منها تعهداً خطياً بأن لا ترتكب مثل هذا الإثم ثانية، ووُجهت بدموع أمّها التي لم تتوقف لا هي ولا أبوها المتعصّب ولا أخوتها عن توبيخها وتأنيبها بقسوة تخلو من الرحمة. وأخذ الجميع، حتى أقرباؤها، يوبّخونها لأنها جلبت العار للعائلة كلها. وباحت صديقة سارا لها، بعينين باكيتين، بأنه لم يسمح لها بأن تأتي إلى الجامعة أو حتى أن تغادر البيت. وكانت حالتها النفسية محطمة، وشعورها بالمهانة عميق جداً إلى درجة أنها لم تكن تريد أن يراها أحد خلال ذلك الشهر. وقد مارس عليها أبوها وأخوتها ضغطاً شديداً حتى أُجبرت في نهاية الأمر على أن تبوح بعنوان الشاب الذي كان معها. وعندما أُطلق سراحه بعد عشرين يوماً من الاحتجاز، حاصره أخوتها وعمّها الجلف في أحد الأزقة وأوسعوه ضرباً. وقد تعلّمت صديقة سارا درساً قاسياً نتيجة لقائها الرومانسي حتى إنها أصبحت تخشى، من دون شعور منها، أن تقترب من أي فتى على الرصيف. وبالطبع، ساعدها الزمن على نسيان عذاب هذه الحادثة ومهانتها، وخاصة بعد أن اشترت عندليباً في قفص من محل لبيع الحيوانات الأليفة من دون أن تعرف السبب، وأمضت ساعات بعد الظهر الكئيبة المملة وهي تراقبه، وتنصت إليه، وتحاول مداعبته.

وشأن جميع الأشخاص الذين يتبادلون الذكريات الحلوة عن ماضيهم في الأيام الأولى من صداقتهم، بدأت سارا تبادل دارا ذكريات صديقتها من سنوات الدراسة في المدرسة الابتدائية والثانوية.

«كنا قد أصبحنا صديقتين منذ أول يوم من دخولنا الصف الأول. وعندما أصبحنا في التاسعة من عمرنا، قالوا لنا إنهم أرادوا إقامة حفلة لنا. ومنذ اليوم الذي يحتفلون فيه ببلوغنا، لن يعود بإمكاننا أن نصعد إلى خشبة المسرح، إن لم نكن معاً. وقد أخبرونا قبل شهر من موعد إقامة الاحتفال. واشترت لنا أمهاتنا أردية بيضاً وأغطية رأس بيضاً أيضاً. وأعطونا في المدرسة جناحين ثبتناهما بالدبابيس في ظهرينا ويدونا كملاكين. كان كلّ شيء جميلاً. كنّا فتاتين في التاسعة من عمرنا، وقيل لنا فجأة إننا كنا مثل ملاكين. لكن في صباح اليوم الذي سبق الاحتفال، بدأت معلّمتنا تخبرنا أشياء لم نتمكن من فهمها. فقد قالت لنا إننا بعد أن نصل إلى سن البلوغ، فإننا سنصبح في عداد النساء، وإننا سنعيش كما تعيش النساء. وأخبرتنا أننا يجب أن نبدأ اعتباراً من الآن بتأدية صلاتنا اليومية بشكل صحيح وبالكامل. حتى هذه النقطة، كان كلّ شيء على ما يرام. فقد كنت أحبّ دائماً أن أصلّي وأن أطلب من الله في نهاية صلاتي أن أحصل على أعلى الدرجات في امتحاناتي. لكن المعلّمة بدأت تخبرنا أشياء عن أجسامنا وعن أنوثتنا فبثت الخوف فينا. تحدّثت عن النزيف في أجسامنا، لكنها لم تقل من أين. قالت إننا سنكتشف ذلك لاحقاً. وفي صباح كلّ يوم، عندما كنا نستيقظ، كنت أنا وصديقتي ندقّق في ذراعينا وساقينا لنرى إن كنا ننزف... كان كابوساً يومياً. حتى إنها قالت لنا إننا بعد هذا الاحتفال سنبلغ من العمر ما يكفي لنصبح نساء ويمكن أن يصبح لنا أزواج... لم يكن اليوم جميلاً. ظننت أننا بعد أن ننهي الغناء، ونصفق بأجنحتنا مثل ملاكين على خشبة مسرح المدرسة، فإنهم سيخرجونني من المدرسة ويأخذونني إلى بيت رجل ضخم الجسم، قبيح الوجه ويزوجونني إياه... كنت مذعورة إلى درجة كبيرة».

كانت سارا محقّة في أن يعتريها الخوف، لأنه بالرغم من أن المثقفين الإيرانيين كانوا قد أدركوا منذ سنوات أننا يجب أن نتكلّم مع أطفالنا ونعلّمهم الثقافة الجنسية في مدارسنا وفي بيوتنا، فإننا لا نزال نمنع الحديث في هذا الموضوع المهم، ونؤجّله شهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، حتى يأتي وقت إذا سأل فيه الصبي أباه، كيف جئت إلى هذه الدنيا، يقول أبوه المتأثر بأفلام الرسوم المتحركة الغربية، حسناً ذات ليلة، جلبك السيد ستورك في صرة، ووضعك عند الباب، فيقول ابنه على الفور، أيها الساذج المسكين، تريد أن تقول لي إنك لم تفعلها مع أمي؟ ولا حتى مرّة واحدة؟

لقد تعرضت أنا نفسي إلى مثل هذه المشكلة. فقد كان ابني يكبر شهراً بعد شهر، ويقترب شيئاً فشيئاً من سنّ البلوغ. ومع أنني كنت قد ربيته وعاملته كصديق، كلما كنت أوشك أن أعلمه أشياء عن الجنس، كان يعتريني شعور بعدم القدرة، بل حتى شعور بالإحراج. وكنت أبحث باستمرار عن عذر لأفتح معه باب الحديث، لكن بينما كان ابني البريء ينتظرني لأعلّمه عن اللقلق والليل وما شابه ذلك، لم أفعل ذلك. إلى أن، وبمحض الصدفة، وفي قلب برلين، بدأت الطبيعة والحياة البريّة تعلّم ابني الحياة الجنسية حرفياً، ربما بأعنف أسلوب، وربما بالطريقة الطبيعية جداً.

كيف؟ قلب برلين والحياة البريّة...؟!

نعم. بالطبع لم يكن ذلك في أيام النازيين، بل كنا في عام ٢٠٠٠. إذ كنت قد دعيت إلى برلين لحضور مناسبة أدبية وأخذت معي ابني. في تلك الأيام افتتن ابني، بالإضافة إلى ديناصورات سبيلبيرغ، بالحياة البريّة أيضاً. فقد كان يدأب على رسم صور أسماك القرش والنمور السود، ولا أعرف هل كان لهذين الحيوانين أم لا صلة أو علاقة بفتى في الثانية عشرة من عمره يقترب من سن البلوغ. ففي أحد الأيام خرجنا وذهبنا إلى حديقة

حيوانات برلين الرائعة. كان يوماً جميلاً ولا يمكن لأحد منا أن ينساه. أمضينا وقتاً رائعاً ونحن نتفرج على الحيوانات المختلفة. كنا نؤلف نكاتاً عنها، وكان ابني يصوّرها ليري الفيلم لزملائه، ثمّ سمعنا الأسود تزأر. توجهنا نحوها. كانت اللبوة تتصرّف بغرابة بعض الشيء، فقد كانت تتدحرج على الأرض، ويصدر عنها أنين غريب. خيّل إلينا أنها تعاني من ألم في معدتها، وخلصنا إلى أن مشرف الحديقة لم يكن يعتني بهذه الحيوانات المسكينة كما يجب.

سألني ابني:

«ما مشكلة الأسد؟».

ومثل طبيب بيطري خبير، قلت:

«من الواضح أن المسكينة مصابة بغازات في بطنها».

لكن فجأة، أمام عيون الأب والابن المذهولة، مشى الأسد بكلّ فخامته وجلالته متبختراً، وامتطى ظهر اللبوة، وتقوّس فوقها وانهمك في مجامعتها.

سألني ابني:

«ماذا يفعل؟».

نظرت إلى ابني بطرف عيني. أصبحت عيناه مدورتين بشكل غريب. غمغمت:

«الآن، انظر فقط. سأخبرك فيما بعد».

أراد ابني أن يصوّر المشهد، لكن لحسن الحظ كانت بطارية الكاميرا قد فرغت تماماً بعد أن صوّر النمر الأسود لمدة طويلة. أقول «لحسن الحظ» لسببين: الأول، لأنه مثل السيّاح اليابانيين المنهمكين في التصوير والتقاط الصور للأسد واللبوة، الذين لا يرون غضاضة في ذلك، فإن ابني سيفتقد

المشهد الحقيقي. والثاني، أن أخذ شريط مصوّر عن عملية سفاد مكشوفة بين أسد ولبوة إلى إيران ليس أمراً حكيماً على الإطلاق. فإذا دققوا في الفيلم كما يفعلون عادة في الجمارك، من الممكن أن يلقى القبض علينا بتهمة استيراد فيلم إباحي، وهو فيلم نادر في هذا المجال، ويُزج بنا في المكان الذي قبع فيه دارا.

بعد رؤية هذا المشهد فقدت إحساسي بالكبت أخيراً، ونحّيت جانباً الرقابة الذاتية التي يعود عمرها إلى ألفين وخمسمائة سنة، وألقيت محاضرة علمية كاملة عن الجنس لابني. ظلّ يهز رأسه ممعناً في التفكير، ويقول بين الحين والآخر:

«همممم...»

الآن بعد مضي بضع سنوات على ذلك اليوم، وبعد أن اشتريت له بمتعة كبيرة آلة حلاقة كهربائية، أتساءل أحياناً، ماذا لو أن هذا الفتى الذي تعلّم درسه الأول في الجنس من رؤية أسد يمارس فعلته، يريد أن يفعل مثل الأسد؟

وبعيداً عن الأسود، وصلت سارا أثناء مبادلة دارا ذكرياتها مع دارا إلى السنوات الأخيرة من المدرسة الثانوية.

«خلال السنة الأولى في المدرسة الثانوية، كانت قد درجت الموضة على أن تنتعل الفتيات أحذية ذات ألوان غير اللون الأسود. كانت موضة لطيفة، وكانت تتماشى مع الشادور وأغطية الرأس السود. والواحدة تلو الأخرى، بدأت الفتيات ينتعلن أحذية ملوّنة، حتى جاء يوم أعلنت فيه معلّمة التربية البدنية في مكبرات الصوت أن القدوم إلى المدرسة بأحذية ملوّنة ممنوع لأن انتعالها شيء سوقي ومبتذل. ومنذ صباح اليوم التالي، بدأت هي ومديرة المدرسة تقفان عند مدخل المدرسة وتفتّشان حقائبنا كل يوم للتأكد هل كان

فيها صور ممثلين. في ذلك اليوم، لم تمنعا الفتيات من دخول المدرسة وهن يضعن قليلاً من المكياج فحسب، بل طلبتا من الفتيات اللاتي ينتعلن أحذية ملوّنة، أن يعدن أدراجهن إلى البيت لتبديل أحذيتهن.

«مضت فترة، وخيّل إلينا أنا وصديقتي فجأة، بالرغم من عدم السماح لنا بانتعال أحذية ملوّنة، أن وضع أربطة أحذية ملوّنة ليس محظوراً، لذلك ذهبنا ذات يوم إلى المدرسة وقد وضعنا أربطة أحذية حمر وخضر. ولم تتوقف زميلاتنا عن الإشارة إلى أحذيتنا بدهشة، ثم ذهبت إحداهن وأخبرت معلّمة التربية البدنية التي أخذتنا إلى مكتب المديرة. في البداية، ألقت علينا محاضرة طويلة عن كيف أننا نثير الذئاب القابعة خارج المدرسة التي ستنقض على الفتيات الساذجات أمثالنا، ثم أمرتنا بأن لا نضع أربطة أحذية ملوّنة بعد الآن، فقلنا لها: «لكن يا سيدتي، لم تخبرينا أنها ممنوعة»، فقالت: «حسناً إنني أقول لكما ذلك الآن...». المثير في الأمر أننا بدأنا نرى في اليوم التالي فتيات في الشارع ينتعلن أحذية سوداً ذات أربطة خضر أو صفر. كان ذلك وكأننا قد ألهمنا في الوقت نفسه... كما تعرف، فإن هذا في حد ذاته نوع من الاحتجاج. أن نبدو جميلات هو نوع من الكفاح».

اعترف دارا قائلاً:

«أنتن النساء الإيرانيات كنتن دائماً أكثر إبداعاً وشجاعة منّا نحن الرجال».

ضحكت سارا وقالت:

«لكن هذه ليست القصّة كلها. ذات يوم يجب أن أخبرك عن الوقت الذي نضع فيه أزراراً بألوان مختلفة على الشادور الأسود».

وكما لو أنها تذكّرت شيئاً بغتة، توقّفت سارا عن الضحك، وتطلعت

حولها بنظرات قلقة. من المؤسف أن ذلك غير ممكن، لكن إذا كان بإمكان دارا أن يرى غرفة نومها، فإنه سيرى خطوطاً سميكة ورفيعة مختلفة الألوان مرسومة على جدران غرفتها، مثل رسوم لا شكل لها رسمها طفل قبل أن تتخذ شكلاً بعد طلائها بألوان بسيطة.

تلقائياً، يتوقّفان كلاهما أمام مجموعة من الكتب الممدودة على الرصيف يبيعها بائع كتب متجول. لقد ضاعت طهران ثانية مع مرور الزمن، وليس من الواضح إن كانت الشمس مشرقة، أم أنها تميل إلى الغروب فوق سماء المدينة. تسأل سارا مازحة الرجل العجوز ذا الشعر الأبيض الطويل:

«سيدي، هل لديك رواية «البومة العمياء؟»ا

جالساً فوق كومة من الكتب، يجيب الرجل العجوز بمرارة:

«أوه، يا سيدتي! لماذا تبحثين عن البومة العمياء؟ جميعنا بوم عمياء».

«لا سمح الله! لا تكن كئيباً ومتشائماً إلى هذه الدرجة».

يحدّق الرجل العجوز بإمعان في عينيّ سارا. وجهه اللطيف مألوف لدارا، وكتبه مجموعة غريبة من الكتب القديمة والجديدة الملقاة عشوائياً على الأرض. كتاب بلانك عن فيزياء الكمّ، ورباعيات الخيّام، وموجز تاريخ الزمن لستيفن هوكنغ، والنحل ودحض نظريات ماركس، والسيرة الذاتية لذلك المرتزق صدام حسين، وليالي ألف ليلة وليلة، والشعر الإيراني الحديث، والكتاب الأخضر لمعمر القذافي، والمجتمع المفتوح وأعداؤه بقلم بوبر، وعلم نفس الحبّ لسترنبيرغ، وآيخمان: حياته وجرائمه، والفرسان الثلاثة، وسبع وسائل فعّالة تجعلك تقلع عن تعاطي الأفيون، والمتاهة لبورخيس، والدليل الإسلامي إلى الجنس، وزين، والجنس الآخر لسيمون دي بيفوار، وكتاب الحب للرومي، والوجودية،

وفلسطين، وسبع طرائق لاستحضار الأرواح، ومائة عام من العزلة، وأزهار الشر لبودلير. . .

عندما يرى دارا أشعار بودلير المترجمة، يتذكّر فجأة من هو الرجل العجوز. تنتابه الصدمة. لم يتوقّع أن يرى شاعر إيران الرومانسي العظيم وهو في مثل هذا الحالة. فقبل الثورة، في المجلات الأدبية والمجلات النسائية التي أصبحت الآن تباع وتشترى سرّاً، كان دارا يرى الأجزاء الخاصة بالشاعر وصورته ـ رجل حزين ذو شعر مشعّث طويل، وسيجارة بين أصابعه، وجبهته مستندة إلى يده، وعيناه تحدّقان في نقطة بعيدة عن الكاميرا ـ وإلى جانب صورته قصائد حبّ إيروتيكية تمتدح جميعها أجساد عشيقاته اللاتي كانت كلّ واحدة منهن تظن أنها آخر عشيقاته. وبعد الثورة لم تصدر موافقة لطباعتها أو إعادة طباعتها.

دارا يسأل:

«ألست السيد ن. م. واين؟».

كان هذا الاسم المستعار للشاعر.

يجيب الرجل العجوز بحدّة، وهو لا يزال يحدّق في وجه سارا بإعجاب:

«كنت. . . الآن، أشعر بالأسف اليوم لأنني كتبت شعراً ذات يوم».

وعلى الرصيف المزدحم، يتوجه السابلة إلى واجهات المحلات المنارة، وإلى سلع الباعة المتجولين الآخرين إلا هذا.

الشاعر العجوز يلتفت إلى سارا ويقول:

«إن كنت مهتمة بالمخطوطات القديمة، فعندي مخطوطة يعود عمرها إلى خمسمائة، ستمائة، سبعمائة سنة. إنها من مكتبتي الشخصية الخاصة. سأبيعها لك بمبلغ زهيد جداً».

ينهض من فوق كومة الكتب. عندها فقط يرى دارا وسارا حوالى خمسة عشر مجلّداً مغلفاً بأغلفة جلدية قديمة مذهّبة. ينبعث من الكتب صدى قديم ضائع.

الرجل العجوز يدعو سارا لأن تقترب وتقف بجانبه. يفتح إحدى المخطوطات ويقدمها لها فتلامس أصابعه أصابعها. دارا يرى يد الرجل العجوز المداعبة من دون حماسة... صفحات المخطوطة من ورق سمرقند اصفرّت مع مرور الزمن، وأصبحت هشّة، وكانت كلّ صفحة مزدانة بأشكال ذهبية مختلفة. تتصفح سارا المخطوطة بعناية شديدة. يظهر رسم بمنمنمات على الصفحة بأكملها أمام عينيها. ظلال نادرة من اللونين الأزرق السماوي والقرمزي تلمع في وجهها وحبات عرق صغيرة تتلألأ فوق شفتيها.

«أيتها الشابّة الجميلة، هذه القصة المخطوطة شعراً تتحدث عن خسرو وشيرين تعود إلى خمسمائة وثمانٍ وثلاثين سنة... هل تعرفين خسرو وشيرين؟».

مشدوهة، لا تستطيع سارا إلا أن تهزّ رأسها.

مندهشاً، يقول دارا:

«لو كان هذا الكتاب أصلياً، فإنه يساوي عشرة أو عشرين مليون تومان، وربما أكثر بكثير...».

الشاعر العجوز، لا يزال ثملاً من رائحة جسد سارا، وغاضباً من مقاطعة دارا له، يدمدم من دون أن ينظر إليه:

«لم أملك في حياتي شيئاً مزيفاً. إن وجدت الشخص الذي يريد حقاً هذا الكتاب، فإني سأبيعه له أو لها بثمن زهيد. أيتها الفتاة، هل تريدينه؟».

سارا تحدّق في عينيّ الرجل العجوز. إنها المرّة الأولى التي يرى فيها دارا مثل هذه النظرة في عينيها. يتجمّد رعباً. في هاتين العينين السوداوين الكبيرتين، الاحترام، الافتتان القديم، الرغبة؛ النظرة الأخيرة المنبعثة من كبش الفداء، الجشع، غضب امرأة مغتصبة، وعواطف غير معروفة أخرى أطلقت كيمياء خاصة.

يقول دارا متوسلاً:

«سارا، هيا بنا نذهب».

سارا، لا تزال تحدّق في عيني الرجل العجوز، تقول:

«لماذا تتخلى عن ممتلكاتك الثمينة؟».

فيقول الشاعر بمرارة:

«~~هذا البلد لم يعد بحاجة إلى الشعراء والكتب~~. فقط قولي لي أيتها الفتاة الجميلة، هل تريدينها؟».

يبدو أن المخطوطة تبعث قوّة سحرية لا تقاوم في جسد سارا.

«نعم... كم تريد ثمناً لها؟».

«لا أريد نقوداً».

«إذاً ماذا تريد؟».

ما تزال عينا كلّ منهما تحدّق في الآخر، يصيح دارا:

«سارا...»

«هل أنتِ واثقة من أنك تريدينها؟».

«قلت نعم. كم يجب أن أعطيه؟».

ينظر الرجل العجوز إلى خصلة الشعر التي تسللت خارج غطاء رأس سارا... ويهمس:

«غطاء رأسك... الآن».

سارا تغلق الكتاب بقوة. هالة من الغبار الذهبي يغلّف يديها.

«هنا؟».

«هنا، والآن. . . إذا لم تمتلكي الشجاعة لفعل ذلك فاذهبي من هنا».

تنظر سارا إلى الناس الذين يسيرون على الرصيف، وأمام المحلات، وإلى دارا الغاضب. إن الطلب من فتاة إيرانية مثل سارا أن تقف على رصيف في أحد شوارع الجمهورية الإسلامية لهو أكثر الطلبات المعيبة. ومن دون أن يُرى، ومن دون أن يُلمس، يمكن للمرء أن يخمّن أنه في هذه اللحظة بالذات، بدأ العرق يغلي بين نهدي سارا وفي باطن فخذيها.

«هل تفهم حقيقة ما تطلبه؟ ألا تخجل من نفسك؟».

«حتى لو كان يجب أن أخجل من نفسي، فإن فتاة مثلك يجب ألا تخجل. هل ستخلعينه أم لا؟».

«سأشعر بالخزي».

«هذا تماماً ما أريده. قرري الآن».

دارا يقول مستجدياً:

«لا، يا سارا. . . لا. . .».

تضع سارا الكتاب تحت ذراعها وترفع يدها إلى عقدة غطاء رأسها. الآن، يظهر العداء في عينيها. يحدّق الرجل العجوز في هاتين العينين بشبق انبعث من القبر.

«لا، سارا. حتى تفكّري مجرد في الأمر! لا تدمرينا!».

بحركة سريعة واحدة، تنزع سارا الخمار عن رأسها وترميه إلى الرجل العجوز. ومن بين السابلة السائرين فوق ذلك الرصيف المزدحم، ترى عيون عدد منهم، غير مصدقين، اللمعان الأسود المنبعث من الشعر المسترسل ويخيّل إليهم أنهم يرون بقلق أيامهم الباهتة. مذعوراً، يتطلع

دارا حوله. فإذا رأت الشرطة أو دوريات حملة مكافحة الفساد الاجتماعي هذه الفتاة التي تجرأت ونزعت غطاء رأسها في الشارع، فسيلقون بها بسرعة وبقسوة في سيارتهم ويأخذونها. سارا، كما لو كانت دائخة، تمسك المخطوطة بقوة وتضمها إلى صدرها، ولا تزال لم تأت بأي حركة لمغادرة ذلك المكان. وشيئاً فشيئاً، يزداد عدد الناس الذين يشاهدونها. رجال ذوو نظرات فاسقة، وابتسامات مليئة بالبهجة، يتحلقون حولهم في دائرة، ويبدي بعضهم ملاحظات وقحة. ينظر دارا إلى الرجل العجوز بعينين مليئتين بالكراهية، لكن الشاعر العجوز، الذي لا يراه أحد آخر، يرفع غطاء الرأس إلى أنفه، وأخيراً، مُنهكاً، تهيمن عليه موجة من الانفعال والهذيان، يجلس فوق كومة المخطوطات.

دارا يصرخ:

«سارا، هيا نذهب!».

يخطو فوق الكتب الملقاة على الأرض، ويمسك بيد سارا التي كانت تقف هناك مثل أرنب مشلول تحدّق في الذئاب المحيطة بها.

«أيتها الفتاة المجنونة! ماذا فعلت!».

يمسك دارا بكمّ سارا ويجرّها وراءه. وبذراعه وبكتفه، يشق طريقه عبر دائرة الرجال، ويكاد يجري ومعه سارا. فعندما كانا محاطين بهؤلاء الرجال، كانا على الأقل آمنين من عيون الدوريات التي تطوف في الشارع. وصُدم المارة عندما رأوا شخصين وهما في هذه الحالة، وتملّكهم الخوف، حتى إن بضعهم أفسح لهما الطريق. وفي جحيم عقله، أخذ دارا يبحث عن منفذ للهروب. ثم لمعت في رأسه فكرة. إذ نتح الكتاب، ووضعه على رأس سارا، وصاح فيها بأعلى صوته بأن تمسكه وتضعه على رأسها. أخذا يجريان، مخلفان وراءهما الرجال الذين

كانوا يودّعونهما بعبارات سوقية فجة. وعندما وصلا إلى محل لبيع الألبسة النسائية، دفع دارا سارا إلى داخله.

أخذ عدد قليل من المتسكعين الذين شاهدوا سارا حاسرة الرأس تدخل إلى المحل، يسترقون النظر عبر واجهة المحل. امتلأ وجه دارا بالغضب، وكانت قبضته على أهبة الاستعداد، فاضطر الرجال إلى المضي في سبيلهم. ففي إيران، يمُنع الرجال من دخول المحلات التي تبيع ألبسة داخلية نسائية، حتى لو كان الرجل زوج الزبونة. وبالطبع، فإن بعض هذه المحلات تبيع بصورة غير قانونية ثياباً داخلية شديدة الإثارة لا تعرضها حتى محلات بيع المواد الجنسية في أمستردام. يقف دارا هناك، مثل حارس، منتظراً عند الباب إلى أن تخرج سارا متشحة بغطاء رأس جديد. كانت عيناها تشيان بالحيرة أكثر من أي وقت مضى، لكن يستطيع المرء على الأقل أن يرى فيهما لهيب الانتصار. تتأبط المخطوطة وتسأل دارا بسرعة:

«حسناً، ماذا يجب أن نفعل الآن؟».

دارا لا يجيب. لو كان أحد أسلافه المتعصّبين مكانه، بعينيه اللتين أعماهما الدم، لرأيته يقضم شاربيه السميكين غضباً، مفكراً بوسيلة يقوم فيها بقطع رأس المرأة التي لوّثت شرفه. لكن لا يكفي أنه لا يوجد لدى دارا شاربان سميكان يتوجه طرفاهما إلى الأعلى فحسب، بل إنه يحلق لحيته ذات الشعيرات القليلة المتناثرة أيضاً. لذلك، صاح غاضباً:

«لا شيء... يجب أن تذهبي إلى البيت».

يلوّح ليوقف سيارة أجرة لها. لا تزال سارا مغتبطة بالمخطوطة إلى حد أنها لا تعبأ بغضب دارا. يصفق باب السيارة خلفها، ويصيح من وراء النافذة:

«إن كنت تحبينني، احرقيها».

«في أحلامك».

حسناً. لقد قرأتم قصّة الحبّ الإيرانية هذه حتى هذه النقطة، وتعرفون تماماً أنني لا أستطيع أن أدرج المشهد الذي تخلع فيه سارا غطاء رأسها، والأحداث التي أعقبت ذلك في قصّتي وأقدمها إلى السيد بيتروفيتش. فمن حكم المؤكد أن جهاز الرقابة سيعتبر أن هذا المشهد مثيراً ويخدش الحياء العام. بل الأسوأ من ذلك، هناك إمكانية لتفسير سياسي للمشهد. تفسير لم يكن في عقلي الواعي، أما الآن وبعد أن وضعت نفسي في موقع السيد بيتروفيتش، وقرأت القصّة من وجهة نظره، فقد بدأت أراه.

سيتمثل الاتهام السياسي في أن هذا المشهد يشجّع علناً الفتيات الإيرانيات على خلع أغطية رؤوسهن في الشارع، بل الأسوأ من ذلك، أنه لم يلق القبض على الفتاة التي ارتكبت هذا العمل الشنيع والمبتذل، ولم تعاقب، ولم يُزجَّ بها في السجن ولم تتب عن العمل الذي أقدمت عليه. بل الأسوأ من ذلك، أن الفتاة عادت، بمساعدة خليلها الغبي، إلى البيت تغمرها السعادة.

والأخطر من هذا التفسير السياسي، المتعلق بغطاء الرأس، أنني قد أُتهم، أنا الكاتب، بالتلميح إلى أحد الشعارات الشعبية خلال سنوات الثورة الأولى، الشعار الذي كان يردده أعضاء حزب الله عندما كانوا يواجهون تظاهرة قامت بها مجموعة من النساء الإيرانيات اللاتي كن يعارضن ارتداء غطاء الرأس والشادور: «غطاء الرأس أم صفعات على الرأس...».

تم تفريق التظاهرة، لكن شعار المعركة استمر بعدها، وبخلاف الشعارات الليبرالية الشعبية في تلك الأيام، أصبح ارتداء غطاء الرأس والشادور إلزامياً في إيران.

الأكثر من ذلك، يمكن توجيه اتهام لي بسبب مشهد نزع سارا الغطاء

عن رأسها، بأنني أؤيد الإجراءات المناهضة للحجاب التي كان قد اتخذها ملك دكتاتور سابق.

كيف؟

اسألوا لكي أتمكن من التوضيح:

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان في إيران، قبل زهاء سبعين سنة، ملك دكتاتور يريد أن يفرض إرادته على بلده ليصبح مثل بعض البلدان الغربية، فأصدر أمراً بحظر شكل اللباس الإسلامي أو الحجاب، وأمر السيدات الإيرانيات بأن يخلعن غطاء الرأس ويرتدين الشادور. وتنفيذاً لهذا المرسوم، كان أفراد الشرطة يوقفون النساء اللاتي يخرجن إلى الشارع وهن يضعن أغطية على رؤوسهن ويرتدين الشادور، ويضربونهن بالعصي على رؤوسهن لكي ينزعن حجابهن.

وبما أنني رجل إيراني، فإنني أشعر بالخجل من نفسي لأنني لم أستطع، في كلتا المناسبتين، أن أتصرف للدفاع عن جدتي وأمّي وأختي وزوجتي وابنتي.

لذلك، لا أستطيع أن أجعل سارا تجري في شوارع طهران من دون غطاء رأس. لكن هذا المشهد يعجبني كثيراً، حتى لو كنت كاتباً إيرانياً أخلو من أي قدرة، فإني سأكتب المشهد على هذا النحو:

الشاعر القديم، زير النساء، الذي ندم كثيراً على مغامراته النسائية في الماضي، ويندم عليها الآن، ويريد أن يمضي السنوات الأخيرة من حياته بطهارة وجمال حبّ قديم. لذلك، يقول لسارا متلعثماً، خجولاً:

«لا قيمة لهذه المخطوطة بالمقارنة مع حبّي لك. سأحرق جميع قصائدي الشرّيرة، وسأهديك جميع التحف الرومانسية البريئة التي سأكتبها في مديح حبّنا. من أجلك، سأجمع كلّ ورود العالم الحمر، وجميع عصافير العالم، وجميع طيور الفراري في العالم. ستكون لك

جميعها. ستكونين بهجة توبتي. هيا نتزوّج لكي تتمكني من أن تنزعي غطاء رأسك من أجلي».

دارا يصيح:

«لا، سارا! لا تدمرينا».

تسأل سارا، خجولة، عيناها مطرقتان:

«هل أعجبك حقاً غطاء رأسي؟».

فيجيبها الشاعر، خجولاً، وعيناه مطرقتان:

«أكثر مما تتخيّلين. فأنا لست مثل أولئك الرجال الإيرانيين الدنيئين. إني أمنحك حياتي لقاء وشاحك. أمنحك حياتي لقاء كتابة بيت واحد من الشعر عن جمال شعرك المخفي. سأموت وفي تابوتي، سيبعثني عطر شعرك إلى الحياة ثانية».

«إن أصبحت زوجتك، هل ستشتري لي غطاء حريرياً مزداناً بشرابات؟».

«سأشتري لك كلّ أغطية الرأس المتوفرة في العالم».

علائم الموافقة تبدأ تظهر على قسمات وجه سارا المشدوه. تشعر بعمق بحب الشاعر الشاعري، الشعري، الصوفي، عن غطاء الرأس. تشعر بأنه لا يمكن أن تجد رجلاً حساساً، مرهفاً آخر، وحبّاً نقياً آخر. ترمق وجه الشاعر بإمعان، ويبدو لها أن التجاعيد المأسوية القديمة في وجهه قد بدأت تتلاشى. تفتح سارا شفتيها لتقول نعم لذاك الشاعر الصوفي الباطني الوسيم، المسلوب العقل.

دارا يصيح:

«سارا! سارا! وماذا عني؟».

أصيح:

«سارا! سارا! ماذا عن قصّة حبّي؟».

وبقوّة قلمي، أطبقت فم سارا.

الحلّ الوحيد أن يشغّل قرّائي خيالهم وذكاءهم. لذلك، ستكون الجملة الأخيرة في هذا المشهد:

دارا يصيح:

«سارا!».

«هل أنت متأكّدة من أنك تريدين المخطوطة؟».

«قلت للتو إنني أريدها. ماذا تريد لقاء ذلك؟».

ينظر الرجل العجوز إلى غطاء رأس سارا، ويهمس، بطريقة لا يمكن لأحد أن يسمعه فيها إلا سارا في هذا العالم، يهمس...

بعد نصف ساعة، يمشي أحدهما إلى جانب الآخر، صامتين، يصل دارا وسارا إلى ساحة فاناك الجميلة التي تشبه قليلاً ساحة الطرف الأغر في لندن. أريد أن يكون الزمن في قصّتي عصر يوم خريفي رومانسي، لكن لسوء الحظ، أعلن الرئيس الإيراني في هذه اللحظة بالذات، في خطاب ثوروي، في عصر هذا اليوم الحار، يحمل أخباراً مثيرة يريد أن ينقلها إلى الشعب الإيراني - لقد استأنفنا جهودنا في تخصيب اليورانيوم. تنقل سارا المخطوطة وتضعها تحت ذراعها الأخرى وتسأل بسرعة:

«حسناً، ماذا يجب أن نفعل الآن؟».

بغضب تام، يزأر دارا:

«لا شيء... يجب أن تعودي إلى البيت».

يشير دارا إلى سيارة أجرة ويوقفها. إن العثور على سيارة أجرة شاغرة في طهران ليس بالأمر السهل. فعندما يأخذ سائق تاكسي راكباً يقول اسم المكان الذي سيتوجه إليه بصوت مرتفع من خلف النافذة الجانبية لسيارته التي يزيد عمرها على عشرين سنة، يتمهل السائق أمام ركاب آخرين ليقولوا له بصوت مرتفع اسم المكان الذي سيذهبون إليه من النافذة

الجانبية، وإذا كان المكان الذي سيذهبون إليه قريباً من المكان الذي سيذهب إِليه الراكب الأول، فإنه يطلب منهم أن يركبوا السيارة ـ ويحشر أحياناً ستة ركاب معاً في السيارة. لكنني، دعماً لدارا، فإني أجعل سيارة أجرة شاغرة تمرّ في طريقه. ويدفع دارا أجرة إضافية، فيستأجرها كلها على حسابه، ويقود سارا لتركب السيارة. لا تزال سارا منتشية ومفتونة بالمخطوطة، إلى حد أنها لا تأبه بغضب دارا. يصفق دارا باب السيارة، ويصيح من وراء النافذة:

«إن كنت تحبينني، فاحرقيها».

«في أحلامك».

أحبّك لكنني لا أريد أن أراك ثانية في حياتي

يبدأ دارا يسير نحو بيته. وبينما يقترب من الحيّ الفقير الذي يعيش فيه، يتحوّل غضبه شيئاً فشيئاً إلى حزن ممض. وصمّم أيضاً على أن يستخدم إرادته الحديد، ما تبقى منها من أيام سجنه، ليتخلص من عذاب ونشوة سارا. يكرّر على نفسه عنوان *هذا الفصل* الذي وضعته في رأسه: أحبّك، لكنني لا أريد أن أراك ثانية في حياتي...

لكن في تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً، يضيف بصمة أخرى من قبضته على جدار غرفته ويقول لنفسه، ~~ليذهب عميل الاستخبارات الذي قد يتنصّت على هاتفي إلى الجحيم~~. مدركاً أن والديّ سارا نائمان في هذه الساعة، يدير رقم هاتفها ويخبرها بأنه واقع في غرامها حتى أعماق سحيقة لأنها تختلف عن جميع الفتيات الأخريات في العالم. ويتفقان على أن يلتقيا بعد ثلاثة أيام. وبعد تبادلهما الأفكار لمدة نصف ساعة حول المكان الأكثر أماناً الذي يمكن أن يلتقيا فيه في طهران، يودّع أحدهما الآخر، ويقول لسارا المتعبة: تصبحين على خير، لكي تخلد إلى النوم.

كيف؟ من الواضح أن المخطوطة التي يبلغ عمرها خمسمائة سنة بين يديها.

مرّت الأيام الثلاثة المتبقية حتى يحين موعد لقائهما الرومانسي وكأنها ثلاثمائة سنة بالنسبة لدارا. فقد رتّبا أن يلتقيا في الباحة الأمامية لأحد الجوامع، حيث تصلي النقوش المزخرفة على البلاط التركوازي على سطح ماء البركة الضحلة، وحيث ستتاح لهما فرصة التحدث بهدوء لفترة قليلة. فهما يعتقدان بأن الأجواء الروحية ستساعد على الحفاظ على حبّهما نقياً صافياً. لكنهما فوجئا تماماً عندما وصلا إلى الجامع، إذ وجدا مطبوعات رخيصة معلّقة على الجدران تعلن عن وفاة أحد الأشخاص، كتبت فيها الجملة الجميلة «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وفيها صورة شخص مألوف لهما: الشاعر الولهان العجوز. وأقيمت داخل الجامع صلاة جنازة لم تحضرها سوى حفنة من النساء والرجال المسنين. توجهت سارا إلى قسم النساء في الجامع، وذهب دارا إلى قسم الرجال. منفصلين، لم يشعرا بالقلق لأن يرى أحدهما دموع الآخر.

عندما دخلا الجامع، لم تر سارا، ولم ير دارا، روح الشاعر الذي كان واقفاً إلى جانب البركة الضحلة القديمة، حزيناً لأن قصائده لم تكتمل، ومتألماً بسبب القصائد التي لم يكتبها. لكن في اللحظة التي وقعت فيها عينا الشاعر على سارا، تقوّست شفتاه الحزينتان بابتسامة. وانتقل بسرعة إلى جانبها، ورافقها وهو قريب كثيراً منها، حتى مدخل قسم النساء، وذلك لأنه لا يُسمح لروحه أن تدخل ذلك القسم.

تبدأ سارا، هي وأخت الشاعر المسنة، في البكاء. أما دارا وأعزّ صديق للشاعر، وهو كاتب منسي منذ زمن بعيد لم تحصل أعماله على موافقة لإعادة طباعتها بعد الثورة، فيحدّقان بعيون مغرورقة بالدموع في نقطة

بعيدة. ويعتري دارا شعور بالأسف لأنه قبل أربعة أيام، عندما أراد وهو في ذروة غضبه، أن يقتل ذلك الشاعر الألعبان، اعتراه إحساس بالخجل لأنه بعد أن رأى صورته في إعلان الوفاة، فشعر بالبهجة في قلبه لبضع ثوان. لذلك ترك الدموع التي كانت تطلب المغفرة تتدفّق من عينيه.

اعتلى الواعظ المنبر وأخذ يلقي موعظته عن المراحل السبع من مراحل الجحيم: النار، حفرة مملوءة بسوائل تغلي تنبعث منها روائح كريهة، والنساء اللاتي انتهكن قانون اللباس الإسلامي معلقات من شعورهن، وأفاعٍ لدغاتها شديدة الألم يخاف منها أهل جهنم الذين تظهر لهم أفاعٍ سامّة، وأشياء مرعبة أخرى لا حدود لها. ومضى يصف محاسن وجمال الجنة. جداول من الحليب والعسل، وأشجار فواكه تنحني أغصانها فوق أهل الجنة الذين يشتهون ثمارها، وحوريات جميلات ذوات بشرة نقية وشفافة إلى درجة أنه يمكن رؤية ما بداخلهن. وحصة كلّ ساكن من أهل الجنة من الذكور سبعة آلاف حورية من هذه الحوريات ~~وهن جميعاً عذراوات ويعدن فيصبحن عذراوات بعد كل مضاجعة، وتستمر كل مضاجعة قرابة ثلاثة أيام~~... ثم يبدأ الواعظ يتحدث عن الشاعر المتوفى. وبالطبع، يخطئ في لفظ اسمه ولا يذكر الاسم الذي يُعرف به.

وبعد ساعة، بعد أن ذرف دارا ما يكفي من الدموع، خرج هو وسارا من المسجد. وراحا يسيران على غير هدى. ولا شعورياً، انتابهما الخوف من الذهاب إلى مقهى الإنترنت، ولم يشعرا بالرغبة في مشاهدة فيلم آخر مفعم بالتعاسة. ~~تكمن المشكلة في أنه عندما يسير فتى وفتاة معاً، فإن ذراعي كل منها تلامس ذراعي الآخر بين الفنية والفينة. وبالنسبة لشابين عذراوين، تكون هذه الملامسة ممتعة ومحبطة.~~

وعند كلّ نصف ميل يسأل أحدهما الآخر، «إلى أين سنذهب؟» أو «ماذا يجب أن نفعل؟» ولا يجدان أي جواب على أسئلتهما. في لحظة من

العجز، عندما يشعر كلاهما باليأس، ولكونهما معاً لا يريان حلاً إلا أن يفترقا، من أجل قصّتي، لذلك اضطر لأن أوحي لدارا بذلك. أهمس في أذنه «أيها الفتى! انظر إلى يمينك. ماذا ترى؟».

«مستشفى».

«حسناً، توجد في هذا المستشفى غرفة طوارئ. هل فهمت؟».

ينظر دارا إليّ خجلاً، فأقول:

«إنك تستحقّ حقاً أن تكون بكراً وأنت في الثلاثين ونيف من عمرك. توجّه إلى غرفة الطوارئ، واجلسا بارتياح على كرسيين، وتكلما... هل فهمت؟».

ينظر إليّ بدهشة كما لو كان ينظر إلى باخوس. وأقول:

«هذه إحدى فوائد أن يكون لك صديق كاتب. فلن يخطر ببال الشرطة أو الدوريات الأخرى أن شاباً وشابّة يستغلان غرفة الطوارئ هكذا».

لا ينتظر دارا ليسمع ما يجب أن أقوله، فيندفعان كلاهما إلى المستشفى. وأكتب:

عندما يرى دارا لافتة المستشفى، يغيّران مسارهما فجأة في ذلك الاتجاه.

تقول سارا:

«لماذا هنا؟».

«كوني ذكية يا عزيزتي».

يجلس أحدهما إلى جانب الآخر في غرفة الطوارئ. صحف طهران الصباحية والمسائية، حتى الصحيفة التي تصدر باللغة الإنكليزية «طهران تايمز» مرتّبة على المنضدة الصغيرة أمامهما. يختار كلّ منهما صحيفة ويفتحها.

سارا تقول:

«لا تبدو أنك من ذلك النوع من الأشخاص الذين يعرفون هذا النوع من الحيل. ربما كان لديك الكثير من التجارب مع الفتيات».

«لا... عندما رأيت لافتة المستشفى خطرت لي هذه الفكرة فجأة».

لا يهمّ. وبما أنني كاتب يعيش في بلد لا توجد فيه قوانين تحترم حقوق النشر، فإنني متعود على أن يأخذ الآخرون أفكاري وينسبوها إلى أنفسهم ويعتبروها أفكارهم هم. ومن المؤكد أنه لا توجد لدي مشكلة في ذلك على الإطلاق. لكنني لا أفهم السبب الذي يجعلهم يصبحون أعدائي فجأة بعد أن يفعلوا ذلك، إلى درجة أنهم يتمنّون أن يُحذف وجودي من صفحات الزمن. إن ما يزعجني أكثر هو أنه توجد حفنة من الكتّاب المعارضين للنظام في الخارج، الذين يتعاونون سراً مع السيد بيتروفيتش، ويقرأون بعض الكتب المعقدة ليكشفوا عن آرائهم واستدلالاتهم الخفية. وأخشى أن يخبروا السيد بيتروفيتش، بأن هذا الرجل، عندما يقدّم صحيفتين لبعض الشخصيات في قصّته، فلعله يوحي لقرّائه بأن لا قيمة للصحف التي تنشرها الجمهورية الإسلامية، وأنها لا تصلح إلا لاستخدام هذه الفتاة وهذا الفتى كغطاء لتجاوزاتهما. لذلك، عندما أجري المراجعة النهائية لقصّتي، فقد أحذف المشهد الذي يمسك فيه دارا وسارا صحيفتين، راجياً أنّ يُعجب السيد بيتروفيتش ببراءتهما وإبداعهما في اللجوء إلى غرفة طوارئ في المستشفى وأن لا يحذف المشهد.

يجب عليّ الآن أن أوضح المكان الذي تدور فيه أحداث قصّتي. إذ إن غرف الطوارئ في المستشفيات في إيران أماكن لا يستطيع حتى فنّ السينما أن يصورّها بحق. فلكي تكوّنوا فكرة عن غرفة طوارئ في مستشفى في إيران، اسمحوا لي أن أقول لكم إن متوسط عدد الأشخاص الذين يُقتلون

سنوياً في حوادث الطرق في إيران تزيد عشر مرات على عدد الأمريكيين الذي قتلوا حتى الآن في الحرب الثانية مع العراق. لذلك، بينما تجلس سارا ودارا في ذلك المستشفى، تُفتح أبواب غرفة الطوارئ باستمرار، ويتدفق عبرها الجرحى الذين يصابون في حوادث على الطرق السريعة والشوارع، والجرحى الذين يصابون بسبب مئات الحوادث الأخرى، الذين يكونون عادة مضرجين بالدماء؛ ويصرخون من شدة الألم، ويدفع أفراد أسرهم أو أصدقاؤهم النقالات التي يتمددون عليها، وبالطريقة السائدة في الشرق الأوسط يولولون وينتحبون ويصرخون بصوت أعلى من صوت المصاب أو المحتضر نفسه. ويمرّ جميعهم أمام سارا ودارا. ويستلقي المرضى في غرفة الطوارئ الأخرى على النقّالات المركونة على طول أروقة المستشفى، يئنون لأنه لا يوجد عدد كاف من العاملين في غرفة الطوارئ ولا يملكون القدرة والطاقة على تقديم الرعاية لكلّ مصاب. ويضطرون هم أيضاً، بعد أن يبلغ بهم الإرهاق مبلغه، إلى الصياح في وجه بعضهم بعضاً عندما يتحدثون، أو عندما يطلب أحدهم المساعدة من الآخر.

أرجوكم حرّكوا عجلات مخيلتكم. فأولاً، تخيّلوا أنكم أحد أعظم الكتّاب في العالم. ثمّ تخيّلوا كيف يمكنكم، بالرغم من كلّ مهاراتكم في الكتابة، أن تحرّكوا قصّة الحبّ التي تكتبونها في هذا المكان المرعب...

وقد تعلّمت من تجاربي أنني إذا وضعت نفسي والشخصيات في قصّتي في مأزق، وإن كان بإمكاني أن أتحمّل لومها، فإنني أستطيع بعد فترة أن أتوصل إلى حلّ جيد لقصتي. وإن مشهد غرفة الطوارئ أحد هذه المآزق. الآن، وبعد ثلاثة أيام من التفكير لمعت ببالي فكرة، عن الوسيلة التي تمكنني من المضي قدماً في أحداث قصّتي. وللمقارنة بين بريق أفكاركم وظلام عقل كاتب إيراني، يجب أن تخبروني أولاً ما هي خطتكم لهذا الجزء من القصّة، ثم اسألوني عن خطتي. وسأقول لكم:

يفتح دارا فمه ليقول جملة صريحة وواضحة لسارا. جملة يكاد يقولها جميع العشاق في العالم. تلك الجملة التي يعدّ فيها عشاق العالم الثواني ليسمعوها من شفاههم ومن شفاه أحبائهم. إنكم تعرفون هذه الجملة، لذلك قولوا لدارا ذلك، بأن يتظاهر بنفس الجدية، وأن يبدو وكأنه يقرأ أخباراً شديدة الأهمية في تلك الصحيفة الممنوعة، لذلك ينبغي أن يقلب الصفحة ويقول فجأة:

«سارا! إنني أهيم بحبك».

سارا، التي تبدو في غاية الجدّية، وكأنها تقرأ أخباراً ذات طبيعة مهمة للغاية، مختبئة وراء الصحيفة، تلتفت إلى دارا، وتحدّق في عينيه، وتجيبه بعينيها:

لا أخشى هذه المرّة من مقص السيد بيتروفيتش، لأن هذا الجزء من القصّة يجري في مخيلتي. في عالم التخيّل، بعيداً عن عينيْ السيد بيتروفيتش، أريد أن أدعوكم إلى أن تلهموا سارا أن تقول لدارا أي شيء تحبونه ـ طبعاً، فقط إذا نجحتم في جهودكم في الحفاظ على حرياتكم.

تُفتح أبواب غرفة الطوارئ، ويدخل أربعة رجال، يدفع اثنان منهم نقّالة، ويرافقهما الآخران. واحدة من أجمل وأرقّ النساء في العالم تستلقي على النقّالة. قلت واحدة من أجمل النساء في العالم لأن أجمل امرأة في العالم غير موجودة؛ مع أن الكثيرين من الرجال في العالم، عندما يريدون تطويع امرأة، فإنهم يدعونها بشهامة أجمل امرأة في العالم. لكن الشيء الغريب في المجموعة التي وصلت مؤخراً، ليس جمال المرأة، بل الغريب فيها أن الرجال الأربعة الذين يرافقونها يرتدون ثياباً كان يرتديها القادة الإيرانيون قبل ألف وخمسمائة سنة. إذ كانوا يلبسون دروعاً ويعتمرون خوذاً مزدانة بخطوط لامعة تبرق كالذهب، وتتألق

مقابض سيوفهم المرصّعة بمجوهرات تشبه الياقوت والماس. قد يكونون ممثلين في مسرحيّة عن الإمبراطورية الفارسية المفقودة. وربما كانت الممثلة قد أصيبت أثناء العرض أو البروفات، فأحضروها بسرعة إلى غرفة الطوارئ، وهم لا يزالون يرتدون أزياءهم في المسرحية. لدى دخولهم غرفة الطوارئ، فقد الرجلان اللذان يدفعان النقالة التي تستلقي عليها المرأة المصابة والرجلان اللذان يرافقانها، رباطة جأشهم وبدوا مرتبكين للغاية. من الواضح أنهم لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا. تلتقي عينا المرأة المعذّبة المستلقية على النقّالة بعينيّ سارا من بين عيون الرجال الداعرة التي تحدّق فيها وتدعوها إلى مساعدتها. تشعر بحرج شديد أمام الرجال الأربعة الذين يرافقونها ولا تستطيع أن تصرخ بسبب ألمها الأنثوي. الشرشف الحريري الذي يغطي المرأة مبقع بالدم في منتصفه. ولكي تكتم صرخاتها وأناتها تضغط على شفتيها الشاحبتين بين أسنانها. تخطو سارا نحوها. تهمس إحداهما في أذن الأخرى. ثمّ تنسحب سارا وتجري بعصبية حول غرفة الطوارئ إلى أن تجد ممرضة. تدفعان النقّالة معاً إلى إحدى الغرف وتغلقان الباب.

يضرب دارا بقبضتيه على ركبتيه. إنه غير متأكد من أنه يجب أن يقول إن حظّي عاثر... أو أن يشعر بالسعادة لأن سارا هرعت إلى مساعدة المرأة. يسمع ضحكة ساخرة. يتطلع حوله ويرى الرجل الذي يبيع الطلاسم والتعاويذ جالساً على بعد عدة مقاعد يضحك ساخراً منه. يشيح دارا بوجهه عن البائع الذي يبيع التعاويذ، ويحدّق في باب الغرفة المغلق الذي تقبع سارا في داخلها. تتضوع منه رائحة بخور، يخطو جعفر بن جعفري نحوه ويجلس إلى جانبه.

«أرى أنك لم تستعمل تعويذتي السحرية».

يسأل دارا:

«هل لديك أيضاً شخص مريض أو مصاب هنا؟».

«نعم ولا. أقصد، مثلك تقريباً».

ترتسم ابتسامة نادرة تتسم بالتعاطف والفهم على شفتيه. ويهمس:

«إن الشخص الذي قادك إلى هنا لا يعرف أنه يجب أن يرسل العشاق الشباب إلى أماكن جميلة وحدائق لا إلى مكان تفوح منه رائحة الدم والألم».

يهزّ دارا كتفيه باستهجان، ويقول:

«كان ذلك من بنات أفكاري».

ومرة أخرى ينظر إلى باب الغرفة المغلق. ويقول بائع التعاويذ:

«لن تخرج صديقتك بهذه السرعة. السيدة المصابة تمسك يدها وتتوسل أن لا تتركها وحدها».

متهكماً، يشير إلى الباب، ويتابع كلامه:

«إنه عالم عنيف. ينتهي الأمر ببعض العرائس بنزيف حاد».

وقف القادة الأربعة، الذين كانوا يبدون خائفين وقلقين بخلاف ما يبديه مظهرهم المحارب، عند الزاوية يتهامسون. تقدم إليهم حارس أمن غرفة الطوارئ وأشار لهم إلى باب الخروج. حاولوا تجاهله. لكن حارس الأمن نادى زميله غاضباً، وألقيا معاً بالرجال الأربعة إلى الخارج. بائع التعاويذ السحرية يضحك بصوت عال. وبعد نصف ساعة، خرجت سارا من الغرفة. كانت هناك نقطة دم على يدها. طلبت من دارا أن يعطيها منديلاً. أعطاها دارا ثانية منديل جدته. بقعة الدم تنتشر على المنديل مثل إحدى الأزهار الحمر الرقيقة المطرّزة على حاشيته.

«ماذا في الأمر؟».

سارا توشك أن تبكي.

«أنتم معشر الرجال! هل رأيت ما أرقها وأشد رهافتها؟ إن ذلك العريس الهمجي قد...».

تغطّي وجهها بيديها.

«حسناً، ماذا حدث؟ هل تتماثل إلى الشفاء؟».

«إنهم لا يستطيعون إيقاف النزيف. لقد اتصلوا بالطبيب الاختصاصي - الدكتور فرهاد».

يشعر دارا بحساسية بالغة عندما يسمع سارا تلفظ اسم رجل آخر.

«من هو الدكتور فرهاد؟».

«ألا تعرفه؟ الكثيرون في طهران يعرفونه. إنه أحد أفضل الاختصاصيين والجرّاحين. بعض الطلاب الذين يُضربون ويخشون أن يلقى القبض عليهم إذا أتوا إلى المستشفى يتوجهون إلى عيادته، ويعالجهم مجاناً ويقدم لهم الدواء».

عادت سارا إلى الغرفة. بعد نصف ساعة، هرع رجل طويل، نحيل، يبدو متعباً، إلى غرفة الطوارئ. تدلّه الممرضة إلى الغرفة. إنّها المرّة الأولى التي ترى فيه دارا، ونرى نحن الدكتور فرهاد، لكنني لا أظن أن هذا سيكون لقاؤنا الأخير معه. يشير العرّاف جعفر بن جعفري إلى الباب المغلق.

«هل رأيته؟ إنه الطبيب فرهاد».

«هل تعرفه؟».

«نعم. إننا بشكل من الأشكال متنافسان محترفان. إنه يسرق العمل مني. لقد فتح عيادة في أحد الأحياء القديمة الخربة، وهو يعالج المرضى الفقراء مجاناً ثلاثة أيام في الأسبوع. يصعب إيجاد أغبياء مثله في هذه الأيام. لكن

مع أنه يكرهني، فأنا لا أكرهه، بل أحبّه. سيأتي يوم ويصبح فيه أيضاً أحد زبائني. . . فمهما كان عدد الأمراض التي يستطيع معالجتها، هناك مرض واحد لا يستطيع علاجه. سيأتي إليّ ليشتري دواء ضد الحبّ».

تخرج سارا فجأة من الغرفة، متجهمة وتتجاهل العرّاف، وتقول:

«هيا بنا نذهب».

في الخارج، بدأ الرذاذ يهمي. كان القادة الأربعة لا يزالون واقفين حذرين منتظرين عند ناصية الشارع. تتوجه سارا إليهم.

«هل أنتم هنا مع تلك العروس؟».

أومأ الأربعة جميعهم.

«هل أنتم من أقرباء العروس أم العريس؟».

مضطربين ومشوشين، نظر أحدهم إلى وجه الآخر.

«لا تقولوا لي إنكم الحرآس هنا».

يهزون رؤوسهم.

«قولوا لخسرو نيابة عني إنه متوحش أكثر من أي وحش برّي».

يتجهم وجه سارا ويمتلئ بالكراهية والغضب، كانت قد جرحت شفتها السفلى بسبب قضم أسنانها لها. تمشي مبتعدة. . . يحترق من الفضول، لا يستطيع دارا أن يمسك لسانه، فيسأل وهو واقف على بعد بضع خطوات: «خسرو؟ كيف عرفت العريس؟».

«كان زفافهما ليلة البارحة. الفتاة أخبرتني. . . اسمها شيرين. أيها الرجال المقرفون. إن هذا بيني وبينكم الآن!».

تبدأ سارا تغذّ الخطى نحو بيتها، ولا يكاد دارا المصدوم يستطيع مجاراتها في خطواتها.

أصدقكم القول، فقد صدمت أنا أيضاً. أقول لنفسي ماذا لو لم تكن

مضاجعة الملك خسرو لعروسه شيرين كما وصفها شاعرنا العظيم نظامي، في غاية الرومانسية، في غاية الرقة، ناعمة مثل تويجة الزهرة وسداتها. أشعر بالصدمة، ويعتريني الهلع من أن نظامي نفسه كان يخشى أيضاً مقص الرقيب فقدّم لنا حكاية مخالفة للواقع.

قطرات المطر التي تهطل فوق طهران تجلب معها غبار الصحارى القريبة وسخام السيارات القديمة؛ ومعها تجلب إلى الأرض غبار بسط الريح الطائرة، ورماد أجساد الأباطرة؛ ومعها يأتي رماد آدم وحواء والعنب الذي لم يُقطف أبداً من الكرمة وتصّب جميعها فوق الإسفلت... دارا، لا يزال غير مصدق، يفكّر بأسماء وأحداثٍ سرمدية لا مكان لها عندما يُفاجأ للمرة الثانية في ذلك اليوم.

سارا تقول، ولا تزال نبرة الغضب في صوتها:

«لقد تأخرت كثيراً. كان يجب أن أكون في البيت الآن. سيأتي السيد سندباد إلى بيتنا».

«السيد سندباد؟ ومن هو السيد سندباد هذا؟».

«الشخص الذي طلب يدي. إنه يصرّ على أن نتزوّج بما أننا لا نزال في الربيع، وسنذهب إلى إسبانيا لتمضية شهر العسل».

دارا يقف، وسارا تمضي بعيداً.

اللحية

في الساعة الثامنة مساء، أمام بيت سارا، يترجّل سندباد من سيارته ذات الموديل الأخير من طراز بي إم دبليو. كان يسعى إلى أن يطلب يد سارا منذ فترة من الوقت. وكان والد سارا ووالدتها يؤيدان هذا الزواج بقوة لأن سندباد رجل عصامي. وبخلاف معظم تجار السوق الأجلاف، ولكن الأغنياء، فهو شاب وسيم في السابعة والثلاثين من العمر. وبخلاف معظم تجار السوق الأجلاف، ولكن الأغنياء، فإنه يتكلّم لغة أجنبية، وهي اللغة الصينية. كيف يمكن لسندباد الذي لم يحصل على أيّ تعليم جامعي أن يتكلّم اللغة الصينية قصّة بحد ذاتها يمكنني أن أحدثكم عنها لاحقاً. لكن في سياق الروايات الكلاسيكية، اسمحوا لي أن أقدم لكم أول ظهور لهذه الشخصية في قصّتنا لكي نعرّفه على أوسع نطاق.

عندما كان سندباد تلميذاً في المدرسة، كان يحلم بأن يصبح طبيباً أو مهندساً ليخدم بلده بإيثار. لكن الأمور لم تجر لصالحه. فقد مات أبوه وهو في الصف الأول الابتدائي عندما كان لا يزال يقرأ دروسه عن سارا ودارا. وقد تربى وكبر في أحضان الفقر، وأكمل دراسته الثانوية بصعوبة بالغة. وعندما قامت الثورة، كان سندباد موظفاً يصدر شهادات الميلاد في مكتب الأحوال المدنية في شيراز. وكما غيّرت الثورة أشياء كثيرة في

أرض إيران، فقد غيّرت أيضاً حياة سندباد بسرعة كبيرة. فقد طرأ أول تغيير على وجهه. اسألوني ماذا أقصد لأقول لكم:

في السنة التي أعقبت انتصار الثورة، لم يكن سندباد ينظر بشكل إيجابي إلى الإصلاحات الجارية. فقد جعله موت والده وعدم توافر الإمكانيات المادية رجلاً محافظاً لا مبالياً. ولم يشارك في أيّ من التظاهرات المناهضة للشاه التي شارك فيها معظم الشعب الإيراني. فقد كان يقول: «ما يهمني إن اعتقلت الشرطة السرية نشطاء سياسيين وعذّبتهم؟ وما يهمني إذا قال المعارضون إنه لا توجد حرية كلام في البلد أو أنه توجد رقابة؟ أعرف أنني أستطيع أن أقول كل ما يخطر ببالي، وإذا كان ما يخطر ببالهم محرّماً، فهي مشكلتهم وحدهم. لنعش حياتنا. إني قانع وراض بحياتي. أعرف أنني سأحصل على راتبي في بداية كل شهر، وأعرف أنني حتى نهاية الشهر لن أجوع أنا وأمّي، ولن يطردنا صاحب البيت. ومع أن راتبي ليس كبيراً كما أتمنى، فقد وعدني رئيسي بأنني سأتقاضى بعد بضع سنوات راتباً يكفيني ويمكنني أن أوفّر قدراً منه للقيام برحلة. دعونا نعش حياتنا. . . وهكذا عاش. وكان يخشى على الدوام أن ينزعج منه أحد، وكان يخشى أن يظن الناس أنه لا يحمل عنهم فكرة جيدة، أو أنه لا يحبهم، وكان يخشى أن يسأله أحد عن رأيه حتى في أكثر المسائل الدنيوية. وكان يعتقد بأن كل ما هو موجود في العالم له هدف من وجوده، وأن الناس الذين يتعرضون لأوقات عصيبة هم أناس حاولوا عن جهل تغيير ما هو راسخ في هذا العالم.

وحتى بعد الثورة، عندما بدأت القيم الغربية تتعرض يوماً بعد يوم لهجوم شديد، كان سندباد يذهب إلى العمل بوجه حليق بعناية شديدة، ويرتدي بدلة مكوية. في تلك الأيام، كان هناك زيّان مختلفان في العمل. فقد كان الشبان اليساريون الذين ينتمون إلى فصائل مختلفة يرتدون قمصاناً

ذات ياقات صينية ومعاطف عسكرية خضراً صنعت في كوريا (كانت المعاطف المصنوعة في الولايات المتحدة أفضل، لكنها غالية الثمن)، أما المسلمون الثوريون فكانوا يلبسون زياً إسلامياً مؤلفاً من قطعة واحدة، وترتدي النساء الشادور الأسود وغطاء رأس أسود، وملاءة سوداء طويلة.

ويخلاف زملائه، لم يتخل سندباد، الذي كان يبذل كلّ ما بوسعه لأداء عمله بهمة وإخلاص كما كان دأبه، عن ارتداء ربطة العنق، حتى جاء يوم سمع فيه في أحد البرامج الإذاعية أن ربطة العنق تسمى «أنشوطة المدنية». ثمّ بدأ يفكّر بأنه لا توجد لقطعة القماش هذه أي قيمة كي يعقدها حول رقبته في مجتمع متغير وكأنه يصوّر نفسه بأن أحداً قد اصطاده بأنشوطة. ولم يعد عدد من زملائه، وخاصة الذين كانت لديهم ميول دينية قبل الثورة، يدسّون قمصانهم داخل بناطيلهم، بل أصبحوا يتركونها تتدلى فوقها. (وأصبح ذلك موضة دارجة في الغرب بعد سنوات). ولم يعد هؤلاء الزملاء يحلقون ذقونهم لأن اللحية أضحت رمزاً للمسلم الثوري، وأرخى بعضهم لحية طويلة بينما اكتفى آخرون بلحية خفيفة محفوفة. (وأصبح ذلك بعد سنوات موضة في الغرب). وكلما كان لون البنطال داكناً أكثر، وتناثرت فوق القميص بقع من الدهن، كان الشخص الذي يرتديه ثورياً أكثر. وهكذا بدأت الألوان البراقة والمرحة تبهت وتتراجع بسرعة من شوارع إيران.

وكان زملاء سندباد المؤمنون حقاً، الذين كانوا يشاركون بحماسة شديدة في الأيام الخطيرة من بدء الثورة، بالإضافة إلى الزملاء الذين أصبحوا ثورويين بعد نجاح الثورة، يشاركون غالباً في التظاهرات التي كانت تنزل إلى الشارع يومياً ضدّ أعداء الثورة الحاليين والمستقبليين. لكن سندباد، مع أنه لم يعد يضع ربطة عنق، بدأ يترك قميصه المجعلك أيضاً يتدلى طليقاً فوق بنطاله، ولم يكن يحب أن يشارك في هذه

التظاهرات. وكان يرى أنه يجب أن يركّز بدلاً من ذلك على أداء واجباته اليومية. لكنه يوماً بعد يوم، كلما عمل أكثر، تأخّر في عمله أكثر، وازدادت الأعباء الملقاة على عاتقه. فقد كانت المشكلة الرئيسية تكمن في أن مسؤوليات زملائه بدأت تقع على كاهله، بالإضافة إلى مسؤوليات المديرين ونواب الرؤساء الجدد الذين كانوا يشاركون في التظاهرات اليومية. أما المشكلة الثانية، فكانت تتمثل في أن أعداد المواليد الجدد أخذت تتزايد على نحو غريب وغامض، لذلك ازداد عدد طلبات الحصول على شهادات الميلاد. وفي تلك الأوقات، كان بعض الأفراد الثورويين يعلنون في الإذاعة وفي برامج التلفزيون أنه بعد عملية بحث واسعة، خلصوا إلى أن الإعلانات التي كان يرعاها النظام السابق والتي تدّعي بأن الأسر التي تنجب طفلين أو ثلاثة أطفال فقط تعيش حياة أفضل ما هي إلا مؤامرة إمبريالية. وكان هؤلاء الثورويون يخبطون بقبضاتهم على الطاولة ويقولون: «بإعلان تخمينات مثل نظرية مالثوس، يخطط الإمبرياليون سراً لتخفيض عدد سكان العالم الإسلامي».

إلا أن الأحوال ازدادت سوءاً إلى درجة أن سندباد أصبح يعمل في المكتب حتى السّاعة الثامنة ليلاً، وعندما كان يشعر في نهاية المطاف بالإغماء بسبب الجوع، كان يأخذ ما تبقى من عمل زملائه إلى البيت، ويحاول إنهاءه حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. ومع ذلك، لم يكن يتذمر إلى أن جاء يوم استدعاه أحد نواب الرئيس إلى مكتبه، وحذّره من أنه إذا استمر في التأخر في أداء عمله، فإنه سيصبح عدواً من أعداء الثورة، وسيتم تطهيره. كان سندباد يريد أن يصيح محتجاً، لكنه أدرك أنه إذا أعرب عن رأيه بصراحة فإنه سيزيد الأمور سوءاً. وفي ذلك اليوم، وللمرّة الأولى منذ سنوات عديدة، أخذ سندباد إجازة من عمله لبضع ساعات وخرج. وذهب وحيداً إلى الحيّ الذي لا تزال توجد فيه حدائق شيراز القديمة. وراح يتمشى عبر الدروب والمسالك المتعرّجة في الحدائق المسورة

بالجدران غير عابئ برذاذ المطر. كان غارقاً في التفكير إلى حد أنه لم ير طيف الشاعر الذي توفي منذ سبعمائة سنة. كان الشاعر يرفع وجهه إلى السماء، فاتحاً فمه على وسعه ليشرب قطرات المطر. وعندما رأى سندباد لوّح له، لكن سندباد لم يره. قدّم له طيف الشاعر قدحاً من النبيذ، لكن سندباد لم ير ذلك أيضاً ومضى في دربه. كان المطر الكئيب لا يزال يهطل على طيف المطر الذي كان قد هطل منذ سبعمائة سنة، وراح الشاعر ينظر مشفقاً بينما كان سندباد يبتعد عنه. لذلك لم ير الشاعر الأطياف الأخرى التي كانت تقترب منه. وبغتة، هاجمته فسقط القدح من يده، وبدون مقاومة، استسلم للشاهناه. والشاهناه هم رجال الأمن الذين يأتمرون بأوامر الحاكم الفظّ والمتعصب الذي يخلو قلبه من أي رحمة، والذي احتل في أوائل القرن الثالث عشر شيراز، مدينة الشعر والورود والنبيذ والجمال، والذي قطع رأس الحاكم السابق وحوّل شيراز إلى مدينة واهنة كئيبة لا روح فيها. وكانت مهمّة هؤلاء الشاهناه تشبه مهمة المسؤولين عن تطبيق القانون، لكن بعد فترة من الزمن، أصبحوا يجوبون شوارع المدينة، ويعتقلون الأشخاص الذين لا يلتزمون بارتداء اللباس الإسلامي، ويبحثون عن الأماكن التي توجد فيها الحانات السرية، ويحطّمون دنان النبيذ، ويقتادون شاربي الخمر لإنزال عقوبة الجلد بهم. اشتمّ أحد رجال الشاهناه نَفَس الشاعر وصاح بانتصار:

«إنه يشرب... إنه يشرب الخمر».

وصاح آخر:

«لقد وجدناه أخيراً».

وأمسك ثالث، من الواضح أنه كان يضمر له الشرّ، بالشاعر من تلابيبه، وجرّه نحوه، وقال مزمجراً:

«إنني أتعقبك منذ سنتين، لكنك كنت تزوغ مني ولا تقع في الفخّ الذي أنصبه لكِ. غداً سأجلدك ثمانين جلدة في ساحة البلدة».

فقال الشاعر، وابتسامة خبيثة ترفرف على شفتيه:

«طبعاً كنت أشرب. لكنني كنت أشرب النبيذ المقدّس فقط».

وفي هذه اللحظة بالذات، جاءه إلهام إحدى أجمل غزلياته وأشهرها، وقد فتنت غوته.

أغلقوا باب الحانة،

يا إلهي لا تصدّقهم، لأنهم

فتحوا باب الخداع والنفاق على مصراعيه . . .

نظر الشاعر إلى قدحه الملقى على الأرض. ولاحظ أحد رجال الشاهناه المكان الذي ينظر إليه، فالتقط القدح كدليل ضده. شمّه. تغيّرت قسمات وجهه. مندهشاً، شمّ القدح ثانية. وقال متذمراً:

«تفوح منه رائحة ماء الورد».

وراحوا يشمّون القدح الواحد تلو الآخر. لم يكن هناك خطأ. كانت تنبعث منه رائحة ورد شيراز.

قال أكثرهم تذمراً:

«هذه ليست مشكلة. سنصبّ قليلاً من النبيذ فيه وسنلقي دورقاً كاملاً أيضاً، هيا لنأخذه».

وأخذوا يجرون طيف الشاعر.

لم ير سندباد هذا أيضاً.

في اليوم التالي، رآه زملاؤه منتعشاً بعد أن نام ليلة هانئة، بوجهه الحليق، ومرتدياً بدلة أنيقة، أخذ يسير معهم في التظاهرة. كان يرفع قبضته في الهواء ويصيح بانفعال وحماسة أشد منهم. الموت لأميركا، الموت لبريطانيا، الموت لفرنسا، الموت لروسيا، الموت لإسرائيل، الموت للشيوعيين، الموت للمنافقين، الموت لليبراليين . . .

وبينما سدّ المتظاهرون الطرق وأوقفوا حركة المرور، وأخذوا يتقدّمون شارعاً شارعاً، بدأ سندباد يزداد قناعة بأن بعض الأشخاص يرمقونه بنظرات غاضبة. وخيّل إليه أنهم يرمقونه لأنهم كانوا غاضبين، لكنه لم يفهم لماذا ظل بعضهم يدفعه بمناكبهم وكأنهم يريدون دفعه إلى الرصيف بالقوة وإلى حشد المتفرجين... وأخيراً، دُفع بالقوة خارج المتظاهرين وكلمة «لماذا» كبيرة ومزعجة تدور في رأسه.

وفي اليوم التالي شارك في تظاهرة تناهض ارتداء اللباس غير الإسلامي، لكنه أُخرج منها بالقوة بنفس الطريقة كما في اليوم السابق.

وبعد يومين، وفي فترة بعد الظهر، رأى أحد تلاميذ الشاعر الذي مات قبل سبعمائة سنة، والذي يحمل آخر نسخة من مخطوطة غزليات الشاعر يخبئها تحت عباءته الصوفية، سندباد وهو يتمشّى للمرة الثانية في الدروب المتعرّجة بين الحدائق القديمة المسوّرة بالجدران. كان مستغرقاً في التفكير ولا يني يسأل نفسه هذا السؤال. هرع التلميذ المنتشي من جمال تلك القصيدة الغزلية، ليعطيها إلى تلميذ آخر، تطلّع حوله بحذر ثم رفع الرقعة الجلدية التي كتبت عليها القصيدة أمام عيني سندباد. لكن سندباد لم يرها ومضى في طريقه. وعندما بدأت الشمس تغيب وراء الدخان ووراء صيحات وضحكات الأطفال الذين لم يولدوا بعد في المدينة، لم يعثر سندباد، المرهق والمتوتر، على إجابة لعلامة الاستفهام الكبيرة. وفي طريق عودته إلى بيته القابع في أحد أحياء المدينة الفقيرة، وفي زقاق طويل وضيّق، رأى بائعاً متجولاً يبيع طلاسم وتعويذات ومساحيق سحرية. لم يكن سندباد قد رأى مثل هؤلاء الباعة المتجولين منذ سنوات. كانت ثياب الرجل مزيجاً من اللباس العربي والأفغاني والهندي، وكما لو أنه كان يتوقّع مجيء سندباد، راح يراقبه وهو يقترب بعينين لامعتين كبيرتين. وعندما اقترب منه سندباد، صاح البائع المتجول:

«طلاسم وتعويذات للحظّ السعيد... شراب للحبّ... رقى للأمنيات...».

جثا سندباد على ركبتيه أمام صندوق البائع الخشب. لكنه ما إن أوشك على أن يفتح فمه ويسأل ماذا ينبغي له أن يفعل، حتى تناهى إليه من شفتي الرجل من دون أن تتحركا:

«أعرف من أنت... بسوط مصنوع من جلدك ستجلد نفسك».

«ساعدني... طلسم، تعويذة... شيء... مهما كانت التكلفة. سأتسوّل أو أستعير المبلغ لأسدد ثمنها... ساعدني».

رفع بائع السحر الغطاء الزجاجي من فوق صندوقه وأخذ يفتش بين الطلاسم والقوارير الصغيرة المملوءة بالمساحيق الملوّنة، وقصاصات الورق التي كتبت عليها التعاويذ والرقى. وكان يدمدم طوال الوقت:

«عندي سحر يؤجج حبّك في قلب محبوبتك، عندي مسحوق للنساء اللاتي لديهن أزواج شبقون، امزجيها في الشاي الذي يشربه، واجعليه يشربها، وعندها سيُقفل على قلب الرجل، ولن يفكّر بأن يتخذ زوجة أخرى له... لدي تميمة إذا كرّرتها ألف مرة، فإنها تشفي أيّ مريض مصاب بمرض لا يمكن الشفاء منه. لكن...».

أخرج يده من الصندوق.

«لكن ماذا؟».

«الآن إنني متأكّد، لا يوجد عندي شيء لك».

«ابحث! ابحث أكثر. يجب أن يكون عندك شيء لي».

«لست بحاجة لأن أبحث، لأن التعويذة التي ستجيب أمنيتك هي فقط ما قلته لك».

«كيف يمكن أن يكون ذلك؟ إن مشكلتي ليست معقدة أكثر من المشاكل التي ذكرتها».

«إنها كذلك، وليست كذلك».

«إنك تكذب. لا بد أنك أحد هؤلاء الباعة المخادعين المزيّفين».

ترتسم ابتسامة خبيثة على شفتي بائع الطلاسم السحرية.

«أنا كذلك ولست كذلك».

«كرمى لله ساعدني. لا أعرف ماذا أفعل. أعطني طلسماً قادراً على حلّ المشاكل».

«لديك الطلسم الذي يحلّ مشكلتك... إنه على وجهك. لا يوجد لديّ شيء آخر أعطيه لك».

استوى سندباد واقفاً وقال غاضباً:

«أيها المجنون، اللعين! اجمع أغراضك واخرج من هذا الحيّ».

تنهد بائع الطلاسم:

«إلى أين أذهب؟ إني أقف دائماً هنا».

«إذا رأيتك هنا مرة أخرى، فإنك ستندم».

وركل سندباد صندوق الرجل العجوز بقدمه ومضى. كانت هذه هي أول مرة في حياته الحذرة والمحافظة تتملكه الشجاعة ويبدي غضبه تجاه شخص آخر.

طوال تلك الليلة، كانت تنتابه كوابيس عن أحداث جرت منذ قرون عديدة... فقد حلم بأنه صوفي منذ ثمانمائة سنة، وهو يصيح في سوق بغداد «أنا الحق»، فقبض عليه المسلمون المتعصّبون واتّهموه بأنه مرتدّ لأنه يدّعي بأنه هو الله، وزجوا به في السجن. وواصل الصياح في زنزانته التي تشبه السرداب: «أنا الحق». ومن زاوية مظلمة في السجن سأله أحد السجناء، «ما هو الحبّ؟»، فأجاب، «اليوم تنظر، وغداً تنظر، وبعد غد تنظر»، وعرف أنهم سيرجمونه اليوم، وسيشنقونه غداً، وسيحرقون جثّته

بعد غد، وسينثرون رمادها فوق نهر دجلة. وحلم بأن رأسه كان ينتصب، في مذبحة مدينة كيرمان، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، فوق قمة هرم من الرؤوس، ينظر بينما كان الجنود الغزاة يغتصبون النساء. وحلم بأن رجلاً مغولياً قصير القامة قال له آمراً في مدينة نيسابور: «قف هناك ولا تتحرك. لا تهرب حتى أحضر سيفي لأقتلك». فكّر بالهرب، لكنه لم يمتلك الشجاعة لعمل ذلك. رأى المغولي قادماً نحوه... وحلم بأن وجهه محفور على الحجارة في بيرسيبوليس بين وجوه الحراس الواقفين في تشكيل يحملون رماحهم طوال ألفين وخمسمائة سنة. ومن زاوية عينه، رأى الجنود الهنود الذين يخدمون في جيش الإمبراطورية البريطانية يوجهون بنادقهم إلى عينيه وإلى عيون الحراس الآخرين، للتدرب على رمي الأهداف. ورأى الدخان ينبعث من الفوهات، وسمع أزيز الرصاص بعد أن انطلق، فاستيقظ مذعوراً.

في صباح ذات يوم، بينما كان يحلق، تذكّر ما قاله له بائع التعاويذ. حدّق في وجهه. لم يكن وجهاً سيئاً. كان وجهاً وسيماً. لكن لم تكن فيه إشارة تدل على وجود تعويذة. نظر سندباد في فمه. ربما كان فيه شيء يمنحه الإلهام. وبإصبعه، رفع طرف أنفه لينظر داخل منخريه... لا، لم ير شيئاً غريباً هناك أيضاً. لعن بائع التعاويذ، وتوجّه إلى مكتبه. وكدأبهم في الأيام السابقة، كان زملاؤه منهمكين في مناقشات سياسية، أو يستعدون للخروج للمشاركة في تظاهرة ضدّ شيء ما. وكانت بين الأشخاص المشاركين في النقاش مجموعتان أكثر حماسة من الباقين ـ وكان صوتهم أعلى أيضاً ـ وهما الشيوعيون الذين كان عددهم عشرة أشخاص ينتمون إلى سبعة فصائل سياسية مختلفة، والمؤيدون المتشددون للنظام الإسلامي الذين كان عددهم يفوق عدد الفئة الأخرى بكثير. وبدأ سندباد العمل.

أعداد لا تحصى من الأمهات والآباء، كان معظمهم يحضرون معهم أطفالهم المولودين حديثاً، لطلب شهادات ولادة من جميع أنواع الأسماء المختلفة والغريبة أحياناً لأطفالهم. وكان سندباد يسجّل المعلومات الخاصة بهم في سجلّ، مع الاسم المختار، ويطلب منهم أن يعودوا بعد شهرين لأخذ شهادات ميلاد أطفالهم. وكان الآباء يتذمرون قائلين:

«سيدي، كم يستغرق كتابة اسمين في شهادة ميلاد لكي ننتظر شهرين؟».

وكان سندباد يلقي نظرة وديعة على زملائه المنهمكين في الجدال، ويوضّح لهم مختلف الخطوات التي يجب أن يتخذها لكي يصدر شهادة ميلاد.

وفي بعض الأحيان، كان الآباء الذين يحملون مواليدهم الجدد، يشاركون الآخرين في الجدال حول الجرائم والخيانات التي كانت قد ارتُكبت في عهد الشاه، والجرائم التي ارتكبتها الإمبريالية الأمريكية، وروسيا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والصين. وفي بعض الأحيان، كان يصل أحد الشيوعيين المتشددين إلى درجة شديدة من الحماسة والفوران ويصيح: «كما قال ماركس...»، فتنبعث من الجانب الآخر صيحات بصوت واحد: «الموت للشيوعية التي تنكر وجود الله». وفي وسط كلّ هذا الاضطراب والاهتياج، كان سندباد يرتكب أحياناً أخطاء غريبة. إذ يكتب مثلاً في شهادة ميلاد صبي اسم فتاة، أو العكس بالعكس. وفي ذلك الصباح، كان يدقق شهادة ميلاد فأتته فجأة شرارة إلهام، أنه منذ أن اندلعت الثورة، بدأ عدد طلبات شهادات الميلاد التي تسمي الأطفال بأسماء الملوك والأباطرة الإيرانيين ينخفض، وفي المقابل، أخذ عدد طلبات تسجيل المواليد الجدد بأسماء دينية وأسماء

عربية لا صلة لها بالشخصيات الدينية يزداد. وفي بادرة دهشة، كما هو شائع في جميع أنحاء العالم، رفع يده إلى وجهه، وأدرك أنه لم يحلق ذقنه هذا الصباح. استغرب أنه نسي عادة قديمة راسخة في عقله. بل والأغرب من ذلك، تذكر على نحو غامض أنه رغا الصابون على وجهه وحلقه في ذلك الصباح، ثم نظر إلى نفسه في المرآة باحثاً عن تعويذة...

لم يمنح مقدمو الطلبات سندباد المزيد من الوقت للتفكير. فقد أصبحت الساعة الثانية بعد الظهر عندما لاحظ زميلته، الآنسة روكسانا، تحدّق إليه بدهشة. وكانت الآنسة روكسانا المرأة الوحيدة العاملة في مكتبهم. وعملاً بالمرسوم الذي يحظر على الموظفات في الدوائر الحكومية أن يضعن مكياجاً أو زينة، كانت تأتي كلّ صباح إلى العمل بعناد وهي تضع مكياجاً، بل وأصبحت تتزين أكثر مما كانت تفعل قبل الثورة. وكانت السيدة من بين الموظفين القلائل الذين كانوا يتعاملون باحترام مع سندباد الذي بدأ يفكّر بأنه ربما وقع في حبها. وكان السبب الوحيد الذي جعله لا يتقدم لطلب يد روكسانا، أنه كان واثقاً من أنهم سيطهّرونها في أيّ يوم، لأنها تعتبر مناهضة للثورة وأنها عنصر فاسد، بالرغم من أن سندباد كان يعرف أنه، بسبب راتبه الضئيل وازدياد نسبة التضخّم، يجب عليه أن يتزوّج امرأة عاملة.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، حدّقت روكسانا فيه للمرة الثانية. لكن لم يعد هناك أيّ احترام أو دهشة في عينيها، بل كان ثمة خوف. هرع سندباد إلى الحمّام ونظر إلى وجهه في المرآة. صُدم. فلم يبد أنه لم يحلق في ذلك الصباح فقط، بل بدا أنه لم يحلق منذ ثلاثة أيام. لكن كانت دهشة سندباد، بل رعبه أشد بكثير في صباح اليوم التالي عندما وقف أمام المرآة. فعندما رأى وجه شخص غريب ينظر إليه، أخذ يصرخ ويقفز

مذعوراً. كان هناك رجل ملتح ينظر إليه من داخل المرآة. تلمَّس سندباد وجهه بيده، ولأول مرة في حياته أحسّ بنعومة لحيته. لحية جميلة كاملة، وقد تهدل الشعر الناعم إلى الأسفل جميلاً، كما لو كانت قد جُففت بمجفف شعر. أضفت اللحية على وجهه مسحة من الروحانية والبراءة. أخذ سندباد يتفحصها بعناية أكبر. شعر بمتعة غريبة، ووجد متعة في تلمس هذه الصفة الغريبة، ووجد أن النظر إليها مثير للاهتمام، ومع ذلك مدّ يده إلى آلة الحلاقة وحلق لحيته وتوجّه إلى المكتب.

ولم يكن في مزاج للعمل في ذلك اليوم، لكن كان هناك عدد كبير من مقدمي الطلبات، وكان لديه عمل كثير، حتى إنه لم يكن لديه الوقت ليحُكّ فيه لحيته. استمرت نظرات الآنسة روكسانا المندهشة والخائفة، وبدا وكأنه أضيفت إليها نظرات اللوم والتأنيب. قال سندباد لنفسه، يا لها من فتاة وقحة. إنها تتصرّف وكأنني أدين لها بشيء. فلتذهب إلى الجحيم. كان من الجيد أنني لم أطلب يدها للزواج. من الواضح أنها واحدة من تلك النساء السيئات الخلق المتطلبات اللاتي يعاملن أزواجهن كالعبيد، واللاتي يبحثن باستمرار عن أعذار للسيطرة عليهم ودفعهم إلى حافة الجنون. لذلك، عندما التقت عيناهما في المرة الأخيرة، لم يشح بنظره عنها بسرعة. بل أخذ يرمقها بوقاحة وغضب بنظرة تقول ما خطبك أيتها الفتاة الوقحة؟ وظل يرمقها حتى أحست روكسانا بالحرج وأشاحت بعينيها عنه.

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم، ربت السيد ب. على كتفه وطلب منه أن يخرجا ويتمشيا معاً. والسيد ب. هو أحد الأشخاص النادرين الذين كان يبدي ميوله الدينية صراحة وعلانية قبل الثورة. حتى إنه لم يكن يضع ربطات عنق في تلك الفترة، بخلاف زملائه، وكان يرخي لحية خفيفة محفوفة، وعندما كان يصبح وجهاً لوجه أمام امرأة

تضع مكياجاً، وترتدي ثياباً على الطراز الغربي، كان يعتريه إحساس بالانزعاج الشديد. كان يحمرّ خجلاً، وينضح العرق منه، ويسعى جاهداً لأن لا ينظر إلى وجه المرأة، ويشيح بوجهه عنها. وأوضح ذات مرة لأحد الزملاء السبب الذي لا يجعله يخفض رأسه وينظر إلى الأسفل. «هؤلاء النساء... لا يعرف المرء ماذا يفعل. إذ ترتدي بعضهن تنورات قصيرة وصنادل من دون جوارب إلى درجة أنك مهما أطرقت برأسك ونظرت إلى الأسفل، فإنك ستظل ترى جزءاً من سيقانهن... إني أشعر بحرج شديد عوضاً عنهن».

خلال الشهور الأولى من الثورة، كان ب. ينظّم ويقود إضرابات مع موظفين آخرين في ذلك المكتب، لذلك كان غالباً ما يلقى القبض عليه ويُزجّ به في السجن. وبعد أن انتصرت الثورة، أُطلق سراحه مع المعتقلين السياسيين الآخرين ـ أمضى بعضهم أكثر من ثلاثين سنة في سجون الشاه ـ وعاد إلى وظيفته بطلاً.

سار سندباد مع ب. الذي كان هادئاً وغامضاً إلى درجة كبيرة. ولم يكن سندباد يفهم ماذا يريد منه هذا الشخص المهم الذي دأب على تجاهله. كان خائفاً. خيّل إليه أنه ربما كان يريد أن يخبره بأنه سيتم تطهيره. تهيأ للدفاع عن نفسه إذا ما ذكر له ذلك، وسيطلب منه أن يطردوا بدلاً منه، الآنسة روكسانا.

كانت هناك مجموعة مؤلفة من مائة شخص يمشون في الشارع، يرفعون قبضاتهم إلى السماء ويصيحون: «الموت لأنصار الملكية، الموت للشيوعيين، الموت للمنافقين، الموت لمناهضي الثورة».

قال ب. بصوت بدا حزيناً:

«أرى أنّك توقّفت عن حلاقة ذقنك».

مرّر سندباد يده على وجهه. أدرك أنه بعكس ما كان يظن، لم يحلق ذقنه. لم يحلق لحيته منذ خمسة أيام. لم يجب.

«هذا أمر جيد، فالإسلام يرفض أن يحلق الرجال وجوههم لكي لا يبدون مثل النساء».

«أعرف».

«أعرف أنك تعرف... إن ما يثير قلقي هو شيء آخر».

«إني أحاول دائماً أن أكون موظفاً جيداً. إذا كان هناك أيّ عيب في عملي، أرجو أن تخبرني، ومن المؤكد أني سأصحّح ذلك. إذا طُردت من عملي فإن حياتي ستُدمَّر. لديّ أمّ مسنة عملت خادمة في بيوت الأغنياء لكي تربيني، وهي الآن طريحة الفراش».

«لا أحد يريد أن يطردك من الوظيفة. إن قلقي هو أنك تطيل لحيتك نفاقاً وادعاء. في رأيي أن النفاق في الإسلام إثم أعظم بكثير من حلاقتها. هذا ما أردت أن أقوله لك».

نظر سندباد إلى وجه ب. الحزين مندهشاً. كان ب. ساهماً، ينظر بعيداً إلى مكان ما.

«في هذه الأيام أصبح الجميع مسلمين متشددين. وقد غيّر السيد عبدالملك اسمه إلى اسم «تقي». الرجل الذي لا أدّعي أنه كان مخبراً في مخابرات الشاه، لكننا نعرف أنه كان عضواً في حزب راستاخيز الذي أمر الشاه بإنشائه، أطلق لحيته وأصبح الآن أكثر ورعاً وأشد تقى من الأشخاص مثلي. وهو لا يتوقف عن الذهاب إلى المدير العام كلّ يوم ويشي بزملائنا بكلام نصفه حقائق ونصفه أكاذيب، ويشي بهم ويفتري عليهم ليثبت لهم أنه رجل ثوروي، ويوصي بأن يتم تطهير واحد منهم. وهو الذي جعل المدير العام يشتبه بك، مع أننا جميعنا نعرف أنك رجل

مسؤول. . . إنني أسعى جاهداً للتأكد من أن لا يتقدم مثل هؤلاء الأشخاص ويحوّلون مسار الثورة».

قال سندباد بغضب:

«إني لست واحداً من هؤلاء الأشخاص. لا أريد إلا أن أقوم بعملي على خير ما يرام، وأن أقبض راتبي، وأعيش حياتي. . . لماذا تقول لي كلّ ذلك؟ بدلاً من ذلك يجب أن تذهب وتكلّم أشخاصاً مثل السيد تقي».

«أردت فقط أن أخبرك أننا جميعنا مسلمون، لكنك إن لم تكن تؤمن من أعماق قلبك بممارسة بعض تعاليم الإسلام، فهوّن عليك فيما يتعلق بمظهرك. دع قلبك هو الذي يوجّهك، بنقاء الهدف، وأن لا تحلق لحيتك. إذا حافظت على نقاء قلبك، فإنك سترى الله حبّاً أعظم. إن النفاق سيبعدك عن الله».

«لماذا أنت واثق من أن ما تقوله ليس نفاقاً؟».

مصدوماً بهذا السؤال، تسمّر ب. في مكانه. نظر في عينيّ سندباد. اغرورقت الدموع في عينيه، وأطرق برأسه.

«إنك على حق. لا يمكن لأحد أن يكون واثقاً تماماً. . . للنفاق أوجه عديدة وظلال عديدة. . . وطوال التاريخ، كانت جميع الكوارث التي حلّت بنا نحن الإيرانيين هي بسبب هذا النفاق. . .».

بعد أن رأى ضعف ب. شعر سندباد بالأسف. شكره وعاد إلى المكتب.

بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كان سندباد عائداً إلى البيت سيراً على القدمين، سمع السيد تقي يناديه من الخلف في مكان بعيد عن المكتب.

«كيف حالك يا زميلي. يا صديقي. . . لم أسمع منك منذ فترة».

«حسنا، إنك مشغول كثيراً».

«يا أخي، مشغول كثيراً! حسناً، نعم، لقد أضاف المدير العام مسؤوليات جديدة على عاتقي. إن واجبي هو تجاه الثورة؛ يجب أن أتحمّل هذا العبء، وما عدا ذلك، فأنا الصديق القديم لزملائي».

«ماذا تفعل في هذه المنطقة؟ فبيتك يقع في شمال المدينة».

«يا صديقي، لقد ورثت ذلك الكوخ المتداعي الذي نعيش فيه من أبي... لكنني ولدت وتربيت في هذا الحيّ. كنت في طريقي إلى بيت عمّتي وصادفتك. ما الجديد في الأمر؟».

«لا شيء. كلّ شيء على ما يرام».

حدّق تقي في سندباد بعينيه الثاقبتين الحادتين. ثم تغيّرت نبرة صوته.

«رأيتك تمشي مع ب. بعد ظهر اليوم. أردت أن أحذرك منه. لا تنخدع بمظهره البريء. إنه واحد من تلك السحالي الزلقة. فمنذ فترة طويلة أخرج ملفات جميع زملائنا من الأرشيف ودرسها. لقد وضع قائمة طويلة بالأشخاص الذين يجب تطهيرهم، وهو يذهب إلى المدير العام كلّ يوم، ويصرّ على أنهم عناصر مناهضة للثورة ويجب طردهم».

«لا يوجد شيء في ملفي يجعلني أشعر بالقلق. إنني أقوم بعملي دائماً، ولا توجد لي علاقة بأعمال الآخرين الطيبة أو الشريرة».

«هل تظن حقاً أن الإيقاع بأحدهم أمر صعب؟ إنه يستطيع بسهولة أن يخبرهم أنك كنت عميلاً سرياً في الشرطة السرية... في واقع الأمر، حسب الظروف الحالية، فإن أمثالك الذين هم وحدهم، ولا توجد لديهم مجموعة أو فئة تدعمهم، يجب أن يخافوا أكثر. إننا صديقان وزميلان. يجب أن يحرص أحدنا على الآخر».

بجدية، قال سندباد:

«في جميع الأحوال، لقد عملت جاهداً لصالح الثورة أيضاً، ولا أريد أن تعاني في أي حال».

شكره السيد تقي على نياته الطيبة وقال:

«أعرف. المهم لنا الآن أن يحرص أحدنا على الآخر وأن نتعاون. ذات يوم يجب أن نعمل على طرد السيد ب. من المكتب. عندها ستفهم بأنني أدعمك وأتمنى لك كل الخير بتحذيرك بعدم النزول إلى البئر بحبله المتعفّن».

شكر سندباد هذا الصديق الجديد، وربّت السيد تقي على ظهره كبادرة تُعبِّر عن إخلاصه وصدق نياته وودعه. وصل سندباد إلى البيت وهو يشعر بأنه أصبح أكثر تعباً وعجزاً من أي وقت مضى. سخّن الطعام لأمّه، وضعه أمامها، وجلس مقرفصاً في زاوية الغرفة ليشاهد التلفزيون.

في البرنامج التلفزيوني، كان أحد الثورويين الذين عاشوا في فرنسا لسنوات عديدة وعادوا إلى الوطن بعد الثورة، يتحدث بحماسة عن خطة الحكومة الرامية إلى تغيير الأسماء الغربية. كان يشرح أنّ المسؤولين في وزارة الفنون والثقافة ـ التي أصبح اسمها بعدئذ وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ قد شكّلوا لجنة وأصدروا تحذيراً للمصانع التي تنتج منتجات تحمل أسماء غربية، وللمحلات وخاصة محلات البوتيك التي تحمل لافتاتها أسماء غربية. وفي هذه الأثناء، كانت اللجنة تتخذ إجراءات فورية لحذف أسماء بعض الشوارع مثل شارع الشاه، وشارع روزفلت، وجادة إليزابيث، وساحة كيندي، واختيار أسماء إيرانية بدلاً منها. وفجأة، لمعت شرارة الإلهام في رأس سندباد. فقد نهض متحمّساً، وبدأ يذرع الغرفة الصغيرة ذهاباً وإياباً. . . نعم، هكذا كان. فلكي يثبت أنه موظف جيد، ولكي يظهر أن لديه عقلاً مبدعاً ومنتجاً، ولكي يُفهم الجميع أنه لم يكن مغرماً بالنظام الملكي قط، يجب أن يقدّم إلى دائرة الأحوال الشخصية خطة ثوروية تؤدي دوراً أساسياً في حياة أجيال الإيرانيين القادمة. وبما أنه كان على الدوام موظفاً مسؤولاً، ومنهمكاً في عمله، فقد فوجئ بأنه لم

يفكّر بذلك من قبل. وكدّس بسرعة جميع الأوراق الموجودة لديه في البيت أمامه. قسّم كلّ صفحة إلى عمودين. العمود على اليمين للأسماء الثوروية الموصى بها، والعمود المقابل للأسماء المتعفّنة والسوقية. والمناهضة للثورة. وكتب في مقدمة خطته: «من الواضح والظاهر أن الاسم يؤدي دوراً ضرورياً في تشكيل شخصية صاحب الاسم أو سعادته في المستقبل». وأصبح عقل سندباد نشيطاً للغاية، وذكّره بسرعة بالأسماء المختلفة. بالطبع، في خطته المقترحة التي سيقدّمها إلى المدير العام، يجب أن يشير إلى أنه يجب أن تُقترح الأسماء الثوروية المناسبة وأن يُوصى بها إلى الآباء الذين يقدّمون طلبات للحصول على شهادات ميلاد لمواليدهم الجدد، وأنه يجب ألا يكون هناك إرغام على ذلك. ويتمثل المنطق الأساسي لخطته في أن الشعب الإيراني شعب منطقيّ جداً وغير عاطفي، وأنه سيعتنق بحماسة وإخلاص الأسماء الموصى بها، وسيمتنع عن اختيار الأسماء المناوئة للثورة لأطفالهم. أما القلة العشوائية التي قد لا تلتزم بهذه الخطة الثوروية، فإن عناصرها سيثبتون أنهم جواسيس وعناصر مناهضة للثورة، وسيترك أمر إنزال العقوبة بهم للمحاكم.

ومع أن سندباد كان في غاية السعادة لأنه استنبط هذه الخطة الأصلية، فإنه كان يدرك مقدار مشكلته الحقيقية. نعم، لحيته. فمن ناحية، كانت لحيته الملاك الذي أنقذه، لكن من الناحية الأخرى، فقد خرجت عن السيطرة وأصبحت طموحة للغاية. إذ إن لحية كلّ رجل تنمو بمعدل ٠,٠٢ بوصة في اليوم، أما لحية سندباد فهي تنمو بمعدل ٠,١ بوصة في الساعة. وفي فترة لاحقة، سيدرك أنّ معدل نموها سيتوقف على مزاجه وعلى حالته العقلية. بمعنى آخر، تنمو لحيته أحياناً بمعدل ٠,٣ بوصة في الساعة. بالطبع، لم يكن حلّ هذه المشكلة صعباً كما كان يبدو في

البداية. فعندما قبل سندباد أخيراً انطلاقة لحيته وقدرتها على النمو، ربما كانت اللحية نفسها هي التي أوحت إليه بالحلّ: أن يحمل مقصاً في جيبه على الدوام، وأن يذهب إلى مكان خاو في كلّ ساعة ليشذبها. بالطبع، لأنه لم تكن لسندباد أيّ علاقة بالأدب ولا بالرقابة، ولا ما ترمز إليه الرقابة، ولم يكن يعرف ماذا ستصنع سخرية القدر المريرة نتيجة وضع مقص في جيبه الآخر.

في جميع الأحوال، انكبّ سندباد على دراسة خطته لمدّة أسبوع كامل، وبعد أن أعدّ قائمتين بالترتيب الأبجدي بالأسماء الجيدة للذكور والإناث، مستخدماً أحدث الأساليب العلمية في العالم، وقائمتين بالترتيب الأبجدي من الأسماء السيئة للذكور والإناث التي يجب حذفها من الوعي الثقافي ومن الذاكرة المعاصرة للإيرانيين، سلّمها إلى سكرتير المدير العام. وهكذا، بدأت مسيرة صعوده.

تماماً كما خمنتم، فقد كان السيد ب. هو الذي تم تطهيره. هل أحتاج لأن أذكّركم بأن التطهير، أو الطرد، هو شكل من أشكال الرقابة؟ وبصفتي كاتباً كان قدره في بعض الأحيان أسوأ وأتعس من بؤساء جان فالجان، أظن أنني عندما وافقت على حذف كلمة من إحدى القصص، فقد وافقت أيضاً على حذف إنسان من موقع عمله أو من حياته. ومنذ أن تعرّض السيد ب. للمتاعب، لم أعد أستطيع أن أساعده في أن يؤدي دوراً مهماً في قصّة حبّنا. لذلك، دعونا، بقسوة مطلقة، لا نفكّر فيه.

عندما زرت دائرة الأحوال الشخصية العامة للحصول على شهادة ميلاد لابنتي، كان السيد سندباد يشغل منصب نائب رئيس الشؤون العامة والشؤون الثقافية. وتم توزيع قائمته الإبداعية والثورية التي تضم الأسماء المسموح بها والممنوعة على جميع الفروع التابعة لدائرة الأحوال

الشخصية العامة في أرجاء البلاد، وطُبّقت خطته في جميع الأماكن. لكن صعوده لم يتوقف هنا. ففي ذات يوم، عندما كان سندباد يريد أن يكتب ملاحظة بقلم الرصاص، كان طرف قلم الرصاص الذي يكتب به ينكسر لدى أدنى ضغطة على الورق. كان قلم رصاص جديداً ذا لون جميل. برى سندباد طرف القلم، لكنه ما إن كان يُخرج قلم الرصاص من المبراة، حتى ينكسر رأسه الجديد ويعلق تحت حافة المبراة. أزال سندباد طرف القلم المكسور بشيء من الصعوبة وبرى القلم ثانية، وحدث الشيء نفسه عدة مرات حتى أصبح قلم الرصاص الذي طوله بوصة واحدة من دون رأس. تناول قلم رصاص آخر من نفس النوع وتفحصه. نعم، كما خمنتّم، فقد كان مصنوعاً في الصين. وفي الفنون التصويرية الإيرانية، بالإضافة إلى المقص، يعتبر قلم الرصاص أو قلم الحبر المكسور رأسه رمزاً لمقص الرقيب، والقيود على حرية الكلام. لكن بتناقض تام لهذا الرمز، أثار قلم الرصاص، الذي أصبح بلا رأس، الملهم العظيم الثاني في حياة سندباد. ومما لا شك فيه أن التاجر الذي استورد أقلام الرصاص الرخيصة هذه من الصين وباعها بثمن مرتفع في الأسواق الإيرانية ـ التي تخضع للحظر الأمريكي ـ قد حقّق أرباحاً ضخمة. فكّر بالأمر. لا بد أن أقلام الرصاص سلعة ثمينة في بلد يسكنه شعب ازداد عدده في عقدين من الزمان من ثلاثين مليون نسمة إلى ستين مليون نسمة، فيهم ما لا يقل عن سبعة عشر مليون طالب في المدارس والجامعات... في تلك الليلة، كتب سندباد خطة مبدعة أخرى، وسلّمها إلى مدير عام دائرة الأحوال المدنية العامة. ووفقاً لهذه الخطة، سيتوجّه إلى الصين بمهمّة تدفع الحكومة نفقاتها يجري خلالها أبحاثاً في الأساليب الثوروية السرّية التي يستخدمها الصينيون في زيادة عدد سكانهم، والأساليب الحمراء التي

استخدموها في ثورتهم الثقافية لحذف أسماء ورموز الأباطرة الصينيين المستبدين. أوكلت إلى سندباد مهمة السفر لمدّة شهر إلى الصين المادية التي كانت علاقتها مع البلدان الإسلامية آخذة في التحسّن يوماً بعد يوم. حسناً، ما هو المكان المفضل في الصين لإجراء أبحاثه العلمية على أساليب حذف الرموز المناهضة للثورة، وسبل زيادة عدد السكان؟ من الواضح أنه مصانع أقلام الرصاص الصينية.

اسألوني ماذا أقصد، وبالمناسبة، اسألوني أيضاً ما علاقة كلّ هذه الحكايات المعقّدة التي تشبه المتاهة بقصّة حبّ بسيطة. وسأقول: في واقع الأمر، لهذه الحكايات علاقة كبيرة بقصّة حبّنا. فكما يستطيع قلم الرصاص أن يكتب كلمات قصّة حبّ مقزّزة تعجّ بالتلميحات الجنسية المقنّعة بالحرية لخدمة ثقافة فاسدة مناهضة للثورة، يمكنه أيضاً أن يكون الأداة التي ستشطب الجمل الواردة في تلك القصّة، بنفس الطريقة التي يحمُل فيها قلم رصاص بيد كاتب ذي عقل فاسد أو جاسوس أو خائن ويمكنه أن يحوّل الكلمات التي تحمل، سواء أكان ذلك شعوريا أم لا، فيروسات ثقافة غربية منحطة، ويمكنه أيضاً، بطرفه المدبب، مثل إبرة حقنة، أن يحقن لقاحاً لمكافحة الجراثيم والميكروبات المعادية للثورة في عروق السكان. ومن الناحية الأخرى، فكّروا في الأمر، كم يمكن أن تكون أقلام الرصاص سلعة مستهلكة في بلد يكتب فيه آلاف الكتّاب والشعراء ليصبحوا أعظم كتّاب أو شعراء في العالم، وإزاءهم هناك آلاف الأشخاص الذين يقرأون ما يكتبون لشطب أمثلة عن فسقهم وفجورهم.

وعندما عاد سندباد إلى إيران من بعثة لجنة تقصّي الحقائق، كان في جيبه

عقد صغير لاستيراد أقلام الرصاص الصينية العالية الجودة للتعويض عن أقلام الرصاص الغربية المحظورة. وبعد سنتين وسبعة أشهر، من خلال منصبه الحكومي، والأشخاص الذين صادقهم في إدارة الجمارك وفي السوق، أصبح سندباد أكبر مستورد لأقلام الرصاص الصينية الممتازة، واستقال من وظيفته الحكومية ليتيح المجال لارتقاء شبان مبدعين آخرين. ونقل شركة التصدير والاستيراد إلى طهران، وصرف كلّ طاقته وإبداعه وخبرته في استيراد أقلام الرصاص التي لم تكن تكتب على الإطلاق، لذلك لم يرهق أي شخص بأن يزعج نفسه بشطب وحذف أيّ كلمات.

أثناء خدمته الثوروية تلك، جمع سندباد ثروة كبيرة، وأصبح دخله السنوي يزيد بكثير على الملايين الخمسة والسبعين دولاراً، التي خصصها الجهاز السياسي في إدارة السيد بوش لتغيير النظام السياسي في إيران. وكان سندباد يقول مازحاً أحياناً، عندما يكون بصحبة أصدقائه التجار: «يمكنني أن أخصّص سبعمائة وخمسين مليون دولار لتغيير النظام السياسي في أميركا...». لكن كان يتعين على سارا في قصّتنا أن تتّخذ قراراً بشأن قبولها الزواج من سندباد، وقضاء شهر العسل في باريس أو في الفيللا التي يملكها في إسبانيا. وهنا تكمن إحدى معضلات قصّتنا. فشأن أي شابّة محتشمة وعفيفة، لم يسبق لسارا أن انتعلت حذاء ملوّناً، ولم يسبق لها أن خاطت أزراراً ملوّنة على عباءتها، وبالطبع، لم يسبق لها أنها صبغت خصلات شعرها لتتركها تتهدل طليقة من تحت غطاء رأسها لتضلل الرجال والشبان الإيرانيين، وتجلس إلى جانب أبويها، وتحتسي الشاي الهندي الممتاز مع سندباد.

ما إن نبدأ هذا المشهد في قصّة حبّنا، حتى يذهب سندباد إلى الحمّام ليشذّب لحيته لتصبح بنفس الطول الذي كانت عليه عندما وصل إلى بيت

سارا. وأنتهز فرصة هذا التوقف القصير لأفكّر كيف يمكنني أن أجد السيد بيتروفيتش وكيف أجعله يحدثني عن رأيه باسم دارا.

يعود سندباد من الحمّام.

أمّ سارا، المبتهجة بشرف وجوده معهم في بيتهم، تستأنف حديثها المسهب الجذاب.

«يا إلهي، لم تلمس قطعة الحلوى بعد. إذا لم تعجبك هذه الحلوى، فهناك محل حلوى ممتازة في مكان قريب. يستطيع زوجي أن يذهب ويشتري قليلاً منها بسرعة».

سندباد، الذي يرمق سارا الصامتة، ويضع قطعة من الحلوى في فمه، ويتظاهر بأنه ينفض الفتات عن سترته، يتخلّص من الفتات العالق بلحيته المشذّبة.

أمّ سارا تسأل:

«هل لي أن أصبّ لك كوباً آخر من الشاي؟».

«أرجوك. إنه شاي رائع. إنه معطّر وذو نكهة لذيذة».

«كما تعرف، فإن السوق هذه الأيام مليئة بالشاي المغشوش. حتى إذا وضعت ملء حفنتين أو ثلاث حفنات منه في إبريق الشاي، فإنه يظل من دون لون أو نكهة».

«هل هو شاي إيراني؟».

«أبداً. . . يا له من سؤال! شاي إيراني؟ طوال حياتنا نشتري شاياً أجنبياً جيداً. إن الشاي الذي تشربه عليه علامة السيفين ـ شاي هندي إنكليزي ممتاز. زوجي يشتريه من السوق السوداء».

سارا، غاضبة ومثبطة من ثرثرة أمّها، تتعمد أن تسعل. تنهض أمّها، لا لأنها فهمت حركة ابنتها، بل لتجلب علبة الشاي الهندي الإنكليزي الممتاز ذات علامة السيفين لتثبت مزاعمها.

يقول سندباد:

«سيدتي الطيبة، من المؤكد أن الشاي الإيراني شاي جيد، لكنّه خسر في مجال الدعاية، وفقد اسمه بريقه. عندما كنت أشغل منصب نائب المدير في المكتب، كنت أطلب أن يتم تخمير الشاي الإيراني وتقديمه هناك. حتى إنني بذلت جهدي كي لا يحتسي الموظفون في بيوتهم شاياً غير الشاي الإيراني».

من خلال قوله هذه الكلمات، كان سندباد يحاول أن يحفظ عن ظهر قلب اسم وعنوان منتج الشاي ذي السيفين الهندي ـ الإنكليزي الممتاز المطبوعين على علبة الشاي. وقال لنفسه إنه ربما كان من الذكاء أيضاً ليستورد هذا النوع من الشاي. فهناك عوامل مشتركة عديدة تجمع بين أقلام الرصاص والشاي، وبالطبع، لا توجد عوامل مشتركة تجمع بين سندباد وبين التجار الدجالين الذين يبيعون الشاي الإيراني من الدرجة الثالثة، المعبأ في علب كتبت عليها كلمات هندية وطبعت عليها علامة السيفين، بأسعار باهظة في السوق السوداء.

يقول سندباد:

«آنسة سارا، لماذا أنت صامتة هكذا هذه الليلة؟».

منذ وصول سندباد، لم تكف سارا عن رؤية وجه دارا البريء أمامها. لكنها بين الحين والآخر، كانت تشعر بالرغبة في أن تلقي نظرة خاطفة على وجه سندباد ولحيته الجميلة. ومن بين جميع قسمات وجه سندباد، أحبّت سارا عينيه أكثر من أي شيء آخر. فلم يُمح من هاتين العينين عذاب سنوات الفقر، والحرمان، والكدح. وفي أحاديثهما الخاصة التي كانت تدور في هذا البيت، أفضى سندباد بمكنونات قلبه عن طفولته وعن نشأته من دون أب، وأخبرها أنه ليس واحداً من هؤلاء الأشخاص الحديثي النعمة الذين أعمتهم الثروة.

تقول سارا:

«كنت أفكّر».

«هل يمكنك أن تشاركيني ببعض أفكارك؟».

«في واقع الأمر، كنت أريد أن أسألك عن رأيك. إنك بالتأكيد تعرف أنه كانت هناك تظاهرات واشتباكات منذ بضعة أيام أمام الجامعة».

«لقد سمعت شيئاً عن ذلك».

«ما رأيك بهؤلاء الطلاب؟».

يبدأ أبو سارا وأمّها يسعلان.

تقول لهما سارا:

«أرجوكما لا تقاطعاني بسعالكما».

كانت هذه أول مرة تتجاسر فيها سارا على مخاطبة أبويها بهذه الطريقة.

في أعماق أذني، أسمع صوت السيد بيتروفيتش:

«أترى! إن هذه الوقاحة نتيجة علاقة الحبّ المحرّمة والسرّية لسارا. أترى ماذا يفعل الإثم بشخصيات الناس؟ هذه هي البداية فقط. إذا استمرت قصّتك هكذا، فإن هذه الفتاة الجاهلة ستخرب حياتها بيديها. حذرها تحذيراً صارماً».

لكن بدلاً من ذلك، سحبت أمّ سارا زوجها إلى المطبخ لتنبهه بحزم.

«كم مرّة قلت لك ألا تشتري هذه الحلويات الرخيصة؟ لقد أحرجتنا. اخرج بسرعة واشتر علبة حلويات أفضل... وسأرى كيف يمكنني أن أُخرس سارا. إن هذه الفتاة الجاهلة ستدمّر وتخرّب حياتها وحياتنا بيديها».

وتعود إلى غرفة الجلوس ضاحكة وتقول:

«يا إلهي، لا تلمس هذه الحلوى يا سيد سندباد. لقد خرج والد سارا لشراء الحلويات التي تحبّها».

مطيعاً، أعاد سندباد الحلوى إلى صحنه، لكنه يواصل حديثه مع سارا:

«. . . لهذا السبب، أظن أنني لو كنت طالباً، لشاركت أيضاً في التظاهرات. إنني أحترمهم كثيراً. إنهم كنز الثورة. إن كنت واحدة من هؤلاء الطلاب، فبالنيابة عني، أرجو. . .».

تقاطعه أمّ سارا بسرعة:

«سيدي، ماذا تقول؟ يستحيل أن تكون ابنتي واحدة من تلك المجموعة من الطلاب المضللين».

فتقول سارا بحزن شديد:

«في الحقيقة، هذه المرّة إن أمّي محقة. فأنا لست واحدة منهم».

«في جميع الأحوال، لو حدث أن تحدثتِ معهم، أخبريهم أن الكثير من قادة البلد يدركون المشاكل والقضايا التي تثير غضبهم وأنهم في حالة شديدة من الكآبة والحزن. لكن في الوقت الحاضر، بما أننا نمرّ في مرحلة حرب خارجية باردة، بل ونارية مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإسرائيل، فليس من الحكمة أو التعقل أن يحدثوا اضطرابات ويقدموا لوسائل الإعلام الغربية ومعارضي الثورة الذين يعيشون في الخارج مادة يتحدثون عنها».

إني واثق من أن السيد بيتروفيتش سيحبّ هذه الجملة.

~~لكن سارا، بعكس رغباتي وتوقعاتي تقول:~~

~~«لسنوات، كان يُطلب من الجميع أن يلزموا الهدوء، وألا يتقدوا، وألا يعترضوا، بنفس الأعذار، الحرب والصراع مع الإمبريالية العالمية ومناهضي الثورة. . .».~~

من دون أن آخذ إذناً من سارا، شطبت هذه الجملة، ولكي أتفادى أن اضطر لكتابة باقي تعليقاتها، غادرت بيتهم. في الخارج، رأيت والد سارا،

الذي بدلاً من أن يجري إلى محل الحلويات، واقفاً متسمراً في مكانه، ونظرة رعب ترتسم على وجهه. وإلى جانب الباب الأمامي مباشرة، يجلس قزم أحدب على الأرض، متكئاً على الحائط، وساقاه متباعدتان، وعيناه الهامدتان مثبتتان على فخذيه. خائفاً من أن يمرّ أحد بجانبه ويرى الجثّة الملقاة جانب باب بيته، كان والد سارا يتطلع مذعوراً حوله. ربَّتُ على كتفه وأشرتُ إلى سيارة سندباد التي تلمع مثل قطعة من الماس مركونة بين جميع السيارات القديمة المتهالكة. وقد فهم والد سارا بما أن سندباد رجل غني وصاحب نفوذ، بإمكانه أن يتخلّص من القزم بسهولة.

لا يستهلك الكاتب جهداً كبيراً حتى يفتح صندوق سيارة تخص إحدى الشخصيات في قصّته. وبالمصادفة، منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت أتوق إلى أن يكون لدي آخر طراز من سيارة بي إم دبليو، وأعترف بأنه توجد لديّ الآن، مثل آخرين، سيارة مركّبة من بي إم دبليو. وفي جميع الأحوال، يستغرق الأمر خمس ثوان لكي أخرج مفكّاً من جيبي، وأكسر قفل صندوق السيارة. تركت الصندوق مفتوحاً، وبينما أخذت أبتعد، ممسكاً بالمفكّ نفسه، خدشت خطّاً من بداية السيارة حتى نهايتها في جانبها. أُصفّر وأنا أسير في طريقي لكي يتصرف والد سارا بطريقة عقلانية من دون شاهد. وحتى لو كان دارا لا يزال لا يعرف لماذا يحمل على الدوام منديل جدته الحرير في جيبه، بدأت أفهم الآن سبب ذلك. فقد وضعت هذا الصباح، بشكل آلي مفكّاً في جيبي وأنا أغادر البيت.

لديّ الآن شيء مهم يجب أن أفعله. إذ يجب أن أتجاوز بعض الدروب بطريقة ما مع السيد بيتروفيتش. ففي الليلة الماضية فقط، عندما كنت أكتب، أسندت رأسي إلى الطاولة لأريح عينيّ قليلاً. كان هناك ملصق كبير عن دوستويفسكي إلى الحائط خلفي. في هذه الصورة الشهيرة

لتمثال الكاتب النصفي، كانت عينا دوستويفسكي اللامعتان المصابتان بالجنون تحدّقان في نقطة ما خارج إطار الصورة. وبعينيّ المغمضتين، كنت أسعى جاهداً لأن أتمكن من رؤية وجه دارا الحزين بعد أن سمع الخبر بأن أحدهم قد تقدم لخطبة سارا. وفجأة، خيّل إليّ أنني سمعت صوت زجاج يُسحق ويُطحن داخل تجويف رملي جاف، فالتفت ورأيت أن عينيّ دوستويفسكي قد استدارتا نحو الصفحات التي أكتبها، وأخذ يقرأ ما كتبته من وراء كتفي. لكن تينك العينين لم تكونا لامعتين ولا معذبتين، وبدتا مألوفتين لي أكثر من عينيّ دوستويفسكي. تسمّرت في مكاني، وأدركت أن العينين لم تكونا إلا عيني كبير المحققين إيفان كارامازوف في رواية «الأخوة كارامازوف». بمعنى آخر، الكاهن الأكبر والمحقّق نفسه في محاكمة المسيح، الذي بحسب المنطق اللاهوتي الدقيق، اتهم السيد المسيح بأنه حرّض على الفتنة وأصدر عليه حكماً بالموت.

كنت أتمنى أن يكون جميع الرعب في العالم بهذه البساطة وضعف الخيال. لا، لم تكن تلك العينان عيني كبير المحقّقين. منهكاً، تهالكت على الكرسي. رحت أقلّب صفحات قصّتي وقلت:

«كيف حالك يا سّيد بيتروفيتش؟».

استيقظت. نظرت إلى ساعتي. أغمضت عينيَّ لبضع ثوان. تنفست الصعداء لأن المشهد كان مجرد كابوس عابر، لكن بهجتي لم تدم طويلاً. لاحظت أن السيجارة التي كنت أمسكها قد احترقت كلها وتحوّلت إلى رماد في منفضة السجائر. لا أسحق عادة أعقاب سجائري لأنها عادة ما تحترق حتى نهايتها وهي قابعة في منفضة السجائر وتتبدد، أو أنني أطفئها بلطف واحترام. عندها فقط تذكّرت أنني شعرت بأن أحدهم ورائي وأنا ماثل على تخوم النوم واليقظة. انحنيت إلى الأمام، وبطريقة أبوية، أخذ

السيجارة من بين أصابعي، وبينما كنت أقرأ الصفحة الأخيرة من قصّتي وجملها المشطوبة، سحقها في منفضة السجائر باشمئزاز.

في تلك الليلة، بعد أن أحدثت خدشاً في سيارة سندباد، مضيت مسرعاً إلى أحد المراكز الثقافية الحكومية التي سمحوا، كاستثناء، أن يلقي فيه شاعر إيراني محاضرة. وكما توقّعت، كان السيد بيتروفيتش هناك. كان يجلس في الصفّ الأخير، وبعينين يمكنهما قراءة أعماق عقول البشر، كان يحدّق في وجه شاعر إيراني من العهود القديمة. كان الشاعر يتحدث عن الرقابة. ولمدة خمس دقائق، وبنبرة لطيفة ومثقفة، أخذ يتحدث عن الضرر الذي تلحقه الرقابة، ثم أعلن أنه توصّل مؤخراً إلى اكتشاف عظيم. اكتشاف يرى فيه أن الأدب الإيراني المعاصر بدأ يكسب شهرة بسرعة في أنحاء العالم، ويُترجم إلى مختلف اللغات، ويُصدر أفضل الكتب مبيعاً، وسيفوز أخيراً بجائزة نوبل، إن لم يكن هو، فشاعر أو كاتب إيراني آخر. وكان اكتشاف هذا الشاعر العظيم هو أن الرقابة تدفع الشاعر أو الكاتب إلى تفادي السطحية والغوص في طبقات وأعماق الحبّ والعلاقات، وتحقيق مستوى من الإبداع لا يحلم به حتى الشعراء والكتّاب الغربيون.

كنت قد اخترت مكاناً أستطيع أن أرى منه السيد بيتروفيتش. عند نهاية المحاضرة تقريباً، عندما أحسست بثقل عينيه وراء رقبتي، عرفت أن خطتي قد نجحت. بعد المحاضرة، غادرت القاعة متمهلاً. كانت طهران قد فقدت مرة أخرى تسلسل الزمن، وحاصرت أشباح فصول الشتاء الماضية المدينة ـ كان الثلج قد بدأ يهمي. ندف الثلج الكبيرة، التي لم تسودّ بسبب السخام، ملأت آثار أقدام المشاة الذين مشوا فوق الثلج الهامي، وكنت أعرف أنها ستملأ آثار قدمي أيضاً. هل صادف أن استمعت إلى صوت وقع خطواتك فوق الثلج؟ أليس هذا لغزاً؟ ألا يوجد ثمة مقياس للسحق، وأن تُسحق فيه.

لم أكد أمشي لمدة عشر دقائق حتى سمعت صوت السيد بيتروفيتش يناديني من الوراء.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

أصبح شعري الآن أنصع بياضاً من شعر رجل في التاسعة والأربعين من عمره، لذلك لم يغيّر الثلج الذي يكسو شعري كثيراً من مظهري. ومع ذلك، يبدو كأن الزمن لم يؤثر في السيد بيتروفيتش مطلقاً، ما عدا عينيه اللتين أصبحتا أكثر حدّة وأشد ضراوة. وقفت متسمراً في مكاني حتى لحق بي.

«لا أعرف. كنت أتمشى فقط. ربما كان هناك محل لبيع السندويش لا يزال مفتوحاً في هذه الساعة يمكنني أن أتناول فيه طعام العشاء».

«إذاً لا بد أنك تسخر من التوجيهات الحكومية التي تقضي بأن تغلق المقاهي والمطاعم أبوابها في الساعة الحادية عشرة».

إني معجب بقدرة السيد بيتروفيتش على قراءة أفكار الناس المخفية. إنها قدرة تفوق كثيراً قدرة الكتّاب على قراءة الأفكار الخفية لشخص يحبونه لبضع ثوان.

قلت:

«أنت قلتها، لا أنا».

ضحك.

«انس الأمر يا سيّد كاتب! انتبه جيداً! أنت الذي تعتبر نفسك ذكياً جداً لأنك تستطيع أن تحوّل أفكار الناس عن المواضيع التي لا يحبونها إلى مواضيع تحبّها أنت، يجب أن تشغّل كلّ ذكائك عندما تكون معي. لا تقدم تعليقات حمقاء تافهة، ولا تقل لي أكاذيب غبية... أخبرني، لماذا أتيت إلى المركز الثقافي هذه الليلة؟ أعرف أنّك لا تحبّ هذا الشاعر. هل كنت تريد أن تراني؟».

عندها فقط أدركت كم كانت الليلة باردة ومظلمة.

كانت معظم مصابيح الشوارع مطفأة، وكانت معظم النوافذ معتمة. لم يكن هناك إلا صوت وقع خطواتنا وصوت ندف الثلج.

«كيف تسير قصّتك؟».

«في بعض الأحيان تسير على ما يرام، وفي أحيان أخرى تنحدر. وعندما تسقط، أسقط معها».

«في الأسبوع الماضي كنت أتناول الغداء مع صديق يعمل في إحدى الوزارات الحسّاسة، وانتقل حديثنا إليكم أنتم، معشر الكتّاب. هل سمعت آخر نكتة عن الكتّاب؟».

لم أستطع أن أخفي بهجتي عندما عرفت أن السيد بيتروفيتش يحب النكات أيضاً. ومن النور المتسلل من النافذة، رأيت قطعة ممزّقة من سجادة على الرصيف، وكان الثلج يكسو ظلالها اللازوردية والقرمزية.

«كان قد حدث غالباً، وسيحدث غالباً، أن أحدكم، ظناً منه أنه أذكى منّا، يكتب شيئاً سريّاً أو يخفي تلميحاً مبطّناً في كتاباته، وعندها يهتز طرباً لأنه يظن أنه تمكن من الإفلات. حتى الآن ليس الأمر مضحكاً. بل المضحك هو أننا نعرف ما فعله أو ماذا سيفعله، لكنّنا لا نستجيب، نتركه يفعل ما يريد. بمعنى آخر، ندعه يظن أننا أغبياء، وفي بعض الأحيان، من دون أن يعرف، نساعده في تنفيذ خطته... أيّنا أذكى في لعبة الذكاء هذه؟».

«لكن لا يوجد لدى الكاتب شيء يخفيه، لأنه في النهاية، فإن كلّ ما يريده هو أن ينشر عمله. أظن أن الكتّاب هم أكثر الناس عرياً في العالم».

«توقّف، توقّف... هل تريد أن تلعب معي لعبة العقل أيضاً؟! هناك بعض الكتّاب الذين يرسلون كتاباتهم إلى خارج البلاد، يظنون أنهم يفعلون ذلك سرّاً، لنشرها بأسماء مستعارة على نحو مقرف في نشرات

دورية وعلى مواقع الانترنت المناهضة للثورة؛ وهناك كتّاب آخرون يتظاهرون بأنهم يكتبون قصّة حبّ غير ضارة، ومستغلين براءة الحبّ، يخفون وراء الرموز والاستعارات استدلالات سياسية. لكني أتحدّث عن الكتّاب الأكثر ذكاء».

أدركت أن السيد بيتروفيتش لا يزال يشكّ في الأدب كدأبه في السنوات الماضية، بفارق أن معرفته قد ازدادت. قلت:

«في رأيي، لو كان لدى كاتب هدف آخر غير كتابة قصّة جميلة، فلن يصبح كاتباً جيداً».

«ممتاز. هذا هو رأيي تماماً. إنني أقول اجلس واكتب قصصاً جميلة، قصصاً تجعل بلدك فخوراً بك. قل لي، هل تريد أن تلقي محاضرة عن أفكارك حول هذا الموضوع في المركز الثقافي؟ يمكننا أن ندعو عدداً كبيراً من الناس، وفي اليوم التالي ستظهر مقالات نقدية لطيفة عن نظريتك في الصحف والمجلات، وعندها تصبح مشهوراً».

«لا. لا على الإطلاق. أولاً، في اللحظة التي أعبّر فيها عن رأيي، سيبدأ بعض النشطاء السياسيين ذوي الآراء الإيديولوجية المعينة نشر إشاعات بأنك دفعت لي لكي أشجع الكتّاب على كتابة قصص ضحلة، غير ملتزمة وغير معارضة. وثانياً، أظن أن القصّة الكاملة والجميلة تعتبر أخطر قصّة».

«أظن أنك حقاً كاتب غبي».

«شكراً. إنني أستخدم عبارة «غبي» لأصف نفسي».

«انظر. هناك عدد كبير من خبراء الأدب ـ خبراء حقيقيون، لا نقّاد من الدرجة الثانية ـ يعملون بجدية تامة. إنهم يعرفونكم جميعكم أكثر مما تعرفون أنفسكم. بل والأهم من ذلك، فقد نقّبوا وبحثوا في حياتكم

الخاصّة، وأسلوب كتابتكم، حتى النحو وتركيب الجمل التي تستخدمونها في قصصكم، وأدخلوا نتاجهم في برامج حاسوبية خاصّة اشتريناها من بلاد غربية. فإذا كتبت قصّة ونشرتها باسم مستعار، سيتمكن الخبير المسؤول عن عملك في اليوم التالي من تحديد أن هذا العمل هو عملك أنت من الكلمات ومن الأسلوب وتركيب الجمل. وإذا لم يشأ أن يتعب نفسه كثيراً، فسيُدخل بعض المعلومات ببساطة في برنامج الحاسوب، مثل بضع كلمات مفتاحية، ويمكنه أن يستخرج اسمك».

رحت أعضّ شفتي خشية أن ينبعث مني صوت وأنا في هذه الحالة من الصدمة التي لا تصدق. كان الثلج قد بدأ يهطل بغزارة أشد، وكانت الريح الباردة التي تهب من نهاية الشارع تسخّن رقاقات الثلج على وجهي. ضحك السيد بيتروفيتش ساخراً، ومضى يقول:

«الآن لعلك تقول إنكم، معشر الكتّاب، تتمتعون بأهمية وقيمة كبيرتين حتى يُصنع مثل هذا النظام المتقن من أجلكم».

«لا... على العكس تماماً. أنا آسف، لكنني سعيد حقاً بأن كلّ هؤلاء الخبراء والأنظمة والبرامج قد أعدّت من أجل مجموعة من الكتّاب والشعراء البؤساء، تسعون في المائة منهم مشغولون بكيفية تدبير طعام لأسرهم وكيف يمكنهم تحصيل الإيجار غداً».

«أترى! أترى! إذاً عندما أقول إنك غبي، فإنك تعتبر ذلك إهانة؛ إنك تسخر مني وتقول إنني يجب أن أدعوك «غبي»... أيها الأحمق! إن هؤلاء الخبراء يشتغلون على أعمالك للتدريب. وستتركز المرحلة الرئيسية من عملهم في فحص وتحديد أعمال الكتّاب المشهورين والمهمين في العالم... انس الموضوع. كلّ ما أقصد قوله هو أنك لا تزال بعد كل هذه السنين لا تعرف من هو الناقد المفضل لديك. فإذا نشر مراجعاته ومقالاته

النقدية عن أعمالك، فإنك ستصبح مشهوراً بسرعة كبيرة. من يعرف، حتى إنك قد تفوز بجائزة نوبل. هل تريدني أن أرتّب لك اجتماعاً معه؟».

غاص قلبي في صدري. قلت:

«لا، أرجوك. فأنا لا أجري وراء الشهرة على الإطلاق. صدقاً، فأنا أكتب في معظم الأحيان من أجل متعتي الشخصية».

«ألم يكن ذلك منذ أسبوعين عندما قلت لصديقك على الهاتف إنك إذا حصلت على مبلغ المليون دولار إذا فزت بجائزة نوبل، فإن أول شيء ستفعله هو أن تشتري سيارة بورش وتقودها على الطرق الجبلية في إيطاليا؟».

وهنت ركبتاي وتهالكتا. كانت فرصة جيدة لكي ألتقط أنفاسي وأستجمع أفكاري. قلت:

«آه، هذا الثلج اللعين... أنا آسف. لقد انزلقت قدمي».

حدّق السيد بيتروفيتش، الذي كان يلوح فوقي، فيّ لبرهة ثم مدّ يده ليساعدني على النهوض. قلت:

«سيدي، كنت أنا وصديقي نسخر من أولئك الأشخاص الذين يقتلون أنفسهم حتى يفوزوا بجائزة نوبل. فأنا أولاً أحبّ سيارات بي إم دبليو لا سيارات بورش. وثانياً، منذ أن رأيت كيف أن الحاسدين يخدشون سيارات بي إم دبليو بمفك براغ، أصبحت أفكر بأنه من الأفضل لي أن أتخيّل أنني أمتلك هارلي ديفيدسن بدلاً من ذلك».

«هل هذه دراجة نارية أمريكية؟».

«هل هارلي ديفيدسن أمريكية؟».

«لا تتظاهر بالحمق».

«إذاً سأستبدلها بياماها».

كنّا نعبر الجسر الذي مزّق فوقه سارا ودارا تعويذة الكراهية. كان الثلج آنذاك يكسوني، وأشعر بأنني تجمدت. لكن كدأبه، كان السيد بيتروفيتش يمضي بوقار ومهابة. كنت أرى ندف الثلج تغيّر اتجاهها عندما تقترب منه. كان الضباب يبتلع نهاية الجسر. سألته:

«هل تظن أن دارا اسم جيد لشخصية متخيّلة؟».

«هذا يتوقف على الشخصية. هل هو بطل الرواية الرئيسي، أم الراوي؟ لكنك إن كنت تبحث عن اسم يستطيع القارئ الأجنبي أن يلفظه بسهوله عند الترجمة، فلماذا لا تسمّيه دانيال؟».

تجمّدت ركبتاي. على مسافة بضع أقدام، كانت عناقيد مرعبة من الضباب معلّقة في الهواء تنتظر. وكانت هناك مسحة من اللون البنفسجي في مكان ما في أعماقها. أردت أن أستدير وأمضي في سبيلي من دون أن أودّعه. لكن وجود السيد بيتروفيتش كان قد سلبني قوّة إرادتي وقوتي على الغضب. تسلل البرد القارس إلى داخلي وبين أسناني. سرنا داخل عناقيد الضباب. لم يعد هناك سوى صوت وقع أقدامنا وصوت وشوشة الثلج الذي كان لا يزال يهطل. ظلٌّ مظلمٌ من الليل اقترب منا. شكل مهلهل ومنهك. سدّ طريقنا. نظر إلى السيد بيتروفيتش أولاً، ثم ثبّت عينيه عليّ، مكعّبان من جليد قديم جداً، على عينيّ. إنه هو! نفس الرجل الذي خرج من عباءته الكثير من كتّاب العالم: أكاكي أكاكيفيتش في رواية «المعطف» لغوغول.

سأل:

«هل رأيت اللصّ الذي سرق معطفي؟».

ماء مرّ

في هذه الليلة التي يهطل فيها الثلج، يجلس دارا عند النافذة في غرفته والحزن يعتريه. يشعر أنه كتلة صغيرة من الثلج جبلتها سارا بيديها الجميلتين بدقة وحبّ، وصنعت منها رجلاً ثلجياً صغيراً، تداعبه، ثم تسحقه تحت قدميها. يغضب دارا عندما يسمع صوت الرجل الثلجي وهو يُسحق، فيخبط بقبضته على الجدار بحنق ويلعن نفسه.

«أيها الأحمق المنيوك».

هنا، أواجه مشكلة أخرى في كتابة قصّة الحبّ. فالقصص التي تُقدم إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي للحصول على رخصة لنشرها، يجب ألا تحتوي على لغة بذيئة على لسان الشخصيات فيها، ولا سيما الشتائم والكلمات النابية الشعبية المعروفة، وبالأخص المتعلقة بالأعضاء الجنسية الأساسية، وبالأعضاء الجنسية الثانوية. تخيّل الآن أنه توجد في إحدى قصصك شخصية مجرم باطش بذيء اللسان، وتريد أن تسلط الضوء على هذه الشخصية. لنفترض أنك وصلت إلى مشهد تجري أحداثه في إيران يمسك فيه هذا المجرم المتوحش بتلابيب شخصية مؤدّبة ويتشاجر معها. ماذا ستفعل؟

في عصر أصبح فيه البشر الذين أمضّهم الإرهاق والتوتر في جميع أصقاع الدنيا يتشاجرون بسبب أمور صغيرة وتافهة ويكيل أحدهم الشتائم

للآخر، ويتوقف السابلة ويتفرجون عليهم. ففي الشخصيات في القصص الإيرانية، وفي أشد اللحظات خطورة ودقة، وفي لحظات الذروة مثل القتال والشجارات، بل حتى في مناسبات يقتل فيها أحدهم الآخر، لا تستطيع أن تمضي أكثر من القول: *أبله*... *وقح*... *نمّام*... *حمار*... *صفيق*... *سأصفعك*... بتناقض شديد مع الأفلام الأمريكية التي، خلال فترات الذروة المماثلة، أو حتى أثناء فترات المرح الصاخب، والمشاهد الرومانسية، تتطاير فيها كلمات مثل *خراء*... *طيز*... *ابن عاهرة*... *أنيكك*... من شفاه الشخصيات حتى أقصى حدود شاشة السينما. وأعرف أن بعض القنوات التلفزيونية الأمريكية المؤدّبة قد توصلت إلى ابتكار فعّال لحذف هذه الكلمات النابية حتى عندما تبث أغاني الراب، وذلك بإطلاق صوت «بيب» الذي يظهر فجأة في وسط ما تقوله إحدى الشخصيات أو مغني الراب. قد تكون هذه «البيب» ناجعة في الأفلام، وقد تجعل أغاني الراب أكثر قبولاً، لكنها ليست حلاً بالنسبة لنا نحن، الكتّاب الإيرانيين. فكيف يمكننا أن نضع صوت بيب في أفواه الشخصيات في قصصنا؟

أرجوكم لا تقولوا لي إن هذه النقاط الفاضحة الثلاث «...» ستحلّ المشكلة.

لا، لن تحلّها... اسألوني عن السبب وسأقول:

إن استخدام هذه النقاط الثلاث أمر في غاية الخطورة في أيّ قصّة. وفي الحقيقة، إنها أشبه بأن يحصل المرء على طاقة نووية يستطيع أن يولّد بواسطتها الكهرباء لإنارة مصابيح الشوارع لكي لا تتمكن الأشباح الخارجة من قصص غوغول وسكام ستوكر، والأطياف الخارجة من ألف ليلة وليلة، من التجول بسهولة كبيرة، أو أن يستخدمها لصنع قنبلة نووية. لكن معظم القرّاء لا تهمهم إضاءة المصابيح في شوارع تسكنها أشباح.

أقصد أنه في اللحظة التي يرى فيها القارئ، وخاصة القارئ الإيراني، هذه النقاط الحقيرة الثلاث، يحدث في عقله رد فعل مشابه للمفاعل الذي ينطلق بسبب الانشطار النووي من ذرّة اليورانيوم، ويؤدي إلى انبعاث طاقة نووية مرعبة. وعندما يرى القارئ هذه النقاط الثلاث، لا يعود التحكّم بخياله في يد الكاتب، ولا في يد السيد بيتروفيتش. ففي لحظة ما، يمكن أن يكتشف سندباد مثلاً وجود دارا في قصّة الحبّ هذه ويدرك أن حبّ دارا هو الذي يحول دون موافقة سارا على طلبه للزواج منها. وذات ليلة، من الممكن أن يمسك سندباد دارا عند ناصية معتمة من الشارع الذي يقيم فيه، ويدفعه بقوة إلى الحائط، ويقول:

«أيها الجبان! اخرج من حياة سارا، وإلا أرسلتك إلى مكان لا يستطيع حتى ملاك الموت أن يجدك فيه».

ويمكن أن يردّ عليه دارا بازدراء:

«. . .».

وتكون الكلمات التي كان الكاتب ينوي أن يكتبها «البيضتيّ»، لكن القارئ الوقح يمكنه أن يفسّر النقاط الثلاث بأنها «قل لبيضَتَيّ أن تذهبا وتلعبا كرة المضرب في مؤخرتك»، وهي في إيران، إهانة مسيئة وبذيئة حتى لو وجهت إلى الشاذين جنسياً. . . أو يمكن أن يقول دارا لسارا:

«افتحي. . . و. . .».

وستكون الجملة المحذوفة:

«افتحي شفتيك الظامئتين وأطفئي شهوتي».

ويعني مثلاً دعي شفتيك تقولان لي إنه يجب ألا يتحول حبنا العذري إلى رغبة جنسية خالصة. إلا أن خيال القارئ المخصّب نووياً سيعيد بناء الجملة على هذا النحو:

«افتحي فخذيك الظامئتين وبمقصّك الوردي اختنيني مرة أخرى!».

أو بالعكس، يمكن أن يكتب دارا لسارا:

«في وهج الشمعة، يد... ظلّ... ألسنة لهب...». ويمكن للقارئ الرومانسي أن يفترض أن الجملة هي على النحو التالي:

«في وهج الشمعة، سأضع يدي حول ظلّ خصرك، وأرقص التانغو معك، مشتهياً زرقة البحر الأبيض المتوسط وسأقبّل ظلّ شفتيك الملطختين بالنبيذ، سأصبح ظلاًّ، وسأذوب في ظلّك، وسنطير إلى البحر الأبيض المتوسط حيث نشعل على الشاطئ، فوق الرمال الذهبية، نار حبّنا السماوي، وفي اشتعال لهيبها سيفترق ظلاّنا، وسنجد شكلاً جسدياً، وسنصبح وردتين حمراوين تلتف ساقانا وتتشابكان، وتخز أشواك أحدنا الآخر، ونرقص في النسيم».

ومن الممكن أن يقرأ ستالين النقاط الثلاث نفسها على النحو التالي:

«في وهج الشمعة، أكتب بيد واحدة مسوّدة البيان المناوئ للحكومة فيما تحوم ظلال الجواسيس وراء النافذة، وغداً ستشتعل نيران الشعب الذي سيحوّل غضبه وكراهيته لهذا النظام الاستبدادي إلى رماد، وفي عشيّة النصر الدامي أعرف ماذا يجب أن أفعل بكم أيها الكتّاب والشعراء المعارضين، خونة عقيدة الثورة».

ولهذا السبب، أصبح الكتّاب الإيرانيون أكثر الكتّاب تأدباً، وأكثرهم فظاظة، وأشدهم رومانسية، وأكثرهم إباحية، وأكثر الكتّاب تعلقاً بالسياسة، وأشدهم تمسكاً بالواقعية الاشتراكية، وأكثرهم تمسكاً بأدب ما بعد الحداثة في العالم. لا أعرف في أي مدرسة من كتابة القصّة يجب أن أصنّف القصص الإيرانية التي يقول فيها المجرمون، مثل حفّار القبور في هاملت، كلمات أدبية وفلسفية.

لذلك، عندما يردد دارا في نفسه الكلمات ذاتها التي قلتها أمام السيد بيتروفيتش، فإني أشطبها ~~«غبي منيك»، أكتب:~~

يضرب دارا الجدار بقبضته ويقول لنفسه:

«أنت أبله!».

عندها فقط يدرك أنّ سارا شخصية في غاية التعقيد. لكنه مع ذلك، لا يستطيع أن يصدّق بأنّها ستخفي عنه وجود الرجل الذي تقدم لخطبتها. إذ إنّ أول فكرة تخطر في بال رجل عاشق مثل دارا، هي أن حبيبته قد خدعته، والآن، لكي تثير مشاعر الغيرة في نفس خطيبها الغني ولكي تدفعه ليحدد بسرعة موعداً للزفاف، فهي تتحدّث عن هذا الفقير المتيم ويسخران منه...

في الحقيقة فوجئت أنا أيضاً بأن سارا، الشخصية التي خلقتها أنا، قد أصبحت فجأة فتاة معقّدة للغاية. لكنّني أقول لنفسي: «إنك نكرةٌ في هذا العالم. فبحسب جميع الكتب الدينية، تمكّنت حواء من إدهاش جميع الملائكة والشيطان أيضاً».

في جميع الأحوال، بينما كان دارا ينتظر بلهفة مكالمة هاتفية من سارا ليسمع على الأقل تفسيراً من شفتيها، هبط الدرج بهدوء لكي لا يوقظ أبويه من غرفة نومه في الطابق الثاني. وتوجد في هذا البيت القديم باحة أمامية صغيرة تحيطها جدران عالية. وفي زاوية الباحة، هناك بقعة صغيرة مزروعة بالأزهار فيها أجمة ياسمين قديمة تكاثفت أغصانها وضربت جذورها عميقاً في التربة. غير عابئ بالبرد وبالثلج الهاطل، جثا دارا بجانب أجمة الياسمين، وحفر بسرعة في الثلج والتراب، وأخرج رزمة ملفوفة بالبلاستيك. وعندما عاد إلى غرفته، حلّ الرزمة وأخرج منها قنينة مملوء نصفها بسائل عديم اللون.

هنا، كما لو كنت في ليلة مثلجة مظلمة، ومشيت في زقاق مسدود ارتطمت بحائط الزقاق المسدود، فها أنذا أقع في مشكلة أخرى.

ما هي قصّة الحبّ الناجحة التي تعرفونها والتي يعرف فيها المحبوب المنبوذ المعذّب أنه يوجد رجل غني في حياة محبوبته ولا يجرع بضع كؤوس ليواسي نفسه؟ لكن السيد بيتروفيتش لا يسمح، تحت أي ظرف كان أن تشرب الشخصيات في القصص الإيرانية كحولاً - مثل جميع الشخصيات في الأفلام الأجنبية المدبلجة التي تُعرض في إيران والتي تطلب كأساً من الحليب أو عصير برتقال وهي في الحانة، ونشاهد الساقي وهو يجلب حليباً ذهبي اللون أو عصير برتقال أحمر عنّابي اللون.

السيد سين يسأل:

«ما هذا اللون؟».

فيقول الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«إنه لون ذهبي مائل إلى البني... نوع من الذهب المحترق... يصعب معرفة ذلك. يبدو أن لهذا الويسكي اللعين لوناً فريداً للغاية».

في المشهد من فيلم «عطر امرأة» الذي يأخذ فيه آل باتشينو، الذي يؤدي دور الكولونيل فرانك سليد، كأسه من المضيفة الجوية ويرفعه إلى شفتيه، يتجمّد على الشاشة، ويتواصل النقاش.

يقول الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«سيدي، لقد قلت لك منذ البداية إن هذا الفيلم غير جدير بالمناقشة. إنه مليء بتعاليم لا أخلاقية ولغة سوقية مبتذلة من بدايته حتى نهايته».

فيعترض الخبير في الشؤون السينمائية ويقول غاضباً:

«لا تكن منحازاً ضد الفيلم هكذا».

لكن الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية يواصل احتجاجه.

«لا يكف هذا الرجل عن القول لا تتحيز ضد الفيلم، لا تتحيز ضد

الفيلم. أيها الرجل الطيب! ألا ترى أنّ هذا الفيلم مليء بالمشاكل؟ وهو يبدأ بعنوان: عطر امرأة. يمكننا أن نسميه عطر حواء. بهذه الطريقة تصبح له مسحة دينية خفيفة».

«هل تعرف ماذا تقول؟ إن اقتراحك هذا سيجعل المشكلة مشكلتين. ستكون إهانة لحواء أيضاً».

«أخـ! أخـ! أخي، أي إهانة؟ هل نسيت جهنم التي قادتنا إليها حواء؟».

فيصرخ الخبير في الشؤون السينمائية الذي فقد أعصابه تماماً:

«أرجوك توقّف! إن هذا الفيلم يتحدث عن رهافة الروح الإنسانية ورقتها، تدور أحداثه حول هذا الرجل الأعمى البائس...».

يتوقف عن الكلام عندما يدرك الشيء المريع الذي قاله. لكن الأوان قد فات. إذ يطلب السيد سين أن يُلقى به إلى خارج الغرفة.

يستمرّ العرض من دون اتخاذ قرارات طائشة تتعلق باستمرار الفيلم. وتوصف المشاهد للسيد سين مشهداً مشهداً، ويواصلان العمل مشهداً مشهداً. حتى يصلا أخيراً إلى المشهد الذي يجلس فيه آل باتشينو وراء مقود سيارة الفيراري ويقرر أن يقود السيارة في شوارع نيويورك.

يقول الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية بخبث:

«لقد فقد هؤلاء المخرجون الأميركيون عقولهم. كيف يمكن لهذا الطيز الأعمى أن...».

وأدرك على الفور أنه كرّر الإهانة ذاتها التي رددها الخبير في الشؤون السينمائية. يصحّح نفسه:

«لو كنت في مكانه، فبدلاً من أن أقود سيارة فيراري، لجلست في غرفة قيادة طائرة توبوليف وحلّقت في السماء».

فيقول السيد سين:

«في هذه الحالة فإنك لن تحلّق طويلاً. ألا تعرف أن طائرة أو طائرتي توبوليف تسقط عندنا في كلّ سنة؟».

فيقول الخبير في الشؤون المناهضة للأميركيين:

«لو كان هذا الكولونيل جالساً في غرفة قيادة طائرة وصدمها بناطحة سحاب لكان فيلماً عظيماً. هكذا. . .».

الخبير في الشؤون السينمائية، الذي لم يكن يستطيع التخلي عن مشاهدة فيلم جيد على الشاشة الكبيرة، كان طوال الوقت يتفرج عبر فرجة الباب الضيقة، لم يستطع أن يمسك لسانه، وقال:

«في حقيقة الأمر، لو رأى هؤلاء الرجال هذا الفيلم، ربما لما كانوا قتلوا أنفسهم ولا قتلوا الكثير من الأبرياء الآخرين».

متزلفاً، صاح الخبير في شؤون المبادئ الأخلاقية:

«سيدي! هل رأيت، سيدي؟ هذا الرجل لم يغادر. . . إنه يتفرج من فرجة الباب».

ضجراً، قال السيد سين:

«هل رأيته الآن فقط؟ إني أسمع صوت أنفاسه. ادخل وكفّ عن هذه المناقشات العقيمة، دعنا نر ما سيحدث في الفيلم».

يقود الكولونيل السيارة وهو يصيح «هووود ـ ها»، يقود السيارة عبر تقاطع عدة طرق. السيد سين، متسمّراً في مكانه، يتنفّس بصعوبة، عيناه مغمضتان، جلس عند حافة مقعده وأذنه متجهة نحو مكبر الصوت كما لو كان هو الذي يجلس إلى جانب الكولونيل مستمتعاً بالسرعة التي تنطلق فيها سيارة الفيراري بدلاً من ذلك الشاب.

وهكذا يتواصل مشهد الفراري، من دون قصّ أو تفسيرات حتى اللحظة التي يوقف فيها شرطي الكولونيل ويطلب منه أن يبرز له رخصة قيادته.

يسند السيد سين ظهره إلى ظهر المقعد. وتظهر فجأة هالة خضراء حول رأسه. وبتعبير رجل دين يقول:

«لا أظن أن أحداً منكم قد فهم هذا الفيلم جيداً. إن هذا الفيلم يدور حول فنّ الرؤية. فنّ رؤية الأشياء المضمرة وراء الأشياء التي ترونها والتي لا ترونها. بشكل ما، يمتدح هذا الفيلم فنّ السينما ورؤية السينما. فمن خلال حياة شخص عادي، أعمى، رقيق مثل ورقة رقيقة، يستطيع هذا الفنّ أن يركّز على حياة مختلفة وعلى شخصية غريبة... وبفنّ السينما، يظهر السائقون، والشرطة، وأفراد الأسرة، ومديرو المدارس. أما في هذا الفيلم، حتى هذه الحياة المختلفة، فإن الاهتمام يتركز على هذه الشخصية الغريبة المهمة. إن هذا الفيلم يرينا فنّ الرؤية السينمائي. لو كنت مخرج هذا الفيلم، لسميت الفيلم «عطر السينما»، أو «عطر الفنّ»... أعد الفيلم من بدايته، واخرجا، أريد أن أراه وحدي».

نعود إلى قصّتنا والمناقشة الحادة عن المشروبات الكحولية.

أذكّركم أننا نميل، نحن الإيرانيون، بشكل عام، إلى إدهاش العالم. فمنذ قرون عدة، كان أحد أفراد شعبنا، عالم عظيم، هو الذي اكتشف الكحول. ونحن الذين وضعنا الآن آلاف القواعد والقوانين وسبل الردع لمنع احتساء المشروبات الكحولية، إلى درجة أن الجهد والتعب والكلفة الناجمة عن تطبيق هذه القوانين يفوق بكثير الضرر الذي يلحق بالمجتمع على يد حفنة من غير المؤمنين الذين يشربون. وقد نفعل الشيء نفسه ذات يوم في مسألة تخصيب اليورانيوم.

بهذه الطريقة، استعمل قبل سبعمائة سنة، الشاعر الذي رأينا طيفه في مقهى الإنترنت، كلمة «خمر» في قصائده كثيراً. وفي تقدير السيد يتروفيتش، فإن خمرة الشاعر نبيذ صوفي وسماوي، أما في عالمنا الفاسد

اليوم، فلا يجدر بأشخاص من أمثالي أن نجعل الشخصيات في قصصنا تشرب خمراً صوفياً. لكن ليس هذا هو المهم على الإطلاق، بل المهم أنه لا يسمح للشخصيات غير المؤمنة في القصص الإيرانية، وحتى أكثر هذه الشخصيات تفاهة وخبثاً، أن تتناول كأساً أو كأسين لتبدو كم هي شريرة، حتى لو كانت أعضاء في المافيا الإيرانية. وحتى لو كانت هذه الشخصيات تمثل مجرمين، أو مبتزين محترفين، أو سفاحين وقتلة لا يردعهم لا الإسلام ولا أي مبادئ إنسانية أو أخلاقية أخرى. لذلك نرى أنه لا يشوب الشخصيات في القصص الإيرانية أي عيب أو موطن ضعف، بل نراها تزداد قدسية وطهارة، سنة بعد أخرى.

لذلك، سأكتب فقط:

يشعر دارا بالظمأ. يشعر بأنه لا يستطيع أن يتحمّل ثقل الحزن، والسؤال الكبير «لماذا» باعتدال. يمسك الكأس نصف الممتلئة إلى جانبه ويجرعها حتى آخر قطرة فيها.

ولا يحتاج فمه المرّ إلى شيء آخر يتذوقه. في الواقع، يتقبل هذه المرارة المحرقة التي تشبه مرارة وجوده... كما تنزلق الحمم المنصهرة المنبعثة من بركان بين صخور الجبل، ثم تغوص في البحر، حارة ومرّة، يشعر دارا بأن السائل الوهمي ينزلق في المريء ويغسل معدته.

إذا سألني القارئ الإيراني الذكي، كيف ظهرت الكأس نصف الممتلئة في قصّتك، فلن أقول إنه أصبح مثل السيد بيتروفيتش. ولديّ جواب مختلف لأقدمه:

أنتم القرّاء الأذكياء لا تفعلون شيئاً سوى أن تتصيدوا الأخطاء في قصص الكتّاب الإيرانيين. لماذا عندما تقرأون قصّة «غودمان براون الشاب»، لا تنتقدون كاتبها وتسألونه كيف أن الشيطان، مرتدياً تلك الملابس الغريبة،

يظهر فجأة أمام غودمان في الغابة؟ أو عندما يكتب غابرييل غارسيا ماركيز أن الزهور تمطر فوق ماكوندو، لماذا لا تنقضّون عليه وتسألونه كيف ظهرت جميع تلك الزهور في السماء في قصّته؟ أو لماذا لا تسألون كيف يمكن أن يتحوّل الدكتور جيكل ليصبح السيد هايد بعد أن يجرع ذلك السائل الغريب؟ الآن كونوا طيبين معي قليلاً وتخيّلوا أن هذه الكأس نصف الممتلئة قد وضعها ذلك الشيطان في الغابة أو السيد هايد بجانب دارا.

من الناحية الأخرى، سيدرك حتى القارئ الإيراني الأقل ذكاء، بعد أن يقرأ الجملة الأخيرة التي كتبتها عن تلك المرارة الحارقة، أن الفودكا التي يشربها دارا مصنوعة محلياً أو فودكا روسية اشتراها من السوق السوداء. وبالطبع، سيدرك السيد بيتروفيتش ذلك أيضاً، لكنني أقبل هذه المجازفة، لأنني أستطيع بكأس الفودكا هذه أن أعبّر عن مدى شعور دارا بالقنوط.

وللتملص من أفكاره المريرة وشكوكه، يفتح دارا جهاز التلفزيون البالي في غرفته ويبدأ يقلّب في قنواته الأربع، آملاً على نحو يائس، باستثناء دروس المبادئ الأخلاقية، أن تقوم إحداها ببث برنامج يجد فيه شيئاً من السلوان. وأخيراً، يجد في القناة الأخيرة، برنامجاً مقبولاً عن الموسيقى الشعبية. وبخلاف بعض الإيرانيين، لا يملك دارا قدراً كافياً من المال لشراء جهاز استقبال ياباني مستعمل بحوالى ثلاثين دولاراً، إذ إن شراء الصحن اللاقط للأقمار الاصطناعية الذي يُصنع في ورشات إيرانية سرّية يكلف عشرة دولارات، وشراء غطاء إيراني أصلي لإخفاء الصحن يكلف عشرة دولارات أخرى. وعندما انتشرت إشاعات بأن الشرطة تستخدم الطائرات المروحية لتحديد البيوت التي وضعت صحوناً لالتقاط الأقمار الاصطناعية لكي تداهمها، اشتغل العقل الإيراني المبدع والخلاّق، الذي يستجيب بسرعة وبفطنة عندما يتعلق الأمر بأشياء غير قانونية، فقد استنبط

بسرعة وسيلة لإخفاء الصحون الكبيرة التي تستقبل هذه الأقمار الاصطناعية. وبسبب حرارة الصيف، توجد في معظم المنازل الإيرانية مكيّفات كبيرة لتبريد الهواء بالماء على أسطح المنازل المستوية التي يغطونها خلال أشهر الشتاء بأغطية من القماش المشمّع لحمايتها. ولهذا السبب، تم تصنيع إطارات خشب مربّعة ذات أبعاد مكيّفات الهواء نفسها لوضعها فوق صحون الأقمار الصناعية، وقد صممت أغطية القماش المشمّع خصيصاً لتغطيتها لكي تبدو أنها أجهزة تكييف. وبالطبع، تظل أجهزة التكييف غير مغطّاة حتى أثناء أشهر الصيف الحارة. . . وفي وقت لاحق، أدرك أصحاب صحون الأقمار الاصطناعية أنه تم التشويش على العديد من القنوات، وخاصة القنوات التي يبثها إيرانيون معارضون للثورة من وراء البحار. وثانياً، بدأ العقل الإيراني الريادي، نفس العقل الذي أنشأ سيارة عظيمة تدعى بيكان، يعمل ووجد وسيلة للتغلب على التشويش الذي تحدثه الحكومة على بعض القنوات. وهي أداة بسيطة عبارة عن علبة فاصولياء فارغة، وهي أكثر المكونات تعقيداً فيها. وبالطبع، فقد أُشيع فيما بعد أن الشرطة اشترت أجهزة إلكترونية متطورة جداً من أوروبا، يمكنها أن تتعقب بدقّة المنازل التي تتلقى موجات الأقمار الاصطناعية المفسدة والمناهضة الثورة، وأنها ستداهم تلك المنازل. ولسوء الحظ، لا تزال عبقريتنا، نحن الإيرانيين، عاجزة عن مجاراة التقدّم التقني الذي أحرزته الشركات الدولية الغربية التي تسعى إلى الربح. وإلى أن يتم ذلك، لم يجد الأشخاص الذين لديهم صحون لالتقاط الأقمار الاصطناعية حلاً آخر غير اللجوء إلى خطّة إيرانية قديمة، وهي أن يهزّوا أكتافهم ويقولوا:

بينما ينصت دارا إلى صوت سارا الحزين، وهو ينظر في عينيها مباشرة،

يرى رأس وكتفي الرجل الذي يعتمر قبعة مصنوعة من فراء طويل متلو، ومعطف فراء تركماني على شاشة التلفزيون. ومثل جميع الموسيقيين التقليديين الإيرانيين، يرجح أن الرجل يجلس القرفصاء على الأرض. وكعادته، يغمض عينيه ويحرّك كتفيه برقة على أنغام الموسيقى. لكنه في هذه اللحظة من شبه الوعي، تبدو هذه الصورة المألوفة غريبة على دارا. لا تنتقل الكاميرا تحت أي ظرف من الظروف إلى أسفل كتفي الرجل، وعندما يرفع الرجل ذراعيه قليلاً، تتحرك الكاميرا إلى الأعلى بسرعة. وبسبب حركات رأسه وكتفيه، وبسبب الطريقة المنتشية أو السعيدة التي يغمض فيها عينيه، يتخيّل دارا أنّ الرجل منهمك في تصرف غير لائق وسوقي بيديه. وفي الواقع، حُظرت جميع أشكال الموسيقى بعد سنوات من الثورة، بالإضافة إلى حيازة الآلات الموسيقية. إلى أن جاء وقت قُرّر فيه أن يسمح بعرض الموسيقى الإيرانية التقليدية التي تزيد جذورها على ألفي سنة بطريقة أو بأخرى. وقد لقي هذا القرار معارضة شديدة من العديد من المتعصّبين، ومع ذلك كنا نسمع، نحن الإيرانيون، بين الحين والآخر، من أجهزة التلفزيون لدينا، أنغام موسيقانا التقليدية التي تفطر القلوب. ولا يزال يعتبر مديرو محطات التلفزيون التي تديرها الحكومة أن عرض آلات موسيقية عمل لا أخلاقي لذلك حُظرت هذه الصور بشدة. وبعد فترة من الزمن، طوّر مصوّرو التلفزيون خبراتهم، وأصبح بإمكانهم تصوير أيّ موسيقار من دون أن يظهر داخل الإطار. لذلك، يظهر الموسيقيون غالباً وكأنهم يقترفون عملاً ما ويثبتون أن العزف على الآلة الموسيقية اللاأخلاقي بريء.

لا يعرف دارا إن كان عليه أن يضحك أو يبكي عندما اكتشف هذه الصورة.

بعد ساعة، يفتح دارا النافذة في غرفته. لا يزال الثلج يندف، لكن بما أنه داخل البيت، لا يشعر بالبرد مطلقاً. يأخذ قبضة من الثلج من على حافة النافذة ويصنع منها كرة ثلج صغيرة. برقة وبحساسية، يكوّر الكرة. يداعبها، ثم بصرخة صامتة يقذفها بلا رحمة إلى طهران.

من بين قدراتي ككاتب، يمكنني أن أجعل كرة الثلج هذه تطير فوق شوارع المدينة وبناياتها حتى تجده وتصل إليه، في هذه اللحظة من قصّتي:

خارج بيت سارا، يرى سندباد الخدش على جانب سيارته. يتطلع حوله بغضب ويشتم بصوت مرتفع:

«كس أم مَن خدش سيارتي، كائناً من كان!».

لكنك مخطئ، إذ إن كرة الثلج تلك القادمة لا تأتي إليه وتصيبه في رأسه.

اسألوا:

إذاً إلى أين ذهبت كرة الثلج؟

لأجيب:

في بلدي الغالي، تحدث أشياء غريبة عديدة لذلك لست بحاجة للجوء إلى ذرائع وحيل ضعيفة من أجل الواقعية السحرية. وبالمناسبة، فقد وقعت كوارث عديدة خلال ربع القرن الماضي، سواء أكانت إلهية أم غير إلهية، بما فيها الزلازل، والأمطار الجارفة، وغزوات جحافل الضفادع، والقنابل، والصواريخ، والطائرات المقاتلة، وحلّت بالشعب الإيراني إلى درجة أنه لا توجد حاجة لأن تتحطم كرة الثلج. بالطبع، لا أقول هذا إلا لأنني لا أعرف حقاً متى وأين ستسقط كرة الثلج الخطرة تلك.

لذلك، من دون وجود خطر على الإطلاق، ومن دون ملاحظة القفل

المكسور في صندوق سيارة بي إم دبليو، يشتم سندباد بطريقة غير مبتذلة الشخص الذي خدش سيارته، ويبدأ يشغّل السيارة. وبعد أن قطع نصف ميل من الشارع، يلاحظ أن صندوق السيارة مفتوح. يتوقف، ينزل من السيارة، ويكتشف الهدية التي تركها له أحدهم في صندوق السيارة. . .

عند رؤية ذلك القزم الأحدب البريء والمحطّم في صندوق السيارة، ينطلق من فم سندباد سيل من الكلمات البذيئة.

«. . .».

أرجو أن تملأوا النقاط الثلاث بأنفسكم. فأنا لا أريد أيضاً أن أكتب شتائم تنعكس عليّ بطريقة ما.

في منتصف الليلة، يرى دارا أخيراً الأيقونة التي تومض على شاشة كمبيوتره، تدعوه إلى دردشة.

دارا، الذي يمضي وقتاً صعباً للتعرف على المفاتيح على لوحة المفاتيح ويصحح باستمرار الأخطاء الإملائية، يكتب:

«لماذا؟».

«لماذا ماذا؟».

«لماذا لم تخبريني أن شخصاً تقدم لخطبتك؟».

«لأنك لم تسأل قط».

بقدر ما أتذكّر، كتبت في قصّتي منذ البداية أن لسارا شخصية حزينة ورزينة. لا أعرف في أي نقطة من القصّة أصبحت تتمتع بروح الفكاهة؟

دارا يكتب:

«لست في مزاج للمزاح».

«أنا لا أمزح».

«لقد عانيت ما يكفي من العذاب في حياتي».

«أعرف».

«لا تعذّبيني».

«أحبّك».

«إنك تكذبين».

«نعم».

«من هو هذا الرجل؟».

«لا أعرف متى رآني أول مرة، لكن ذات يوم قال أبي إنه التقى برجل محترم مهم وغني جداً عندما كان ينتظر في الطابور لشراء كمية من الرزّ المدعوم. وسرعان ما أصبحا صديقين، ودعاه أبي إلى البيت لتناول كأس من الشاي. ساورني الشك منذ البداية، ووجدت أن من الغريب أن يقف هذا الرجل المحترم، بكلّ ثروته، في الطابور لمدة ثلاث ساعات لشراء كمية من الرزّ المدعوم. وعندما جاء إلى بيتنا في المرّة الثالثة، طلب يدي وعرفت أن ظني كان في محله ـ وكان ينوي أن يلتقي بي. وهذه اللّيلة هي المرّة السابعة التي يزورنا فيها. ويصرّ أبي وأمي على أن أوافق على طلبه لخطوبتي، لكنني لم أعطهما جواباً. . . أرجوك لا تسألني ماذا أريد أن أفعل. فأنا لا أعرف».

ثملاً دارا يكتب:

«ماذا أنا بالنسبة لك؟».

«أتقصد أنك لا تعرف؟».

«لا».

«دارا الذي أعرفه ليس غبياً إلى هذه الدرجة».

«حبّك جعلني غبياً».

«حبّك أيضاً جعلني غبية جداً إلى درجة أنني لم أوافق على السيد سندباد لأسافر معه بعد سبعة أيام إلى إسبانيا».

«هل اسمه سندباد؟».

«هل كنت تتوقّع أن يكون اسمه علاء الدين؟ أنت علاء الدين. باستثناء أنه لا يوجد لديك مصباح سحري ولا بساط ريح يأخذني إلى إسبانيا معه».

«يبدو أنكِ تحبّين إسبانيا كثيراً».

«كنت دائماً أحبّ إسبانيا. ففي إسبانيا لوركا».

«وفيها بونويل أيضاً».

«وفيها أيضاً عشاق معتدّون بأنفسهم يخطفون العرائس من حفلات الزفاف».

«إذاً تريدين أن توافقي عليه؟».

«على لوركا؟».

«لا. على سندباد».

«ماذا تظن؟».

هنا، يواجهني السؤال بأنه لا يتوقع منا، نحن الكتّاب الإيرانيين، أن نكتب قصّة حبّ جميلة بسبب وجود السيد بيتروفيتش، ثمّ، لماذا لم تكتب في البلدان التي لا تتعرض فيها قصص الحبّ لمقصّ الرقيب سوى حفنة قليلة جداً من قصص الحبّ الجيدة خلال العقود العديدة الماضية؟ هل من الممكن أنه لم يعد باستطاعة عالم اليوم أن يلهم الكتّاب قصص الحبّ الجميلة؟

يكتب دارا:

«أظن أنك تريدين أن تتزوجيه».

«ومن أنت في وسط كلّ هذا؟».

«رجل ثلجي. لعبة».

«ماذا لو كنت أنت الذي ترى بأنني لعبة تلعب بها؟».

«في هذا العالم، الذين يملكون النقود يستطيعون أن يلعبوا. . . أما أنا فلا أملك شيئاً، لذلك لست لاعباً».

بعد كتابة هذه الجملة، يطفئ دارا حاسوبه بغضب.

وهكذا تحدث أول مشاجرة بين سارا ودارا. يقول دارا لنفسه، إنها كلّها لعبة. إنهم محقّون عندما يقولون إنك لا تستطيع أن تثق بامرأة أبداً. كانت تريدني لكي تجعل سندبادها يشتعل غيرة. . . لقد طُعنت في الظهر مرة أخرى. . . وأقسم دارا أنه لن يقدم إلى سارا ولا كلمة من أفكاره. وقالت سارا في نفسها، لن أقدم له ولا حتى كلمة من أفكاري. كان يستجوبني، وكأنني ملك له. إنهم محقّون عندما يقولون إنكِ إذا تركتهم، فإنهم يعتقدون بأنهم يمتلكونك.

يخيّل إليّ أن سارا تسترق النظر أحياناً إلى الجمل التي أكتبها عن دارا وعن أفكاره. ولو كانت شكوكي صحيحة، لوجب أن أتفق مع دارا بطريقة ما على أن لا أثق بالشخصيات النسائية في قصصي. وفي جميع الأحوال، فإني أحتاج إلى شيء من التوتر القصصي في هذا الجزء. قولوا لي، ألا يحتمل أن ينشب شجار بين الحبيبين في قصّة حبّ؟ أم هل رأيتم في حياتكم حباً لا تشوبه مشاعر الغيرة وسوء الفهم؟ إن كنتم سمعتم عن مثل هذا الحبّ، فأرجو أن تعلموني لكي أذهب وأقع في غرام ذلك الحبّ وأكتب عنه. إني واثق من أنها ستكون قصّة حبّ جميلة، وربما بسببها سينخفض عدد الانتحاريين واحداً على الأقل.

مضت خمس ليالٍ على الشجار الذي دار بين سارا ودارا الذي كان يخلو من الصياح والصراخ. وخلال هذه الفترة، لم يتصل أحدهما بالآخر مطلقاً. وفي الليلة الخامسة، تقبل سارا للمرّة الأولى دعوة سندباد إلى العشاء. وفي الساعة الثامنة مساء، يتوقف سندباد أمام بيت سارا بسيارته

بي إم دبليو. تخرج سارا، ويظهر وراءها أبواها في المدخل يلوّحان بيديهما لسندباد. يردّ سندباد ملوّحاً لهما. من المدخل، تصرخ أمّ سارا:

«انتبه. لا تقد السيارة بسرعة كبيرة».

سندباد وسارا يفهمان المعنى الكامن وراء هذه الجملة والتحذير الخفي الذي تنطوي عليه.

كما يفعل السيد بيتروفيتش.

والد سارا، لا يزال ملوّحاً، يصيح:

«سارا، أخبري السيد سندباد كلّ شيء عن الدرجات الممتازة التي حصلتِ عليها في هذا الفصل».

سارا وسندباد يفهمان المعنى الكامن وراء هذه الجملة والنصيحة الخفية التي تنطوي عليها.

تتجه سارا نحو سندباد وتصافحه. لكن سندباد لا يمدّ يده. يقول:

«ليس من اللائق أن يصافح أحدنا الآخر قبل أن نتزوّج».

يؤمن سندباد تماماً بالمبدأ الديني بأنه يجب ألا يتصافح رجل وامرأة غير متزوّجين وليسا قريبين مباشرين. لكن حتى لو لم يكن يرغب سندباد في التمسك بهذا المبدأ المهم، لكانت التجربة التي تعرض لها مخرج الفيلم الذي فاز بجائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان السينمائي درساً مهماً بالنسبة له.

إن كنتم فضوليين، فاسألوا:

بحق السماء ما هي قصة هذا المخرج الإيراني؟ لأجيب:

منذ عدّة سنوات، وفي ليلة الاحتفال بتوزيع الجوائز، أُعلن عن اسم هذا المخرج الإيراني، وطُلب منه أن يتقدم لاستلام جائزة السعفة الذهبية. وعلى خشبة المسرح، لم يرَ أمامه سوى كاترين دينوف التي كانت حتى وهي في عمرها الحالي، جميلة وفاتنة.

مدّت كاترين دينوف يدها لتصافح المخرج الإيراني. ومراعاة للمجاملات الاجتماعية، مدّ المخرج الإيراني يده وصافحها. ثم تقدمت كاترين دينوف، كما هي العادة، وقبّلته على خده. ولم يعرف أحد في تلك الليلة، هل عاد المخرج الإيراني السعيد إلى غرفته في الفندق أم لا. في جميع الأحوال، عُلم في اليوم التالي أن عدداً من الصحف الحكومية في إيران انتقدته بشدة لأنه لم يصافح المرأة التي كانت بالقرب منه مباشرة فحسب، بل الأسوأ من ذلك، قرّب خديه من شفتي امرأة اعتادت على أن تكشف جسدها عارياً في أفلامها. ويبدأ النقد يزداد حدّة يوماً بعد يوم، وزعم أن هذا المخرج ينتج أفلاماً لإرضاء الغربيين، ويتعمد أن يصوّر الشعب الإيراني بأنه شعب بائس، ومعدم، وانتحاري، وأنه أهان إيران. وكان لهذه الانتقادات تأثيرها. وفي الليلة التي عاد فيها المخرج الذي أصبح مشهوراً الآن إلى إيران، تحلّق عدد من المسلمين المتحمسين في مطار طهران لا لاستقباله بالأزهار لأنه حقق هذا الشرف الدولي لبلدهم، بل لمعاقبته باللكمات والركلات، وربما كانوا يرمون إلى أن يحشروا سعفة نخيل إيرانية بكاملها في مؤخرته.

إلا أن هذه القصّة، بخلاف معظم القصص الإيرانية، انتهت نهاية سعيدة. وذلك لأن الشرطة الإيرانية أدركت أنه إذا تعرض هذا المخرج للضرب، فإن وسائل الإعلام العالمية ستسخر من إيران في اليوم التالي، فأخرجته خلسة من المطار، ورافقته حتى بيته. ونتيجة لعملية الإنقاذ هذه، وجه هذا المخرج بعد سنوات قليلة دعوة إلى جولييت بينوش، الممثلة الفرنسية الجميلة، ذات القسمات الجميلة التي تشبه عصفوراً خفياً، لزيارة إيران. وقبلت السيدة بينوش الدعوة بسرور، ووصلت إلى طهران وهي تتشح بعباءة الشادور وتضع وشاحاً على رأسها، وقدمت

عشرات الصور إلى المصورين الإيرانيين كهدايا. إن احتمال أن تكون السيدة كانت قد قرأت مذكرات أندريه مالرو أقلّ بكثير من احتمال أن تكونوا أنتم قرّائي الأعزاء، قد قرأتموها. ففي هذا الكتاب يقدم مالرو وصفاً مدهشاً بل مثيراً لكهوف لاسكو في فرنسا واللوحات التي تركها رجال ما قبل التاريخ على جدرانها. ويصوّر بخبرة كبيرة تلك اللوحات الرائعة إلى حد أننا، نحن القرّاء، نرى صيادي ما قبل التاريخ وهم يطلقون سهامهم على حيوانات الماموث، ونقع أسرى سحر تلك الرسوم وكلمات مالرو. وفي قسم آخر من الكتاب، يصف مالرو المناسبة التي ألقى فيها كلمة في إحدى المستعمرات الفرنسية. ففي هذا المشهد، يقف مالرو، بوصفه وزيراً للثقافة الفرنسية لا بوصفه كاتباً ناشطاً في حركة المقاومة لتحرير فرنسا من نير النازيين، في مواجهة الاحتجاجات العنيفة المعارضة للاستعمار الفرنسي ويواصل إلقاء خطابه بعناد. ثمّ، من هنا وهناك، تطلق عليه السهام. لكن مالرو الفرنسي يتجاهل بشجاعة الأسهم القاتلة ليكمل إلقاء كلمته. لذلك، عندما يحوّل الفرنسيون كاتباً عظيماً مثل مالرو ويجعلونه وزيراً للثقافة، يجب أن لا تكون مفاجأة كبيرة عندما ترون جولييت بينوش قد وضعت وشاحاً على رأسها وارتدت شادوراً، وقُدِّمت في وسائل الإعلام الإيرانية بأنها ممثلة الممثلات.

بمساعدة ذكائكم، اربطوا هاتين الصورتين عن مالرو بملاحظاتي عن رحلة السيدة بينوش إلى إيران، واستنتجوا بأنفسكم.

أين كنّا؟

يعتذر سندباد عن عدم مصافحة سارا التي تغطي رأسها بوشاح. وعندها فقط ترى سارا الخدش على سيارة سندباد من طراز بي إم دبليو.

«أوه! من فعل هذا؟».

«لا أعرف. في الليلة التي جئت فيها إلى بيتكم، فعل ذلك غبي مهووس».

«ترى جميع أنواع الناس في هذا اليوم وفي هذا العصر. . . يبدو أن الأمر سيئ للغاية».

يتنهّد سندباد ويقول لنفسه أرجو أن تكون هذه مشكلتي الوحيدة هذه الليلة.

بما أنها تعرف أن دارا يطوف حول بيتها، خيّل إلى سارا أنه هو الذي فعل ذلك. تقول لنفسها لم أكن أعرف أن دارا مهووس هكذا.

يصطحب سندباد سارا إلى مطعم دوّار في الطابق العلوي في إحدى ناطحات السحاب. إذ إن الأشخاص من أمثال سندباد الذين ينتمون إلى طبقة محدثي النعمة في المجتمع الإيراني، الذين جمعوا، نتيجة احتكارات الاستيراد التي تمنحها لهم الحكومة، ثروة لا يحلم بأن يجمعها أي صناعي في الغرب، لا يخشون أن تتعرض لهم دوريات مكافحة الفساد الاجتماعي. وحتى لو أنهم ارتكبوا جريمة قتل وتم اعتقالهم، فإن سجلّهم يعود ويصبح نظيفاً بمجرد مكالمة هاتفية واحدة إلى مسؤول حكومي. ويضطرون في معظم الأحيان إلى دفع ديّة لأسرة الضحيّة، التي لا تشكل أكثر من بضع ساعات من دخلهم. لذلك، فهم يفعلون ما يحلو لهم، لكنهم بالطبع يلتزمون التزاماً تاماً بقانون اللباس الإسلامي ومظاهره. وبعد الثلوج والأمطار التي هطلت مؤخراً، أصبح هواء طهران الملوث باستمرار نظيفاً، ومن النوافذ التي تمتد من الأرض حتى السقف، يمكن رؤية أضواء بنايات المدينة الطويلة والقصيرة، ونهر أنوار السيارات على امتداد شوارعها. في البداية، تطلب سارا عصير برتقال بلون عصير برتقال حقيقي، ويطلب سندباد كوكا كولا أيضاً بلونها الأصلي.

يقول سندباد:

«حتى شهور قليلة ماضية، كان يرتاد هذا المطعم عدد قليل من الزبائن لأنه غالي الثمن. لكن بما أنه أشيع أن بعض الندل يقدمون قناني مياه معدنية مملوءة بالفودكا إلى بعض الزبائن الخاصين، بدأ يأتي عشرة زبائن جُدد في كلّ ليلة».

«وهل يجلبونها حقاً إلى الطاولات؟».

«يجلبون ماذا؟ عصير البرتقال؟».

تضحك سارا.

«أوه، كف عن اللعب معي! إني أقصد ما قلته».

«لا، يا عزيزتي، إنها مجرد إشاعة».

لكن يبدو أن الإشاعة قد انتشرت إلى حد أن النذل المساكين بدوا محبطين مبللين بالعرق. وفي كلّ مرة يمرّون من أمام بعض الطاولات، يحدّق الزبائن بهم ويغمزونهم بعيونهم...

سارا تقول:

«لعل صاحب المطعم هو الذي أطلق هذه الإشاعة ليجذب عدداً أكبر من الزبائن».

«لا آمل أن يكون الأمر كذلك، لأنهم سيغلقون المطعم، ولن يكون بوسعنا أن نأتي إلى هنا ثانية».

لم يكشف لي سندباد حتى الآن متى وكيف تعلّم أسلوبه الرقيق والذكي تجاه النساء. ومثل جميع الإيرانيين، يوجد في جعبته دائماً عدد من النكات الجديدة عن زعماء الحكومة مما جعل سارا تضحك من قلبها.

يدور المطعم ببطء ـ طبعاً، مع الصلصلة التي تنبعث بين الحين والآخر من محرّكها البالي الذي ربما كان من بين المواد التي تحظر الولايات

المتحدة تصديرها إلى إيران، والتي لا يمكن شراؤها في السوق السوداء بنفس سهولة شراء أجهزة الطرد المركز لتخصيب اليورانيوم. أصبحت الآن قمّة جبل دماوند المكسوة بالثلج في شمال طهران ضمن مجال رؤية سارا. لم يكن الشاعر الذي مات قبل سبعمائة سنة، بل الشاعر الذي مات قبل مائة سنة، هو الذي شبّه هذه القمّة البركانية المخروطية بوحش مقيّد بالسلاسل فوق طهران.

يتحدّث سندباد عن محاسن الفيلا التي شيّدها فوق قمة تلّ مرتفع يواجه البحر الأبيض المتوسط الفيروزي اللون. ترى سارا نفسها واقفة إلى جانب حوض الماء في تلك الفيلا وهي تنظر إلى الأفق عبر البحر. ومن مكان ما، مثل الموسيقى التصويرية في فيلم، تنطلق المعزوفة رقم ٢٢ لفرناندو سور على الغيتار. وثمة طائر أبيض يحلّق قريباً من مياه البحر الزرقاء تحت جناحيه. تهبّ الريح على شعر سارا الطويل، يداعب بشرة ذراعيها وساقيها العاريتين. ومن الجانب الآخر، من أعماق بشرة جسدها الطرية، يتدفق الإحساس الجميل والمكبوت بالحرية والانتشاء باتجاه مسام بشرتها. لكن، في ذروة إحساسها بالبهجة، تشعر سارا بأن ثمة شيئاً تفتقده. وبغتة تعرف ما هو هذا الشيء؛ إنه يحلق في السماء فوق البحر الأبيض المتوسط. سحابة بيضاء تشبه تماماً رأس دارا... تثبّت سارا عينيها في عينيّ دارا الغائمتين، وتشعر كم أنها ترغب في أن يقف هناك إلى جانبها فوق قمّة التل تلك.

يخرج سندباد من الفيلا البيضاء المتلألئة ويطرح عليها سؤالاً. الفيلا تختفي. نادل محبط يقترب.

«هل قلت شيئاً؟».

سندباد يحدّق بإمعان في وجه سارا.

«سألتك بم كنت تفكّرين».

أبداً أشكّ بأنه ربما كان سندباد يصاحب السيد بيتروفيتش، لأنه لا يفتأ يسأل سارا عما تفكّر فيه.

«لا شيء».

«توقّفي أيتها الفتاة. من المستحيل على أي شخص أن لا يفكّر بأي شيء... قولي لي. أعدك بأن لا أخبر والديك».

«كنت أفكّر بإحدى قصائد لوركا».

«هل لوركا هذا كردي؟».

«لا».

«يبدو من اسمه أنه كردي».

«إنه إسباني. إنني أحبّ قصائده كثيراً. إنها مفعمة بالشمس والحبّ والدم».

«سأذهب وأشتري كلّ كتبه غداً. أريد أن أتعلّم وأحبّ كلّ شيء تحبّينه».

«لن تجد أياً منها».

«لماذا؟».

«منذ سنوات لم تحصل ترجمات أشعاره على الموافقة لإعادة طباعتها».

«لا توجد مشكلة. لديّ أصدقاء في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. لو كتب السيد لوركا هذا رسالة يطلب فيها إعادة نشر كتبه، لأمكنني أن أكلّم أصدقائي وأحصل منهم على موافقة بإعادة طباعة كتبه».

سارا تبتسم وتلتفت نحو النافذة. ترى الآن الجزء الجنوبي من طهران بعناقيد أضوائها الضيقة المنبعثة من البيوت الصغيرة الشبيهة بخلايا النحل التي يعيش فيها الفقراء، ويقع الظلام من أكواخ القرويين المهاجرين.

وبالقرب من الأفق، تتصاعد بضعة ألسنة من النيران المنبعثة من مصفاة نفط طهران نحو السماء.

وفي الساعة الحادية عشرة، يصطحب سندباد سارا إلى البيت، وتبدأ شوارع طهران تفرغ شيئاً فشيئاً من حركة المرور التي تثير الجنون. وفي أحد هذه الشوارع، يقود الدكتور فرهاد سيارته عائداً من عيادته المجانية ويمر في الجزء الفقير من المدينة. وبخلاف الليالي الأخرى عندما يعود إلى البيت متعباً، لكن مفعماً بإحساس عميق من الرضا، يشعر في هذه الليلة بأن جسمه متصلّب من الخوف ومبلل بالعرق. إذ إن جثّة ذلك القزم الأحدب تقبع في صندوق سيارته القديمة. فقد وضع أحدهم الجثّة سرّاً في غرفة الانتظار في عيادته وهرب. ويعرف الدكتور فرهاد حق المعرفة أن أحداً لن يصدق أنه بريء، ولا حتى المخبرين الإيرانيين الأذكياء. إنها لحظات مرعبة تقطع الأنفاس لهذا الطبيب النبيل، فمن الممكن أن يصادف، في أي لحظة، نقطة تفتيش للشرطة.

لا أقول هنا إن الشرطة التي أقامت نقاط تفتيش عند تقاطعات شوارع طهران تبحث عن جثّة الأحدب. لكنهم أثناء قيامهم بتفتيش جميع الأجزاء المكشوفة والمخفية في السيارة، يطلبون من السائق أحياناً أن يترجّل من السيارة، ويشمّون نَفَسه؛ فإذا كان قد احتسى أي نوع من المشروبات الكحولية، يمكنهم أن يلقوا القبض عليه، وإذا لم يكن السائق قد احتسى أيّ نوع من المشروبات الكحولية، وصادف أن امرأة معه في السيارة، ولا يحمل وثائق تثبت أنها واحدة من قريباته المباشرات، يمكنهم أن يلقوا القبض عليه أيضاً، وإن لم تكن معه امرأة في السيارة، لكنهم يكتشفون أشرطة كاسيت أو أقراص «سي دي» فيها موسيقى غربية ممنوعة، يمكنهم أن يلقوا القبض عليه، وإذا. . .

لنر كيف يخطّط الدكتور فرهاد لكي يتخلّص من هذه الجثّة.

إن الدكتور فرهاد مقتنع بأنه يجب أن ينقل الجثّة إلى الطرف الشمالي من طهران. وهو لا يريد أن يخلق أيّ مشاكل للناس الفقراء الذين يعيشون في الطرف الجنوبي من المدينة ـ الذين لا توجد لديهم سبل استئجار محام، ولا تتوفر لديهم صلات في الهيئة القضائية. ومن شدّة خوفه، كان قلبه يخفق بقوة كبيرة أحياناً، وفي أحيان أخرى، كان يكاد أن يتجمد تماماً. وكما لو أنّ أحد مرضاه قد أصيب بسكتة قلبية على طاولة العمليات، كان عقله يدرس بشكل مسعور مئات الاحتمالات والإمكانيات آملاً في أن يعثر على مكان مناسب يتخلّص فيه من الجثّة التي أرسلت له. وفي هذه اللحظة بالذات، خطرت في باله فكرة رائعة. وتذكّر أحد أصدقائه المقرّبين، وهو الدكتور دال...

سأخبركم سرّاً أن الدكتور فرهاد لا يريد أن يترك الأحدب أمام باب عيادة طبيب مخلص مثله ويهرب. ويتذكّر أن الدكتور دال، الذي لديه اختصاص ثانوي في الجراحة، أراد أن ينشر كتاباً في السنة الماضية عن جراحة البروستات ـ ثمرة سنوات طويلة من الخبرة والدراسة ـ لكن أحدهم اتصل بالسيد بيتروفيتش وطلب منه ألا يصدر موافقة لنشر الكتاب بسبب مشكلة أساسية واحدة، وهي صورة مقصّ الجراحة على الغلاف.

كما ترون، أصبحت قصّتنا تقع عند مفترق طرق. أحد الطرق يؤدّي إلى بيت الدكتور دال، والطريق الآخر يؤدّي إلى مكتب السيد بيتروفيتش. وفي النصّ الذي وافقت عليه أجهزة الرقابة، أشعلنا شرارة في عقل الدكتور فرهاد، وأرسلناه باتجاه بيت الدكتور دال، أما في نصّنا السرّي المزعوم، فيقرّر الدكتور فرهاد أن يقود سيارته القديمة إلى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. ولسوء الحظ، فإن أحداث قصّتنا لن تجري بهذه السهولة.

يقود الدكتور فرهاد سيارته في شارع باهار الخافت الإضاءة. وفجأة،

يرى الأضواء الخلفية لسيارتين تقفان في متصف الطريق على مسافة مائتي قدم تقريباً أمامه، ويرى ظلّ رجال شرطة عند نقطة التفتيش. تنفسا يتوقّف. بعينين يكاد يكون الخوف قد أعماهما، يتطلع إلى جانبي الشارع راجياً أن يجد شارعاً أو زقاقاً يستطيع أن ينعطف إليه. لكن رجال الشرطة كانوا قد اختاروا نقطة التفتيش بحكمة. ولوهلة فكّر بأن يدير المقود ويعود إلى الخلف، لكن ذلك سيكون خطأ جسيماً. إن كان محظوظاً، ولم تثقب الشرطة عجلات سيارته بطلقات الرصاص، فإنهم سيطاردونه على الفور، علماً أن السيارة التي يقودها ليست من طراز فيراري حمراء لكي تتوفر لديه أية آمال في الهرب.

لقد فات الأوان على أيّ تفكير أو أيّ تصرف. وصل إلى نقطة التفتيش وتوقّف. على الرصيف ذي الإضاءة السيئة، يقف شرطيان مسلّحان برشاشات متأهبين. ثلاثة رجال شرطة آخرون يخرجون سائق السيارة الواقفة أمام سيارته، ويبدأ شرطيان يفتّشان تحت مقاعد السيارة، وكان الثالث يفتّش صندوق السيارة بدقة. الدكتور فرهاد يهمس يائساً:

«لقد قضي الأمر... لقد بلغت آخر نقطة في حياتي... لقد انتهى الأمر».

ويرى نفسه: من إحدى جهات القدر، شأن الكثير من الاختصاصيين الإيرانيين، أنه هاجر إلى الولايات المتحدة، ويقود حالياً سيارة فيراري حمراء من مستشفى كبير وغال في لوس أنجلوس، له فيه حصة رئيسية، متوجهاً إلى الفيلا التي يقيم فيها في شارع مولهولاند... وفي الجانب الآخر من القدر، يرى نفسه مرتدياً بدلة سجين، وهو جالس في زنزانة إسمنتية صغيرة مع عشرة أشخاص من القتلة، والمهرّبين والمدمنين الذين لا ينظرون بشكل عام إلى الأطباء نظرة جيدة والذين يهزأون به الآن بأفواه تخلو من الأسنان وينتظرون موعد انطفاء أضواء السجن.

يحسّ الدكتور فرهاد بعينين غاضبتين يرمقه بهما أحد رجال الشرطة يحمل رشاشاً ويبتسم ابتسامة لئيمة إلى مصيره.

لكن هيا، لنساعده. هذا الطبيب الغيريّ، الذي حتى في هذه اللحظة المصيرية الرهيبة، يشعر بالقلق إزاء حالة خطرة لأحد مرضاه الفقراء سيجري له عملية جراحية في اليوم التالي. كان مريض يُدعى باء وقد أمضى سبع سنوات من حياته متطوّعاً في الخطوط الأمامية من الحرب مع العراق، ولا تزال شظيّة من قذيفة هاون عراقية تستقر بالقرب من الحبل الشوكي وهو سيصاب بالشلل إذا لم تُجر له العملية.

ماذا تظن أننا نستطيع أن نفعل لمساعدة الدكتور فرهاد؟ أعطوني الوقت الذي يستغرقه وضع ثلاث نقاط لكي أفكر بشيء.

. . .

لا، حتى بعد هذه النقاط الثلاث، لا أزال لا أستطيع أن أفكر بطريقة للخروج من هذا المأزق. ساعدوني. إنني بحاجة إلى شرارة إلهام، خبطة لأزيل غبار الزمن عن رأسي الذي فقد الإحساس. . .

ثمة شيء يصيبني في مؤخرة رأسي. أخنق صيحة وراء شفتي المزمومتين بإحكام لكي لا تجذب انتباه أفراد الشرطة عند نقطة التفتيش. أمرر يدي وراء رأسي. ندف من الثلج تأتي إلى يدي، وما تبقى منها يسيل تحت ياقتي. أرفع عينيّ إلى السماء. توقف الثلج عن الهطول.

أرجوكم لا تسألوا. لا يوجد لدينا وقت. فقط ادفع يدك إلى الأسفل واضغط على بوق سيارة الدكتور فرهاد. افعل ذلك فقط.

ينطلق زمور شنيع ومحتقن في الشارع. يأتي الشرطي الذي يحمل رشاشاً والذي يلاحظ من فوق الرصيف سلوك الطبيب المتوتر، إلى سيارته. مرتاباً، يقول بدناءة:

«يبدو أنك على عجلة من أمرك».

يمسح الطبيب العرق من جبهته بقفا يده، ويقول:

«نعم... إنني مستعجل».

في تلك اللحظة بالذات، لمعت فكرة في رأس الدكتور فرهاد. فأخرج بطاقة الهوية الطبية وأراها للشرطي.

«أنا جرّاح. وقد أصيب أحدهم بحادث وهو قابع في غرفة الطوارئ في المستشفى، وإذا لم أصل إلى هناك بسرعة، فإنه سيموت».

على ضوء السيارة، يفحص الشرطي بطاقة الهوية بعناية، ثم يتوجّه إلى رئيسه الذي كان يفتّش صندوق سيارة تقف أمامه. تبادلا بضع كلمات. ثم يعود ويسلّم بطاقة الهوية إلى الطبيب.

ما زال مرتاباً، سأل:

«ألا توجد لديك مواد غير قانونية في السيارة؟».

«حقيبتي الطبية فقط... أرجو أن تدعني أذهب، وإلا مات مريضي».

«إنك لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟».

«أيّ كذبة؟».

«المريض الذي تقول إنه يحتضر، أين أصيب؟».

«لم يخبروني، لكنه أصيب في حادث سيئ. أظن أن أضلاعه قد كُسرت وثُقبت رئتاه...».

يتنفس بصعوبة؛ ويشعر بشيء حاد في أضلاعه يضغط على رئتيه. وبجهد كبير يتنهد ويقول:

«هل لي أن...؟».

«اذهب».

يشغّل الدكتور فرهاد السيارة، لكن الضابط المسؤول يتقدم منه ويتفحص وجهه بدقّة.

يقول:

«توقف قليلاً».

الدكتور فرهاد يستسلم.

«ألست أنت الدكتور فرهاد؟».

«أظن ذلك».

«هل يوجد لديك مريضة تدعى بيبي أتري؟».

«نعم. لقد أجريت لها عملية أنا بنفسي. كانت واحدة من أصعب العمليات الجراحية التي أجريتها».

يلتفت الضابط المسؤول إلى زميله ويقول: «لا تدع الطبيب يذهب حتى أعود».

يشعر الطبيب بجميع أنصال مباضعه الحادّة فوق جسده. وفي مرآة السيارة الخلفية يرى أضواء سيارة الدورية وهي تدور.

«لقد قضي الأمر. سيقتادونني إلى السجن».

تقف سيارة الدورية بجانب سيارته. يصيح الضابط المسؤول من نافذة السيارة:

«إن بيبي أتري هي عمتي. لقد أجريت لها العملية مجاناً. أحمد الله أنها أفضل حالاً الآن. إلى أيّ مستشفى أنت ذاهب؟».

بما تبقّى من طاقته، يقول الدكتور فرهاد اسم مستشفى.

«سأرافقك. اتبعني».

بإيماءة من الضابط المسؤول، يزيح أفراد الشرطة الآخرون الحاجز بسرعة. يتبع الدكتور فرهاد بسرعة كبيرة صفارة الإنذار والأضواء الحمر الدوّارة التي كانت بالنسبة له جميلة بجمال حمرة الشمس عند المغيب في القطب الشمالي.

بعد بضع دقائق يقف أمام باب مستشفى. يلوّح للضابط ويدخل بسرعة. وعندما تأكّد من أن سيارة الدورية قد غادرت، يخرج ويتّجه إلى المكان الذي كان يريد الذهاب إليه.

سيسأل السيد بيتروفيتش بشك:

«لنر، هل الدكتور فرهاد يقود سيارته في شارع باهار؟ لكن شارع باهار ليس في الطريق المؤدي إلى بيت الدكتور دال».

وسأقول:

«كان ينتابه خوف شديد ويرتجف فانعطف في مكان خاطئ عند نقطة ما. سيدرك ذلك ويجد طريقه».

«لكنني لا أحبّ هذا الجزء من قصّتك. إنك تعلّم الناس كيف يخدعون الشرطة عند نقاط التفتيش.... بالمناسبة، يمكنك أن تتأكد من أن الضابط المسؤول الذي رافق الدكتور فرهاد سيلقى القبض عليه غداً ويُحاكم بتهمة التعاون مع المناوئين للثورة».

لا يزال الدكتور فرهاد، في نهاية شارع باهار، يتساءل كيف ولماذا انطلق بوق سيارته التي يزيد عمرها على عشرين سنة، بأعجوبة.

في الليلة العاشرة بعد شجارهما، يخلص دارا إلى أنه ربما لم يكن لغضبه إزاء سارا أي سبب معقول، وأنه قد أساء إليها حقاً، وأنه كان يتكلّم وكأنه يستجوبها، أو كأنه يمتلكها.

وخلصت سارا أيضاً إلى أن دارا لم يهنها حقاً، وأنه سألها بضعة أسئلة، وأن هذه الأنواع من الأسئلة عادية عندما تحبّ شخصاً، وأنه لم يكن يقصد أن تكون استجواباً أو إيحاءً بالملكية.

حتى هذه الليلة، فضّل دارا أن يمضي وقتاً قصيراً مع سارا على الهاتف. وبسبب نشاطه السياسي في الماضي وسجنه، فكّر أنه من الممكن أن يكون

خط هاتفه مراقب، لذلك فكّر بأن إرسال رسالة إلكترونية والمحادثة على الكمبيوتر ستكون أكثر أماناً. لكن في هذه الليلة، بدلاً من أن يقرأ كلمات مكتوبة لا حياة فيها، كان يريد بكل كيانه أن يسمع صوت سارا. لذلك، وعلى نحو بطولي، أدار في الساعة السابعة رقم هاتف سارا. كان الخطّ مشغولاً. فقال في نفسه:

إن الأمر واضح. لا بد أنها تتحدث إلى سندباد عن رحلتهما إلى إسبانيا. لقد انتهى الأمر حقاً. لن اتصل بها مرة أخرى.

لكن في تلك اللحظة بالذات، كانت سارا تدير رقم دارا. وقالت في نفسها:

لم يستغرق وقتاً طويلاً لكي يجد لنفسه لعبة أخرى. لقد انتهى الأمر بيننا. لن اتصل به ثانية.

وبعد ثلاثين دقيقة تماماً، اتصل أحدهما بالآخر في الوقت نفسه ثانية. كان الخطان مشغولين. تقول سارا لنفسها:

«انظرا إنني على حقّ».

ويقول دارا لنفسه الشيء ذاته.

طبعاً نادراً ما يحدث مثل هذا التزامن في ما يسمّى بالعالم الحقيقي، أما في عالم الخيال، حيث يحشر الرقيب أنفه في كل صغيرة وكبيرة، فمن الممكن أن يحدث بسهولة.

هنا أصبح وجهاً لوجه مع مشكلة أخرى من مشاكل قصّتي. لا، ليس السيد بيتروفيتش الذي يشتكي، بل بعض المثقّفين والنقّاد من بلدي الأثير الذين سيمسكون بي من تلابيبي.

اسألوني لماذا؟ لكي أجيب:

حسناً، إذا كتبت أن سارا قد اتصلت بدارا أولاً، فثمة فرصة بأن تخرج

بعض النسويات المتعصبات الإيرانيات، اللاتي لا يشبهن الناشطات الحقيقيات اللاتي يؤمنّ بالمساواة بين الرجل والمرأة في إيران، واللاتي يثرن خوفاً شديداً في نفسي، ويضعن غطاء يغطي شعورهن غير الممشّطة التي لم يكنّ قد غسلنها منذ أسبوع، ويقلن:

«انظروا! بالرغم من كلّ ألعابيك، فقد كشفت عن تعصبك الذكوري أخيراً، أيها السيد الكاتب. فعندما ترغم سارا على الاتصال بدارا أولاً، فإنك توحي بذلك بأن النساء أضعف من الرجال، وأنّهن يقلّلن من تقديرهن لنفسهن. هيا أسرع واحذف هذه الجملة من قصّتك».

ومع ذلك، فإذا كتبت أن دارا اتصل بسارا أولاً، فمن المحتمل أن ينتقدني بعض النشطاء السياسيين المتشدّدين ويقولون:

«بمعنى آخر، تريد أن تقول إن ناشطاً سياسياً وسجيناً سياسياً سابقاً تعرض للتعذيب في زنزانة انفرادية يقف عاجزاً أمام امرأة، ولا يستطيع أن يقاومها حتى لمدة عشرة أيام. لقد دفعت لك الحكومة لكي تكتب أن النشطاء السياسيين ضعفاء، ولكي تلوّث أسطورة مقاومتهم. هيا احذف هذه الجملة من قصّتك».

كما يمكن أن تكونوا قد خمنتم، فإنني أقدّم لكم عالماً آخر من الرقابة، عالماً أقوى من السيد بيتروفيتش ومن جميع العاملين والمكاتب في وزارته.

الآن، في رأيكم، هل يجب أن تتصل سارا بدارا أولاً، أم يجب على دارا أن يتصل بسارا أولاً؟

نحن، الكتّاب الإيرانيين، نعرف كيف نخرج من مثل هذه الورطات. فمثلاً:

شخص ثالث يجلس في مكتب حكومي محترم، ويُكلف بمهمة مراقبة

وتسجيل مكالمات سارا ودارا الهاتفية، يستطيع أن يربط الخطين في الوقت نفسه. لعله يشعر بالأسى عليهما، ولعله يريد أن يدور الحديث بينهما لكي ينهي عمله، ويستطيع أن يعود إلى بيته، أو لعله يحبّ الأحاديث الخفرة بين هذين الحبيبين الشابين.

يضغط كل منهما أذنه على سماعة الهاتف، ولسانه على الجزء المخصص للتكلم من سماعة الهاتف. . .

ويسمع أحدهما الآخر أنفاس الآخر. في هذه اللحظة، تبدو جميع الكلمات سخيفة. وبقلبين تخفق فيهما الأضواء الحمر التي تدور بسرعة فوق سيارة إسعاف أو سيارة شرطة، ينتظر كل منهما الآخر حتى يجد الكلمة الأولى ويلفظها.

«مرحباً».

«مرحباً».

ثمّ، مرة أخرى، يسود صمت طويل. . . صوت أنفاس. . . الأنفاس تتحدث. . . لهيب الأنفاس يتصاعد. . . يبدو أن أحدهما يسمع صوت العرق الذي يتصبب من مسامات جلد الآخر. . . من ثقوب سماعة الهاتف، أصوات نقرات آلاف الأحاديث تتصل وتنفصل. . . تنهيدة طويلة. . . جواب لها، تنهيدة أطول. . . أنفاس تلهث بغير انتظام. . . ~~تنهيدة تنم عن رعشة. . .~~

مبلّلين بالعرق، يغلق كلاهما سماعة الهاتف في الوقت نفسه.

لا تسألوا.

منذ سنوات، في إحدى قصصي القاتمة ذات النهاية الحزينة، ولأصوّر هيام الحبّ بين رجل وامرأة، كان عليّ أن أكتب وصفاً جديداً ومبدعاً وأدبياً عن ممارستهما الحبّ. وبسبب دقة السيد بيتروفيتش، لم أتمكن

من كتابة شيء عن ممارستهما الفعلية للحبّ. وإلى متى يستطيع الكتّاب أن يستمروا في كتابة كلمات مثل:

يقول الرجل:

«أنذهب؟».

فتجيب المرأة:

«هيا بنا نذهب».

وإلى متى يمكننا أن نكتب: «دخل الرجل والمرأة الغرفة وأغلقا الباب. . .» من دون الحاجة إلى تفسير أكثر. وتكمن المشكلة الأخرى في أنني لم أكن أريد أن أصف مشهد ممارسة الحبّ بطريقة تجعل قصتي تصبح على حافة قصة إباحية، وربما تصبح بذلك من الكتب الأكثر رواجاً. يخيّل إليّ أن أيّ عنصر اصطناعي أو حتى عنصر عصري يضاف إلى مأساة قصّة هو خيانة للأدب. ولهذا السبب، أردت بكلّ حبّي للكلمات وحبّي لدلالاتها الصريحة والضمنية أن أخلق جملاً تبدو فيها الكلمات أيضاً أنها تمارس الحبّ. وقد اشتغلت طوال ساعات على هذا المشهد، لكنني مهما كتبت، فإنه يصرخ عالياً بأن نشره سيُرفض. وعندما فقدت الأمل أخيراً وكنت على وشك أن أقرّر أن أجعل الحبيبين يفترقان بدلاً من أن يمارسا الحبّ، تذكّرت فجأة كلمة كنت قد قرأتها في النصوص القديمة من الأدب الفارسي ـ «خانجي». لقد وجدتها. مفتاح مشكلتي. كلمة أصبحت مهجورة منذ قرون، وهي تعني: الآهات الشهوانية أثناء الاتصال الجنسي. من الناحية الأدبية، فإن صوت حرف الخاء الهجومي، الذي بمواصلة نبرته ونغمته الصوتية يقترن بصوت جي الغامض، هو تماماً ما كنت أتطلع إليه. فكلّ كاتب، حتى لو لم يكن في حياته الحقيقية أي نوع من الدونجوانية، سيبدأ يفهم بعد سنوات من

الكتابة، أن كلمة واحدة تفعل أحياناً فعل عشرات المجاملات ومئات الإغراءات الذكية.

ولتمهيد السبيل لهذه الكلمة ولحمايتها من مقص الرقيب، كتبت عن تيار وعي الرجل أثناء ممارستهما للحب. جمل معقّدة، متاهة من تداعي المعاني، واستحضار ذكريات ماضية. عينا الرجل مثبتتان على لسان شعاع الشمس الضيّق الذي يتسرب من الفتحة الصغيرة في الستارة ويلمع فوق السجادة، ومثل مقص يقطعها إلى قسمين. يتذكر يده التي كان مدير المدرسة الابتدائية يضربها بالعصا... عينا الرجل تتركزان على المصباح العاري المتدلي من سقف غرفة نومه ويعود استكشافه له... ذكريات عن صباح شتوي بارد تحوّلت فيه الأنفاس إلى بخار... اختلاط الأنفاس... صوت بوق سيارة طويل يزعق عندما تمرّ سيارة بسرعة في الشارع... وأخيراً. كتبت: «خانجي». أفترض أن السيد بيتروفيتش لن يكون على ذلك القدر من الصبر والبراعة ليجد قاموساً قديماً ونادراً ليبحث عن تعريف كلمة «خانجي». أظن أنه حتى لو بحث عن معنى الكلمة، لربما سمح لها أن تعيش في قصتي، لأنها أصبحت كلمة مهجورة وتفتقر إلى أيّ دلالة جديدة وجنسية. وربما أتى ناقد في فترة لاحقة، لم يسرّه ما أكتبه، وكتب ونشر مراجعة للقصّة، وشرح فيها معنى كلمة «خانجي».

لماذا أقدّم هذا المثال المعقّد؟ ففي إحدى قصصي التي لم أكشف الكثير عنها لكي لا يرفض السماح بنشرها في أرضي المحبوبة، لأقول لقارئي إن الزوج والزوجة في القصّة يمارسان الحبّ، كتبت أن المرأة نائمة ووجها إلى الأعلى فوق السرير، يدخل زوجها الغرفة. وبعد الشجار الذي دار بينهما في الأسبوع الماضي، حان الوقت الآن ليتصالحا. صباح إيراني مشرق يغمر المنطقة خارج بيتهما الصغير. ومن النافذة، تستطيع المرأة أن

ترى جزءاً صغيراً من السماء الزرقاء، وسحابة تعوم مثل طائرة ورقية، بياضها يشبه بياض الحليب الذي أرضعته لابنتها... ثمّ في زاوية رؤية المرأة، يبدأ إطار النافذة يتحرك. يتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل، لكن السماء والسحابة البيضاء تظلان ساكنتين بلا حراك. ثمّ تشيح المرأة بعينيها بعيداً عن النافذة، وترى تجويف أذن زوجها. وكتبت أيضاً وصفاً عن الأذن، أخاديدها والعتمة في تجويفها، بالطبع بإيجاز شديد، لأنني أعرف أنه في حمأة الإثارة، والحركة، والمتعة، لن يكون هناك لأي امرأة، ولا حتى لفرجينيا وولف، القدرة على التركيز المناسب لتلاحظ تفاصيل الأذن الدقيقة...

ربما كنقطة صغيرة في دروس الكتابة الإبداعية، قد يكون من المهم ملاحظة أنني قبل كتابة هذا المشهد لم تكن لديّ تجربة شخصية أو معرفة عن كيف ترى المرأة سقفاً ونافذة وهي مستلقية تحت جسد شبق وتتعرّض إلى حركة دائبة إلى الأمام والخلف وإلى ضغط فوقها. كنت أريد أن أعرف أنه عندما يتعرض الجزء الأوسط من جسد امرأة إلى قوة ويحرّكها، هل يتحرك إطار النافذة الذي يقع ضمن رؤيتها أيضاً؟ لذلك، استلقيت على أرضية مكتبي، وحاولت أن أتخيّل نفسي في مكان تلك المرأة، وبدأت أهزّ جسمي إلى الأعلى والأسفل، مركزاً عينيّ على النافذة والسحابة.

لا داعي لأن تجري مثل هذه التجربة العلمية بنفسك. ومع أن إحدى فوائد قراءة القصص تتمثل في انتقال تجارب الشخصيات وتجارب الكاتب إلى القارئ، لذلك، سأقول لكم كانت النتيجة مخيّبة. فبعد أن استلقيت على ظهري، ورحت أحرك جسمي وأهزّه، أدركت أن السماء والسحابة لا ترتبطان بالنافذة، ولا يبدو أنها تتحرّك.

لكنني أردت في قصّتي فعلاً أن تتحرك النافذة في عيني المرأة. قلت

لنفسي، ماذا يهم إن لم تكن النافذة تتحرك في الواقع، إنها تتحرّك في قصّتي. فكتبت بجرأة أنها تتحرك، وفي مثل هذه الحالات تنفصل الحقيقة الخيالية عن حقيقة العالم القابع هناك. فقد قال نابوكوف في محاضراته ودروسه الرائعة عن الأدب: «لقد ولد الأدب في اليوم الذي جاء فيه فتى يصيح ذئب، ذئب، ولم يكن هناك ذئب يجري وراءه».

لكن هذا بسيط. فإني أقول إن أفضل القصص هي التي يهرع فيها الفتى الراعي أو الكاتب، ويصرخ، ذئب، ذئب، لكن لا يوجد ذئب خلفه.

لذلك، لا تزال النافذة تتحرّك والأرض ثابتة، ولا يزال غريغور سامسا يستيقظ ليجد أنه تحوّل إلى صرصور. وسيقول السيد بيتروفيتش:

«هل تظن حقاً أنه إذا كتب الكتّاب عن الذئب فإنه سيظهر خلفهم؟».

«بحسب. فإذا كتبوا بطريقة جيدة وخلاّقة، فإن ذئباً من نوع ما سيظهر وراءهم في عيني القارئ».

«لكن هذا خطر للغاية. إن ما تقوله هو أنّ الكتّاب يستطيعون أن يكتبوا عن مئات المجموعات الفدائية المعادية للنظام وآلاف الرجعيين والجواسيس والمخرّبين، وسيظهرون له جميعهم».

يجب أن أركل نفسي ركلة قوية. ماذا فعلت؟ فلم أزد الأمور سوءاً لي ولزملائي فقط، بل. . .

«في الواقع، أنتم كتّاب القصّص تشبهون هارون الذي صنع عجلاً من الذهب وضلّل بني إسرائيل. إنكم تستحقّون المشاكل التي تعترضكم».

«في بعض الأحيان تعمل مخيلتك بقوة أكثر من أيّ كاتب».

«لا تحاول أن تخدعني. بعبارة أخرى، يمكنك أن تكتب في قصّتك إنني أغطّ في النوم في الليل وأحلم بأنني متّ، وأستيقظ لأرى أنني ميت في الواقع أيضاً. يجب أن أكتب تقريراً جديداً وخطة عمل جديدة عنكم يا معشر الكتّاب».

«لا. لا. يجب أن تكتب قصّة فقط».

«لديك قصّة يعود فيها موظف يعيش وحده إلى غرفته المستأجرة ويرى جثّة غريب في سريره. ماذا تقصد بهذه الجثّة؟».

«إنها مجرد جثّة».

«لقد صوّرت ذلك الموظف المسكين بأنه شخص جبان ومحافظ وحريص. رجل في رأيي أنه مواطن نموذجي، شخص يحاول أن يؤدي عمله على أكمل وجه، لا يتدخّل في ما لا يخصه، ويحمل بطاقة هويته دائماً في جيبه، ولا يفعل شيئاً يمكن أن يعرّضه لمساءلة الشرطة. ووضعت جثّة شخص غريب في سريره. لماذا؟ لتعاقبه؟ لتقول إنه توجد لدى جميع الأشخاص الجبناء جثّة في بيتهم؟ لكن أنت الجبان».

«نعم. لقد رأيت هذه الجثّة في سريري أولاً، ثم كتبت القصّة».

«لذلك فإنك تعترف بأنك ارتكبت جريمة قتل أيضاً. ماذا فعلت بالجثّة؟ أين تخلّصت منها؟».

أثناء مكالمة هاتفية تنطوي على شيء من الشجاعة، عندما تخنق الرغبة في سماع صوت المحبوب جميع المخاوف والحذر، تسأل سارا دارا:

«أأنت الذي خدشت سيارة سندباد؟».

«لا... فأنا أعتبر أن مجرد النظر إلى مثل هذه السيارات شيء مخز».

«كيف تشعر؟».

«لست على ما يرام».

«لماذا؟».

«أنت تعرفين السبب».

«هل اشتقت إليّ؟».

«إنك تعرفين».

«إذاً لماذا لا تخطط للقائي؟».

«لست متأكداً من أنه يوجد وقت لي بين مواعيدك الأخرى».

«إلى أين يمكننا أن نذهب؟أرى كم أنك تخاف دائماً من أن يلقى القبض عليك عندما نكون معاً. إنني أكره نفسي لأنني أضعك في مثل هذه المواقف».

«لا يهم. إن هذه المخاوف والاستثارات حلوة بعض الشيء. إنها نوع من المغامرة في هذه الحياة الرتيبة. إنني أحبها».

«أين؟».

«الساعة الثالثة، في ساحة فاناك».

«لا، إنه مكان يتسكع فيه الناس ويعج بالدوريات... لنذهب إلى متحف العصور القديمة».

لا، لا ينفع. إن هذا المقطع من حديث سارا ودارا غير واقعي على الإطلاق. وبسبب ماضي دارا السياسي فمن المحتمل أنهم يراقبون هاتفه، لذلك سيخطّطان للقائهما على نحو مختلف.

تقول سارا:

«لقد اشتقت حقاً لقراءة «البومة العمياء» اليوم. لقد قرأتها مرة أخرى واكتشفت أشياء جديدة فيها».

«ما هي؟».

«في الفصل السابع، إن المشهد في الصفحة الثالثة تحفة من الرمزية. إنه يصوّر الخوف بطريقة مختصرة وواقعية جداً. أظن أنه أقوى من كافكا».

«الصفحات التالية قوية أيضاً».

«لا، المشهد في هذه الصفحة هو الذروة. هل تذكر أننا تحدّثنا عن حنين هدايت لإيران القديمة؟ أظن أنه صبّ كلّ حنينه وأشواقه في هذه

الصفحة. وكأنه جمع كلّ القطع في متحف العصور القديمة مثل عنقود من العنب وعصرها وأسال قطرات عصيرها على هذا الصفحة. اقرأه ثانية وسترى ما أقصده. الفصل السابع، الصفحة الثالثة».

إن حلّ الرموز في هذا الحوار كما يلي:

«لقد اشتقت إليك اليوم كثيراً. لقد استعرضت كلّ ذكرياتي عنك. أريد أن أراك ثانية».

«متى؟».

«في اليوم السابع، عند الساعة الثالثة».

«هل يمكننا أن نلتقي بعد ذلك؟».

«لا. هذه المرّة سنلتقي في متحف العصور القديمة كما تحدثنا. هل تفهم ما أقول؟ في اليوم السابع عند الساعة الثالثة».

بالطبع، لا يوجد في «البومة العمياء» فصل سابع.

«الآن أصدقني القول، هل خدشت سيارة سندباد؟».

«لا».

«كنت أتمنّى أن تكون أنت الذي خدشها، لأنني أعرف أنك تحبّني فعلاً».

بدأت كلمات سارا وتكرارها لموضوع خدش السيارة يثير القلق في نفسي. في رأيي، بدون مساعدة أي آلة للزمن، أستطيع أن أرى المستقبل:

سيلقي السيد بيتروفيتش مخطوط قصّتي المطبوعة على طاولة مكتبه، وسيحدّق طويلاً بعينيه المدققتين، الشاحبتين، ويقول أخيراً:

«هممممم... ها هنا شيء آخر يضاف إلى قائمة كتابك بالتعاليم اللا أخلاقية. إنك تشجّع قرّاءك على الذهاب لخدش سيارات الناس الأبرياء.

بدلاً من ذلك، تستطيع سارا أن تقول إنني سعيدة لسماع أنه لم يكن هو الذي خدش السيارة، لأنك إذا قلت إنه أنت الذي خدشها، فإني أقسم بأنني سأحتقرك كثيراً، وسأمحو اسمك وجميع ذكرياتي عنك... إنها جملة أدبية جميلة، أليس كذلك؟ لقد استخدمت استعارة خدش بطريقة جيدة، أليس كذلك؟».

«ماذا يمكنني أن أقول... الحقيقة هي أن عملية الخدش تثير اشمئزازي وتلبك معدتي».

سينهض السيد بيتروفيتش. وبنبرة جافّة ورسمية يقول:

«يجب أن أحضر اجتماعاً مهماً جداً بعد بضع دقائق. أنصحك بأن تعمل على قصّتك بعناية شديدة، وخاصة في ما يتعلق بهذه التفاصيل الصغيرة والمشاكل الرئيسية فيها».

في ذلك المستقبل الذي أصبح حاضري الآن، أخرج من مبنى وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. رأسي على وشك الانفجار. أبدأ أسير على غير هدى. كلّ ما أعرفه هو أنني... لا أعرف شيئاً، ولا أعرف ما ينبغي لي أن أفعله. أقول لنفسي، إنك لا تختلف كثيراً عن «الأبله» لدوستويفسكي، سوى أنّك أكثر سذاجة منه. فبدلاً من كلّ هذه السنين التي أمضيت فيها آمال وأحلام مراهقتك وشبابك ومنتصف عمرك في كتابة القصص، بدلاً من كلّ هذا الخطر الذي عرّضت نفسك له أن تختبر الحياة وتكتب قصصاً أفضل، لو... لو... لو بدلاً من كلّ هذا الغباء، أمضيت وقتاً قصيراً فقط مستفيداً من أموال أبيك، لأصبحت ثرياً الآن، وبدلاً من كتابة قصّة حبّ بائسة، كان بإمكانك ألا تدعو سارا إلى الفيلا التي تملكها في إسبانيا فحسب، بل لأصبح بإمكانك أن تدعو أيّ امرأة جميلة أخرى، وفي الليل يمكنك أن تقرأ لها قصص حبّ كتبها كتّاب فرنسيون...».

ضائعاً ومشوّشاً، اغرورقت عيناي بالدموع. لم أعد أستطيع أن أرى جيداً ما يحيط بي. كلّ ما أعرفه أنني أقف على رصيف ضيّق ومزدحم. يدفعني الناس بمناكبهم. وفي بعض الأحيان ينعتونني بأسماء.

أمسح الدمعة التي لا يسمح لها أن تذرف، وأرى نفسي واقفاً على رصيف شارع لاليهزار القديم. أقول لنفسي، يا له من مكان رائع وملائم!

أتعثّر بمواد يعرضها بائع متجول. لو كان أيّ بائع متجول آخر، لقذفني ببعض الشتائم النابية، لكن الرجل الذي يبيع الطلاسم والتعاويذ وابتساماته السحرية يقول:

«لدي تعاويذ لحلّ مشاكلك وآلامك... إنك حقاً أعمى».

«نعم. أنا أعمى حقاً».

أسير مبتعداً. من الإدراك بأنني كنت أعمى طوال حياتي، تملأ الدموع عينيّ ثانية. لكن على مسافة بضع خطوات، أكتشف من وراء غلالة الدموع، أن شارع لاليهزار شارع خالد، لا يموت مع مرور الزمن. الشارع الذي كان منذ ثمانين سنة على نحو ما «برودواي» طهران، ومكاناً للترفيه والتسوّق للأغنياء والأرستقراطيين، أصبح الآن مكاناً غريباً وكئيباً لتصويره كمشهد في قصّة. أقول لنفسي: «هذا الرصيف، بمحلاته القديمة حيث يتسوق الفقراء الآن، بمسارحه القديمة، ودور السينما المحروقة، والباعة المتجولين، هو مكان آمن جداً لكي يتمشى فيه دارا وسارا».

لم يعد ثمة داع لأن أسحب ستارة الدموع عن عينيّ. أقول لنفسي:

«هيه، أنت! هل أنت أعمى أم أنك تبصر، نعم، إنك غبي. غبي لأنك تكتب قصصاً. لكنك تحبّ هذه البلاهة»...

الرجل البرونزي

نحن الإيرانيين، نفتخر كثيراً بالإمبراطوريات التي شيدناها. فإذا كنت قد قرأت تاريخنا الرائع، فستعرف أن بلدنا قد احتُل مرات عديدة، وقُتل وذُبح الكثير منا، واندثرت معالم العديد من مدننا، ثمّ، بدبلوماسية وذكاء ومكر وصبر، عرّفنا القبائل التي غزتنا، والتي كانت في غالب الأحيان قبائل متخلفة، على ثقافتنا، وكما يقول المثل، جعلناهم بشراً.

لكن مشكلتنا، نحن الإيرانيين، وبسبب هذه الأمجاد الغابرة، أنه لم يعد يهمنا كثيراً أن نصنع لأنفسنا اسماً، وأن نفيد العالم اليوم. ويبدو أننا لا نكترث بماذا سيحكم العالم علينا وعلى ظروفنا الراهنة.

في متحف العصور القديمة، يتجول دارا وسارا جنباً إلى جنب لكن من دون أن تلمس ذراع أحدهما ذراع الآخر، ويتفرجان على المصنوعات الإيرانية اليدوية الجميلة والمهيبة التي تعود إلى أزمان سحيقة؛ ~~يتبادلان كلمات خاصة ويتحدثان~~. وهنا أيضاً يبديان حرصاً شديداً في تصرفاتهما لأنهما يعرفان أن الحرّاس في المتاحف يركّزون اهتمامهم على تصرفات الزوّار أكثر مما يركزون على حراسة المصنوعات اليدوية الثمينة والنادرة. ومهما كان الأمر، فإن هذا المكان أكثر أماناً من التجوال في الشوارع والحدائق.

يُفتن دارا وسارا بالصحون الذهبية، والأذرع المرصّعة بالجواهر،

والكلمات المنقوشة، والحلي الذهبية التي يعود عمرها إلى ما لا يقل عن ألفي سنة. يحدّقان بصمت في كلّ قطعة وينسيان حديثهما.

ويصلان أخيراً إلى تمثال الرجل البرونزي. تمثال قائد من السلالة الفارسية الحاكمة. السلالة التي أحيت الإمبراطورية الفارسية بإسقاط الحكومة التي أنشأها الإسكندر بعد أن غزا بلاد فارس. الرجل البرونزي، بلونه البرونزي الغامض، بقامته التي تشبه قامة بطل، يرتدي بزة معدنية لا تزال تحمل حلي الزي الفارسي الأرستقراطي، يحدّق فيهما بعينيه الآريتين المميزتين. يقف واثقاً من وجوده الأبدي كما كانت تنتصب التماثيل في متحف بغداد قبل أن تُنهب وتُسلب. ممتلئة رهبة، تقف سارا محدّقة إلى عظمة ذلك التمثال. يهمس دارا بحزن:

«ذراعاه!».

ذراعا التمثال مقطوعتان عند الساعدين، لكن هيئته مهيبة جداً، لذلك يبدو أنه يحمل في يديه كلّ القوّة الكامنة في العالم.

تهمس سارا:

«هذا ما يدعونه الرجل الحقيقي».

«ماذا لديه؟».

«إذا وقع في الحبّ، فإنه يثق بحبّه».

«يداه. . .».

«نعم، يداه. . .».

«على الأقل ما زالت هذه لدينا. لقد سلب علماء الآثار الغربيون الأوغاد معظم كنوزنا القديمة، وهي تقبع حالياً في متاحف في لندن وباريس ونيويورك».

«ربما كان ذلك أفضل، على الأقل فهي في مكان آمن هناك، ولن يسرقها أحد».

تشير سارا إلى اختفاء أحد اللوحين الذهبيين الأثريين اللذين اكتشفا تحت أساسات القصر في بيرسيبوليس أثناء عمليات التنقيب. وكانت قصّة بناء بيرسيبوليس منقوشة عليهما، ولا يزال هناك واحد منهما فقط الآن في إيران. إن دفن القصة الموثّقة لبناء قصر داريوس تحت أساساته، حاكم إمبراطورية عظيمة في القرن الرابع قبل الميلاد، أمر يثير الفضول بحد ذاته. إذ يقال إنه في ذروة قوّته، أدرك داريوس بحكمة أن الغزاة سينهبون إمبراطوريته ذات يوم، وستأكلها النيران، فأخفى اللوحين اللذين اكتشفهما بروفسور يدعى إيرنست هيرزفيلد.

لكن هذا مجرد جزء من القصّة. ففي فترة ما، انتشر خبر اختفاء أحد اللوحين الذهبيين من متحف العصور القديمة في أرجاء بلدنا، وذكرت الصحف في ما بعد أنه تم إلقاء القبض على مدير المتحف الذي أدين بسرقته. وأفيد لاحقاً بأنّ اللصّ اعترف بأنه أذاب اللوح الذهبي وباع الذهب بمبلغ أربعة آلاف دولار.

لا أعرف ما هي مشاعر بني وطني، لكنني في قلبي، أتمنّى أنّ يكون هذا الاعتراف أكذوبة، وأن اللوح قد بيع إلى أحد تجّار الآثار الإيرانيين الذين لا يعدون ولا يحصون، وأن يكون قد أُخرج من البلاد، وأن يعود ويظهر بعد سنوات في إحدى المجموعات الخاصّة. بالنسبة لي، أنا الإيراني الذي يحبّ بلده، فإن ذلك أمل مرير، لكن من المحزن أنه أمل قد يكون صعب المنال أكثر من أي أمل آخر.

يقول دارا:

«إن هذا الرجل البرونزي رمز لنا نحن الإيرانيين... لقد قطع العالم أيدينا».

«لعلنا قطعناها نحن بأنفسنا».

«لا. إننا أمة عظيمة. إننا نملك ثقافة غنية».

«كنا».

«لا أريدك حقاً أن تكون معادياً لإيران. إذا بدأت تفكّر بهذه الطريقة، فإن الأمر سينتهي بك بأن تصبح واحداً من هؤلاء الإيرانيين الذين حققوا نجاحاً في هذا البلد، واستغلوا فرصهم، وعندما اشتهروا وأصبح لديهم اسم، ذهبوا إلى الغرب، ووضعوا أدمغتهم وطاقاتهم في خدمة الغربيين».

«ربما كان هذا البلد هو الذي أبعدهم».

«حتى لو كان ما تقوله صحيحاً، كان يجب أن يبقوا ويعلّموا هذا البلد أن لا يضحّي بالمفكرين فيه».

«هل قمت أنت نفسك بتعليم ذلك للإيرانيين؟».

«كيف يمكنني أن أعلّم أي إنسان شيئاً عندما ضربوني حتى قبل أن أصبح إبراهيم؟».

لست واثقاً إن كنتم ستفهمون الاستعارات الإيرانية في هذا الحوار. لكن كلّ ما يمكنني أن أقوله باستثناء الهجوم الأمريكي على إيران ـ الذي تؤججه وسائل الإعلام الأمريكية عندما تستنفد الأخبار العاجلة لديها ـ هناك مئات الهجمات الكبيرة الأخرى على إيران، وفي كلّ مرة تتعرض فيها إحدى إمبراطورياتنا للهزيمة، كانت بوابات قلاعها تُفتح لأعدائها من الداخل، من دون حصان طروادة. لا أقصد أنه يوجد في صفوفنا عدد كبير من الخونة، بل إن ما أقصد أن أقوله هو أنه يوجد في صفوفنا عدد لا يستهان به من الانتهازيين. فقد دفع هؤلاء الانتهازيون، بابتساماتهم البريئة، أفضل النسل الإيراني إلى الدمار ـ الأشخاص القادرين حقاً على إنقاذ البلاد من الهبوط أكثر إلى منحدر التخلف. وبعد اغتيالهم أو انتحارهم وهم في منفاهم في الغرب، لم ننبس نحن الإيرانيون الذين بقينا في البلد بكلمة واحدة، وحتى الذين استفادوا من الأعمال العادلة

والإصلاحية التي قام بها أولئك، لم يقولوا كلمة واحدة احتجاجاً، بل حاولوا في واقع الأمر تبرير ذلك بأنهم يستحقون موتهم أو انتحارهم.

هذا الموضوع معقّد بعض الشيء، ولسوء الحظ لا يتسع المقام هنا للحديث عنه في قصّة الحبّ التي أكتبها. لنذهب ونرَ سارا ودارا في المتحف.

سارا تسأل:

«هل تظن أن هذا الرجل البرونزي كان عاشقاً؟».

«لو لم يكن عاشقاً لما عاش ألفي سنة. لعلي سأتحوّل إلى تمثال من طين ثم أموت».

بعد أن غادرت سارا أمن جدران المتحف، اعتراها القلق ثانية. في هذه المناسبات، يبدأ العرق يتفصد من هذه الفتاة المسكينة وتبدو مقزّزة. يبدآن يراجعان بعض معلوماتهما الشخصية التي كانا قد حفظاها عن ظهر قلب إذا ما ألقي القبض عليهما وتم استجوابهما.

دارا يسأل:

«ما اسم عمّتي؟».

«رويا».

«وما اسم ابنها؟».

«روستام».

«وأين يقع بيتهما؟».

«في شارع الحرية».

«وكم عدد الغرف في بيتنا؟».

«غرفة جلوس في الطابق السفلي، وغرفتا نوم في الطابق العلوي».

«وما نوع الأزهار في حديقتنا؟».

«ياسمين».

«وما ماركة غسّالتنا؟».

لا تستطيع سارا أن تتذكر.

«فكّري! ستتذكّرين».

لا تستطيع سارا أن تتذكر. يستفزها دارا:

«إذاً كنت تكذبين عندما قلت إنك واحدة من الطالبات المتفوقات في الجامعة. أبهذه الطريقة كنت تحفظين دروسك عن ظهر قلب؟».

سارا تسأل:

«ما هي ماركتها؟».

«لا شيء. لا توجد عندنا غسّالة».

تتظاهر سارا بأنها غاضبة، وتلكز دارا بمرفقها. يعتريهما الخوف فجأة، يتطلعان حولهما ليتأكدا من أن أحداً لا يراقبهما.

ويبدآن يسيران الآن فوق الرصيف الضيّق الذي يعجّ بالناس في شارع لاليهزار. فالأرصفة هنا تعجّ دائماً بالناس. الدكاكين الصغيرة والباعة المتجولون، بسلعهم المفروشة على الأرض كلّ بضع أقدام، يجذبون الأشخاص من ذوي الدخل المحدود بالوسائل المحدودة وكذلك المتسكعين والعاطلين عن العمل.

الأهم من ذلك، بائعو السوق السوداء الذين يقفون منزوين يراقبون الزبائن. إنهم يتمتعون بحاسة سادسة غريبة ـ يحسدهم عليها الكتّاب ـ يمكنهم أن يعرفوا من وجوه عابري السبيل إن كانوا يبحثون عن بضاعة في السوق السوداء أم لا بمجرد نظرة، وإن كان الأمر كذلك، فإنهم يعرفون ما الذي يبحثون عنه بالتحديد. وبعد تحديد زبون معيّن، يهمسون في أذنه مثلاً وهو يمرّ من أمامهم:

«لقد وصل آخر ألبوم لأتاشباريه».

(وهي فتاة غير محتشمة تدعى كرة نار).
أو:
«رطب...؟».
أي مشروب كحولي. أو:
«جاف...؟».
الذي ربما يعني أفيون.
يمكن أن تتضمن قائمة سلع السوق السوداء الأشياء التالية:
- قسائم المواد التموينية. (تقوم الأسر المؤلفة من سبعة أفراد أو أكثر التي لا تستطيع أن تشتري المواد التموينية حتى بالأسعار الحكومية المخفّضة نسبياً ببيع قسائم هذه المواد في السوق السوداء كي تتمكن الأسر التي تملك نقوداً من استخدامها بالإضافة إلى القسائم التي لديها).
- سجائر أجنبية، مخدّرات، مشروبات كحولية.
- الأدوية التي يصعب إيجادها. (يعرف الأطباء الإيرانيون، مثل الدكتور نرهاد، أنه لا يمكن العثور على بعض الأدوية في الصيدليات. لذلك، لكي لا يجعلوا مرضاهم يضيعون وقتهم في البحث عن الدواء الذي يصفونه لهم، يخبرونهم أيضاً أين يمكنهم إيجاد الدواء في السوق السوداء للعثور على ذلك).
- أسطوانات «سي دي» وأشرطة كاسيت عن الموسيقى المحظورة، وخاصة موسيقى لوس أنجلوس. لا تسء فهمي، فأنا لا أقصد موسيقى الساحل الغربي الأمريكي، بل أشير إلى ذلك النوع الذي يسمّى البوب الإيراني والذي يُنتج بكميات كبيرة وبنوعية رديئة في لوس أنجلوس ويُهرَّب إلى إيران. وكان هذا المركز قد أقيم لإنتاج الموسيقى الإيرانية تحت أنف هوليوود، بعد الثورة الإسلامية. فقد بدأت مجموعة من المغنين الجيدين

والسيئين، والموسيقيين والملحنين وكتّاب الأغاني الذين هربوا سراً مع آلاف الإيرانيين الآخرين، أو هاجروا بطريقة غير قانونية إلى الولايات المتّحدة، بإنتاج هذا الضرب من الموسيقى في ولاية كاليفورنيا التي أضافت إلى سكانها خلال سنوات قليلة فقط مائة ألف إيراني. أما في إيران، حيث انخفض عدد السكان خلال السنوات الأولى بعد الثورة مليون نسمة (لكن بناء على توصيات من بعض المسؤولين الحكوميين، بدأوا يتكاثرون في الليل بحماسة شديدة وبلا هوادة للاستفادة من قسائم التموين الإضافية المخصصة للأسر المؤلفة من سبعة أفراد أو أكثر)، أُعلن عن تحريم الموسيقى. في ذلك الوقت، كانت محطات الإذاعة وقنوات التلفزيون الإيرانية تبثّ أناشيد ثوروية ليلاً ونهاراً. ومع ذلك، كانت هناك مجموعة صغيرة من الإيرانيين تتوق للاستماع إلى الموسيقى. لذلك، بدأ عدد من التجار ينسخون موسيقى لوس أنجلوس على أشرطة كاسيت ويبيعونها في السوق السوداء في إيران. ثم أضيفت إليها أقراص الـ «سي دي».

إن إيران واحد من البلدان القليلة جداً في العالم التي توجد فيها موسيقى وأفلام (وخاصة أفلام هوليوود) تفضّل سماعها ومشاهدتها شرائح معينة من المجتمع وتُنتج في الخارج وتُورّد إلى شواطئه من دون أن تستثمر برأسمالها، ومن دون تكبد تكاليف التأمين والشحن، ومن دون حقوق الطبع.

على الرصيف المزدحم في شارع لاليهزار، يرى دارا وسارا رجلاً يبدو أنه أعمى يتعثر بصندوق بائع التعاويذ والطلاسم السحرية على الرصيف. يقول البائع المتجول ساخراً:

«عندي تعاويذ لحلّ مشاكلك وآلامك... إنك حقاً رجل أعمى».

اجتازت سارا ودارا هذا الحوار، ووصلا أمام مسرح قديم مغلق. فقد

كانت مسرحيات إيرانية مثل خسرو وشيرين تعرض على خشبة هذا المسرح قبل الثورة بسنوات. أما الآن فقد ألصقت على أبواب المسرح القديمة إعلانات نعي عن أشخاص توفوا، وصور أشخاص مبتسمين مرشّحين لمجلس بلدية طهران، يدّعون جميعهم بأنهم سيجعلون إيران أقوى بلد في العالم، وإعلانات عن فصول دراسية تحضيرية لامتحانات القبول في الجامعة. عندما يمرّ دارا وسارا من أمام المسرح، يهمس شابّ لهما:

«وصلت نسخ من فيلم بروكباك ماونتن. خمسمائة تومان». يعتري خطوات دارا شيء من الوهن. تقول سارا:

«لا، إنه أمر محفوف بالخطر. لا تتوقّف».

يتبعهما الشابّ، وعندما يتجاوزهما يقرّب رأسه من أذن دارا ويهمس:

«عندي فيلم في غرفة النوم لممثلة المسلسلات التلفزيونية. اثنا عشر ألف تومان».

تتباطأ خطوات سارا ودارا ليجعلا مسافة بينهما وبين بائع السوق السوداء. تسأل سارا:

«ماذا لديه؟».

«أقذر فيلم في العالم. عشيق ممثلة تؤدي أدواراً في مسلسلات تلفزيونية إيرانية قام بتصويرها وهما يتضاجعان ووزّع الشريط».

«آه! تلك الفتاة المسكينة».

«نعم. تلك الفتاة المسكينة... لقد انتحرت».

سارا بضع دقائق صامتين. عند نهاية شارع لاليهزار، تسأله سارا:

«أرجو ألا تكون مثل ذلك العشيق».

~~كما لو كنا أنا وأنت نمارس الحبّ ليلاً ونهاراً~~. كما لو كنا أنا وأنت نقيم في غرفة واحدة ليلاً ونهاراً».

ثم أضاف دارا قائلاً:

«ولا حتى في أحلامي يمكن أن أسمح لنفسي بأن ألمسك».

في هذه اللحظة، يلتفت الشخصان اللذان يسيران جنباً إلى جنب مثل غريبين، ويحدّق أحدهما في عيني الآخر. وقد قرأ كل منهما في عيني الآخر كلمات كثيرة لا يمكن قولها وتصورها، كلمات تشي بأشواق ورغبات مكبوتة. ويرى كل منهما في عيني الآخر صوراً من كلمات محرّمة، كلمات مثل «قبلة» و«رمانة» و«حليب» و«عسل» و«محارة»...

من حسن الحظ، مع أن ذلك نادر، أنهما عندما كان أحدهما يحدّق في عينيّ الآخر، ويسيران على ذلك الرصيف، لم يجدا في طريقهما أحداً من البائعين المتجولين. ومع ذلك يبدو أن رغبة كبيرة تعيد إيقاظ المرارة والألم أيضاً.

يسألها دارا هازئاً:

«ما هي أخبار سعادته، الرجل المحترم الذي تقدّم لخطبتك؟».

«سعادته في حال جيدة. وماذا في ذلك؟».

«كيف يمكنك أن تكوني معي وفي الوقت نفسه تستطيعين أن تقودي ذلك الرجل».

سارا لا تجيب. الآن، بحسب الروايات الرومانسية، تملأ السماء الزرقاء الجميلة غيوم سود.

يسألها دارا ثانية:

فتجيب سارا:

كيف تمكنت من البقاء صامتاً عندما نزعوا غطاء رأسي بالقوة؟».

بهذه الكلمات تلقى دارا لكمة قوية على فمه.

سارا بصمت تام مدة سبع وثلاثين دقيقة كاملة إلى أن وصلا إلى حديقة عامة. بعينين محتقنتين بالدم، طلب دارا من سارا أن تشغل نفسها لبضع

دقائق بالنظر إلى واجهات المحلات على الجانب الآخر من الشارع إلى أن يذهب إلى مكان ما ويعود. ومع أن سارا تسأله مراراً عما حدث، لا يجيبها ويكتفي بالقول إنه في عجلة من أمره. ويهرع دارا إلى الحديقة العامة بسرعة، باحثاً عن دورة مياه.

لا، لا تسيئوا فهمي. في الواقع، كان دارا بحاجة لأن يتبوّل. كان يشعر بالحاجة لأن يتبوّل منذ أن كانا في المتحف، لكن تلك اللكمة التي وجهتها له سارا على فمه زادت الأمر سوءاً. وفي حالة الألم التي كاد أن يفقد فيها السيطرة على نفسه، وبكثير من الاعتذارات للأشخاص الواقفين في الرتل، هرع إلى إحدى المقصورات وأغلق على نفسه الباب الحديدي. وفي الجزء الأعلى من الباب، أقصد الثلث الأعلى من «قاعدة الأثلاث» في الفنون البصرية، أُحدثت فتحة كبيرة غير مستوية في المقصورة كي يمكن رؤية رأس الشخص الواقف داخل المقصورة إن كان يتبوّل أو يفعل شيئاً آخر، من الخارج. وفي إيران، يعتبر التبوّل واقفاً، من وجهة نظر دينية بحتة، أمراً غير لائق وكأن المرء يشارك في تصرفات يمكن أن تحدث في دورات المياه في الحانات والمراقص وعلب الليل في الغرب.

يعود دارا بعد أن يفرغ مثانته تماماً. ويجد سارا واقفة أمام واجهة محل يبيع فساتين زفاف على الطرف الآخر من الشارع. كان يوجد في واجهة المحل الكبيرة مانيكان أُلبست فستان زفاف جميلاً وفخماً. لا يوجد للمانيكان صدر بارز ولا رأس. وخلال هذه الدقائق القليلة فقط، أصبح وجه سارا حزيناً جداً.

تقول:

«لنذهب ونتسوّق».

«نتسوّق ماذا؟».

تشير سارا إلى الفستان.

«ماذا...؟ هل تعرفين أن هذه الفساتين غالية الثمن؟».

«كيف عرفت؟ كم مرّة تزوّجت؟».

«إني أستطيع أن أخمّن... والأكثر من ذلك، أنا... لكي أصدقك القول...».

«لا يوجد لديك نقود؟».

محرجاً، يهز دارا رأسه.

«لكننا لن نتسوّق حقاً. سنلعب. سندّعي أننا سنشتري».

يدخلان إلى المحل. تحيّيهما صاحبة المحل المتوسطة العمر، المتبرّجة على نحو يخالف معظم صاحبات المحلات الإيرانيات، بابتسامة.

مع أنه يمنع دخول الرجال إلى مثل هذه المحلات، لا تأبه صاحبة المحل كثيراً لوجود دارا الخجول والمضطرب. تسأل سارا:

«أأنتِ العروس؟».

«نعم».

«أوه! لم تدخل إلى محلي عروس على هذا القدر من الجمال منذ فترة من الزمن... ما الموديل الذي تحبينه؟».

تضع كاتالوغاً باللغة الإنكليزية أمام سارا. لقد وضع خط سحري أسود فوق جميع أجزاء جسد العارضة المكشوفة: الذراعين والساقين والشعر.

لا أحبّ أن أقاطع باستمرار سير الأحداث في قصّتي لكي أقدم لكم بعض التفسيرات. لكن يبدو أنه لا يوجد لدي خيار آخر. إذ يبدو بعض الأشياء وبعض التصرفات في إيران غريبة جداً، لذلك يصبح من المستحيل على القارئ غير الإيراني أن يفهم جيداً قصّة إيرانية من دون شيء من التوضيح. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه التوضيحات مهمة أيضا

للقرّاء الإيرانيين الشباب، لأنه منذ اليوم الذي فتحت فيه فتاة إيرانية في السادسة عشرة من عمرها مثلاً عينيها على العالم، لم تكن ترى إلا مجلات الأزياء التي تملأها هذه الخطوط السود السحرية وتظن أن جميع المجلات في العالم هي هكذا. لذا، يجب أن أقول:

لسنوات عديدة بعد الثورة، ظل استيراد المجلات الدورية والكتب الأجنبية إلى إيران محظوراً. ثمّ قررت الحكومة أن تسمح بانفتاح طفيف للاتصال المرئي للبلد مع العالم. لذلك أقامت قسماً خاصاً في جميع مكاتب الجمارك لمراقبة المطبوعات الغربية التي تدخل البلاد. ويقوم العاملون في هذا القسم بتصفح المجلات والجرائد التي يجلبها المسافرون معهم من الخارج، والتي يجب أن تمر عبر الجمارك مثل مجلة «بوردا» التي تلقى شعبية ورواجاً كبيرين في إيران ـ وينزعون منها الصفحات التي توجد فيها صور نساء عاريات الأطراف، ونساء لا يرتدين الزي الإسلامي اللائق، ويلقون بها في سلة المهملات. ومهما ناشد المسافر القلق وتوسل بأنه توجد على الصفحة المقابلة من الإعلان في مجلة نيويوركر أو نيوزويك أو ناشيونال جيوغرافيك مقالة مهمة، فإن أحداً لا يستمع إليه. تخيّل كم مائة ألف عارضة أزياء، وكم نجمة من نجمات هوليوود، وكم من نساء الإعلانات الجميلات أصبح مصيرهن في مستوعبات القمامة في المطارات في إيران. وفي فترة لاحقة، وبغية وقف هذه الإعدامات الجماعية، اخترعت أقسام الجمارك ذاتها تقنية جديدة، وهي عبارة عن شريط لاصق دبق جداً، لم يستوردوه من الصين لأن الصمغ فيه يكون ضعيفاً مثل البصاق، بل استوردوه من الغرب، وزودت به جميع مكاتب الجمارك بكميات كبيرة. وعندما يرى الموظف ذراعاً أو ساقين عاريتين، يضع الشريط اللاصق على الأطراف العارية، وبمهارة لا يمتلكها إلا إيراني

يتقن كل شيء، يقتلعه فيزيل الشريط اللاصق القوي تلك الأذرع أو السيقان من صفحة المجلة. لكن هذه الطريقة كانت مضيعة للوقت، وتجسّد عنفاً يكاد يكون قريباً من تصرفات خسرو تجاه زوجة أب شيرين في ليلة دخوله لإتمام الزواج. وفي جميع الأحوال، فقد طُرد الرجل من الجنة إلى الأرض ليضطر إلى أن يخترع ويستنبط إلى الأبد. وبعد فترة، اْختُرعت طريقة جديدة، وهي عملية تسويد هذه الأطراف بخطوط سود لا تُمحى. واستكملت هذه الطريقة عندما تم استيراد أقلام تخطيط من الخارج، ولم يعد في الإمكان أن يظهر خيال الصورة على الصفحة المقابلة.

يجب أن أعترف بأنني بعد سنوات من الشوق واللهفة لرؤية عدد جديد من مجلة نيويوركر، رحت أتصفح بنهم شديد عدداً أحضره صديق وصل مؤخراً من الخارج، وقبل أن أبدأ بقراءة القصّة القصيرة، دفعتني الرغبة لرؤية ما يقبع وراء الخط الأسود الذي يغطيها. رفعت الصفحة نحو الضوء، لكنني لم أتمكن من رؤية شيء من ساقي تلك العارضة المستلقية على أريكة، كما كان هناك خطان أسودان متصالبان تحت حاشية تنورتها على غرار اللوحات اليابانية المرسومة بالفرشاة. ولم يكن لديّ صبر لكي أحاول إزالة الحبر بالماء أو بمزيل طلاء الأظافر، لكن صديقاً لي يحبّ قراءة مجلة النيويوركر أيضاً قال لي إن الحبر الأسود لا يزول بواسطة الماء أو بمزيل طلاء الأظافر.

في السنوات القليلة الماضية، صدرت مجلات أزياء عديدة في إيران بسبب شدة ارتفاع الطلب عليها. وتُطبع في هذه المجلات صور آخر صيحات الموضة من باريس ونيويورك كما هي، لكن بدلاً من وجود عارضة أزياء ترتدي الثوب الذي تعرضه، لا ترى سوى امرأة مرسومة بقلم رصاص رفيع. وبالطبع تضع المرأة المرسومة بقلم رصاص غطاء على رأسها.

ويتخصّص البائع المتجول الذي يبيع الطلاسم والتعاويذ في طهران، بخلاف الشخصيات في الرسوم المتحركة الجميلة المرسومة بقلم رصاص، وبخلاف أي شيء نرسمه تنبض فيه الحياة، في تحويل جميع الأشياء الحقيقية إلى رسوم بقلم الرصاص.

لكن سارا لم تكن تتصفح مجلة «بوردا» التي يغطي صورها الحبر الأسود، وراحت تمثّل دور أكثر العرائس جدية في العالم، وتقول:

«نزمع أن نعقد قراننا بعد خمسة أيام. أصدقك القول، لقد قررنا ذلك في آخر لحظة».

«أتقصدين أن السيد العريس متحمس جداً؟».

«شيء من هذا القبيل... فبعد ليلة زفافنا بيوم سنغادر إلى باريس».

تفرك صاحبة المحل المتحمّسة يديها.

«هذا الشيء في غاية الرومانسية. شهر عسل في باريس. لا شيء يعادل ذلك... ومع مثل هذا الرجل الوسيم... إنك ستشرقين في باريس».

تشير سارا إلى الفستان الذي ترتديه المانيكان في واجهة المحل.

«هل يمكنني أن أجرّب مثل هذا الفستان؟».

«في الحقيقة، عندنا فستان على مقاسك تماماً».

تتوجه سارا إلى غرفة قياس الثياب. هذه فرصة مثالية لكي يتذوق فيها دارا طعم ردّ سارا السريع اللاذع. حسناً، ومثل العديد من الرجال الإيرانيين المثقفين، ينتاب دارا لا شعورياً شعور بالخجل بسبب عجزه وعدم كفاءته، عندما أُرغمت الأمهات والأخوات والزوجات، بعد الثورة، بالقوة ويغرز دبابيس على جباههن، على وضع غطاء على رؤوسهن وعلى ارتداء الشادور، وسنة بعد أخرى، سُلبت منهن حقوقهن الإنسانية. وفي هذه اللحظة بالذات، هوت صفعة أحدثت طنيناً ذا إلهام

سياسي على أذنه. اكتشف دارا أنه طوال تلك السنوات التي كان يكافح فيها هو وجيله لتحقيق مدينة طوباوية في إيران، كانوا مخطئين، وكان عليهم أن يكافحوا لتحصيل هذا الحقّ الصغير والأساسي من حقوق الإنسان.

أتساءل هل هذا هو الاكتشاف الذي اكتشفه دارا بنفسه أم لا، عندما، ~~بشيء من الغزل~~، تلفتت صاحبة المحل إلى دارا وقالت له:

«سيدي! هل تدرك كم أن عروسك جميلة وجذّابة؟».

محرجاً، يهمهم دارا شيئاً. تشير إليه صاحبة المحل وتضحك:

«أووا منذ فترة طويلة لم يدخل محلي عريس خجول مثلك. يا لك من عروس محظوظة... ~~لنر... هل تعرف ماذا تفعل في ليلة عرسك؟».~~

أخذ العرق ينضح من جميع مسامات دارا. ~~تمعن صاحبة المحل النظر في دارا. تقترب منه، مدركة أنها بذلك ترسل نفحة من آخر عطر شانيل إلى منخريه، وتبدأ تعبث بالزر الأعلى في شادورها.~~

~~إذا اشترت عروسك من محلي، كمكافأة، تعال إلى هنا وحدك يوم زفافك. عندي حبوب أمريكية سحرية. سأعطيك حفنة منها، وأعدك أنه في ليلة زفافك، لن يخذلك سنبلك ولا للحظة واحدة... هل سمعت بالفياغرا؟».~~

كما خمّنتم فإن كلمة «سُنْبُل» كلمة فارسية عامية تعني العضو الذكري، لكنها في حقيقة الأمر، تعني زهرة السُنْبل البري أو زهرة الياقوتية. الآن، بدأت أعرف أن معظم العلماء الغربيين لا يخترعون إلا الأشياء التي يحتاجون إليها في بلادهم، وفي هذه اللحظة، لو لم يتملك دارا الخرس من شدة الحرج، أو لو كنت معه في المحل، لقلت للسيدة صاحبة المحل:

أولاً، إن معظمنا، نحن الرجال الإيرانيين، لسنا بحاجة إلى الفياغرا، بل نحتاج في حقيقة الأمر إلى حبوب تخلصنا من سنابلنا المتصبة باستمرار،

لكي نتمكن أخيراً من الالتفات لإنجاز بعض الأعمال المهمة بسلام، لذلك، يحتاج شعبنا حقاً إلى اختراع من هذا النوع من الحبوب. مثل حبّة تسجّل في ذاكرتنا معزوفة غربية رائعة مثل «لورد جين»، أو حبّة تحفّز على فهم فنّ كاندينسكي التجريدي، أو حبّة تغرس فهم النتائج الفلسفية لنظرية آينشتاين عن النسبية، أو فيزياء الكمّ في عقولنا، نحن، سكان الشرق الأوسط، ولكي نصبح أقل عقائديين. أو حبّة يمكن أن تنزّل ذكاء السيد مايكروسوفت في عقول شبابنا العبقرية ليفهموا أنهم يستطيعون أن يطوّروا برامج تفكّ الشيفرات القديمة في أدمغتنا، نحن الإيرانيين، بدلاً من أن يستنبطوا وسائل لفكّ شيفرات برامج مايكروسوفت.

سارا، مرتدية واحداً من أجمل فساتين الزفاف الإيرانية، تخرج من غرفة قياس الثياب. بغنج تمتلكه جميع النساء، ومع أنها تعرف تماماً الرد على سؤالها، تهز ردفيها بغنج، تسأل دارا:

«ما رأيك؟».

إنها المرة الأولى التي يرى فيها دارا سارا وهي ترتدي أي شيء غير الشادور.

لو كنتَ في هذه اللحظة بالذات في مكان دارا، تواجه كلّ هذا الجمال المحرّم الذي يكسوه هذا الفستان الرائع، ما الجملة التي ستقولها عندما تقع عيناك لأول مرة على كتفي محبوبتك العاريتين والشق القابع وسط أزهار الدانتيل المخرّمة؟

لا تخرج كلمات من فم دارا، بل بروح يحدّق بوجل ورهبة. تستدير سارا لتواجه المرآة الكبيرة. رأيا الآن نفسيهما جنباً إلى جنب. اكتشف دارا أن ثيابه قبيحة ورثّة. يسحب نفسه خارج انعكاس المرآة.

أضواء المحل تعكس بشرة سارا النضرة والمتلألئة. يشعر دارا أن حمّى

تعريه وتبدأ حبات العرق تتقاطر أسفل عموده الفقري. تجتاحه رغبة عارمة لأن يمدّ يده ويلمس هاتين الكتفين. لمسة رقيقة مرهفة، بأطراف أصابعه المرتعشة، مسموح لها أن تتحرك فوق الحدود الخارجية لتلك البشرة.

سارا تقول:

«تعال، خذ يدي لنتمشى مثل عروس وعريس». في المرآة، يراقبان مشيتهما الجميلة معاً. ثمّ تمسّد سارا طيّات الفستان الساتان على صدرها وبطنها وتصبح عيناها أسيرتين للنظرة المشتاقة في عيني دارا.

إن ما يقولونه بأن لغة العيون أكثر تأثيراً وعمقاً من تأثير الكلمات المنطوقة ليس صحيحاً دائماً وفي جميع الأوقات. فذلك يتوقف على الشخص وعلى الظروف المحيطة بنا. ففي ليلة ربيعية، يمكن أن تجد نفسك في مطعم رومانسي في قلب باريس حيث يمكنك أن ترى سنبل إيفل من النافذة بجانبك، قد تجد نفسك مع امرأة مهذارة، أو مع رجل متعجرف، لا يكف عن التحدّث عن مفاخره المالية الرائعة، وبينما يلمع ضوء الشموع في عينيك المتلهّفتين الجميلتين، تنظر في عيني شريكك، وفي تلك العينين، لا تقرأ شيئاً سوى الأشياء التي تخرج من فمه أو فمها.

أقصد إن كنت تريد أجواء رومانسية حقاً، بدلاً من باريس التي تبيع كل شيء، حتى ذكريات مونبارناس إلى السيّاح، تعال إلى طهران حيث تبدأ رومانسيتك البصرية في اللحظة التي تغادر فيها المطار.

إن الجانب الأكثر أهمية في حوار العيون هو سرعتها. فإن كنت بحاجة إلى ساعات من المحادثة حتى تصل إلى نهاية، يمكنك أن تتبادل جميع تلك الكلمات في حوار لمدة دقيقة واحدة بين العيون، ويمكن للرجل والمرأة أن يمسك أحدهما بيد الآخر، منافسين مشهداً نهائياً من أحد أفلام شارلي شابلن، ويسيران بسرعة ومرح في الشارع نحو أفق متلألئ باتجاه نقطتهما وهدفهما.

لذلك، في حوار عينيهما، تقول سارا:

قرّرا هل لديك الشجاعة لأن تقول إنك تريدني أم لا؟

ينسى دارا كلّ المبادئ الدينية والأخلاقية، والمبادئ الأخلاقية الإيديولوجية التي حُشرت في رأسه منذ طفولته وبعينيه يئن:

نعم. نعم. أريدك.

ماذا تعني «أريدك»؟

أقصد أريد أن أقبّلك.

هل قبّلت أحداً من قبل؟

لا.

ولا أنا... لا يهمّ، سنمارس مع بعضنا البعض. بالتأكيد... ثم أريد أن أشمّك. سأبدأ بشعرك

وأهبط إلى أصابع قدميك. سأشمّك وأقبّلك.

ثمّ؟

ثمّ يمكن أن أهوي هناك تماماً وأموت عند قدميك.

لا. لا يسمح لك ذلك. يمكنك أن تموت في أي وقت تريد إلا في تلك اللحظة... ثمّ ماذا ستفعل؟

ماذا ستفعلين؟

سأتنهّد.

إذاً تنهدي وسألتهِمُ تنهيدتك.

هل احتسيت مشروباً كحولياً في حياتك؟

نعم. إنه يساعدني على أن أكون جريئاً لأفعل ما أريد أن أفعله معك.

لا. لا تفعل. لا يُسمح لك بأن تشرب، لأنك لن تتمكن من رؤيتي بوضوح وبعدها ستغطّ في النوم.

سأشرب.

إذاً سأرسل لك امرأة عجوزاً لتحلّ مكاني.

امرأة عجوز؟

إنك غبي جداً... ألم تقرأ خسرو وشيرين؟

نسيت.

على أي حال... لا يُسمح لك بأن تسكر.

سأسكر لكي أراك اثنتين. سأجعل سارا تستلقي على ظهرها وسأجعل سارا الأخرى تستلقي على بطنها.

ثمّ؟

ثمّ بيد سأداعب مقدمة ربلة ساقك وباليد الأخرى سأداعب مؤخرة ربلة ساقك، وسأحرّك يدي إلى الأعلى.

سارا تتنهد.

تستمر يدي في الانزلاق إلى الأعلى.

من أعماق روحها تطلق سارا تنهيدة تشي برغبة عمرها ألف سنة وسنة.

ثمّ ستفعل؟

سارا، أنا خائف.

سأمنحك حليباً من ثديي لكي تكبر ولا تعود تخاف.

سأكبر على جسدك. في تلك اللحظة النهائية من المتعة، ستضغطين بفخذيك حول خاصرتي، وستنفصلين إلى شقين.

إذن هيا، عجّل وافعل شيئاً.

هنا؟

لا، أيها الغبي... جد مكاناً.

لكنني لست غبياً. لا يوجد عندي مخبأ من أجل علاقاتي المؤقّتة والطائشة.

ابحث عن مكان نستطيع أن نكون فيه وحدنا من دون خوف.

نعم، قلت إن حوار العيون يتطوّر بسرعة، لكن ليس بهذه السرعة. ولقول كلّ هذه الجمل، أشكّ في أن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق من دون أن ترّف العينان لكي لا تقطع سيل النظرات بالفواصل.

تقاطع صاحبة المحل التي اعتراها الملل الآن جدوليهما وتوقف تدفّقهما من عينيهما بسعال، وتقول:

«الآنسة العروس! السيد العريس! . . . هل قررتما؟ هل تريدان الفستان؟».

تغمز سارا دارا بعينها وتضحك.

«لقد أعجبني، لكن مما أراه في عينيّ الجنتلمان، يبدو أن الفستان لم يعجبه. إنه يفضل أن أخلعه».

يقول دارا بجهل:

«لا، أعجبني. إنه لطيف جداً».

وعلى نحو خجول يحاول أن يحفظ عن ظهر قلب كلّ تفصيل من تفاصيل صورة سارا وهي ترتدي ذلك الفستان.

تقول صاحبة المحل:

«يبدو أن الفستان قد صُنع خصيصاً لك. إنه حقاً يناسبك يا فتاتي».

«كم ثمنه؟».

عندما سمع ثمن الفستان، اعترى دارا الذهول. إذ يمكنه أن يعيش في بحبوحة بذلك المبلغ لمدة ثلاث سنوات.

سألت سارا:

«لماذا ثمنه غال كثيراً؟».

«إنه من باريس».

«السعر غير مهمّ. فالجنتلمان سيدفع ثمنه... لكن...».
بحثت سارا عن عذر لتنهي اللعبة. لا يأتيها عون من دارا.
«لكن ماذا...؟».
«أريد أن أفكر في الموضوع الليلة... هل هناك مشكلة؟».
صاحبة المحل، التي تشعر بالارتياب الآن، تقول بتجهم:
«ما المشكلة التي يمكن أن تكون هناك، يا آنسة؟».
«إن قرّرت أن أشتريه، هل ستعطيني تخفيضاً؟».
«إن كنتِ ستشترينه، سأعطيك تخفيضاً».
خارج المحل، تقول سارا:
«كنتَ على وشك أن تصاب بنوبة قلبية! أنت الذي تدّعي بأنك خبير في السينما، بعد كلّ تلك الأفلام التي رأيتها، ألم تستطع أن تمثّل قليلاً؟».

العرب قادمون

«سأعدّ الشاي هذه الليلة»، تقول سارا لأمّها وهي تضع الغلاية على الموقد في المطبخ. وفي الساعة العاشرة من كلّ ليلة، يغطّ أبوها، الموظف المتقاعد من وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، في النوم، فاغر الفم، أمام جهاز التلفزيون في غرفة الجلوس. ولاحتساء هذا الشاي الليلي، توجد لدى الأمّ وابنتها طقوسهما الخاصة. إذ تضعان أوراق الشاي في إبريق الشاي، وتضيفان بضع بتلات من زهر النارنج المجفّف من شيراز لتفوح منه رائحة عطرة، وبعد أن تصبا ماء حاراً من الغلاية، ترفعان الغطاء عنها وتضعان إبريق الشاي فوقها لكي يتخمّر الشاي بهدوء بالبخار المتصاعد من الغلاية. وتعبق رائحة عطر الشاي وزهر النارنج في أرجاء البيت الذي يغطّ رجله في النوم. وتجلس المرأتان إلى طاولة المطبخ لاحتساء الشاي من كأسي شاي صغيرتين ضيقتين عند وسطهما، وتستمع سارا لثرثرة أمّها. ومثل الكثيرات من الشابات الإيرانيات، لا تبوح سارا بالكثير من أرائها لأمّها، لكنها في هذه الليلة، راحت تبحث عن عذر لتطرح سؤالاً مهماً عن مستقبلها. فبعد ظهر هذا اليوم، وبعد تلعثم وعذاب دام نصف ساعة على الهاتف، سألها دارا أخيراً:

«لقد أردت أن أسأل هل تظنين... هل من المحتمل... أعرف أن سندباد ـ سندباد الثري ـ قد طلب يدك، لكن... أقصد... هل توافقين

على أن تتزوجيني ذات يوم؟».

وبدلاً من أن تجيبه سارا بجدّية، قالت مازحة: «إذاً تريد أن تقع في تلك المصيدة؟». يشخر والد سارا المتبلد الذهن في نومه. وبينما تثرثر أمّها عن زوجة جارهم التي يبدو أن زوجها قد ضربها ضرباً مبرحاً للمرة الثانية لأنها تحدثت قليلاً مع الرجل الذي يقيم في البيت المجاور، تبتسم وتقول:

«أبوك المسكين منهك اليوم. لقد خرج من البيت هذا الصباح مدعياً بأنه سيذهب ليسوّي المشكلة المتعلقة براتبه التقاعدي. لكنني متأكّدة من أنه ذهب لرؤية صديقه حاجي كريم ودخّن معه الأفيون. إن رائحة الأفيون تنبعث من أنفاسه. لم تكن لديّ الرغبة لأفسد مزاجه الجيد هذه الليلة، لكنني سألقنه درساً غداً».

«دعيه وشأنه. هل لدى أبي المسكين متعة أخرى غير هذه في حياته؟ دعيه يستمتع بذلك مرّة كلّ بضعة أشهر».

« مع كل متاعبنا المالية، فإن آخر شيء نحتاجه هو أن ينتهي الأمر بأن يصبح أبوك مدمناً على الأفيون. ألا تنتبهين لهذا الأمر يا بنت؟ يوماً بعد يوم، تزداد الأشياء غلاء، ويظل راتب أبيك التقاعدي الضئيل نفسه».

يأخذ الحديث منحى لا تريده سارا. والآن، ستبدأ أمّها تتحدث عن أعمالها المنزلية الشاقة اليومية وستكرّر للمرة الثانية كيف أنها تفعل المعجزات بمهارة وتضحية كبيرتين، وكيف أنها تدير شؤون البيت بتدبير واقتصاد براتب أبيها التقاعدي الضئيل. لكن ما إن تبدأ، حتى يهبّ صرّار الليل المختبئ في البيت منذ فترة طويلة إلى نجدة سارا.

تلتفت المرأتان نحو والد سارا. يبدو أن صوت صرّار الليل يأتي من فمه الفاغر. تخلع الأمّ فردة نعلها. مدججة بسلاحها، وبصوت مثقل بالعداء، والتعطش للدم، تقول:

«لقد وجدته أخيراً!».

وتتحرّك بهدوء قريباً من والد سارا.

لكن سارا تعرف أن صرّار الليل ليس هناك. فخلال أيام الأسبوع الماضي ولياليه، عندما كان صوت صرّار الليل يزعجهما، كانتا تتبعان صوته من غرفة إلى غرفة، وفي كلّ مرّة تصلان إلى البقعة التي تظنان أنه مختبئ فيها، كانتا تسمعانه يصدح في ركن آخر من البيت.

ممسكة بالنعل بيدها، ومستاءة، تعود أمّ سارا.

«هل كنت حقاً ستضربين أبي على فمه بنعلك؟».

«إن عدد المدمنين على الأفيون الذين يشخرون آخذ في الازدياد في هذا البلد، ولن أفاجأ إذا دخل صرّار الليل في فمه أيضاً».

«لكنني أظن أنك تحبين أبي، أليس كذلك؟».

دُهشت أمّها.

«أحبّه؟ لماذا تسألين؟».

«لا يوجد سبب. هل كنت تحبين أبي عندما تزوّجتما؟».

«لا. كان أبوك ثاني رجل يطلب يدي للزواج، وكنت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمري، وبدأت أصبح عانساً، لذلك قبلته بسرعة».

تتخيّل سارا المراسم التي جرت عندما طلب أبوها يد أمّها. إذ ترى أباها شاباً، خجولاً، جالساً على كرسي بولوني في غرفة جلوس بيت قديم. وإلى جانبه، يجلس أبوه وأمّه، ويجلس أمامهما أبوها وأمّها، وهما أكثر تجهّماً، ويحدد واحدهما تلو الآخر شروط الزواج من ابنتهما. ثم يساوم والد وأمّ أبيها، الواحد تلو الآخر، على الشروط، راجيين أن يخفضا المبلغ الذي يتوجب دفعه للأبوين مهراً للعروس وصداقها. وفي لحظة معينة، تحددها والدة الأم، تدخل أمّها إلى الغرفة حاملة صينية عليها

كؤوس الشاي الصغيرة. عيناها مطرقتان وخجولة أكثر من أبيها، ويداها ترتعشان، فينسكب الشاي، وتصبح رعشة يديها أكثر وضوحاً وهي تحمل الصينية أمام عريس المستقبل، وبدلال يشوبه شيء من التوتر والعصبية تقول: «تفضل الشاي»؛ ويتناول العريس، بيدين مرتعشتين، كأس الشاي وطبقه، ويختلس نظرة خاطفة إلى وجه العروس التي اختارتها أمّه له. ومن الصور القليلة الموجودة عند أمّها في شبابها، تعرف سارا أنها حتى في تلك الأيام، لم تكن تمتلك أيّ نقطة جمال معيّنة. لكنها تقول لها:

«كنتِ في الثالثة والعشرين من عمرك فقط وجميلة جداً، لماذا تقولين إنك كنت عانساً؟».

«نعم، كنت جميلة جداً. لكن في تلك الأيام، إذا لم تتزوّج الفتاة عندما تبلغ العشرين من عمرها، كانت تُعتبر عانساً ويظن الجميع أن فيها علة ما، لذلك لا يتقدم أحد لطلب يدها».

«لكن أخبريني الحقيقة، هل حدث وان أحببت؟».

تنظر الأمّ إلى سارا مندهشة، ثم، كما لو أنّ حزناً قديماً وبعيداً قد صحا ثانية في قلبها، تنظر إلى زوجها.

«أرجوك لا تخجلي يا أمّي. أخبريني. أنا ابنتك. أخبريني... لا بد أنك وقعتِ في الحبّ ذات مرة».

الأمّ، متوترة خشية أن يفيق زوجها ويسمعهما، لا تبعد عينيها عنه وتومئ برأسها مترددة.

«من هو؟ أحد أقربائك؟».

تهزّ الأم رأسها.

«هل كان ابن الجيران؟».

تومئ برأسها.

«هل كان يحبك؟».

تخفض الأمّ صوتها وتقول بكآبة شديدة:

«لم يكن يعرف. كان ينسلّ خارج بيتهم في الليل ويدخّن في الشارع لكي لا يراه والداه. كنت أراه من النافذة. وكان المسكين يضطر دائماً لأن يطفئ سيجارته بعد أن يأخذ نفسين أو ثلاثة، لأن جاراً كان يظهر دائماً في الزقاق».

«لماذا لم تحاولي أن ترسلي له رسالة ليعرف أنك تحبينه؟».

«لم تكن هناك فائدة من ذلك. كانت أوضاعهم المالية... حسناً، كانت سيئة للغاية. كان أبوه يحفر آباراً، وكان يجب أن يترك المدرسة بعد الصف التاسع ليساعد أباه».

«ألا تندمين لأنك لم تتزوّجيه فقط لأنه كان فقيراً؟».

تجاعيد الحزن، التي اكتشفتها سارا آنذاك فقط، تضاعفت على وجه أمّها.

«لا. كان أبوك موظفاً في الحكومة. في تلك الأيام، بخلاف أيامنا هذه، كانت الوظيفة في الحكومة امتيازاً عظيماً - دخل جيد وثابت، ومركز اجتماعي... وبعد بضع سنوات من زواجنا، سمعت أن المسكين قد غرق في بئر كان يحفرها».

«ماذا تقولين لو وقعت في حبّ شخص مثل حالتك وأردت أن أتزوج منه؟».

يصبح بالإمكان سماع زفزقة صرّار الليل الآن من جميع زوايا البيت. الأمّ، مندهشة، تحدّق في سارا. التجاعيد على وجهها تصرخ لا...!

قولي لي الصدق يا بنت! هل ارتكبت مثل هذا الخطأ؟».

لتهدئ من روعها، تضحك سارا وتقول:

«لا، يا أمي. لقد قلت لك. لكن أخبريني ماذا تشعرين حقاً في أعماق قلبك. ماذا ستفعلين إن وقعت أنا في حبّ رجل مفلس؟».

«لن أغفر لك في حياتي. لديك خاطب غني ووسيم وبارز تتمناه فتيات كثيرات. لا تحطّمي حظّك. لا تدمري نفسك وتدمرينا. لقد وعد خطيبك أباك بوظيفة مريحة براتب جيد. وأنت تعرفين أنه إذا استمرت الأوضاع في هذا البلد بهذا الشكل، فإننا سنضطر أنا وأبوك في السنة القادمة لأن نخرج ونشحد في الشوارع. لن أسامحك ما حييت. سأقف يوم القيامة في طريقك وسأقول لله إن هذه الفتاة ـ أنت ـ دمرت نفسها ودمرتنا».

تبدأ الدموع تتدفّق من عيني أمها. وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة، تقبّل سارا أمّها على جبينها وتقول:

«لكنك يا أمّي، لم تذوقي في حياتك طعم السعادة. ربما لو كنت قد تزوّجت ذلك الفتى... لا أعرف... ربما... إن قصّتك واحدة من حكايات الفقر القديمة، أخمّن أن الحبّ... لكنني كنت أمزح فقط. أرجوك لا تقلقي».

لا تزال الأمّ تنظر إلى سارا بعينين مليئتين بالشكّ والقلق. تهزّ كأس الشاي في يدها، لكن لم يتبق فيها شاي كي ينسكب. يستيقظ الأبّ مجفلاً. وكدأبه، يغيّر قناة التلفزيون بسرعة، وقبل أن يعرف ما هو البرنامج، يعود ويغطّ في النوم ويبدأ يشخر، وكأن صرّار الليل قد علق في حنجرته.

في هذا البرنامج التلفزيوني، مثل معظم البرامج التلفزيونية في إيران، كان رجل دين يلقي محاضرة عن أركان الإسلام.

«طلب الأطباء في مكتب الطبيب الشرعي فتوى من رئيس الهيئة القضائية بشأن الحالات التي يحكم فيها القاضي بقطع يد شخص سرق ثلاث

مرات. هل يمكنهم، عند تنفيذ الحكم، أن يحقنوا المتهم بعقار مخدر لكي لا يشعر بالألم؟ وكان ردّ رئيس الهيئة القضائية المبجل بالنفي، لأن الإسلام يقرّ بأنه يجب على المدان أن يتألم ويعاني لما اقترفته يداه. لذلك، سيداتي سادتي، اعلموا أنكم إذا سرقتم ثلاث مرات، فإن يدكم سُتقطع. وإذا فقأ أحدكم أثناء خلاف عين أحدهم، سيكون العقاب أن تُفقأ عينك. وإذا، لا سمح الله، تشاجرت مع شخص وآذيت خصيته اليمنى، يجب أن تعوّضه عن ذلك بأربعين جملاً، وإذا آذيت خصيته اليسرى، فيجب أن تعوّضه بخمسين جملاً. لماذا؟ لماذا التعويض عن الخصية اليسرى أكبر من التعويض عن الخصية اليمنى؟ لأن القصص المقدّسة تقول إن الطفل يولد من خصية الرجل اليسرى...».

تترك سارا أمّها القلقة من دون دواء مهدئ وتعود إلى غرفتها في الطابق الثاني. تزيح الستائر قليلاً وترفع بصرها وتحدّق في البدر الذي يشرق من أجل جميع العشاق السعداء والأحبة الذين تمتلئ أعينهم بالدموع. إنها واثقة الآن من أن صرّار الليل مختبئ في مكان ما في غرفتها. تهمس:

«دارا، أيها الوغد! لقد تركت صرّار الليل هذا يدخل إلى بيتنا».

والقمر يضيء بسخاء، وإلى الأبد، من أجل جميع العشاق، لكلّ صراصير الليل، الجمال، الخصي المقتلعة، القبلات، الأذرع والسيقان المبتورة، والعيون، من دون تمييز أو تحيّز.

سارا، تتطلع من النافذة التي أمضت بجانبها ساعات عديدة منتظرة ظهور دارا، وبمشهد الشارع القديم نفسه، والرصيف على جانبه البعيد، تفكّر بمستقبلها. تعرف بكلّ كيانها أنها لن تكرر حياة أمّها، وأنها لن تدع شبابها وأحلامها يتبدّدان في المطبخ لإشباع الطموح بأن تقدم الطعام لأسرتها على أفضل وجه، وأن ينحصر طموحها وعملها كله في أفق

المطبخ. ربما كان دافعها القوي للتغيير، ولاكتساب الجمال والسعادة هي غطاء الرأس الذي ثُبّت على رأسها بالقوة.

لم تتمكن سارا حتى الآن من أن تحسم أمرها. فكلما فكّرت بالزواج من دارا، تبزغ أمام عينيها جميع الصعوبات المالية والسياسية التي تنتظرها، لذلك بدأت تفكّر بسندباد، وبجميع المساعدات التي يمكن أن يقدمها هذا الرجل إلى أسرتها، والأكثر من ذلك، بدأت ترى في نفسها قوّة عظيمة بقوة قنبلة نووية إيرانية لتغيير هذا الرجل، لكي تعيد صوغه وفق أهوائها. وترى نفسها معه في العواصم الأوروبية، تثمل من الأشياء الجميلة والمبهجة التي تنتظرها هناك، جميع الأشياء التي تعرف أنها تستطيع أن تحصل عليها بالمال وبالحرية الغربية. ترى نفسها ترتدي أكثر الفساتين الباريسية أناقة وترتاد المقاهي والمطاعم التي رأتها في الأفلام المهرّبة والتي تتوق لزيارتها، وترى إعجاب الرجال بجمالها الشرقي غير المقيّد بسلاسل، وترى كيف أنها تغريهم من نظراتهم المتلهفة وهي في قمة جمالها وتألقها. وترى نفسها مرتدية بيكيني مثيراً ـ شيئاً لم تجرّبه في حياتها ـ متمددة فوق الرمال الذهبية على شاطئ غير إسلامي، وتشعر ببهجة حبات الرمل تلامس عمودها الفقري، مستسلمة لثقل ردفيها المستديرتين، وفي صدرها، تستسلم للإحساس الجميل عندما تتسلل أشعة الشمس بين نهديها. وطوال الوقت، ومن طرف عينها، ترى ذكور القطط ذوي البشرات التي لوّحتها الشمس يعرضون عضلات بطونهم الستّ ذات التقاطيع المتينة، وتجد متعة في تجاهلهم... لكنها ترى فجأة وجه دارا الجميل. تتخيّل نفسها معه في غرفة مستأجرة بسيطة مليئة بالمتع والرغبات التي لا يستطيع أن يكتشفها إلا العشاق الحقيقيون، ومفعمة بالأشياء التي لا يستطيع إلا الحبّ أن يلهم بها في الليل وفي الصباح بعده.

تهز سارا كتفيها باستهجان وتهمس:

«كيف لي أن أعرف ماذا يجب أن أفعل؟ أيهما؟ لا أعرف. يجب أن أكتشف أيّ واحد منهما يريدني أكثر. سأفكّر في الموضوع غداً... غداً...».

سواء كانت ترى أو لا ترى من نافذة غرفتها، جيش من العرب يتقدّم في الشارع. لقد انطلقوا قبل ألف وأربعمائة سنة، وبعد أن فتحوا عاصمة الإمبراطورية الساسانية، توجهوا لاحتلال أرض خراسان الغنية، آخر إقليم في إيران. دشداشاتهم البيض وسيوفهم المستلة المعقوفة تلمع بوهج يشبه ضوء النيون في الضوء الفضّي في هذه الليلة المقمرة.

سداة[1] الوردة الجورية

في هذه الليلة بالذات، وفي غرفة الجلوس الصغيرة في بيتهما، يجلس دارا إلى جانب أمّه على أريكة عمرها ثلاثون سنة، ويبدو أنهما يشاهدان مسلسلاً إيرانياً على شاشة التلفزيون. تحبّ أمّه كثيراً هذه المسلسلات الميلودرامية. وخلال المشاهد التي تبكي فيها الأمّ أو الزوجة أو الأخت، تبكي هي أيضاً على الفور، وتلقي نظرة على ابنها ودموعها تتدفق من عينيها كالجداول.

لكن دارا، وبعد ربع قرن من مشاهدة هذه الأفلام الإسلامية التي تظهر فيها الأمهات والزوجات والأخوات في حجبهن، حتى وهنّ في بيوتهن، لم يتمكن من التعوّد عليها، ويرى أنها سطحية وضحلة ومهينة لعقل المشاهد. ينظر إلى أمّه ويرى شعرها الأشيب الذي يلمع سواداً وبياضاً في البيت، ثم ينظر إلى الممثلة في الفيلم التي لن يصعد زوجها إلى سريرها، مع أن الأحداث في القصة ترسلها إلى الفراش.

خفّضت أمّ دارا صوت التلفزيون قدر ما أمكنها لأن صوته يثير غضب والد دارا، إلى حد يجعله يصرخ من قلعته فجأة:

---

(١) العضو الذكر في الزهرة ـ م.

«أغلقوا فم هذه الأكاذيب! يا سيدتي، لماذا لا تفهمين؟ إن هذه الأشياء ستزيدك غباء. . . أخرسوها».

والد دارا شيوعي مهزوم. وأعرف أنكم في هذه المرحلة من القصّة لا تحتاجون لأن تسألوا ما معنى «شيوعي مهزوم». أعرف أنكم تعرفون أفضل مني، لكنكم لا تعرفون قصّة هذا الرجل. إذاً اسألوني، لأحاول أن أخبركم، مثل شهرزاد الحكواتية.

كان والد دارا شيوعياً حتى قبل ثورة ١٩٧٩، أي في أيام نظام الشاه. في تلك الأيام، كان موظفاً كبيراً في الجمارك في مطار مهر آباد الدولي، وكان يشغل منصباً مهماً، وكان بإمكانه، بقليل من الفساد الأخلاقي والمالي، أن يطلب رشاً كبيرة من مستوردي المنتجات الغربية لتخليص بضائعهم من الجمارك من دون تسديد الرسوم المطلوبة. لكن من أوضاع بيته، وهو الشيء الوحيد الذي تملكه الأسرة في ذلك الحيّ الفقير من أحياء طهران، يمكنكم أن تخمّنوا إلى أي صنف من الإيرانيين من آخذي الرشوة، ومن مقدمي الرشوة الذين يعتبرون أنفسهم أذكياء، ينتمي هذا الرجل.

وقبل اندلاع الثورة بسنتين، اكتشفت الشرطة السرّية أن والد دارا شيوعي، فاعتقلوه أمام زملائه واقتادوه إلى سجن إفين، أسوأ السجون سمعة في إيران، ويشبه سجن الباستيل لكنه يختلف عنه في شيئين مميزين. وبطريقة حديثة جداً، فإنه أشد رعباً وفظاعة من الباستيل، وبينما دخل الباستيل سجلات التاريخ وأُغلق بعد الثورة الفرنسية، توّسع سجن إفين في طهران بعد الثورة الإيرانية، وازداد عدد سجنائه السياسيين، وازداد تعذيبهم.

وعندما انتصرت الثورة، وعندما أُرغم الشاه بعينين مليئتين بالدموع على مغادرة البلاد، وعندما حطّم الثورويون أبواب السجن، وخرج والد دارا

من سجن إفين كبطل وطني، راح الناس يهتفون له، ورفعه أحد الإيرانيين المتحمسين على كتفيه، تماماً كما حمل الإيرانيون المتحمسون الآخرون السجناء الآخرين، وحملوه لمسافة طويلة. ولأنه لم يكن يملك نقوداً، اضطر للسير مسافة طويلة كي يعود إلى البيت. وبالطبع عانقته زوجته وابنه الصغير، واستقبلاه كبطل وطني أيضاً. وبعد مضي شهر، عاد والد دارا الذي كان لا يزال يُعتبر بطلاً وطنياً إلى وظيفته، إلى أن أُعتقل ثانية بعد ست سنوات لجريمة أنه شيوعي، وأعيد إلى سجن إفين. وأصبح سجن إفين بعد الثورة مختلفاً تماماً عما كان عليه قبل الثورة. حتى إنكم لا تستطيعون مقارنته بغوانتانامو. ففي هذا السجن، تمشياً مع القانون الدستوري للجمهورية الإسلامية، يُحرّم استخدام أي شكل من أشكال التعذيب، كما يحرّم الدستور أيّ شكل من أشكال الرقابة. لكن عندما يقرّر المحقق بأن السجين السياسي لم يعترف كما يجب، ويجد أن السجين مذنب بالكذب، وهي جريمة في الإسلام، يُحكم عليه بالجلد. وكان والد دارا قد مُنح في مناسبات عديدة شرف معاقبته بالجلد. لكن مشكلته أنه لم يكن لديه شيء يعترف به، لأنه كان مناصراً بسيطاً للحزب الشيوعي. وفي ليلة كلّ يوم جمعة، كان يجد منشوراً من منشورات الحزب أمام حديقة بيته الأمامية، وكانت مهمّته تنحصر في أن ينسخ المنشور بأي طريقة كانت، وأن يوزع نسخاً منه. وكان الخطأ الذي ارتكبه أنه كان يستخدم آلة النسخ في المكتب الذي يعمل فيه، وهي دائرة حكومية تابعة للجمهورية الإسلامية، لنسخ منشور الحزب الشيوعي، وكان يفعل ذلك في بلد لم يكن يمرّ فيه يوم واحد لا تجد في شوارعه مجموعة من المتظاهرين الذين يهتفون «الموت للشيوعيين الذين لا يؤمنون بوجود الله».

وبعد سقوط جدار برلين ببضعة أشهر، أُفرج عن والد دارا، لأنه بالنسبة

لشيوعي مثله، كان حزبه يستجيب منذ نصف قرن تقريباً لدعوات «الأخ الكبير» والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، لم يكن هناك عقاب أو جلد أسوأ من أن يعود إلى البيت ليعرف أن جميع الأحزاب الشيوعية في العالم قد بدأت تتهاوى، الواحد تلو الآخر، وقد أعربت عن أسفها وشجبها للأساليب الستالينية التي اتبعتها في الماضي. بعبارة أخرى، كان أكثر العقوبات حكمة وأشدها قسوة بالنسبة لوالد دارا وأمثاله، هي أن يكتشفوا أنهم تحمّلوا السجن والتعذيب، وحزنوا طوال تلك السنوات على إعدام أبطال حزبهم، ورثوا بأنفسهم على أنهم ظلوا على قيد الحياة، وبين ليلة وضحاها، أصبحوا فجأة أشخاصاً عديمي القيمة. لذلك، في هذه المرة، عاد والد دارا إلى البيت منكسراً حزيناً لا كبطل وطني، بل كرجل اتُّهم بأنه تجسّس لصالح الاتحاد السوفياتي. وطُرد من عمله ولم يكن يملك شروى نقير. وكان أول شيء فعله أنه أوجد قلعة لنفسه في بيته، ولم تكن هذه القلعة سوى غرفة مخزن صغيرة في الطابق الأول. وتمشياً مع عادة اعتادها في سجن إفين، مدّ بطانية على الأرض ليقيم مكاناً لنومه، مع أن غرفة المخزن لم تكن تتسع لينام ممدداً ساقيه. ثمّ أخذ مذياعاً إلى هذه الزنزانة، وبدأ يستمع إلى الإذاعات التي تبثّ الأخبار باللغة الفارسية من محطات أجنبية مثل صوت أميركا، وإذاعة إسرائيل، وهيئة الإذاعة البريطانية، وإذاعة فرنسا، والإذاعات الأخرى التي بدأت تبث أصوات المعارضة من خارج إيران. ومنذ أن أُسست الجمهورية الإسلامية في إيران، دأبت هذه المحطات على تقديم الوعود إلى مستمعيها بأن هذا النظام سيسقط بعد أشهر معدودة، وأصبح مستمعو هذه المحطات، في البيوت التي بدأت تشبه يوماً بعد يوم قصور ألف ليلة وليلة، أو في البيوت التي بدأت تتهالك أكثر يوماً بعد يوم، أو على

المقاعد القديمة في الحدائق العامة، يرددون هذه الأخبار وينقلها أحدهم إلى الآخر، حتى وقتنا الحالي في قصّتنا، عندما بدأ والد دارا، بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة في قلعته الشيوعية، يبدو وكأنه كبر عشرين سنة أخرى أكثر من عمره الستين.

وعلى النقيض تماماً، لم يكن لدى أمّ دارا، وهي امرأة متدينة، أي اهتمام بالسياسة العالمية، أو أي اهتمام بمن يحكم إيران سواء أكان نظاماً إسلامياً، أو نظاماً ملكياً، أو نظاماً شيوعياً. وكانت في كلّ يوم تؤدي صلواتها اليومية المؤلفة من سبعة عشرة جزءاً، وتصوم شهر رمضان بكامله، ومن دون معرفة زوجها، كانت توفر قدراً زهيداً من المصروف المنزلي، وتعطيه إلى رجل الدين في مسجد الحيّ باعتباره واجباً دينياً، وتبذل ما بوسعها لتطهو كلّ يوم أشهى الوجبات بأقل تكلفة لزوجها وابنها.

ويأتي مصدر دخلهم الضئيل من عمل دارا في طلاء البيوت ومن السجاجيد الصغيرة التي تحيكها أمّه. وفي كلّ يوم، تشكر أمّ دارا الله في صلواتها، لأن ظروفهم لم تزدد سوءاً، ولأن زوجها وابنها ما زالا في البيت. إذ فقد الكثير من الإيرانيين عدداً من أفراد أسرهم بسبب إعدام جميع من عارضوا الجمهورية الإسلامية، والذين قتلوا الحرب، وفي التفجيرات التي وقعت في المدن الإيرانية بسبب نظام الحكم في العراق و. . . و. . . وهناك الكثير ممن صادرت الحكومة منازلهم.

بعد أن أنهت أمّ دارا عملها اليومي الرتيب الطويل من الطهو هذه الليلة، وبعد أن أنهت صلاة المغرب وحمدت الله، جلست مع ابنها لمشاهدة المسلسل التلفزيوني الذي يعرض هذا المساء والذي تدور قصته عن أمّ فقدت ابنيها في الحرب. وبسبب حساسية والد دارا، خفضت الصوت بقدر ما تستطيع. وفي هذا الجزء من المسلسل، يُقرع الجرس في منزل

الأمّ. تضع الأمّ عباءتها وتتوجه نحو الباب. رجل عجوز يرتدي بزة الحرس الثوري يقف عند الباب حاملاً علبة فيها حلوى. يقدم العلبة إلى الأمّ، ثمّ يبدأ يلقي خطاباً طويلاً عن كيف أن الله رحيم بشعب إيران بأن وهبهم نعمة الجمهورية الإسلامية، وكيف أن اليد الحديد لهذا النظام المقدس، الذي سيُسقط قريباً حكومات العالم الاستبدادية ويخلّص البشرية منها، يزداد قوة بدم شهدائه. ثم يقول:

«يا أختي، أهنئك. لقد استشهد ابنك في الجبهة».

لدى سماعها هذا الخبر، تهرع المرأة المتوسطة العمر، التي تمثّل دور أمّ في حزب الله، بابتسامة على شفتيها وبعينيها الباكيتين بوعي منها أو من دون وعي، وتبدأ تقرع أجراس بيوت جيرانها لتقدم لهم الحلوى وتخبرهم أن ابنها الثالث قد استشهد أيضاً.

من طرف عينه، يلاحظ دارا أن أمّه تراقبه من زاوية عينها. لم يكن معتاداً على أن يشارك أمّه بأفكاره، لكنه في هذه الليلة، وللمرة الأولى، يبحث عن عذر ليحدّثها عن فكرة الزواج. تقدم له الأمّ العذر عندما تسأله:

«دارا، لقد لاحظت أنك مشغول البال في هذه الأيام. هل حدث شيء؟».

«لا، لا يوجد شيء خاص».

«أنا أمّ، وأعرف متى يكون ابني سعيداً ومتى يكون حزيناً، حتى لو لم يكن أمامي. إنك في غاية الحزن هذه الأيام. قل لي، هل تورطت في السياسة مرة أخرى؟ لا تذهب لتدمّر نفسك وتدمّرنا معك مرة أخرى».

والد دارا يصرخ من قلعته الصغيرة:

«أيتها المرأة، ماذا تريدين من هذا الفتى؟ اتركيه وشأنه. إنه يعرف أكثر مني ومنك».

أمّ دارا تخفض صوتها وتقول:

«أرأيت. حتى إنه لا يدعني أشاهد فيلماً بسلام أو يدعني أتحدث قليلاً مع ابني. يجب أن أكون صمّاء بكماء في هذا البيت لكي يكون سعيداً. ليباركه الله، بعد ثمانين سنة أصبح سمعه أقوى من سمعي».

منذ بداية زواجهما، دأبت أمّ دارا على إضافة عشرين سنة إلى عمر زوجها.

والد دارا يصرخ:

«مدام! لو كنتِ قد صُفعتِ في السجن كما صُفعت أنا، لأصبحتِ الآن صماء تماماً أو لأصبح بإمكانك أن تسمعي همسة الصرّار».

ويرفع صوت مذياعه.

دارا يقول:

«سيتزوج أحد أصدقائي ليلة غد. أتساءل هل عليّ أن أذهب أم لا».

إنه يكذب. في الحقيقة، لقد اختلق هذه القصّة بعد أن فكّر لساعات كيف يمكنه أن يثير موضوع رغبته في الزواج.

«لماذا لا تذهب؟ من المؤكد أنك يجب أن تذهب. يجب أن تمضي وقتاً ممتعاً. إن شاء الله سيأتي دورك أيضاً. أتمنى أن أراك مرتدياً بدلة عرسك قبل أن أموت. في نهاية كلّ دعواتي اليومية أدعو الله أن يحسّن الأوضاع في هذا البلد؛ أدعو الله أن يخلصنا من هذا البؤس وأن تجد وظيفة براتب مرتفع وتشتري بيتاً لنفسك، وأن تمسك بيد عروسك، وأن تأخذها إلى بيتك».

والد دارا يصيح:

«سيدتي! لقد أمضيت عمرك وأنت تصلين وتتضرعين لكي تحصل هذه الأشياء، لكن ألهك لم يُرنا إلا المزيد من غضبه، وقد ازدادت الأوضاع سوءاً في هذه البلاد. متى سيستجيب لدعائك؟ إنك تصلّين وتتضرعين من

أجل المطر فيصبح فيضاناً، وتصلّين شكراً لله فتأتي الزلازل. لماذا لا تقبلين أن ثمة شيئاً خطأً في ما تفعلين؟».

أمّ دارا، كما هي عادة بعض النساء الإيرانيات عندما يسمعن كلمات تعبّر عن الكفر، تقضم الجلد الناعم بين إبهامها وسبابتها، وتتظاهر بأنها تبصق عليه مرّتين، وتقول:

«لا سمح الله. أرجو أن تكون أذن الشيطان صمّاء الآن. هل ترى كيف يلعن الله؟ ليمطر الله لهيب النيران فوق قبر الذي زرع بذرة هؤلاء الشيوعيين الذين يقولون إن الله غير موجود».

وتصيح:

«سيدي! لو لم يكن بسبب دعائي وصلواتي، لما بقيت حياً حتى الآن، ولكنت قد تعفنت في مائة كفن».

فيردّ والد دارا:

«يا مدام! لماذا لا تفهمين؟ ابننا المسكين يريد أن يتحدّث عن نفسه. إنه يريد أن يعرف هل بإمكانه أن يتزوّج أم لا. لقد خُدع هذا الفتى المسكين مثلي. يا بني! بحسب آخر الأبحاث العلمية، لا يملك إلا عشرون بالمائة من الرجال في العالم عقولاً، أما النسبة المتبقية من الرجال فلهم زوجات. لكن لا يهمّ إن كنت تريد أن تهدم حياتك بيديك الاثنتين كما فعلت أنا. هيا امض واجلب لنفسك الحماقة! لكن كرمى لله، تزوّج امرأة لا تكون برجوازية ولا تكون مثل أمّك. تزوّج امرأة تسري فيها على الأقل بضع قطرات من الدم الشيوعي لكي تتحلى بالصبر ولا تكون متطلبة كثيراً، وتقبل أن تأتي إلى هذا البيت وتعيش معك في غرفتك».

تفقد أمّ دارا أعصابها.

«يا سيدا هل تريد أن تقول إنني امرأة قليلة التحمل وعديمة الصبر

ومتطلبة؟ من هي المرأة التي كانت تضع رأسها وتنام وحيدة كلّ ليلة طوال تلك السنوات التي أمضيتها في السجن، في قرّ الشتاء وحرّ الصيف، راجية أن ترى ذلك اليوم الذي تعود فيه إلى البيت، يا سيدي، من ذلك الباب؟».

«يا سيدتي، لقد زُجَّ بي في السجن وتعرضت للتعذيب فقط لأنني حاولت أن أحررّ هذه البلاد من الخرافات مثل الخرافات التي تؤمنين بها».

«يا سيدي، لقد دفعت ثمن نكرانك وجود الله وكفرك به. إن أشخاصاً من أمثالك هم الذين خرّبوا هذه البلاد. لو كانت لديك مشاعر بالكرامة والشرف لفكّرت بزوجتك وطفلك. وطوال تلك السنوات التي كان من المفترض أن تكون فيها رجل هذا البيت، لم تجلب ولا قرشاً واحداً. وإنك لا تفعل شيئاً سوى أن تستلقي ليل نهار وتستمع إلى ذلك المذياع. وأنا التي أطعمك بالمبلغ الزهيد الذي يجلبه هذا الفتى إلى البيت».

وفجأة تحوّل صراخ الأب والأم إلى صمت. وهذه هي أول مرة يدور هذا الحديث الصريح والقاسي في هذا البيت. نهض دارا وصاح:

«توقّفا. كان ذلك خطأي. كان خطأي أنني قلت إنني أريد أن أذهب لحضور حفل زفاف صديق لي».

وبعينين داكنتين أكثر من أي وقت مضى، ضرب بقبضته بقوة على فخذه وتوجّه إلى الدرج ليصعد إلى غرفته.

وصل المسلسل التلفزيوني إلى مشهد تغسل فيه الأمّ شواهد قبور أبنائها بماء الورد وتجلس الآن بجانب آخر قبر تكلّم ابنها الأخير.

«. . .إنني أفتقدك كثيراً، لكنني أعرف أنك مع إخوتك وأنكم سعداء معاً. إنني سعيدة أيضاً لأنكم أصبحتم جميعكم في الجنة الآن. وأضحى لديكم الآن جدول من عسل يجري من ناحية، وجدول من الحليب يجري من الناحية الأخرى، وإنك تضطجع تحت شجرة فيها فاكهة مما تحبّ،

وعندما تريد أن تتناول ثمرة، ينحني الغصن إليك لكي لا ترفع يدك إلى الأعلى وتقطف الثمرة. وأصبح لكلّ واحد منكم سبعة آلاف حورية تنتظركم في قصوركم في الجنة...».

عندما وصل دارا إلى أعلى الدرج، سمع أمه وأباه يصيحان. الغريب في الأمر أنهما يبدوان متشابهين كثيراً. ومثل جميع العشاق في العالم، جلس دارا بالقرب من نافذة غرفته. وكان جهاز الكمبيوتر المستعمل الملقى على الأرض بالقرب من الفراش، مطفأ. أخذ ينظر إلى النوافذ المضاءة في الطرف المقابل من الشارع وتنهد. لا يريد أن يفكّر بالسبعة آلاف حورية اللاتي قد ينتظرنه في الجنة، بل يريد أن يفكّر بحوريته الوحيدة الموجودة هنا على الأرض. لقد جلب الشجار بين أمّه وأبيه الحقيقة القاتمة في حياته إلى البيت مرة أخرى. إنهما يحتاجان إلى النقود التي يأتي بها بين الفينة والفينة. ونتيجة لهذه الظروف، هل يمكنه أن يجلب فماً آخر إلى البيت لإطعامه؟ ففي الأيام القليلة الماضية، تصوّر مشاهد عاطفية عن زواجه بسارا. وفي هذه الغرفة بالذات، رآها زوجة له وهي تقول إذا أردتني أن أصبح زوجة حقيقية لك، يجب أن تقبّلني الليلة ألف مرة ومرة. ورأى نفسه يقدّم لسارا وردة جورية، ثم استعادها ثانية، وأخذ يقتلع بتلاتها وينثرها فوق السرير، ثم أخذ يداعب عنقها بسداتها. لكن هذه الليلة، وبالصفعة التي تلقاها على وجهه من صياح أبويه وبكائهما، أدرك أنّ الواقع بعيد عن أحلامه وتخيلاته. لذلك بدأ يفكّر في استنباط فكرة مبدعة تجعله غنياً، تمكّنه من شراء منزل كبير لأبويه في الجزء الأرقى والأجمل من طهران، وعندما يطمئن عليهما، يستطيع أن يبني بيتاً لنفسه في إحدى حدائق المدينة المسوّرة ويدعو سارا إليه.

أما الآن، فقد أصبحت نظرته إلى العالم عبارة عن زقاق مسدود ضيّق

في حيّ فقير تصطف فيه البيوت متراصة وتتداخل جدرانها لعل المرء يحصل على بضع بوصات أخرى من أرض جاره.

وفي الزقاق، تتجه عربة يجرها حصان إلى الشارع، مليئة بمئات الورود التي اقتلعت بتلاتها وتلألأت سداتها الصفر مثل رماح تحت ضوء القمر. وراحت عجلات العربة الخشب تتدحرج فوق جناح نصف محروق.

رجل لديه ثلاث زوجات

دعا دارا سارا لقضاء فترة المساء في بيتهم. وقد تزامن ذلك مع قيامي بنشر فصلين من هذه القصّة في مجلة أدبية لم يوقف إصدارها حتى الآن. وبما أنني لست خبيراً في كتابة قصص الحبّ كهذه، قرّ عزمي، قبل أي شيء آخر، على مراقبة السيد بيتروفيتش، وردّة فعل قسم الرقابة، للتعرف على آراء قرّائي الذين تعوّدوا على الظلام والرعب في قصصي. وكانت نتيجة ذلك أن المجلة تلقت تحذيراً من لجنة الإشراف الإعلامية في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي لأنها أساءت إلى أرض جامعة طهران المباركة، وأساءت إلى الإخوة في حزب الله، وأهانت شعار الحرية المقدّس، وأساءت إلى صورة المرأة الإيرانية المباركة، لأنها صوّرت بطريقة تخلو من الحشمة شابات الثورة من الجيل الثاني وأمهات الشهداء في المستقبل. وبهذا التحذير، بلغ عدد التحذيرات التي وجهت إلى المجلة الرقم المقدّس سبعة. بعبارة أخرى، إنه الخط الفاصل الذي سيصل بعده الأمر المقدّس بتوقيف المجلة إلى يد رئيس تحريرها.

وكانت نتيجة رغبتي في التعرف على آراء القرّاء أن بعضهم عمل على نشر إشاعة بأنني، أنا الذي بلغت السنّ المقدّسة الخمسين، قد وقعت في الحبّ، وبأنني أسببّ بذلك فضيحة مبتذلة ووضيعة.

لكن نيات دارا لدعوة سارا إلى بيته لا علاقة لها بأي مناسبة مباركة

ظاهرة. ويبدأ ينتابني قلق شديد على قصّة الحبّ التي أكتبها ومواطن ضعفي فيها بأنّني لم أستطع أن أفهم السبب الذي جعلني أفعل شيئاً كهذا.

بعد انقضاء ثلاثة أيام على الليلة التي تشاجر فيها والد دارا ووالدته بسبب سؤاله عن حضور حفلة الزفاف، مرة أخرى، بينما كانا يشاهدان مسلسلاً تلفزيونياً، قال دارا لأمّه:

«إحدى زميلاتي تريد أن تأتي إلى بيتنا لأساعدها في كتابة أطروحتها. هل توافقين على ذلك؟».

بتألق الحكمة الغريزية في عينيها، راحت الأمّ تحدّق في ابنها، وارتسمت على محياها قسمات حادة ومريرة.

«أرجو أن لا تسمعنا أذن الشيطان، لا تفعل شيئاً كهذا أبداً. فإذ رأى الجيران فتاة غريبة تغدو وتروح في بيتنا سيبدأون بنشر ألف إشاعة. ولا ~~سيما السيد عطاء، المتطوع في مليشيا الباسيج. فلا بد أنه سيبلّغ عن هذا الأمر ويداهمون البيت. وبسبب خلفيتك السياسية، سندخل في عالم مليء بالمشاكل».~~

والد دارا يصرخ من قلعته:

«دعيه وشأنه! دعيه يدعو صديقته. لقد بلغ من العمر ثلاثين سنة ونيف ولم يلمس يد فتاة بعد. لقد أحرقوا منطقة المواخير، وأعدموا صاحبات تلك المواخير، وازداد عدد المومسات مئات المرات. إلى متى يستطيع شاب مفلس يعلو الزبد بوله أن لا يمارس العادة السرية؟ دارا! هل تسمعني؟ بالتأكيد ادعها لتأتي إلى هنا. أخبرني متى ستأتي لأجعل أمّك تذهب إلى المسجد لكي لا تبقى في البيت».

صُعقت أمّ دارا وتملكها رعب شديد من الكلمات التي لم يسبق أن تردّد صداها في سقف بيتها. ووصل المسلسل التلفزيوني الإيراني إلى نقطة

تكتشف فيها كل زوجة من زوجات الرجل المسلم الغني الثلاث أن زوجها متزوج من زوجتين أخريين، وراحت كل واحدة منهن تبحث عن الزوجة الأخرى. ووصل المسلسل إلى نقطة الذروة عندما التقت النساء الثلاث. هل تضرب إحداهن الأخرى؟ هل يجلسن معاً وينتحبن ويولولن؟ أم ينزعن بنطاله الشورت عن مؤخرته ويمزّقنه ويلففنه حول رأسه المليء بالقمل؟

والنقطة المثيرة للاهتمام في هذا المسلسل هي أنه لولا إدراك المخرج والرقيب في محطة التلفزيون الحكومية، لأشارا إلى غضب الله على رجل دين. لا، لا أقصد بعبارة «رجل دين» أحد القساوسة الذين يعتدون جنسياً على الأطفال في الكنيسة، بل أشير إلى رجل الدين الموقّر الذي حصل في إحدى الانتخابات البرلمانية في الجمهورية الإسلامية على أكبر عدد من الأصوات في محافظة طهران.

هل أثرت فضولكم؟ حسناً، إذاً اسألوا وأنا سأروي لكم القصّة:

لقد شاهدنا سعادته للمرة الأولى في برنامج تربوي ديني في التلفزيون. وبخلاف العديد من رجال الدين الإيرانيين الموقّرين، كان لهذا الرجل الموقّر وجه حنون وشفتان باسمتان. لم يتحدّث عن رجم الزناة وإعدام المرتدين، بل كان عنوان برنامجه «الأخلاق في البيت». وتحدّث الرجل الموقّر في برنامجه عن ضرورة أن يكون الزوجان رحيمين أحدهما بالآخر، ونصح النساء بأن يحاولن فهم أزواجهن وأن يدركن أنه عندما يعود هؤلاء الأزواج إلى بيوتهم من عملهم يكونون متعبين، وقد يكونون في مزاج سيئ بسبب الصعوبات في مكان العمل. واقترح بأن تحاول المرأة، لكونها لطيفة وتعتني بزوجها وتلبي طلباته، أن تجعله يعرف بأنه ليس وحده في هذا العالم وأن لديه كل الدعم والعطف. ومن الناحية الأخرى، نصح الزوج بأن لا ينسى أن زوجته هي أفضل صديقة له ورفيقة دربه. «إنها زهرة في بيتك. لا

تدع هذه الزهرة الثمينة تذوي. كن مخلصاً لها وأظهر لها أنها أفضل امرأة وجدتها في هذا العالم. لا تنظر إليها على أنها طاهية. قدم لها هدايا، وإذا لم يكن في وسعك أن تأتي لها بشيء مرتفع الثمن، فإن زهرة واحدة تكون أفضل هدية. أظهر لها أن جمالها أبدي في عينيك، وأنك تتضرع إلى الله في صلواتك كل يوم بأن تكون في أفضل حال».

وهكذا أصبح هذا الرجل الموقّر، بالنسبة للعائلات التي تشاهد برنامجه التلفزيوني، أحد أكثر الوجوه المحبوبة والأكثر شهرة. وقد أدت شعبيته هذه إلى انتخابه في البرلمان الإسلامي وحصل على أكبر عدد من الأصوات. واستمر الأمر إلى أن ألغي برنامج هذا الرجل الموقر التلفزيوني الثمين فجأة ومن دون أي تفسير، ولم نعد نسمع عنه شيئاً. بعبارة أخرى، اختفى الرجل الموقر. وكنا نحن الإيرانيون متشوقين لمعرفة ماذا حلّ برجل الدين اللطيف هذا. ثمّ انتشرت إشاعة عن «أفتابيه» في أرجاء البلد.

الآن، سيسألني القارئ في الغرب عن معنى كلمة «أفتابيه».

إن «أفتابيه» هي الكلمة الفارسية التي تستخدم للدلالة على شيء لا يمكن الاستغناء عنه. وهي أداة تشبه إلى درجة كبيرة الإبريق الذي تستخدمه السيدات في الغرب لسقاية حدائقهن، ونستخدمه نحن المسلمون لغسل أزهار أجسادنا بعد قضاء حاجتنا ـ وهي في رأيي عملية صحية أكثر بكثير من الطريقة الغربية التي تستخدم فيها المحارم الورقية.

وبعد فترة طويلة من اختفاء رجل الدين اللطيف، انتقلت إشاعة من فم إلى فم، ووصلتني أنا أيضاً، بأن هذا الرجل الموقر، من دون علم زوجته الطيبة، استغل حقّه الإسلامي في أن يتزوج بأربع نساء، واتخذ لنفسه زوجة ثانية. وعندما اكتشفت زوجته الأولى ذلك، ولكي تنتقم منه، ملأت «الأفتابيه» بمادة حامض الكبريتيك.

دمدم دارا، وقد احمّر وجهه خجلاً وحرجاً:

«لا. سندرس فقط... انسيا الأمر. لا تتجادلا».

واتجه نحو الباحة. صرخ أبوه وراءه:

«دارا، أيها الأبله! ادعها. هيا ادعيهن زرافات وأحادى، لكي لا تغادر هذا العالم وقد حرمت منهن مثلي».

في الباحة الأمامية، جلس دارا إلى جانب أصص الزهور، وراح يفكّر بمستقبله المجهول وبسارا التي لم تجبه على اقتراحه لها، وبالصعوبات المالية التي سيواجهها إن هو تزوّج، ثم توصّل وحده إلى قصّة مشوقة أخرى. لم يطلب مني أن أقدم له نصيحة، وحتى لو طلبها مني، لما استطعت أن أفيده بشيء. لذلك كانت فكرته تكمن في أن يدعو سارا إلى بيتهم في الساعة العاشرة ليلاً عندما يأوي أبوه وأمه إلى الفراش، ويجلس معها بهدوء في الباحة، أو حتى ربما طلب منها أن تصعد معه خلسة إلى غرفته. لمدة ساعة واحدة فقط، أو لمدة ساعة ونصف الساعة، لا أكثر، لأنه لن يكون لسارا أي عذر في البقاء أكثر من ذلك، ولن يسمح لها بأن تمضي الليلة بعيداً عن البيت. وبعد الكثير من الهمهمة والتردد، أخبر سارا بخطته، وبعكس توقّعاته، وافقت سارا بسهولة. في الحقيقة، فقد حلّت هي نفسها مشكلة وجودها خارج البيت حتى منتصف الليل. فقالت:

«سأقول لهما إنني سأذهب إلى بيت ياسمين لندرس معاً، وسأطلب سيارة أجرة لتعيدني إلى البيت. المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أخرج من البيت عند الساعة التاسعة ليلاً مدعية بأنني سأذهب للدراسة مع صديقتي. لذلك يجب أن أغادر في ساعة متأخرة من بعد الظهر، وأنتظر في مكان ما حتى الساعة التاسعة. سأفكّر بالأمر. ماذا ستفعل؟».

«سأموت خلال انتظارك».

أما أنا، فسأكتب في قصّتي عوضاً عن كلّ ذلك:

دارا، الجالس بجانب أصص الأزهار، استنتج أنه يقوم بتضحيات كبيرة من أجل أسرته، وإذا كان اليوم يعاني من الفقر واليأس، فلم يكن ذلك لأنه لم يضحّ بقدر كاف، وأنه إذا استطاع في لحظة ما أن يكبت شهواته وأشواقه، سيأتي اليوم الذي تهّب فيه طاقات العالم الإيجابية لنجدته وإتاحة السبل له لكي يتزوج.

وبخلاف هذه الجملة الغبيّة التي لا يمكن أن تصدر إلا من قلم كاتب لاكته الرقابة حتى العظم، الساعة الآن التاسعة ليلاً. وكان دارا قد اشترى بعد ظهر اليوم، سبع وردات من ورود الجوري المقدّس، وخبأها في زاوية البيت. وقبل أن تصل سارا، سيقتلع أوراقها وينثرها في شكل دائرة عند شجيرات الياسمين، ويُجلس حبيبته سارا داخل دائرة الورود. وكان قد تفحّص ودقق في الباحة الأمامية ليجد بقعة أفضل لا تكون مكشوفة أمام نوافذ الشقق في الجانب الآخر من الزقاق، واكتشف أفضل بقعة. نعم، شجيرة الياسمين هي التي ستخفيهما عن عيون الجيران الفضولية.

ينثر دارا أوراق الورد في دائرة قطرها ظهر سارا، وبقلب يخفق بشدة مثل عصفور حبيس، يفتح باب البيت ويلقي نظرة على نهاية الزقاق. لم يحن الوقت بعد لوصول سارا. يشرب كوباً من الماء ويعود إلى الباب. وبعد خمس دقائق، عندما يفتح الباب للمرّة الثالثة ويلقى نظرة على الزقاق، ويسمع صوت السيد عطا:

«كيف حالك يا أخي؟».

يرفع دارا بصره إلى الأعلى، ويرى عبر الزقاق رأس الأخ عطا وجذعه في نافذة شقّته. إن نافذة الطابق الثاني تطلّ على الزقاق بأكمله وعلى الأجزاء الرئيسية من بيت دارا.

«لا بأس يا أخ عطا. كيف حالك؟».

«الحمد لله، أنا بخير. ما الجديد في الأمر؟».

«لا شيء».

«رأيت أنك تتردد إلى الباب كثيراً، ظننت أن مكروهاً قد حدث».

«لا. هل علينا أن نتوقع دائماً أخباراً سيئة؟ اعتراني الملل لذلك فتحت الباب. يبدو أنك تشعر بالضجر أيضاً».

«لا. فالرجل التقي لا يشعر بالضجر على الإطلاق. لديه ربه يناجيه».

«إذاً سأودّعك وأتركك تتحدث مع ربك».

يشعر دارا أنّ الأخ عطا تساوره الشكوك، لكنه لم يستطع أن يكتم غيظه، فيصفق الباب ويدخل إلى البيت. كان صوت المذيع المألوف المنبعث من إذاعة صوت أميركا الناطقة باللغة الفارسية يتدفّق من أحد الشيوعيين الإيرانيين، لكن ضوء المطبخ كان مطفأً. كانت الأمّ قد صعدت إلى غرفة نومها في الطابق الثاني. لقد زال الخطر الأساسي.

عندما يرى والد دارا ابنه، يقول:

«في هذا العالم، إما أن تكون منتصراً أو خاسراً. في بعض الأحيان تشعر بالسعادة من أعماق قلبك لأنك خاسر، وفي أحيان أخرى تشعر بالحزن من أعماق قلبك لأنك منتصر. أقصد أن كل ذلك عبارة عن كومة كبيرة من الفضلات. هل تفهم؟».

«نعم، يا أبي. ألا تريد أن تنام؟».

«لا أشعر بالنعاس، لكنني سأنام إن أردت».

صمت صوت المذياع. استلقى الأب، بركبتيه المحنيتين بقوة العادة، على أرض قلعته. ووفق أنظمة سجنه الانفرادي، يجب أن يظل الضوء منارأً في قلعته. جلس دارا على الأريكة التي عمرها ثلاثون سنة، لا

يعرف لماذا، سأل أباه أول سؤال حميمي غير خاضع للرقابة الذاتية:

«أبي. هل كنت سعيداً في حياتك؟».

«في هذه الحياة السيئة تمرّ أوقات يخيّل إليك فيها أنك سعيد بسبب الأشياء التي فعلتها، حتى في السجن الانفرادي، كانت تمر أوقات تساورك فيها الشكوك وتظن أنك حزين. لكن يأتي وقت تتساءل فيه ماذا يعني حقاً أن تكون سعيداً. أدعو الله أن لا يأتي اليوم الذي تسأل فيه هذا السؤال. إنه أمر سيئ حقاً... تصبح على خير يا بني».

بعد دقيقتين بدأ شخيره يعلو. لم يكن دارا يعرف عما إذا كان هذا الشخير طبيعياً أم أن أباه الذكي يتظاهر بأنه نائم. الساعة العاشرة إلا ثلث. شرب دارا كأساً أخرى من الماء. لم يستطع أن يقاوم الإغراء بالذهاب إلى باب البيت. في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق، اجتاز الباحة الأمامية، فتح الباب، وألقى نظرة على الزقاق الذي ستظهر فيه سارا.

قال الأخ عطا، بعد أن ظهر من نافذته ثانية:

«أخي دارا، يبدو أن الملل يتابك حقاً هذه الليلة».

«ماذا يمكنني أن أقول يا أخي عطا. يبدو أن الملل يعتريك أنت أيضاً لهذا التصقت بالنافذة».

«لا، يا أخي. من واجبي أن أحرس هذا الزقاق وبيوت سكانه».

يعرف جميع سكان الزقاق أن الأخ عطا يخدم ثلاث ليال في الأسبوع متطوعاً في ميليشيا الباسيج في الحيّ، وعند نقاط التفتيش التي تقيمها الشرطة في الشوارع في المنطقة، لكي يوقف السيارات وهو يحمل رشاش كلاشنيكوف، ويشمّ أنفاس السائقين للتأكد هل شربوا الخمر، ويفتّش في صناديق السيارات، وتحت مقاعدها خشية إن كانوا يخبئون زجاجات مشروبات كحولية أو مخدّرات، وإذا كانت هناك امرأة في السيارة، يقوم باستجوابها ليتأكد هل هي على صلة قرابة بالسائق.

يقول دارا مازحاً:

«أخ عطا، اذهب ونم ليلة سعيدة هانئة. يبدو أنني مصاب بالأرق هذه الليلة، سأقوم أنا بحراسة الشارع».

ضحك الأخ عطا بصوت مرتفع وقال:

«هناك أشخاص في هذا البلد ينتظرون أن أخلد أنا وإخوتي إلى النوم لكي يتمكنوا من اجتثاثنا واجتثاث الإسلام، لكن بما أنني أعرف أنك تبت عن ذنوبك الماضية، فإنني سأصدقك. سآوي إلى الفراش».

يغلق النافذة ويسدل الستائر.

الساعة التاسعة وثلاث وخمسون دقيقة. يقول دارا لنفسه، سبع دقائق أخرى... بعد سبع دقائق أخرى ستكون سارا هنا... يا إلهي! سنكون أنا وسارا وحدنا أخيراً... ـ هل هذا ممكن حقاً...؟

يرفع عينيه ويلقي نظرة على نافذة شقّة الأخ عطا. يخيّل إليه أنه يرى ظلاً عند حافة الستارة. يحسب أنه ربما كان ظلّ تمثال. في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق، يخطر له أنه من المستحيل أن يكون هناك تمثال في بيت الأخ عطا لأن المسلمين المتشددين يعتبرون التماثيل وصور الأشخاص محرّمة. ثم تحرك الظلّ وراء الستارة...».

«إنه هو. إنه يراقبني. هذا الوغد!».

يعود دارا إلى الباحة ويضرب بقبضته على الحائط. كان كلّ شيء ينهار. فإذا رأى عطا سارا تتسلل إلى بيتهم فلا بد أنه سيبلّغ عنهما، وستداهم الدوريات بيتهم. نظر دارا إلى مفاصل أصابعه النازفة. لا بد أن يفعل شيئاً. الساعة التاسعة وثمانٍ وخمسون دقيقة. في لحظة جنون وغضب يتجه نحو باب البيت، ليخرج ويصيح بالأخ عطا في نافذته الكلمات التي يتعين عليه أن يقولها بصوت عال. لكن في اللحظة الأخيرة ـ لا أعرف

هل كان سبب ذلك أنا أو ذكاؤه الإيراني، يغلق فمه. يمشي حتى نهاية الزقاق، ويبدأ يذرع الزقاق جيئة وذهاباً مثل ذئب كان حبيساً في قفص ثم أُطلق سراحه في الساعة السادسة وعشر دقائق، عندما تترجل سارا من سيارة الأجرة.

«لقد تعقّدت الأمور بعض الشيء. إذ إن جارنا الفضولي لا يزال واقفاً عند النافذة ليتجسّس علينا. أرجوك اذهبي وتمشي في الشارع وعودي بعد نصف ساعة».

توافق سارا. يعود دارا إلى البيت ويطفئ جميع الأضواء بأمل أن يهدأ عقل الأخ عطا ويرتاح ويخلد إلى النوم. ومن طرف الستارة المسدلة في غرفته، يأخذ دارا يراقب الستارة المسدلة في غرفة عطا. لم يكن يبدو أنه يوجد ظل وراءها. في الساعة العاشرة والنصف، فتح دارا باب البيت بهدوء. ظهر خيال الأخ عطا وراء الستارة. يمشي دارا مرة أخرى حتى نهاية الزقاق. في العاشرة والنصف وخمس دقائق عادت سارا. . .

«حسناً؟».

لم تتبق لدى دارا القدرة على قول شيء ولم تبق في جعبته كلمات يمكنه أن يقولها. كلّ ما استطاع أن يقوله هو: «الرجل. . . إنه لا يزال وراء النافذة».

«توقفت ما لا يقل عن عشر سيارات وتحرّشت بي خلال النصف الساعة التي تجوّلت فيها في المنطقة. هل تعرف أي عذاب هذا بالنسبة لفتاة مثلي؟».

ضرب دارا بقبضته الأخرى غير المجروحة على الحائط. صوت انفلاق الجلد وتدفّق الدم منه يشبه صوت جيش من أطياف العرب العائدين بعد أن غزوا خراسان، جالبين معهم الجواهر والذهب التي تعادل قيمتها جميع ثروات الجزيرة العربية.

الفقرات الممتدة على طول عمود دارا الفقري تتشقق. يقول متوسلاً:

«هل تستطيعين... نصف ساعة أخرى... سينام الرجل أخيراً... نصف ساعة.

ترفع سارا يدها لتصفعه على وجهه. يمسك رسغها. تقرّب وجهها من وجهه، وتدمدم في أنفاس دارا:

«إنك تعاملني وكأنني مومس. إنك ستجعل مني عاهرة».

بالنسبة لدارا، كان صوت صفق باب أول سيارة أجرة تصل أشبه بصفعة على وجهه لم يتلقها.

لا يزال ظلّ الأخ عطا واقفاً وراء النافذة. لكن، بالنسبة له، لم يكن صوت صفق باب بيت دارا مثل صفعة على الوجه على الإطلاق.

يتمتم والد دارا في نومه:

«آه... هـ... هـ... حياتي المهدورة، تلك السجون وذاك التعذيب! هل كان كلّ ذلك خطأ، أيها الرفيق غورباتشوف؟».

جادة ميرداماد

سارا تجلس في إحدى القاعات الدراسية في كلية الآداب في جامعة طهران، ويبدو أنها تنصت إلى الأستاذ. ويجلس الفتيان في المقاعد الأمامية، وتجلس الفتيات في المقاعد الخلفية. الأستاذ يشرح قصيدة كتبها شاعر توفي منذ ما لا يقل عن ستمائة سنة. تمعن سارا النظر في مؤخرة رؤوس الفتيان، الواحد تلو الآخر، ويقع اختيارها على أن تمعن النظر في الرأس الذي يخيّل إليها أنه يشبه رأس دارا. كان قد مرّ أسبوع على الليلة التي اقتربت فيها من الحدود الخطرة عندما ذهبت إلى بيت دارا، وخلال هذه الفترة لم تجب على رسائله الإلكترونية، ولم تردّ على مكالماته الهاتفية الليلية. فمنذ أن رأت شيرين تنزف، بدأ الخوف والاستياء من الرجال يعشش في رأسها. لكنها مع ذلك، لا تزال تغريها رائحتهم وقسوتهم. ومن المؤخرة، يبدو لها أن رأس الفتى الجالس في المقعد الأول من الصفّ الثاني يشبه كثيراً رأس دارا، وتبدأ سارا تشعر الآن بأنها مشتاقة إليه كثيراً. وظل صدى عبارة «ستجعل مني عاهرة» يتردد في رأسها. يبدو لها أن هذه العبارة التي قالتها لدارا مثيرة جنسياً بطريقة ما. ففي تلك الليلة، بعد أن تركت دارا، شعرت ببلل عندما استقلت سيارة الأجرة. وكان السائق الذي لم يتوقف عن النظر إليها في المرآة الخلفية، يداعب نفسه.

في قاعة الدروس، يلتفت الفتى الذي يشبه رأسه رأس دارا، وكأنه قد أحسّ بثقل عيني سارا، ويبتسم لها فجأة. كان له أنف عربي كبير وطويل، وعينان مونغوليتان مشروطيتان. تلتفت سارا إلى النافذة. سحابة الدخان التي تعلو طهران سميكة جداً إلى حد أنه يصعب معرفة هل الجو مشمس أم غائم. تشمّ سارا مزيجاً من رائحة العنبر وخشب الصندل تنبعث من جسدها وتتخيّل نفسها مومساً. الأستاذ يقول:

«يجب ألا تضلّلكم النقطة الرئيسية في أعمال هذا الشاعر التي تتركز حول عبارة «الغلام» وتصويره لمحاسنه وجماله، وأن الشاعر لم يعد يغمض له جفن، وقد فقد شهيته للأكل بسبب رغبته في مضاجعته. إذ إن جميع قصائده تنطوي على أهمية صوفية عميقة. إذ إن حبيب الشاعر هو في حقيقة الأمر الجسر الذي سيوصله إلى الله، إنه يعشق الله، لا الغلام الذي لم يكد الزغب ينبت فوق شفتيه. وإن الواقع بأن الشاعر كان قد كتب أشعاراً كثيرة يصف فيها هذا الزغب، هي في حقيقة الأمر إشارة إلى عذوبة ونضج حبّه لله...».

كانت الصورة الوحيدة التي كونتها سارا عن الدعارة هي صورة النساء التي رأتهن في بعض شوارع طهران اللاتي يتجاهلن سيارات الأجرة والسيارات القديمة، لكن ما إن تظهر سيارة فخمة، حتى يتقدمن منها ويلصقن رؤوسهن بزجاج النافذة، ثم يحشرنها في داخلها، وبعد محادثة قصيرة، يقفزن بسرعة إلى المقعد الخلفي وتنطلق السيارة بسرعة. وتتخيّل سارا نفسها واقفة على الرصيف في جادة ميرداماد، الجادة التي تشبه الشانزليزيه في باريس، والتي تضم أكثر المحلات غلاء في طهران. كانت أول سيارة تمر أمامها هي سيارة الأجرة نفسها. يصيح السائق:

«إن كان عندك بيت فارغ، اركبي بسرعة، يا أيتها الجميلة المثيرة».

تبتعد سارا بضع خطوات عن سيارة الأجرة. يتوقف أمامها آخر موديل

من سيارة بي إم دبليو. سارا، في تخيّلها المثير بأنها مومس، تمد رأسها من نافذة السيارة. سندباد يجلس وراء المقود، ودارا يجلس إلى جانبه. يبتسمان لها ابتسامة عريضة شهوانية.

الأستاذ يقول:

«انظروا إلى الجمال الذي وصف فيه الشاعر مراحل الحبّ السبعة في هذه القصيدة. ففي الصحراء، أضاع قافلة الجمال، وأضاع حذاءه أيضاً وراح يمشي حافياً. كانت أشواك الصحراء تخز قدميه، وهو سعيد بهذا العذاب. ليس من المهم له أن يصل إلى غايته الصوفية، بل المهم له أن يمشي في الصحراء إلى محبوبته طالما أمكنه ذلك. إنّ الأشواك هي رمز الآلام التي يجب أن نتحمّلها في هذا العالم المادي حتى نصل إلى الله ونصل إلى الجنة».

لم تصعد سارا إلى سيارة بي إم دبليو. تركل باب السيارة وتصيح:

«أيها الرعاع!».

في مخيّلتها، ترى نفسها محشورة بين دارا وسندباد. واحد من الوراء، وواحد من الأمام، ثم يتبادلان الأماكن. طبعاً حتى هذه اللحظة من القصّة، لم تكن سارا قد شاهدت فيلماً إباحياً على الإطلاق، ولا تعرف كيف استحضرت إلى مخيّلتها مثل هذه الصورة. يلتفت الفتى الذي يشبه رأسه رأس دارا مرة أخرى ويبتسم لها. أسنانه أفغانية. ترفع سارا يدها بحماسة لتسأل سؤالاً.

«هل لديك سؤال، يا أختي؟».

«نعم. لماذا ندرس فقط الأعمال التي يعود تاريخها إلى ألف سنة في كلية الآداب؟ لماذا لا ندرس شيئاً عن الأدب الإيراني المعاصر أيضاً؟».

«ماذا تقصدين بالأدب الإيراني المعاصر؟».

«البومة العمياء، مثلاً».

«أختاه، هل تدعين «البومة العمياء» أدباً؟ إن هذه الزبالة ليست أدباً. هل تريدين أن أضع جانباً جماليات أدبنا الصوفي وأدرّسكم أعمالاً لا تعبّر إلا عن الحرمان الجنسي، وتستسلم للغرب، وتشجع على عدم التقوى؟ هل تريدين أن نتخلى عن الجماليات في لغة أدبنا ونقرأ نثراً سخيفاً مليئاً بالأخطاء ـ نثراً يدعى الأدب الإيراني المعاصر؟ ينقسم الأشخاص الذين تعرفون، أيها الطلاب، بأنهم كتّاب وشعراء اليوم إلى ثلاث مجموعات. فهم إمّا جواسيس للغرب، أو مدمنون على المخدّرات، أو شاذون جنسياً. ومن واجب كلّ مسلم أن يحلّ دم هؤلاء. إن قراءة أعمالهم خطيئة كبرى. إن قراءة الهراء الذي يكتبونه سيقودكم إلى الضلال. ستُحرقون في نار جهنم مع هؤلاء الشعراء، مع هؤلاء الذين يسمون أنفسهم كتّاباً».

تنطلق الآن سارا، في مخيّلتها، في جادة ميرداماد. ترى نفسها حرّة في أن تكون مومساً أو غلاماً أو امرأة تصرخ في الرجال الإيرانيين الأغبياء:

«لعن الله شعاراتكم السياسية. عندما أردتم أن تكونوا عصريين، ضربتمونا على رؤوسنا لنخلع عباءاتنا، وعندما أصبحتم متدينين ضربتمونا على رؤوسنا لنضع غطاء الرأس ونرتدي العباءة. اللعنة عليكم! سأمشي في جادة ميرداماد كما يحلو لي. إن كلّ ما تعرفونه هو أن تقوموا بثورات وانقلابات. سأسير في هذا الشارع، وتتوقفون أنتم، في سياراتكم المتهالكة أو سياراتكم الفخمة، أمامي لأنكم لا تريدون إلا أن أكون عاهرة. اذهبوا إلى الجحيم. سأمشي حيثما أريد».

لا أعرف كيف انطلقت هذه الهتافات في رأس سارا في قصّتي. إذ لم أكن أملك الشجاعة طوال حياتي على أن أغرس مثل هذه الأفكار بقوة

وصراحة في رأس إحدى الشخصيات في قصصي. إنني واثق من أن السيد بيتروفيتش سيفقد صوابه لو قرأ أفكار سارا. أولاً، سيمنع أخته وأمّه من السير في جادة ميرداماد، وثانياً، سيبذل ما بوسعه لأن تصدر الحكومة قانوناً يمنع أي امرأة إيرانية من أن تضع قدمها في هذا الشارع العصري.

يلتفت الفتى الذي يشبه رأسه رأس دارا ثانية نحو سارا ويبتسم لها. تلاحظ أن عينيه قد تبدلتا من عينين مونغوليتين داكنتين إلى عينين زرقاوين غير شرقيتين. نوع من اللون الأزرق الإنكليزي البارد. تحدّق إليه سارا بكراهية شديدة فيدرك أنه يجب أن يدير وجهه ولا تعود سارا ترى إلا مؤخرة رأسه. يوضح الأستاذ أنه استعداداً للامتحان النهائي، يتعين على كل طالب وطالبة أن يحفظ عن ظهر قلب سبعين بيتاً من قصيدة لشاعر مات منذ ستمائة سنة، وأنه يتعين عليهم أن يدونوها على ورقة الامتحان. سارا تريد أن تبدي احتجاجها، لكنها لا تمتلك الشجاعة الكافية للقيام بذلك. لكنها بدأت تعرف الآن أنها أصبحت تمتلك الشجاعة الكافية للرّد على مكالمة دارا الهاتفية أو رسالته الإلكترونية الليلة.

في هذه الأثناء، كانت جادة ميرداماد تخلو من سارا، ولم تكن ترى سوى المومسات اللاتي تتزايد أعدادهن يوماً بعد يوم فوق أرصفتها. وعندما يتأكدن من عدم وجود دوريات حملة مكافحة الفساد الاجتماعي في مكان قريب، يسرن في الشارع ويقفزن بسرعة في أول سيارة فخمة تتوقّف أمامهن.

روائح العطور الغامضة التي جُلبت إلى الإمبراطوريات الإيرانية عن طريق الحرير تتضوع في شوارع طهران تبحث عن أنف يتنشقها ويحبّها.

كوبرا في النافذة

في الليل، تبدو جميع نوافذ البيوت في كثير من المدن في العالم متشابهة، بستائرها والظلال القابعة وراء تلك الستائر. إلا أن ثمة مدناً لا تختلف نوافذها فقط عن أي مكان آخر، بل إنها لا تشبه في الليل شكلها في النهار، وتعد طهران واحدة من تلك المدن. وتنتاب دارا أروع اللحظات عندما يجيل النظر غالباً في النوافذ المسدلة ستائرها أثناء الليل. إنه يحبّ أن ينظر إلى النوافذ المضاءة بنور باهت تلمع عبر ستائرها الملونة، ويتخيّل مشاهد شاعرية عن أعمال رقيقة يقوم بها ساكنو تلك البيوت.

في هذه الليلة، وهو عائد من عمله إلى البيت، يجد ثلاث نوافذ كهذه. لكن كان ثمة شيء خاص يميّز النافذة الثالثة التي منحتها ستائرها المخملية البنية الداكنة مظهراً أرستقراطياً... ذكّرته قليلاً بنوافذ بيت ممارسة الحبّ لأنّا كارنينا وعشاقها. كان قد أنهى اليوم طلاء أحد البيوت وقبض أجره. وعندما يصل إلى البيت، سيضع ثلاثة أرباع الأجر الذي تقاضاه لأمّه بجانب جهاز التلفزيون القديم، وسيصعد إلى غرفته فخوراً بأنه ابن طيب لأسرته. لذلك، عندما يصل إلى البيت، سيتمكن من مراقبة النوافذ وسيحمل عبء الترحيب باعتزازه بنفسه، ذلك الاعتزاز نفسه الذي تحطم مرات عديدة في الأسبوع الماضي. فقد كان بعث إلى سارا رسائل

إلكترونية عديدة ولم يتلق رداً منها، ورغم الوعد الذي قطعه على نفسه، وبالرغم من خوفه من التنصت على مكالمته، اتصل عدة مرات ببيت سارا. وبخلاف الليالي الأخرى، كان والد سارا هو الذي يردّ على الهاتف بدلاً منها، وعندما كان يسمع صمت دارا في الطرف الآخر من الخطّ، كان يمطر هذا المتصل المهووس بأقذع الكلمات الفاحشة.

وتتسلل مخيلة دارا إلى البيت من خلال الستارة المخملية ويرى رجلاً وامرأة، يقبّل أحدهما الآخر من دون خوف، وبكل الحرية المتاحة في هذا العالم وفي العالم الأثيري.

كيف يقبّل أحدهما الآخر في مخيّلة دارا؟

أعرف أنكم تتوقعون مني ككاتب أن أقدّم لكم أسلوباً جديداً في التقبيل نتيجة إبداعي في حكاية القصة. لكنني لا أستطيع، لأنه قبل كتابة هذه القصّة، كُتبت وشرحت كلّ أساليب التقبيل في القصص، وعرضت في الأفلام. حتى عندما يكون الرجل مثلاً معلقاً رأساً على عقب من السقف وقدما المرأة مثبتتين على الأرض. لذلك، لن تجدوا في هذه القصّة أيّ طريقة مبتكرة أخرى للتقبيل إلا الطريقة القديمة الخرقاء التي قبّل بها آدم عندما لامست شفتاه شفتي حواء عرضاً، واكتشف أنه يمكن عمل شيء بهذه الطريقة. إن هذا الأسلوب في التقبيل يتناغم تماماً مع شخصية دارا، لأنه، كما تعرفون، لم يسبق له أن قبّل شفتين من قبل.

لذلك، وعلى الرغم من جميع القبل السينمائية التي رآها، يتخيّل القبلة التي تتم بين ذلك الرجل وتلك المرأة وراء النافذة بذات الطريقة التي تصوّرها له مخيّلة شفتيه. قبلة آدم وحواء بنكهة التين في طهران.

يغالبني نعاس شديد. أشعر وكأن رأسي على وشك أن ينفجر. لقد أهدرت ثلاث ساعات كاملة وأنا أحاول أن أعثر على طريقة جديدة في

التقبيل، وقد أوشك الفجر الآن على البزوغ. وبعد ساعتين، ستبدأ العصافير الإيرانية تغرّد على أغصان أشجار النارنج، غير آبهة بجميع القنابل، وجميع الإرهابيين، وجميع القبلات، وكلّ آنا كارنينا، وكلّ من تحمل اسم سارا، وجميع بيتروفيتش. أعرف أنني إذا غسلت وجهي بالماء البارد، فإن ذلك لن يرغم النوم على مغادرة عيني، وأشعر بوخز في شفتي لأنني عضضتها كثيراً. يجب أن أدع عينيَّ تأخذان إغفاءة.

بذراعين متعبتين لم تعد فيهما القدرة على حمل فرشاة الطلاء، ولا حتى ضربة واحدة على الجدار، شاعراً بالاعتزاز بثقل النقود في جيبه، يدلف دارا إلى زقاق ضيّق لاختصار طريقه إلى بيته. وفي وسط الزقاق، يشعر بشبح يتعقبه. شبح قوي، مرعب، خالٍ من الرحمة: شبح يستطيع أن يهشّم أيّ مخلوق بمجرد تلويحة من ذراعه. مرعوباً، يستدير دارا وينظر خلفه، لكنه لا يجد أحداً. والزقاق يقع في أحد أحياء طهران القديمة الذي أصبحت مع الزمن مسكناً للفقراء. وتحيط بباحات البيوت، التي يعود عمرها إلى مائتي سنة، الممتدة على طول الزقاق المتعرّج، جدران عالية من الطوب، وظلال أشجار الكالبتوس التي يبلغ عمرها مائة سنة، وأشجار الخرنوب التي تخيّم فوقها. كانت نوافذ البيوت مظلمة، والزقاق يعجّ بالظلال القديمة. يغذّ دارا خطاه. يمكنه أن يسمع بوضوح الآن وقع خطوات الشبح. مرة أخرى، يتوقف فجأة وينظر إلى الوراء. يتوقف صوت وقع خطوات الشبح الذي يتعقبه أيضاً. دارا يشعر بوهن في ساقيه. غريزته تدفعه إلى أن يجري لكنه لا يمتلك القوة ليفعل ذلك. وفجأة، يرى بريق خنجر يشبه وميضاً فضياً لكوبرا على أهبة الهجوم...

لا، هذا غير مجد. لندع هذا الفصل كله من دون أن نقرأه كله. لا أفهم لماذا جعلت دارا يذهب إلى ذلك الزقاق المرعب، ولا أعرف لماذا يتعقبه

ذلك الشبح. أخمّن أن الشبح لص محترف عرف بطريقة ما أن دارا قد قبض أجره ويضعه في جيبه لذلك يريد أن يقتله ويسلبه النقود. يا له من أمر سخيف! لست بحاجة إلى مثل هذا الفصل في قصّة الحبّ التي أكتبها. أرجوكم امضوا واحذفوا هذا الفصل الذي لا يمكن أن يكتبه إلا كاتب مبتدئ.

الحشاشون في طهران

في هذا اليوم الغائم في طهران، سيلاحظ الذين لديهم وقت كاف لمراقبة السماء بين الفنية والأخرى، طائر الواق محلقاً في سماء المدينة. وطائر الواق هو طير يعيش في شمال إيران، بعيداً عن طهران، بالقرب من البحيرات والمستنقعات، ووجوده في طهران التي لا توجد فيها بحيرات ولا مستنقعات، أمر يدعو إلى الاستغراب. وبحسب ما يذكر القرويون الذين يعيشون في الشمال، على طول ساحل البحر الأسود، أكبر بحيرة في العالم، فإن طائر الواق طائر حزين. فهو يبكي على الدوام، وإذا حدث وغرّد، فإن تغريده يعبّر عن المعاناة والفراق. لذلك، إذا رأيت أنا، أو رأيتم أنتم، أو أحد سكان طهران هذا الطائر يحلق في سماء المدينة، فيجب أن نتوقّع حدثاً ينذر بالسوء. وربما كانوا قد علّقوا اليوم أحدهم، في إحدى ساحات المدينة أمام عيون المئات، من رافعة ليلقنوا الناس درساً. وفي ساحة أخرى، ربما قطعوا اليد اليمنى والساق اليسرى لأحد اللصوص، أو ربما أُرغم طالب مسجون في سجن إفين، بعد معاناته أربعة أشهر في سجن انفرادي، على الاعتراف أمام كاميرات التلفزيون بأن وكالة الاستخبارات الأمريكية قد دفعت له مبلغاً من المال ليحرّض على قيام تظاهرات مناهضة للحكومة. لا أعرف هل يعرف طائر الواق هذا تلك الأشياء أم لا، بل كلّ ما أعرفه

هو أنه سيحلق في سماء طهران حتى تميل الشمس إلى الغروب.

يضيع دارا في إحدى ضواحي طهران. اتصل به هذا الصباح شخص غريب وقال إنه حصل على رقم هاتفه من شخص كان دارا قد طلى له بيته، ويريد من دارا يطلي له بيته المبني حديثاً، لأنه علم أن دارا دهان شريف ويعمل بضمير. هكذا كان دارا يجد عملاً باستمرار. زبون سابق أعجبه التعامل مع دارا يعطي عنوانه أو رقم هاتفه إلى شخص آخر. لكن هذه المرة، فإنه يتجول في هذا الحيّ الفقير منذ الساعة الثالثة بعد الظهر، ولم يعثر على بيت ذلك الشخص الغريب. سأل عدة أشخاص عن مكان البيت، وكان كلّ واحد منهم يدلّه في اتجاه مختلف. سار في دروب ومسالك ترابية تحفّها بيوت صغيرة متواضعة على الجانبين، وقد أصبحت الشمس الآن على وشك الغروب في طهران. ومن زقاق متعرّج، وصل فجأة إلى أرض مقفرة تُلقى فيها قمامة المدينة وتُحرق.

يسير دارا باتجاه تلال النفايات. الدخان يتصاعد منها كالأمواج. دخان القمامة مزيج من ظلام العالم. ويشبه هذا الدخان المتصاعد من أحشاء وقمم تلال القمامة المرتفعة، الضباب الذي يجعل الهواء مظلماً. وبغتة، يظهر من قلب ظلام هذا البخار ذي الرائحة الكريهة، رجل يرتدي برنساً أسود، وقد سحب قلنسوة البرنس فوق حاجبيه بحيث لم يعد بالإمكان رؤية وجهه جيداً. أو ربما أخفى وجهه بغطاء داكن. وبثبات، يسير الرجل باتجاه دارا. ينتاب دارا شعور بأنه يتخيّل هذا الشبح الذي يعود إلى قرون ماضية. يسأل نفسه: «من هو هذا الرجل؟ لماذا أرى شيئاً كهذا؟». ولا يزال الرجل ذو الخطوات الواسعة التي تشبه الحجارة، مع عناقيد الدخان التي ترافقه، يسير باتجاهه. يهمس دارا: «ثمة شيء في يده. لماذا يمشي نحوي هكذا؟». يصبح الرجل الذي يرتدي برنساً ذا قلنسوة على مسافة

خطوة واحدة منه، وفي مسافة الخطوة هذه، يرى دارا بريقاً في عيني الرجل ووميض الخنجر الذي يبرز من كمّه. وبخفة ضربة كوبرا، يجرح بالخنجر صدغي دارا. وكما لو كان قد سحق ذبابة على وجهه، يسير الرجل مبتعداً. عندما يصحو، يجد دارا الدم يتدفق من رقبته، وفي اللحظة الأخيرة من حياته، يعرف الجواب على السؤال النهائي في حياته. ولم يكن ذلك الشبح سوى أحد هؤلاء الحشاشين ـ عضو في جماعة الحشاشين التي أُسّست في القرن الحادي عشر على يد حسن الصباح. طائر الواق يحوم فوق الأرض المقفرة؛ الدخان المتصاعد من تلال القمامة يتجمع حول دارا، ويخفيه عن عيون العالم.

لا، لا... ليس ثانية.

في هذه الليلة، عندما فتحت جهاز كمبيوتري لأواصل كتابة روايتي، أدركت أنني كتبت ليلة البارحة هذا المشهد. ماذا يجري؟ لا أذكر البتة أنني كتبت مثل هذا المشهد. لماذا قتلت الشخصية المركزية في قصّتي في منتصف الرواية تماماً؟ وبهذا النثر الضعيف. لم أكن أقصد ذلك. بالعكس، كنت أنوي أن أكتب قصّة حبّ رقيقة لا توجد فيها كآبة أو ظلام. هل الشبح الذي قتل دارا هو أنا؟ كيف يمكن أن يكون ذلك؟ المشكلة هي أنني، بخلاف الحشاشين، لا أؤمن بأنني إذا قتلت أحداً فإنني سأذهب إلى الجنّة. إذ كان هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى طائفة سرية امتدت من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر، وقد اغتالوا شخصيات مهمة في الأراضي الإسلامية، منهم أحد أكثر الوزراء الإيرانيين شهرة، بل حتى إنهم اغتالوا بطريرك القدس أثناء الحروب الصليبية. لا يمكنني أن أصدق أنه يمكن أن يقبع في تلافيف عقل شخص مثلي، شخص على احتكاك بالفنون طوال حياته، قاتل من نوع الحشاشين.

من الناحية الأخرى، يبدو لي أن قرائي قد يعجبون بفكرة ظهور أحد الحشاشين في طهران في القرن الحادي والعشرين. لا لأن هؤلاء هم الذين ألهموا الجماعات الإرهابية وحتى الانتحاريين في زمننا هذا، بل بسبب وجود هذا الشبح الذي يعود إلى أزمان سحيقة بوجهه المخفي.

لذلك لن أحذف هذا الفصل، بل، سأعيد كتابة جمله الأخيرة على هذا النحو:

بحركة سريعة برسغه، يستل شبح القاتل الخنجر الذي يخفيه في كمّ البرنس الذي يرتديه. يتصاعد منه بخار البهجة والحزن الذي ينطلق من هذا العالم. يرى دارا في عيني الشبح بريق الكراهية له وللآخرين، ويسمع عويل الخنجر الذي يرتفع ليقتله. وفي مثل هذه الظروف المرعبة، فإن أي شخص آخر سيتجّمد في مكانه عندما يجرح الخنجر وجهه، ~~لكن التفكير السريع الناجم عن سنوات من كونه ناشطاً سياسياً و~~ مئات أفلام المطاردات التي شاهدها، تنقذ دارا، فيقفز إلى الوراء. ثم، بحسب المثل الإيراني، لديه ساقان، ويمكنه أن يستعير ساقين أخريين، ويجري. لكن الشبح، كما لو كان هو أيضاً قد استعار ساقين أخريين، يطارده. يمر دارا بين تلّين من النفايات مشتعلين. يجري وراء الشاحنة التي تُلقي بقمامة المدينة الجديدة، ويصطدم بثلاثة فتيان يجمعون بعصبية أوعية بلاستيك من بين النفايات. يرتمي كل فتى في جهة مختلفة. يصيح الثلاثة بصوت واحد «~~كس أختك وأمك~~»، متجاهلاً إياهم، يجري دارا باتجاه البيوت القريبة التي يمكنه أن يراها من وراء الدخان الكثيف. لا يزال يشعر بظل الشبح الثقيل وراءه. يجري في زقاق ضيق. يأمل أنه بعد أن يصبح بين الناس، أن يختفي الشبح. لكنه يستدير في وسط الزقاق وينظر وراءه ويرى أن الشبح لا يزال يطارده. وبأقصى ما أمكنه من سرعة، يشق دارا طريقه

راكضاً بين صبية حفاة يلعبون كرة القدم فيرمونه بأقذع الشتائم والسباب، والشبح كذلك. ويجري أمام نساء يجلسن أمام أبواب بيوتهن الفولاذ وهن يثرثرن. يلهث طلباً للهواء. يجري من أمام حائط مكتوب عليه: لعن الله أجداد من يبول هنا، ويجتاز بقع البول الصفر والبنية على الحائط وعلى الأرض التي تشبه نوعاً ما لوحات بولوك، والشبح أيضاً. رئتاه تتشنجان، لكن شبح الحشاش، وكأنه واقف الآن فوق بساط الريح، ثابت ومتوازن، لا يزال يجري وراءه. وعندما استنفدت طاقته، تنقذ دارا الجمهورية الإسلامية. إذ يرى صفاً طويلاً من الرجال والنساء مصطفّين خارج مخزن بقالة ويلقي بنفسه في وسطهم. يبدأ الناس يصيحون محتجين:

«يا سيد، لا تدخل وسط الرتل!».

«اخرج!».

«هيه، فليلق أحدكم بهذا الرجل خارج الرتل!».

ويمرّ الشبح. لقد أحسن صنعاً عندما فعل ذلك. إذ لم يحدث في التاريخ أن قام حشاش باغتيال رجل في مثل هذه الظروف. إن هذه الأرتال هي من بقايا الحرب العراقية ـ الإيرانية التي دامت طويلاً. ففي أثناء الحرب وزّعت الحكومة قسائم على السكان، لأن أسعار الرزّ واللحم وزيت الطهو كانت في ارتفاع مستمر يوماً بعد يوم. وبين الحين والآخر، كانوا يذيعون في الإذاعة والتلفزيون أرقام القسائم التي يمكن استخدامها لشراء بضعة كيلوغرامات من الرزّ، أو لشراء نصف كيلوغرام من زيت الطهو بأسعار مدعومة. وكان أصحاب القسائم يصطفون في أرتال أمام المخازن المحددة لهم. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بفترة طويلة، ومع تزايد عدد الإيرانيين الذين كانوا يهبطون إلى ما دون خط الفقر سنة بعد سنة من دون أن يدركوا ذلك، استمرت الحكومة، بين الحين

والآخر، في إذاعة بعض أرقام هذه القسائم لشراء بضعة كيلوغرامات من الرزّ أو لحم البقر المبرّد المستورد من أستراليا، مما كان يدخل سعادة كبيرة على نفوس الناس.

تتواصل الاحتجاجات والاعتراضات على دارا الذي اخترق الصفّ، فيرّد بصوت عال:

«بحق الله، لا توجد لدي قسيمة».

«إذاً اخرج من الرتل».

لا يزال منحنياً، واضعاً يديه على ركبتيه، محاولاً التقاط أنفاسه، يتحرّك دارا قليلاً إلى الجانب.

الشخص الثالث الواقف أمامه، غير عابئ بما يجري وراءه، يقول لرجل آخر:

«أترى ماذا حلّ بنا؟ بلدنا يجلس فوق بحر من النفط، ويتعين علينا أن نقف في رتل كالشحاذين لمدة خمس أو ستّ ساعات لنحصل على حفنة من الرزّ».

لكن الشخص الثاني الواقف أمام دارا، الذي يبدو أنه ساخط أيضاً، لكنه يبدو واثقاً من أن الشخص الثالث الواقف في الرتل هو من رجال الشرطة السرية يريد أن يتعرف على الأشخاص الساخطين، فيقول:

«يا أخي، يجب أن نتحمّل حتى تتمكن الثورة من تحقيق أهدافها. يجب أن نوجّه لكمة قوية إلى فكّ أميركا. إن وقوفنا هنا في هذا الرتل يشكل لطمة قوية على فم الشيطان الأكبر وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا وإسرائيل وآخرين».

فيقول الشخص الرابع الواقف في الرتل، الذي يبدو أنه ساخط أيضاً، لكنه يبدو أنه أدرك أن الشخص الثاني الواقف أمام دارا هو واحد من

الأعضاء المخلصين في حزب الله:

«نعم، إن حزبنا، حزب الله، على حق يا أخي. يجب أن نقدّم تضحيات لكي ننقذ هذا العالم».

فيصرخ أحدهم من وسط الرتل:

«يا سيدا هل ستخرج من الرتل أم لا؟».

يعتدل دارا في وقفته ويقول:

«يا سيدا إني لست واقفاً في الرتل. حتى إنني لست كائناً بشرياً لكي أقف في الرتل».

مثل ذبابة

«حاول أحدهم أن يقتلني».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد أنه من المفترض أن أكون قتيلاً الآن... ولا تظنني أنني خائف. أصدقك القول إنني بطريقة ما أريد أن أتحرر من هذه الحياة الرهيبة. لكنني قبل أن أموت، أريد أن أعرف لماذا يحاولون أن يقطعوا عرقي».

«لا تعذّبني هكذا. قل لي ماذا حدث؟».

عينا سارا، بعد أن تذرفا دمعتين، تصبحان ضيقتين وضبابيتين.

يجلسان في حديقة عامة على مقعدين أحدهما في مواجهة الآخر. وعندما لا يمرّ أحد في الدرب بينهما، يتكلّمان، وعندما يقترب أحدهم، يشيح أحدهما بوجهه عن الآخر، ليبدوَا غريبين.

يقول دارا:

«لو متّ بسببك، لكانت تلك أفضل طريقة للموت».

«إنك لا تجرؤ على الموت من أجلي. قل لي ماذا حدث؟».

«لا يوجد لدي أعداء؛ أقصد، لكي أكون صادقاً، فأنا نكرة في هذا الكون لذلك لا يمكن أن يكون لدي عدو... فكّرت كثيراً بالأمر خلال اليومين الماضيين، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن خطيبك هو عدوي

الوحيد. لا يوجد أحد غيره يمكن أن يستفيد من موتي. لماذا أعطيته عنواني ورقم هاتفي؟».

«إن سندباد لا يعرف بوجودك».

«عظيم! من حسن الحظ! لكن هذا الشخص ينتمي إلى جماعة قوية تستطيع أن تعرف كل شيء. إنهم يستطيعون أن يفعلوا كلّ ما يحلو لهم. لماذا تريدينني أن أُقتل؟ فقط قولي لي حتى أغيب عن وجهك».

«توقّف عن الصراخ! بحق الله، أخفض صوتك. إن سندباد الذي أعرفه لا يمكن أن يفعل شيئاً كهذا. إنه رجل طيب. لا... ليس سندباد... مستحيل. ربما كانوا يريدون قتلك بسبب ماضيك السياسي».

«لا، هذا مستحيل. إني أعيش مثل شاة منذ سنوات. وكلّ ما أفعله هو أنني أطلي البيوت بالدهان. إني لا أشارك في أي نشاط سياسي على الإطلاق. إنهم يعرفون ذلك جيداً. حتى لو أرادوا قتلي، فإنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك بسهولة أكبر بكثير وبخبرة كبيرة. من يريد أن يقتل نكرة مثلي؟».

«لا تتحدّث عن دارا الذي أعرفه هكذا. إن دارا الذي أعرفه رجل عظيم».

«عظيم مثل السيد اللطيف سندباد؟».

«إنك تغار منه. إنني لا أصدق القصّة التي تختلقها. لسنا بحاجة لاختلاق مثل هذه القصص. إننا معاً. لماذا لا تفهم؟».

«بدأت أفهم ماذا يعني أن نكون معاً، لكنني لن أسمح لخطيبك سندباد أن يسحقني مثل ذبابة. سأقتله».

يدنو منهما رجل. تستدير سارا بسرعة. ويستدير دارا أيضاً. يبدو أن الرجل مجنون. مشيته تشبه الرقص قليلاً. إنه يغني: «في الليل، عندما أحمل

صورتك في يدي، تنبعث رائحة الأزهار من سريري عند الفجر...».

ينظر إلى سارا ودارا، ويضحك بصوت عال، ويقول:

«أيها الشيطانان! لقد أمسكتكما متلبّسين بالجريمة. كونا حذرين! إنكما لستما ذكيين كما تظنان».

يسير مبتعداً.

محاولة أن تخفض صوتها قدر الإمكان، تقول سارا:

«أرجوك، كن ذكياً. لا تعذّبني هكذا!».

«إنك لا تريدين أن تتعذّبي، لكنك تحبّين العذاب».

«اسكت! إنك تريني جانباً منك لم أره من قبل».

«إنه كما هو... هل تتزوّجينني؟».

«لا أريد أن أتزوج أحد. أنتم الرجال جميعكم أغبياء. لا تفكّرون إلا بأنفسكم».

«إنك تكذبين. إنك تريدين أن تبيعي نفسك للسيد الغني سندباد».

«هل هذا هو رأيك فيّ حقاً؟ أبيع نفسي؟».

«لم أعد أبالي. سأقتله ـ لا لأنه سيصبح زوجك، بل لأنه يريد أن يتخلّص مني. أعطني عنوانه».

تزداد عينا سارا ضيقاً. تحرّر نفسها من المقعد وقبل أن تغادر، تقول:

«لقد جننت من الغيرة. ينبغي ألا تفعل ذلك».

«سأقتله قبل أن يقتلني».

«ستفعل ذلك بحق الجحيم. لقد جننت».

تسير سارا مبتعدة. وراءها، دارا الذي بدأ يسير في الاتجاه المعاكس، يصيح:

«لقد أفقدتني صوابي».

وتتردد صيحته بين أشجار الصفصاف وأشجار القيقب الباكية.

دافالبا

حاولت أن أثني دارا عما يزمع أن يفعله، لكنني لم أفلح. أرى بوضوح الآن كيف أن قصّة الحبّ التي أكتبها بدأت تأخذ مساراً لم أكن أنوي أن تأخذه على الإطلاق. لقد أصبحت القصّة التي أكتبها على وشك الانهيار. فقد بدأت كل شخصية فيها تعزف على وتر مختلف من دون أن تتمكن من خلق تناغم سيمفوني جماعي. وأصبح لا بد من أن أفكّر بشيء. يجب أن أفعل شيئاً.

إن النقطة الرئيسية التي يجب أن أركّز عليها هي ألا أسمح لدارا بأن يقتل سندباد. يجب أن يمنحني قليلاً من الوقت لكي أعرف من الذي يحاول أن يقتله. لكن هذا الفتى المتبلد الذهن لا ينصت إلي. نعم، من الواضح تماماً أن الغيرة أعمته. لم أشعر في حياتي قط بالضعف بهذا الشكل عندما أكتب إحدى قصصي، وبحسب علمي، لم يشعر دارا بأنه قوي كما هو الآن. لا يستطيع أن يفهم أن رجلاً يدعى بيتروفيتش ستغمره الفرحة الآن لأن هذه القصّة بدأت تغرق في مستنقع من الخراء. لذلك:

في بعض الليالي، ومن دون أن يُعلم سارا، كان دارا يطوف في الشوارع المحيطة ببيتها. إذ إنه يعرف أن سندباد سيأتي لزيارتها في إحدى هذه الليالي، والحلّ الوحيد الذي توصّل إليه هو أن يجده هنا لينفذ انتقامه. وأصبح يخبئ في جيبه مفكّ براغٍ، وكان يتخيّل، على غرار أفلام هوليوود

التي تُعلِّم شعوب العالم جميع أساليب القتل والاغتيال، أنه سيخز هذا الشيء البريء تحت حنجرة سندباد بكلّ ما أوتي من قوّة، ويحركها إلى اليمين والشمال مرات عديدة لكي يمزّق كلّ شيء في رأسه.

وأقول:

«بما تنوي أن تفعله، فإنك ستجعل أعداء الأدب الإيراني سعداء. دعنا نفكر معاً، وليساعد أحدنا الآخر في كتابة مشهد حبّ جديد وجميل لك ولسارا، مشهد لم يُكتب في أي رواية من قبل. ففي بلادنا، تراق الدماء ليلاً ونهاراً، ويُعبَّر باستمرار عن الكراهية والعداوة، إذ يمسك الناس بتلابيب بعضهم بعضاً، ويريد كل واحد منهم أن يلغي وجود الآخر. أقصد أن كل واحد فيهم يريد أن يقصّ الآخر بمقص الرقيب. لذلك يجب ألا نقع، أنا وأنت، في هذا الفخّ. يجب أن نفعل شيئاً مختلفاً. هيا لنضع رأسينا معاً، ونخرج بشيء جميل نفعله...».

«لقد سئمت حقاً. يجب أن أقتله».

يمكنني أن أفهم أنه بعد سنوات من تحمّل الظلم والإهانات والألم والاختناق، مثل حويصلة ملتهبة، انفجرت في روح دارا وتسرّب سمّها وتغلغل في دمه، وأفقده ذلك صوابه. هذه هي النقطة التي لا يفهمها الدكتاتوريون، وحتى لو فهموها، لما وجدوا بديلاً إلا الإمعان في التعذيب وفرض الرقابة، إلى أن يأتي اليوم الذي يغمر فيه جنون الثورة الشوارع ويحرق الأخضر واليابس ويرتكب جرائم القتل.

الغبار المنطلق وراء الجنود الأفغان المتوجهين إلى غزو أصفهان ونهبها لا يزال يملأ الهواء ويهطل مطراً رقيقاً فوق أسطح المدينة.

أقول لدارا:

«لكن دارا الذي خلقته وكتبته جملة إثر جملة لا يستطيع أن يرتكب

جريمة قتل. إنه شاب مسالم ويحبّ البشر، وقد تعلّم من الفنّ والسجن أن القاعدة الأولى في أن يكون الإنسان إنساناً هي أن لا يؤذي الآخرين. وموهبته في الحياة تتمثل في المغفرة والصفح وتحاشي العنف».

دارا يمسك بتلابيبي. يدفعني إلى جدار غرفته بقوة. أدرك للمرة الأولى مدى قوة ذراعه اليمنى التي اكتسبتها من العمل في طلاء الجدران والأسقف. يصيح في وجهي:

«ما كان ينبغي لك أن تكتبني بهذا الشكل. ما كان عليك أن تكتبني وتصوّرني شخصاً ضعيفاً ومثيراً للشفقة. لقد كتبتني وكأنني دودة أرض. كتبتني لأصبح شخصية كلّ ما أستطيع أن أفعله، مهما فعلوا بي، هو أن أتلوى وأتحمّل الألم. لقد كتبتني هكذا لكي تنجو قصّتك من مقص الرقيب. لا أريد أن أُكتب وكأنني دودة أرض حتى عندما يشطرونها إلى قسمين، فإنها تصبح دودتين. لقد قتلتني أيضاً لأنك كتبتني وصوّرتني كشخصية بائسة. لقد كتبت لي جميع أنواع العذابات والتعاسة الموجودة. إنك لا تختلف عن الجلاد الذي يجلدني لكي أعترف بأن الله موجود. أريد أن أكتب قصّة القتل الخاصة بي».

من شدة قبضة دارا على عنقي توقف مجرى الهواء في حلقي. ومع ذلك، جاهدت لأقول:

«دارا، هذه مجرد قصّة».

ازداد الضغط على حنجرتي وأخذ يصرخ:

«حتى في قصّتك فقد سرق أمثال سندباد أموال نفط بلدي، لقد أخذوا كلّ ما أملكه أنا وأمثالي، وقد سكت. ماذا بقي لدي ليأخذوه مني غير سارا؟ إنه يريد أن يأخذها مني أيضاً. لن أدعه يفعل ذلك».

بدت في عينيه وحشية لم أرها في مخيلتي قط. أفلت حنجرتي. أدار ظهره لي وهو لا يزال يهدر:

«في مخيلتي جلدت ذلك المحقق الذي كان يأمرهم بأن يجلدوني. لم تكن لديك الشجاعة لكي تكتب ذلك. حتى إنك لم تكن تمتلك الشجاعة لتكتبِ بصراحة تامة عن الجروح والقروح التي ملأت باطني قدميَّ. لم تكتب كيف تورمت قدماي، وأن المحقق يرغمك على أن تمشي ليعود الدم يسري في جسمك ليضربهما ثانية بسلك غليظ. وتفتخر بأنك كاتب. لتذهب كتابتك إلى الجحيم. لتذهب جميع كلماتك إلى الجحيم...».

يلوذ دارا بإحدى زوايا غرفته. يجلس وظهره نحوي، مسنداً رأسه إلى ركبتيه، ويجهش في البكاء. خجلاً، أخرج من الغرفة. في الطابق الأول، أمرّ من أمام قلعة أبيه. وكدأبه، يتكلّم مع أحدهم في نومه. لا أفهم ماذا يقول، لكنني أريده أن يقول: هؤلاء المنايك لم يطلبوا منا ألا نشدّ وتر القوس.

أمرّ من أمام أجمة الياسمين التي تستسلم لنومها الليلي في البقعة التي حرص فيها دارا على غرس الأزهار في البيت. يراقب الأخ عطا خروجي من نافذته. من نهاية الزقاق، يخيّل إليّ أنني أرى شبحاً يرتدي برنساً في الجانب الآخر من الزقاق، لكنني عندما أصل إلى هناك، أرى الشارع فارغاً ولا أرى شبحاً ولا بشراً. وسمعت من بعيد أصوات قرع طبل ـ تاك، تاك، تاك. لم أعرف من يصدرها، ولم يكن مزاجي يدفعني لأستفسر عن الأمر. فقد حطّم دارا قلبي بقلبه المحطّم. أصبحت أتمنّى الآن أن أكون جديراً بأن يخرج لي أحد الحشاشين ليعزف نوتة خنجره على صدغي. ففي منتصف الليل في مكتبي في شيراز، أرى نفسي أتجوّل على غير هدى في الشوارع الخافتة الإضاءة في طهران. كنت غاضباً من دارا، لكنني كنت أعرف من أعماق قلبي أنه على حق. بدأت الآن فقط أفهم مدى عظمة حبّه لسارا. أعظم بكثير من خيال كاتب قصّتي وصوري عن عشاقي.

في شوارع طهران، كلما اتجهت شمالاً، ازدادت الشوارع جمالاً، وكثرت الأشجار فيها، وازداد صوت قرع الطبل تاك، تاك، تاك قوة وحدّة. لم أفهم ما الذي كان يحدث. بدأت النوافذ تُفتح الواحدة تلو الأخرى، وبدأ الناس يطلون منها لمعرفة من أين تنبعث هذه الضوضاء. وتبدأ الأبواب تُفتح الواحد تلو الآخر، ويخرج منها رجال ناعسون يرتدون بيجامات مجعّدة ووسخة. يوجّهون آذانهم في الاتجاه الذي ينبعث منه صوت قرع تاك، تاك، تاك، ثمّ ينبعث من مكان أقرب، في الاتجاه المعاكس، صوت تاك، تاك، تاك آخر، فيوجّهون آذانهم نحو ذلك الاتجاه. ثمّ، دائخين ومشوشين، يحدّق أحدهم في الآخر.

أحدهم يقول:

«سيدي! أظن أن أمير كا قد شنّت هجوماً».

فيردّ الآخر:

«يا سيدي، إن أميركا لا تهاجم بتاك، تاك، بل تأتي قنابلها فوقنا بغتة، مثل زلزال، وتدمّر كلّ ما نملكه».

فيقول آخر:

«إذا لم تهاجمنا أميركا، فهذه إذاً مؤامرة جديدة من حكومتنا. غداً سيرتفع سعر البنزين أو الخبز».

لقرع الطبل ذبذبات غريبة. إذ لا يستطيع المرء أن يعرف جهة انبعاثها. ويتردد صداها من جدران بيوت المدينة فيزيدها حدّة. أرى أفراد ميليشيا الباسيج المتطوعين وقوات الحرس الثوري يأخذون مواقعهم بسرعة عند تقاطع الطرق ويقيمون بسرعة حواجز للتفتيش. مدججين برشاشاتهم الكلاشنيكوف، ومتأهبين لإطلاق النار على الفور.

رجل تندفع بطنه الكبيرة أمامه وتبرز من بيجامته، والشعرات الطويلة

المحيطة بسرته متهدلة وتتجه في اتجاه واحد مثل طحالب في بالوعات الشارع، يقول:

«ماذا لو بعث الله يوم القيامة؟».

فيجيب آخر:

«سيدي، يبدو أن براغي مخك مرخيّة. إن القصص الدينية تقول إنه عندما يبعث الله يوم القيامة، سينفخ جبريل في الصور نفخة عالية حتى يصاب جميع البشر بالصمم، وستدنو الشمس كثيراً من الأرض حتى تبدأ أدمغة البشر تغلي وتنصهر، فما علاقة هذه التاك تاك تاك في منتصف الليل بيوم القيامة؟».

لا أستطيع أن أقول إنهم خائفون. فمنذ أن بدأ صدام حسين يقصف مدننا بصواريخ سكود، وانفجرت ثلاثة أو أربعة بيوت في حيّنا، وتناثرت أحجارها مع لحم سكانها ووصلت حتى نوافذ بيوتنا، وعندما هدأ الغبار رأينا حفرة عميقة بدلاً من تلك البيوت، لم نعد، نحن الإيرانيون، نخاف من القصف. لا أستطيع أن أقول إنهم مصدومون أيضاً. فخلال السنوات الثلاثين ونيف منذ أن حدثت الثورة، رأينا، نحن الإيرانيون، وسمعنا أشياء غريبة كثيرة إلى حد أنه إذا هطلت من سماء مدننا ديدان أرضية بدلاً من الأمطار، فإننا، بدلاً من أن نُصدم، سينشب جدال بيننا لنثبت إن كانت تلك مؤامرة جديدة يحيكها البريطانيون أو الأميركيون أم حكومتنا، ثم نعود إلى بيوتنا لنتوصل إلى حلول فردية ـ علمية وغير علمية ـ لحماية بيوتنا من الديدان الأرضية.

بدأ صوت تاك، تاك، تاك الآن ينبعث من جميع أطراف طهران. وفي إحدى نقاط التفتيش التي أقامتها الشرطة عند أحد تقاطع الطرق، أخذ أفراد ميليشيا الباسيج، الذين تملكهم الغضب لأنهم لم يعثروا على مصدر

الضوضاء، يوقفون السيارات، ويطلبون من السائقين أن يترجلوا منها، ويحطمون أجهزة التسجيل في سياراتهم بأعقاب بنادق الكلاشينكوف. وأظن الآن أن شرطة مكافحة الشغب العدوانية قد حاصرت جميع مساكن الطلاب في جامعة طهران. ولا يزال صوت تاك تاك تاك يتردد صداه في الشوارع، وفي كل أرجاء المدينة.

أصل إلى شارع الحرية، المكان الذي رأى فيه دارا سارا لأول مرة، ثم أصل إلى شارع السادس عشر من آذار/ مارس الضيّق الذي تحفّه الأشجار. إنني أحبّ أن أمشي في هذا الشارع كثيراً. فمنذ ثلاثين سنة، عندما كنت طالباً في جامعة طهران، كان التجول في هذا الشارع يدخل الراحة إلى نفسي، وخاصة في الخريف، عندما كانت أوراق أشجار الجمّيز والقيقب تملأ أرصفته. ومنذ زمن بعيد، وقبل اندلاع الثورة الإسلامية، في السادس من كانون الأول/ ديسمبر، جاء السيد نيكسون إلى إيران عندما كان نائباً لرئيس الولايات المتحدة، وخرج طلاب جامعة طهران في تظاهرات ضد الإمبريالية الأمريكية، وهاجم الجيش الحرم الجامعي وقتل ثلاثة طلاب. وأطلق طلاب الجامعة والنشطاء السياسيون على هذا اليوم «يوم طلاب الجامعة»، وأصبحت تنظم في كلّ سنة تظاهرات في السادس عشر من آذار/ مارس احتجاجاً على نظام الشاه. وكان الطلاب يحطّمون نوافذ مباني الجامعة، ويهاجمهم حرّاس الجامعة، ويضربونهم ويعتقلون بعضهم، وفي السجن، كانوا يجلدونهم أو يحشرون قناني الكوكا كولا في مؤخراتهم، ثمّ يطلقون سراحهم لكي يقوم المزيد من الطلاب بتحطيم المزيد من النوافذ في السادس عشر من آذار/ مارس. لكن بعد الثورة، أصبح نظام الجمهورية الإسلامية يعدم الكثير من الطلاب والمعارضين والسياسيين كلّ يوم، ولم يعد يستطيع أحد أن يطلق اسماً على أي يوم

بهذه المناسبة. لذلك، أصبحت أيامنا كلها يوم السادس عشر من آذار/ مارس، بمعنى أن أيامنا جميعها أصبحت أياماً تُقتل فيها مجموعة من الأشخاص طلباً للحرية. وكان العمل المميّز الذي قامت به الجمهورية الإسلامية هو أنها قضت على أهمية المناسبات. لذلك، فإنني أسير في شارع السادس عشر من آذار/ مارس، وأوراق أشجار الجمّيز التي جفّت مثل أيدٍ مشوهة بسبب التعذيب تُسحق تحت قدميَّ اللتين لم تتعرضا للتعذيب. وفجأة أسمع صوتاً. صوت أجنحة طائر يحطّ فوق شجرة. أرفع عينيّ وأنظر إلى الأغصان العارية من الأوراق، لا أرى شيئاً، لكنني لا أزال أسمع أصوات الطبل بالإيقاع الإيراني، ستة أثمان ـ تاك، تاك، تاك، تاك... لم يكن شيئاً غريباً، بل مجرد صوت نقّار الخشب. كان هذا كلّ ما في الأمر: طائر نقّار الخشب. وبعد سنوات، لم يعد سكان المدينة يسمعون صوت طائر نقّار الخشب وهو ينقر شجرة، لأنه هاجم أشجار طهران، عشرات الآلاف منها، التي أخذت تنقر لحاء الأشجار الجافّة لتنتزع منها الديدان وتوقظ أهالي المدينة.

وعندما يكتشف أفراد ميليشيا الباسيج مصدر الضوضاء، يوّجهون رشاشاتهم الكلاشنيكوف إلى أغصان الأشجار العليا، ويصلونها بنيرانهم. لكن عدد طيور نقّار الخشب كان أكبر بكثير من عدد طلقاتهم، ولا يزال يتردد صدى حكايات تاك، تاك، تاك، التي لا تنتهي في مدينة طهران.

دارا الذي يطوف حول بيت سارا، يتمتم قائلاً:

«ماذا فعلت لسندباد؟ أعرف أنهم سيسحقونني مثل حشرة في النهاية. من الأفضل أن أنتقم من واحد منهم قبل أن يقضوا عليّ».

يسير ويسير، وتمر دقائق الليالي ببطء، أبطأ من قطرات الفودكا التي تتساقط من جهاز تقطير في البيت إلى القارورة. وكلما ازدادت الليالي والساعات التي يتجوّل فيها حول بيت سارا، ازداد غضبه وكراهيته.

أصيح:

«دارا، عد إلى البيت! إنك تدمّر كلّ شيء. فأنا كاتب معرّض لمقص الرقيب. يمكنني أن أزيلك بسهولة من روايتي إن أردت ذلك. سأرسلك لتمشي في أحد الشوارع، وفجأة تصدمك شاحنة وتقتلك».

دارا لا يسمعني، ويواصل سيره. أندم على الكلمات التي قلتها. أدرك أنني كنت قد فكّرت بسهولة بجريمة قتل أيضاً.

أخيراً، ذات ليلة، في حوالى الساعة العاشرة، وخلال ذهابه ومجيئه، يقترب دارا من بيت سارا، ويُفتح باب المنزل، ويخرج رجل.

ينفث دارا:

«ها هو أخيراً».

يغذّ الخطى ليلحق بالرجل.

أصرخ:

«لا، دارا! لا تفعل».

يتجه الرجل نحو الرصيف. يتبعه دارا، وفي أشد الزاوايا عتمة من الشارع، يمسكه دارا من شعره من الخلف، ويضع مفكّ البراغي عند أسفل حنجرته.

«أيها القاتل، سأقتلك».

وبخلاف توقّعاته، كانت فريسته مخلوقاً ضعيفاً لا تقوى عضلاته على المقاومة. لكن مع ذلك، يضغط دارا المفكّ على الجلد الناعم أسفل حنجرة الرجل، لكن في اللحظة التي يشعر فيها أن الجلد يتمزّق، يخفّف من حدة الضغط، لا شعورياً. أصوات مرعبة تنطلق من فم الرجل.

دارا يجأر في أذنه:

«لماذا تريد أن تقتلني، أيها المنيك؟».

الرجل يرتجف بشدة.

«كم دفعت لهم ليقتلوني، يا سيد سندباد؟».

الرجل يئن:

«ها... ها... حاجي...».

إن الضعف والرعب الذين تملّكا فريسته يزيد من غضب دارا ويجعله جسوراً. وبخلاف مؤامرة القتل التي تخيّلها مراراً وتكراراً، لا يزال واقفاً وراء الرجل، مثبتاً ذراعه حول رقبته، وأخذ يضغط بالمفكّ على أضلاعه اليسرى حتى يرقد نصلها بين طيات الجلد الناعم بين أقرب ضلعين لقلب الرجل. بدأ الرجل يصدر صوت حشرجة.

«الآن هل فهمت ما هو الشعور بالموت؟».

من حنجرة الرجل، تنبعث أصوات كالإسهال. من بين تلك المقاطع المتقطعة، يفهم دارا فقط:

«أنا... أنا... حا... حاج... حاجي كا...».

وتتهاوى فريسة دارا. وبالرغم من جسده النحيل، تصبح كتلة الرجل ثقيلة الآن فوق ذراع دارا. يتركه دارا. يسقط الرجل على الأرض. تمرّ سيارة بالقرب منه، وفي أنوارها يدرك دارا أنه طارد رجلاً عجوزاً نحيلاً أزبد فمه من الخوف. يبدأ يرتعش ويتشنّج، وبدلاً من الدم، أخذ البول ينتشر فوق الرصيف. أخذ دارا يجري. ركض من أمام منزل سارا. ألقى بالمفكّ أمام الباب، وأخذ يجري مبتعداً أميالاً عديدة. يجري حتى يبدأ يلهث بشدة. غارقاً بعرقه، يختبئ في ركن مظلم. وعلى مسافة مائة قدم، كانت أضواء سيارات الشرطة المتلألئة هي الصدمة التي يحتاجها. حاصرت السيارات أحد البيوت وأخذ أفراد الشرطة يجرّون فتيات وفتياناً مقيّدين بالأصفاد إلى الخارج، وكانوا يصفعونهم ويركلونهم ويلقون بهم في سيارات الشرطة. من الواضح، أنهم اكتشفوا حفلاً ليلياً صاخباً.

يغيّر دارا طريقه، ومثل عامل شاب عاقل، يتوجّه إلى البيت. يبدأ يدرك الآن ما سيوشك أن يفعله.

يئن:

«يا إلهي، كنت على وشك أن أقتل رجلاً. لقد أعمتني الغيرة إلى درجة أنني كنت على وشك أن أقتل رجلاً. سارا، ماذا فعلت بي؟ أي نوع من الحيوانات أصبحت؟».

كلما اقترب من منزله، ازداد فزعاً من نفسه. وكلما اقترب من الجزء الجنوبي من طهران، أصبحت البيوت أصغر وأكثر تواضعاً ومحشورة أكثر بالناس. شريحة من القمر تتربع عرش السماء، لكنه لا يحمل طبائع القمر المألوفة. إنه يشبه بقايا منطاد منفجر مجعّد.

وأخيراً، يترك دارا الشوارع التي تضيئها المصابيح والشوارع التي احترقت مصابيحها، ويصل إلى الحيّ الذي يقطن فيه. عند ناصية التقاطع الأخير من الشارع، يناديه رجل يجلس على الأرض، ويتكئ على عمود إشارة المرور. وبصوت ضعيف يقول متوسلاً:

«أيها الشاب! ليمنحك الله عمراً مديداً. ساعدني. احملني على ظهرك إلى الطرف الآخر من الشارع».

يمكن رؤية ساقيّ الرجل في ضوء إشارة المرور الأخضر. نحيلتان وطويلتان، خاليتان من العظام، تلتف إحداهما حول الأخرى. يبدو أنه مشلول تماماً. يصبح الضوء أحمر. يقول دارا:

«الليلة عندما يكون كلّ شيء كابوساً، فإن آخر شيء أحتاج إليه هو أنت. . . فلتذهب إلى الجحيم».

مرعوباً، يعبر الشارع بسرعة، ويحمد الله على أنه توجد لديه جدة تحكي له قصصاً، وكانت قد حكت له حكاية دافاليا.

في القصص الشعبية الخرافية الإيرانية، كان دافالبا مخلوقاً ذا ساقين طويلتين، مثل شريطين جلديين طويلين، يجلس على ضفاف الأنهار، ويستجدي المارين ليحملوه على ظهورهم، ويعبرون به إلى الضفة الأخرى. وإذا أشفق أحدهم على هذا الرجل الذي يبدو مشلولاً وحمله على ظهره، يلتفّ الشريطان الجلديان بسرعة حول رقبته وجذعه، ويُرغم على حمل دافالبا طوال حياته إلى المكان الذي يريد أن يذهب إليه.

يفتح دارا باب منزله، وقبل أن يدلف يلقي نظرة على الزقاق. يخيّل إليه أنه يرى شبحاً يتدثر ببرنس أسود يقف هناك.

يقرّر دارا ألا يخرج في ظلام الليل، وألا يتردّد على الأماكن المعزولة في وضح النهار، واعتباراً من يوم غد، فإنه لن يغادر البيت إلا عندما يتأكّد من أن الشبح غير موجود في مكان قريب. لكن الوقت سيأتي عندما سيباغته، على الرغم من كلّ الحذر، ذلك الشبح القاتل ويهرب، إلى أن يُهزم ويشعر بالوهن بسبب المطاردات، سيهمس:

«أتريد أن تقتلني؟ هيا، اقتلني. ~~لبيضتي اليمنى~~».

إن تحويل الغضب والإحباط إلى الخصيتين تعبير إيراني يمكن ترجمته بعبارة «لا يهمني ذلك أبداً». إن هذا الأسلوب في الاستسلام وعدم المبالاة لا يحدث للشخصيات في الروايات والقصص فقط، بل من المرجح أن يحدث لجميع الأشخاص في الحياة الواقعية أيضاً. ففي لحظة من الزمن مثلاً يساورك الشك بأنّ هاتفك مراقب. وخلال الأشهر القليلة الأولى، ستكون متوتراً وشديد الحذر، ولن تتحدّث عن السياسة مع أصدقائك على الهاتف، وفي اللحظة التي يبدأ فيها أحدهم يخبرك آخر نكتة عن رئيس البلاد، فإنك ستغيّر الموضوع بسرعة، وإن كنت تعيش في بلد مثل إيران، فإنك لن تتصل بالهاتف لتطلب أفلاماً أو مشروبات كحولية

من السوق السوداء. وفي الواقع، فإن رنين هاتفك سيبدأ يثقب أذنيك مثل شوكة. هذا إن كنت شخصاً عادياً فقط. إما إن كنت ناشطاً سياسياً، فستكون هناك إجراءات وقائية ورقابة ذاتية أشد. إلا أ النقطة المثيرة، هي أنك بعد بضعة أشهر أو بعد سنة، وهذا يتوقف على حالتك العاطفية وعنادك الشخصي، ستتعود شيئاً فشيئاً على الشخص الذي يراقب هاتفك. وشيئاً فشيئاً، ستشعر أنه أصبح أحد أفراد أسرتك، بل مؤتمن كبير على «أسرارك». وفي بعض الأحيان، ربما تحدثت إليه خلال مكالماتك الهاتفية، أو ربما تستفزه بردّ لبق. بهذه الطريقة بالذات، يتعوّد المرء على الخوف بأنه ملاحق ومهدد بالقتل. وفي لحظة ما، ينقل المرء أخيراً هذا الخوف إلى عضو تشريحي، يتباين اعتماداً على ثقافته، ثم مع ذلك العضو التشريحي، يبدأ المرء يقفز في الشارع.

وسيقول السيد بيتروفيتش:

«ماذا تقصد بذكر القاتل ودافالبا في روايتك؟ لقد زرعت هذين السنبولتين في قصّتك لتوحي بأنه يوجد إرهابيون في إيران، وأنه توجد مخلوقات هنا ما إن تتسلق فوق ظهور الناس، فإنها لن تنزل أبداً. صحيح؟».

وسأقول:

«إنك مخطئ. أولاً، إنه «رمز» لا «سنبل». ثانياً، فهي الكوابيس التي يراها دارا. لقد فقد دارا صوابه. إنها أوهامه المرعبة. هل يسمح للمرء أن يصبح مجنوناً في بلدنا؟ لا أظن أنها جريمة؟».

سيحدّق السيد بيتروفيتش في عيني ليقرأ ما تبقّى من أفكاري. إنني متعب. ظهري مرهق ولا تقوى ركبتاي على حمله، وحنجرتي مسدودة ومشدودة ويصعب أن أتنفس جيداً. أتمنّى أن أكون وحدي في مكان ما ـ

بعيداً حتى عن عيون سارا ودارا ـ لكي أُخرج هذا السائل المالح الذي ينذر بالشؤوم والذي يحرق عينيَّ. لكن حتى لو كنت في وسط الصحراء بين شيراز وطهران، ودارا على يميني وسارا على شمالي يقفان منتظرين، يحدّقان فيّ. وكلّ ما أعرفه أنه يجب ألا أركع أمام عيونهما.

حرية الجنون

تخيّلي أنك تعيشين في بلد لا يسمح لك فيه حتى أن تجنّي.

إنه شيء مرعب. أعرف. تخيّلي أنك فتاة في العشرين من عمرها ومتخلّفة عقلياً. وتخرجين أثناء النهار ـ لأن أسرتك تريد أن تتخلّص منك ـ وفي شوارع إحدى المدن في شمال إيران، تهيمين على وجهك. وهناك رجال يدركون بذكاء فطري أنك متخلّفة عقلياً، ويغرونك بكوز من البوظة، ويستدرجونك إلى تحت السلم، ويفرغون أنفسهم في داخلك، وأنت تستمتعين بذلك قليلاً وأنت تتناولين البوظة. ثم يلقى القبض عليك، ويحكم القاضي عليك بالموت. لا تفهمين ماذا يجري حولك. وذات يوم يقتادونك من السجن إلى ساحة البلدة، وترين هناك حشداً من الناس جاؤوا ليتفرجوا عليك. تشعرين بالسعادة لأن أناساً كثيرين تجمعوا هناك من أجلك فقط، وتحاولين أن تبتسمي لهم لتريهم بأنك سعيدة لرؤيتهم. لكن قبل أن يتمكنوا من رؤية ابتسامتك، يضع شرطي كيساً على رأسك، ولا تعودين ترين شيئاً، حتى وجه آخر رجل أفرغ نفسه في داخلك، وكلّ ما تشعرين به خشونة وقساوة الحبل الذي التف حول عنقك. ثمّ كلّ ما تريدين أن تحصلي عليه حلاوة وبوظة باردة، وتشعرين بأن مجرى الهواء قد سُدّ، وبدأت تتقيّأين. إنك سعيدة لأنك تتقيّأين. تحاولين أن تضحكي. لكن الحبل المشدود بإحكام حول رقبتك يرفعك

إلى الأعلى باستخدام رافعة. إنه لا يدعك تضحكين. إنه يجعلك تلوين شفتيك بطريقة بشعة. وإن كنت محظوظة، وبسبب وزن جسمك، فإن عنقك ستدق، ولن تشعري بأي ألم. أما إذا لم يكن الحبل قد وضع حول رقبتك بصورة صحيحة، فلا بد أن تتألمي لبضع دقائق إلى أن تلقي راحتك الأبدية. أما الرجال الذين أفرغوا أنفسهم في داخلك، فلا بد أنهم هم واقفون بين الجمهور، وربما يشعرون بالبهجة عندما يرون تشنّجات جسدك وهو يتدلى من الأنشوطة. . .

وأنا أنظر أيضاً لأن قصّة الحبّ التي أكتبها قد شُنقت أيضاً. وقد بدأت أفهم بأنني حذفت مشاهد عديدة واستبدلتها بمشاهد جديدة، وخنقت جملاً عديدة، إلى حد أن روايتي ـ المعلومات التي يجب أن أقدمها للقارئ ـ لم تعد متماسكة. أعرف أنني لا أملك الحقّ في أن أستسلم، ولا أملك الحقّ في أن أجنَّ. ولكي أنقذ روايتي، يجب أن يكون دارا حكيماً، ويتصل بسارا بالهاتف ويقول:

«يجب أن أعتذر لك».

«لماذا؟».

«لا تسألي، فقط اقبلي اعتذاري. سامحيني».

«ماذا فعلت؟».

«ما كدت أن أفعله. لا تسأليني ماذا كنت أوشك أن أفعله. هل ستساعدينني؟».

«نعم، نعم. فقط أخبرني ما حدث. ماذا يجب أن أفعل؟».

«ساعديني فقط في أكون الرجل الذي كنته في أول يوم رأيتني فيه. لا أريد أن أكون. . . لا أريد أن أكون قاتلاً. لماذا تريدون جميعكم أن أكون قاتلاً؟ ساعديني!».

شهقات دارا تشبه مسامير تخز أذني الشخص الذي يتنصت على هاتفي العاشقين.

يتنابني شعور بالخجل من نفسي لأنني أرسلت من دون علم ومن دون قصد مني قاتلاً إلى روايتي ليقتل هذا الرجل البريء. وبسبب ضميري المعذّب، لم يكن لسارا خيار سوى أن تقول:

«حسناً، يا عزيزي، لن أسألك أيّ أسئلة. قل لي فقط ماذا أفعل».

«إنك أعقل مني، فكّري بشيء، بعمل شيء، لكي نتمكن من البدء من جديد».

من حظّ الحبيبين، سواء كان سعيداً أم عاثراً، أنهما ينسيان بسرعة حظّهما السعيد أو العاثر.

الجريمة والعقاب

في الساعة الواحدة صباحاً، وفي قلب الصحراء، عندما كان القمر يتربع في كبد السماء ويترك النجوم ـ التي يعني لنا مشهدها، نحن البشر، الشيء الكثير ـ تحكي قصصها بلا خوف، أنزل من سيارتي. الطريق مهجور، ودرب التبّانة يمتدّ على طول الطريق وراء التضاريس الجبلية في الأفق. أسمع صوت الريح تتحرك بين شجيرات الأشواك. ويمكنني أن أقول الآن بثقة بأن الشتاء قد حلّ. برد الصحراء يُبعد النوم عن رأسي، ويمكنني أن أوقظ دارا أيضاً لكي يحدّق في السقف بعينين مفتوحتين على وسعيهما ليرى حبيبته سارا. أحبّ أن أمضي منتصف الليل وحيداً على طريق الصحراء في إيران. لقد قدت سيارتي مسافة مائتين وخمسين ميلاً حتى وصلت إلى هذا المكان، ولا يزال أمامي ثلاثمائة ميل آخر قبل أن أصل إلى طهران، حيث سأبدأ بعد ظهر غد ورشة عمل في كتابة القصة في مجلة كارناميه. إذ يمنع على كتّاب من أمثالي أن يدرّسوا في كليات الآداب في الجامعات الإيرانية. لكن ستين شاباً سجّلوا أسماءهم في هذه الورشة التي ستقام في مكاتب المجلة. وهم متلهفون إلى أن يصبحوا كتّاب قصّة.

نيزك أزرق ضخم يحترق في كبد السماء ويتلاشى في الأفق الشمالي. الريح تهبّ من قلب الصحراء وتحمل معها أصوات أجراس الجمال من

قافلة تحمل الحرير، كانت تقترب، في مثل هذه الليلة قبل مئات السنين، من خان الشاه عباس. . .

يجب أن أذهب لأتمكن من الوصول إلى بيت صديقي قبل أن يشتدّ الازدحام بشكل جنوني في الصباح في طهران وأنام بضع ساعات.

لكن في الساعة السابعة إلا ربع صباحاً، بينما اقتربت من حدود المدينة، توقف السير تماماً بسبب الازدحام الشديد. وأصبح بإمكاني أن أرى من بعيد الرخام الأبيض الذي يكسو برج الحرية الجميل الذي كان قد بني قبل الثورة بعدة سنوات ليرمز إلى مدينة طهران. وكان يُطلق عليه آنذاك شاهفاد وتعني «في ذكرى الملك». ومن الطبيعي أن يغيّر اسمه بعد الثورة. كانت سماء طهران صافية وخالية من الدخان المنبعث من المصانع على نحو غريب، وكان لون السماء اللازوردي يغري المرء على أن يقع في الحبّ، شريطة أن يرفع مئات السائقين أيديهم عن أبواق سياراتهم التي يملأون بها ضجيجاً لا جدوى منه، وأن يكفّوا عن التحديق في سائقي السيارات الواقفة إلى جانبهم وكأنهم هم المسؤولون عن هذا الازدحام، وأن لا يشغّلوا أشرطة الكاسيت أو الـ «سي دي» التي يخبئونها في مكان ما في سياراتهم، ليسمعونا تلك الأغنية الرومانسية الممنوعة:

أنا وعصافير البيت اعتدنا على رؤيتك،
بأمل أن نراك، نطير من عشّنا. . .

أعرف أنّ هذا الأمل العاطفي ليس ممكناً. إذ ينتظر الكثير من هؤلاء السائقين يوماً عصيباً. إن أكثر ما يقلقهم هو انحدارهم المستمر نحو هاوية الفقر، والتوتر الذي يعتريهم بعد ساعات طويلة من العمل المشحون بالخلافات والشجار مع زملائهم وزبائنهم، وقد أُنهكوا لأنهم بعد نهاية عملهم في إحدى الدوائر الحكومية الكثيرة، يضطرون للذهاب إلى عملهم

الثاني، أو يقلّون ركاباً بسياراتهم القديمة التي مضى عليها أكثر من عشرين سنة، ويعملون حتى ساعة متأخرة من الليل، لكي يتمكنوا بشق النفس من تحصيل نفقات الغد. إذاً دعهم يطلقون أبواق سياراتهم. فلم يبق هناك سنتيمتر واحد يمكن أن يتحرك فيه المرء إلى الأمام، وهو أمر غريب للغاية. تمرّ ساعة، ساعتان. والأغرب من ذلك، أنه لا توجد سيارات قادمة من الاتجاه المعاكس أيضاً. وأطفأ الجميع محرّكاتهم الآن، ورفعوا أيديهم عن الأبواق، وبذلك الصبر الإيراني الفريد، ينتظرون. لا بد أن شيئاً غير عادي قد حدث في الجهة المقابلة. أرى أناساً متحمّسين على الرصيف يهرعون في ذلك الاتجاه. أقفلت أبواب سيارتي وتبعتهم. وعلى مسافة ميل آخر، وصلت إلى جمهرة من الناس يتحلقون حول شيء. وبخلاف العادات الإيرانية في مثل هذه الحشود الكبيرة، يصمت الناس صمتاً مطبقاً. ولا يتدافعون لكي يتقدموا أكثر، ولا يبدون ملاحظات ساخرة، ولا يشتم ولا يسبّ أحدهم الآخر. ومثل الشمس وهي تبزغ، يتطلعون من فوق أكتاف بعضهم بعضاً، وينظرون إلى وسط الدائرة حيث يمكن رؤية شكل بلون التركواز. شققت طريقي عبر الحشد. كانوا صامتين وكأن على رؤوسهم الطير، فلم أجرؤ على أن أسأل عما حدث. والأغرب من ذلك، ما إن كان مرفقي يلامسهم، حتى كانوا يفسحون الطريق لي بدون غضب أو مقاومة كدأبهم، لأتقدم قليلاً. ثم بدأت أدخل هالة رائحة غريبة. عبير طبيعي فاح في المكان وامتزج بلون التركواز...

وفجأة، أصبحت وجهاً لوجه أمامه. فعند المنفذ المؤدي إلى مطار مهر آباد الدولي، رأيته ممدداً على الإسفلت الخشن والمشقق من أحد جانبي الجادة إلى الجانب الآخر، مثل هضبة ضخمة برزت في الليلة الفائتة. وهج لونه التركوازي يشبه وهج النيون، هادئ، متموج، وكأن لهباً هائلاً

يحترق في داخله. يقف الحشد، من دون دافع من الفضول، مستسلماً لروعة ذلك الوجود، محدّقاً فيه. والصوت الوحيد الذي يمكن أن يُسمع، ينبعث من أجهزة اللاسلكي التي يحملها رجال الشرطة والمخبرون المدنيون. ويصيح رؤساؤهم سائلين ماذا يجري هناك، لكنهم لا يتلقون جواباً. ولا يجرؤ أحد منهم على أن يتقدم ويلمس ذلك الحوت التركوازي المستلقي على بطنه مواجهاً سلسلة جبال شمال طهران. وبهدوء يبدو طبيعياً، نشر زعانفه الكبيرة فوق الإسفلت، عيناه مفتوحتان لا يوجد فيهما دليل يشير إلى وجود حياة أو موت، وكما في جميع الحيتان، كان هناك خطّ ابتسامة أبديّة محفور على وجهه. الطراوة وقوّة الحياة تشعان من جلده، لكن في أعلى نقطة من وسطه، توجد بقعة تحوّلت فيها طبقات من المرجان والمحار وأصداف مخلوقات بحرية لا اسم لها إلى حجارة تنمو فيها نباتات ملوّنة من حدائق البحر وغابات الياسمين، أو أنها نمت، بينها.

أدركت الآن أن الرائحة الغريبة التي غمرت جسدي بإحساس من الهذيان والانتشاء، هي رائحة العنبر. وهنت ركبتاي. طائرة مروحية ضخمة من طراز شينوك تحلّق فوق الحوت. لكننا نعرف جميعنا أن هذه الطائرة التي تستطيع أن تحرّك دبابات بسهولة، تعجز عن تحريك هذه الكتلة المستلقية باسترخاء فوق إسفلت طهران. وكلّ ما تستطيع أن تفعله هو أن تزعجنا نحن والحوت بالريح التي تسببها مراوحها وجلبتها التي تصمّ الآذان.

أريد أن أجلس. وبسبب هذا السحر الغريب، يبدأ الواحد تلو الآخر، نحن الذين تحلّقنا حوله، نجلس على الأرض بهدوء، حتى رجال الشرطة الذين يفرّقون عادة أي تجمع غير مسموح به بقوة عصيهم وسياط ألسنتهم، جلسوا.

سيقول السيد بيتروفيتش إنه يجب عليّ أن أُهرَع إلى الوزارة بأسرع ما يمكنني وأخبر المدير لكي يصدر أوامره إلى جميع الصحف ووكالات الأنباء على الفور بألا تكتب جملة واحدة وألا تذيع كلمة واحدة عن هذا الظهور المفاجئ لهذا المخلوق الغريب في طهران. . .

بعد ظهر ذلك اليوم، أبدأ ورشة كتابة القصة. وأقول للمائة والعشرين عيناً التي تحدّق في عينيّ:

«إن نصيحتي لكم هي إن كنتم تستطيعون أن تعيشوا في إيران بضعة أيام من دون أن تفكروا بقصّة، وإن كان باستطاعتكم أن تعيشوا بضعة أيام من دون أن تشعروا بإغراء الكتابة، فارثوا لأنفسكم ولا تأتوا إلى ورشة الكتابة هذه مرة أخرى. ألقوا الحلم القاتم بأن تصبحوا كتاباً في إيران في سلة المهملات في بيوتكم واذهبوا وابحثوا عن حياة مريحة، هانئة، سعيدة. . . أما إذا كنتم لا تستطيعون أن تعيشوا يوماً واحداً من دون أن تكتبوا جملة واحدة، وإذا لم يغمض لكم جفن ما لم تكتبوا، وإن كنتم عشاقاً ولا تعرفون من تعشقون، فأهلاً بكم عندئذ في عالم القصّة الإيرانية الرائع».

تبدأ إحدى الفتيات بقراءة قصّتها. قصّة تتحدث عن ظل رجل وراء ستارة في بيت امرأة. تسحب المرأة الستارة جانباً، لكنها لا ترى أحداً. ويستمرّ الخوف في البيت وفي القصّة لأن المرأة تعرف، ونحن نعرف، بأنّ الظل سيعود.

ترفرف كلمات عديدة في رأسي لنقد القصّة وتحليلها. أنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي الآخرون من إبداء آرائهم إلى أن يأتي دوري في الكلام. وفجأة تقع عيناي على عينين مألوفتين في أقصى زاوية من القاعة. تحدّق العينان فيّ بغموض وحدّة. إنني متأكد من أنهما لم تكونا هناك من قبل.

نسيت كلّ ما كنت أريد أن أقوله عن الطبقات التي تتضمنها القصّة الجيدة، وبدلاً من ذلك، قلت:

«إنها قصّة جيدة. لكن لنتذكّر أنه يجب إعادة كتابة كلّ قصّة جيدة أيضاً. ومثل قطعة زمرد، يستطيع المرء أن يقطعها ويصقلها مرات عديدة. ربما كان من الأفضل، لو كان لدى كلّ كاتب طموح بأن يكتب قصّة واحدة في حياته، ويظل يعمل على هذا القصّة حتى آخر لحظة في حياته».

وأضفت:

«هذا يكفي لليوم...».

لكن السيد بيتروفيتش يرفع يده ليقول شيئاً. لدى رؤية نظرات الذهول في عينيّ، اتجهت جميع العيون إلى ذلك الركن.

«هل لي أن أتكلّم ببساطة باعتباري شخصاً يهتم بالقصص؟».

«يا سيدي، إنك لست بحاجة إلى طلب إذن».

«أردت أن أسالك لماذا لم تتحدث، وأنت معلّم جيد حقاً، عن الطبقات التي تتضمنها القصّة التي قرأتها. أظن أنك مارست الرقابة على نفسك لكي لا تعرّض هذه الكاتبة الشابّة لأي مشكلة».

لم أعرف كيف أجيب. وتابع كلامه:

«يبدو أن المرأة في القصّة يتملكها الفزع عندما ترى ظل رجل وراء الستارة في غرفة نومها في الليل. لكن في رأيي، فإن الظل ما هو إلا انعكاس لرغبات المرأة الخفية. تريد القصّة أن توحي أنه يوجد في عقل كلّ امرأة رجل متخف، وإن ظل ذلك الإثم يظهر وراء الستارة في غرفة نومها. يخيّل إليّ أن هذه القصّة هي إهانة لجميع النساء المحتشمات المحترمات. وإذا ظهر للكاتبة نفسها ظل رجل وراء الستارة في غرفة نومها، فيجب ألا تنسب رغباتها الآثمة إلى نساء أخريات أيضاً».

فقلت:

«سيدي، لقد ابتعدت كثيراً في تأويلك. إن القصّة تذكر فقط أنه يوجد ظل رجل وراء الستارة. ولا يوجد ثمة ذكر في غرفة نوم...».

«سيدي! أي تعليق هذا الذي تقوله؟ إمّا أنك تحاول أن تخدعني، أو أنك لا تعرف شيئاً عن كتابة القصّة. إذ يستطيع أيّ قارئ أن يعرف أنّ هذه الستائر هي ستائر غرفة نوم. ولا يظهر الظل وراء ستائر في غرفة الجلوس، وحتى لو ظهر، لأمسكت سيدة البيت مكنسة وضربت بها الستارة كي لا يعود الظل إلى الظهور».

فقلت:

«لقد انتهت الورشة. تحضيراً للجلسة القادمة، اقرأوا رواية «المحاكمة» لكافكا لنناقشها».

رحت ألملم أوراقي من فوق الطاولة.

خرجت من المبنى، وفوجئت برؤية ندف الثلج. إني واثق من أنه لم تكن هناك أي علائم في السماء أو غيوم تدّل على أن الثلج سيتساقط عندما كنت أقود سيارتي في طريقي إلى مكتب المجلة. لكن مما لا شك فيه، أن ندف الثلج كانت تتساقط. رأيت خيال السيد بيتروفيتش الداكن على مسافة قصيرة. كان يقف هناك ويدخّن سيجارة، ينتظرني. بدأت أمشي. سألني:

«ألن تركب سيارتك؟».

«لا. أريد أن أمشي قليلاً. إني أحبّ الثلج».

رافقني. لم أكن أريد أن يعرف مكان بيت صديقي الذي سأمضي عنده الليلة. اخترت اتجاهاً لا على التعيين ورحت أسير فيه.

«كيف كان نقدي لقصّة تلك المرأة؟».

«كان مثيراً للاهتمام. فوجئت بأنك لا تدرّس مادة الكتابة الإبداعية».

«أفكّر في الموضوع. بصراحة، بعد كلّ هذه السنوات التي أمضيتها في قراءة القصص التي كتبتموها أنتم الكتّاب الإيرانيون، والعدد الكبير من ترجمات الروايات والقصص القصيرة الأجنبية، أظن أنني أصبحت أعرف قصصاً وروايات أكثر من أيّ واحد منكم».

«أهنّئك».

أفرغ الثلج الأرصفة من المشاة بسرعة. ومع أن ندف الثلج كانت كبيرة، منذ كانت خفيفة جداً. كانت تعوم حولنا.

«كيف تسير قصّتك؟».

«لقد علقت في المشهد قبل الأخير».

«هل تنتظر الإلهام؟».

«الإلهام لا يأتي إلى أشخاص مثلي. إنه يأتي بحثاً عنك».

«لكني أريدك أن تتمكن من كتابة قصّة حبّ إسلامية. وإذا كانت تنتمي إلى ما بعد الحداثة، فهذا أفضل. بمعنى آخر، أن يكون كلّ شيء فيها مضطرب ومشوّش، ومع ذلك تنتقد الحداثة التي تحرّض على الرذيلة. لا تنس، لا يوجد لدينا خلاف مع قصص ما بعد الحداثة، فهي تشجع على العودة إلى التقاليد».

«في جميع الأحوال، سواء أكانت قصّتي تقليدية أم حداثية، أم أنها تنتمي إلى ما بعد الحداثة، فقد أصبحت متشابكة».

انعطفت إلى شارع آخر. كان الرصيف مهجوراً تماماً إلى درجة أن رؤية رجل ضعيف يسير في اتجاهنا أدخلت الراحة إلى نفسي بطريقة ما. كان يحمل حقيبة جلد. ظهره محنياً، وغارقاً في التفكير وبدا أنه لم يرنا. وعندما تجاوزنا عرفت من هو. لم يكن سوى هوشانغ غولشيري، نفس

الكاتب المعاصر العظيم الذي ذكرته من قبل. لقد لعب دوراً مهماً في حياتي ككاتب، وصحت بسعادة:

«سيد غولشيري!».

في ضوء مصباح الشارع بدا وجهه مرهقاً وشائخاً. كان يبدو أنه يعتصر ذاكرته ليتذكرني. ثمّ قال بصوت حزين:

«لم أعرفك! لقد أصبح شعرك أبيض... هل هو الثلج؟».

هززت رأسي.

«لا، لقد ابيضّ بالرغم من الثلج».

يخرج مخطوطاً مكتوباً باليد من حقيبته ويقدمها لي.

«لقد اكتشفت كاتباً شاباً رائعاً. اقرأ».

وكما لو أنه لاحظ السيد بيتروفيتش للتو، قال:

«أرى أنك تسير مع السيد بيتروفيتش!».

قلت متلعثماً:

«إن هذا الرجل المحترم يمشي معي. كما تعرف... فقد شرّفني بحضوره ورشة كتابة القصة هذه الليلة».

انبعثت منه روح الفكاهة وومضت عيناه بالذكاء. التفت إلى السيد بيتروفيتش وقال:

«سيدي العزيز، ما أخبار *الأمير إهتيجاب وكريستين والطفل*؟».

من صوته كان يبدو أنه شاب. فقال السيد بيتروفيتش:

«وفيم العجلة يا سيد غولشيري؟ إن كتبك معقّدة بعض الشيء، وتستغرق وقتاً للتدقيق فيها».

إن رائعة غولشيري تنتظر الحصول على موافقة لنشرها منذ قرابة سبع وعشرين سنة. قال:

«لست في عجلة من أمري. كنت أنتقل من بيت الأمير إهتيجاب إلى بيت كريستين. كانا يسألانني دائماً متى سيُنشر العمل، ولم يكن لديّ جواب أردّ عليهما. هل ستكون في مكتبك غداً حتى يأتي مراد ليسلّم عليك؟».

ومراد هذا إحدى الشخصيات في رواية غولشيري: *الأمير إهتيجاب*. وفي كلّ مرّة يزور فيها الأمير، يجلب معه خبر وفاة أحد أقرباء الأمير، حتى نهاية الرواية عندما يجلب خبر وفاة الأمير نفسه.

«لماذا مراد؟ يجب أن تأتي أنت بنفسك. سنحتسي قليلاً من الشاي وندردش. ربما أمكننا التوصل إلى حلّ وسط».

«لا، مراد لا يعرف كيف يحدّد موعداً. كريستين... ماذا لو جاءت كريستين؟ هل ستحدد لها موعداً؟».

وكريستين سيدة إنكليزية لطيفة تقع في رواية غولشيري في حبّ كاتب إيراني من أصفهان. خائفاً، مدّ السيد بيتروفيتش ذراعيه ليحمي نفسه.

«لا، لا... بالتأكيد لا... أبداً... لا».

«هل تخشى أن يشك زملاؤك بأنك جاسوس بريطاني؟».

«تماماً».

خلال الحوار الذي دار بين السيد بيتروفيتش وغولشيري، اعترتني الرغبة في أن أنسلّ وأهرب إلى سيارتي. إذ إن السيد غولشيري يعرف كيف يكلّم السيد بيتروفيتش بطريقة عملية أكثر مني. ومنذ أول يوم بدأت فيها آلة الرقابة تدور، أعلن غولشيري أنه لن يغيّر أو يحذف أي كلمة في قصصه، ونتيجة لذلك، لم تحصل معظم كتبه على موافقة للنشر. خطوت خطوة إلى الوراء. كان السيد بيتروفيتش يدير ظهره لي. خطوتان، ثلاث خطوات. واصلت السير إلى الخلف. لوّحت بيدي إلى غولشيري، و... توجهت إلى سيارتي. شعرت بالبرد. ندف الثلج

المتطايرة تدخل في عيني. يبدو أنها تحتوي على مادة حمضية. لقد أحرقت عينيّ. لم أتوقف عن تجفيف دموعي، لكن ذلك لم يكن مجدياً، ومرة أخرى كانت ندف الثلج تحرق عينيّ... تذكّرت أن هونشانج غولشيري الذي لم أر روايته الجديدة منشورة ولم تعد طباعتها، كان قد توفي منذ عدّة سنوات... اعتراني شعور ببرودة شديدة.

في دردشة على الكمبيوتر سألت سارا دارا:

«هل يهطل الثلج في حيّكم أيضاً؟».

«ربما كان أقل مما يهطل في حيّكم».

«كان الطقس لطيفاً للغاية. كيف حدث وهطل الثلج فجأة؟».

«لا أعرف. أنا أحبّ الثلج».

تتنهد سارا.

«أنا أيضاً. أرجو أن نتمكن من الخروج في نزهة معاً في هذا الثلج».

«سيكون شيئاً جميلاً. سنمشي معاً وننظر إلى آثار أقدامنا على الثلج. ~~سأمسك يدك لأدفئك~~... بالنسبة لي الحبّ مجرد وسيلة لخلق الجمال».

بعد لقائهما الأخير غير السعيد، يتأرجحان بين الحبّ والغضب.

تقول سارا:

«لكنني لم أسامحك».

«أعرف. يمكنني أن أعرف من نبرة صوتك. ماذا عليّ أن أفعل؟».

«حسنا... لا أستطيع أن أغادر البيت في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل... لماذا لا تخرج؟ اخرج في هذه الليلة الجميلة وتعال إلى عندي أيضاً. تخيّل أنني أقيم في مكان قريب منك».

«في هذه الأيام، بسبب ذلك الرجل الذي يلاحقني، لم أعد أخرج كثيراً».

«أتقصد أنك لن تجازف من أجلي؟ أي عاشق أنت؟».
«هل هذا ما تريدينه؟ أتريدين أن أخاطر بحياتي من أجل تخيلاتك؟».
«ماذا لو كان ذلك صحيحاً؟ حتى الآن، إنك تتحدث بتفاخر عن الحبّ. لكنك لم تثبت حبّك لي ولا مرة».
دارا لا يسمع ضحكة سارا العابثة.
«حسناً، سأخرج».
«هل تقول الصدق؟».
«سترين. لعلي أتحرر من هذا الحبّ».
«دارا، كنت أمزح!».
لكن دارا لا يعير أي اهتمام لهذه الكلمات الأخيرة ويطفئ جهاز الكمبيوتر ليخرج وليثبت لسارا إخلاص حبّه لها.
بينما ترسل سارا دارا ليخرج ويمشي في الثلج لينظر إلى آثار قدميه، أهرع إلى سيارتي راجياً أن أنفد بجلدي هذه الليلة. رؤوس مصنوعة من الضباب تطفو في الهواء. أحاول أن لا أرتطم بها. أواصل التفكير بأنني ذاهب في الطريق الخطأ. على الرصيف المقابل، كان هناك عدد من الشاهناه وهم يجرّون الشاعر الذي مات قبل سبعمائة سنة. كان أحدهم يسير في الخلف، يحمل قدحاً ودورقاً كدليل على الجريمة.
وقف السيد بيتروفيتش على الطرف الآخر من سيارتي يدخّن سيجارة.
«هل اشتريت هذه السيارة مؤخراً؟».
«نعم. منذ سنوات كنت أريد أن أشتري سيارة جديدة يمكنني أن أقودها وأنا مرتاح البال».
«هل اشتريتها من ريع كتابك الأخير؟».
انفجر كلانا في الضحك. يعرف كلانا أن كاتباً راسخاً في إيران لا يمكنه أن يشتري حتى عجلة سيارة من ريع كتبه.

«لونها جميل. . . أحدهم خدشها بسكين على هذا الجانب. هل رأيته؟».

انتقلت إلى الجانب الآخر من السيارة. نعم، هناك خدش من أول السيارة إلى آخرها».

«هناك أناس حاسدون في كل مكان».

«نعم».

فتحت باب السيارة.

«يجب أن أذهب الآن. لقد تذكّرت للتو أنني يجب أن ألتقط صديقاً ينتظرني في الشارع. لا بد أن المسكين قد تجمّد وأصبح رجلاً ثلجياً ويحدّق الآن في آثاره قدميه في الثلج».

«لن أؤخرك. لقد أردت فقط أن أسألك سؤالاً».

قلبي يغوص في صدري. ففي إيران، يمكن لسؤال واحد أن يقلب حياة شخص رأساً على عقب، السيد بيتروفيتش، بتلك العينين اللتين تستطيعان أن تقرآ عقل الشخص الواقف أمامه، يحدّق في عيني اللتين يكسوهما الثلج. تلتصق مفاتيح السيارة بأصابعي مثل كتلة من الجليد.

«هل تتذكّر قزماً أحدب في أيّ من القصص التي قرأتها؟».

«لا. . . لا أبداً. . . لماذا؟».

«لا تسرع في الإجابة. فكّر جيداً».

عنقود من الضباب البنفسجي يمرّ فوق كتفي.

«لا أعرف. . . ربما. . . بحسب ما أذكر يوجد قزم أحدب في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. لماذا؟».

تحت ضوء الشارع النيون رأيت بوضوح نظرة السيد بيتروفيتش المخيفة المشوبة بعدم الثقة. سألته مرة أخرى:

«لماذا؟».

«ليس مهماً. لقد أردت أن أقول فقط إنني لا أنسى أبداً لطف الأشخاص الذين يبعثون هدايا إلى مكتبي».

قفزت داخل سيارتي، وغيّرت إلى الدفع الرباعي، وانطلقت بسرعة عبر شوارع طهران المكسوة بالثلوج. الساعة الواحدة صباحاً وقد أصبح الوقت متأخراً للذهاب إلى الصديق الذي كنت أزمع قضاء تلك الليلة معه. ينبغي لي أن أعثر على فندق رخيص. لا يوجد في جيبي نقود كثيرة. قطعة سجاد، بحجم راحة يدي، تطير إلى الزجاج الأمامي من السيارة وتلتصق به بعناد. تعلق بها ماسحات الزجاج الأمامي. لا تزال حتى الآن ظلالها اللازوردية والزرقاء الداكنة متميّزة. أزيد من سرعة الماسحات، فتطير قطعة السجاد إلى أرض الشارع.

في الشطر الجنوبي من المدينة اجتزت شاباً يمشي وحده في الثلج. لم يكن لديّ الكثير من الوقت. في هذه الساعة من الليل، حتى الفنادق تغلق أبوابها. تركت الشاب يواصل سيره بدفء قلبه وبحرارة مخيلته، وكنت ألتفت بين الحين والآخر وأنظر إلى الأثر الذي يتركه على الثلج فرأيت مجموعتين من آثار الأقدام تنتهي عند قدميه.

أخيراً، وجدت فندقاً رخيصاً. أخذت حقيبتي ورحت أسير بسرعة نحو الباب الأمامي. إنه مغلق، لا يوجد لديّ خيار. يجب أن أقرع الباب. تفتح الباب امرأة عجوز فظّة. وجهها الذاوي تكسوه طبقة كثيفة من المكياج. لثتها وأسنانها القليلة المتبقية سوداء. بصوت أجش قالت لاهثة:

«ماذا تريد؟».

«سيدتي، لماذا يقرع المرء على باب فندق... هل لديك غرفة؟».

«إذا كنت تملك نقوداً فادخل».

تبعتها إلى ممر طويل تحفّه أبواب على الجانبين، جميعها مغلقة. نهاية الممر غارقة في الظلام. وصلنا إلى طاولة الاستقبال التي تشغل نصف عرض الممر. انبعثت من مكان ما نفحة مخدّرة من الأفيون. اتجهت المرأة العجوز وراء طاولة الاستقبال المتعفّنة الصلبة المتسخة من أيدي آلاف المسافرين. دفعت أمامي دفتراً ضخماً قديماً لأدوّن فيه المعلومات الخاصة بي. انبعثت من الصفحة شظايا من أجنحة عثّ متكسرة، وبينما رحت أدوّن اسمي الأول، واسم العائلة، ومكان المغادرة، ومكان المقصد، وغرض السفر، في أعمدة الدفتر، وقعت عيناي على المعلومات التي سجلها آخر ضيف في الفندق:

السيد ب. . .

تجمّدت في مكاني. التاريخ المدوّن يعود إلى عشر سنوات. مرتاباً، رحت أرمق المرأة العجوز. كشفت لي عن أسنانها السود المتناثرة بابتسامة. لا أعرف السبب، لكن منذ اللحظة الأولى، بدا لي وجهها وقسماتها مألوفة لي. . . أخذت تفرك إبهامها وأصبعين معاً مشيرة إلى النقود. أخرجت الأوراق المالية المجعّدة من جيبي ورميتها على طاولة الاستقبال أمامها. بأناة راحت تمسّد الأوراق النقدية وتعدّها. لم أزل أحدّق فيها، محاولاً أن أتذكر أين رأيتها. زمجرت قائلة:

«إنه مبلغ زهيد. . . أعطني أكثر».

رفعت يدها إلى عيني ومرة أخرى أشارت إلى النقود.

«كم تكلف غرفة في فندق صغير؟».

«الثلج يهطل في الخارج. أليس كذلك؟ هل تقصد أن تقول لي إنه لا يهطل؟».

«لكن هذا كلّ ما لديّ».

تتبعت مسار نظرتها. ساعة يدي. . . كنت قد اشتريتها منذ فترة وجيزة. وضعت ساعة اليد أمامها.

«سأحتفظ بها كرهن. إذا جلبت النقود خلال سبعة أيام، سأعيدها لك. وإلا أصبحت ملكاً لي».

أعطتني مفتاحاً صدئاً وأشارت إلى نهاية الممر المعتم.

«الحمّام هناك».

«لست بحاجة إليه الآن».

«في كل مرّة لا يوجد معك نقود لكن توجد لديك قطعة غالية، تعال إلى هنا. لأنك رجل مؤدّب وسلوكك جيد، ولن أجعلك تدفع فائدة أكثر مما يدفع الآخرون».

رمقتني.

«هل لديك سيجارة؟».

أخرجت سيجارتين من علبة سجائري. أشعلت واحدة. وبعد أن أخذت نفساً عميقاً ابتسمت وقالت بقليل من الحياء:

«إنها ليلة باردة، إذا كنت تحتاج شيئاً آخر، لا تخجل. . . حسناً؟».

«حسناً».

استلقيت على السرير المكسو بالأوساخ. أحسست ببرد شديد. سحبت فوقي البطانية التي تفوح منها رائحة نزيل جاء منذ عشر سنوات. حاولت بصعوبة كبيرة أن أفهم لماذا يبدو لي وجه المرأة العجوز وطريقتها مألوفة لدي، لكنني لم أتذكر شيئاً. حاولت أن أهدهد نفسي لأنام وأنا أفكّر بقصّة الحبّ التي أكتبها. تغطّ سارا في النوم. لو لم يقع دارا فريسة لذلك القاتل، لأصبح رجلاً ثلجياً الآن. شعرت فجأة بأنني عقيم. لم أستطع أن أفكر بأيّ شيء لكي أكتب المشهد التالي من قصّتي. . .

أحاول أن أرى سارا الجميلة نائمة على سرير جميل في خيال دارا، لأرى شفتيها المكتنزتين نصف الفاغرتين اللتين يبدو أن قبلة قد حررتهما لأرى نهديها وهما يعلوان ويهبطان مع كلّ نفس تتنفسه. . .

وبصرير قديم، يُفتح الباب بلطف.

ملكة الثلج في طهران

يبدو أنه يجب علينا، نحن ودارا، أن نغمض عيوننا أمام جميع الأخطار التي يمكن أن تعترض المرء عندما يخرج في نزهة. سارا التي كانت قد طلبت من دارا أن يخرج ويمشي وحده في شوارع طهران التي يتساقط عليها الثلج، تشعر بعذاب الضمير. تقول لنفسها إنها طلبت من الفتى المسكين أن يخرج في البرد والثلج، لذلك يجب أن لا أنام أنا أيضاً إلى أن يأتيني وحي بأنه عاد إلى البيت سالماً. تغسل وجهها بالماء البارد عدّة مرات. في الساعة الثالثة صباحاً، بعد أن تُزيل النوم تماماً من عينيها، تعود إلى غرفتها وتطلّ من النافذة. فجأة يتبخّر الماء البارد من وجهها. وفي الخارج، وعلى الرصيف المقابل للشارع، ثمة شبح أبيض تكسوه طبقة من الثلج من رأسه حتى أصابع قدميه. سارا تميز دارا حتى لو كان يقف تحت انهيار جليدي. هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها أمام نافذة غرفة نومها. دارا يقف هناك مثل رجل ثلجي.

منذ قرابة ألف سنة، في أسطورة ملحمية شعرية تدعى «الشاهنامه» (كتاب الملوك) ـ التي لو كانت قد كُتبت في أيّ أرض غير إيران، لطبّقت شهرتها الآفاق وفاقت شهرتها وتأثيرها اليوم شهرة وتأثير الإلياذة والأوديسة ـ وهي قصّة تتحدث عن حبّ بطل إيراني اسمه «زال» لابنة حاكم كابول التي أصبح الغربيون يعرفونها في أيامنا هذه بسبب أعمال طالبان الجنونية.

وكان هذا البطل الأسطوري الإيراني قد ولد وشعره أبيض كالثلج. وذات ليلة، يقف تحت نافذة غرفة نوم محبوبته التي تترك خصلات شعرها الطويلة تتدلى من نافذة الطابق الثاني أو الطابق الثالث. ثمّ يأخذ «زال» أجمل وأعظم حبل، ويتسلّقه إلى غرفة نومها.

سارا تريد أن تصرخ:

أوه! ماذا تفعل هناك في البرد؟ ستصاب بذات الرئة، ~~يا حبيبي~~.

لكنّها تخشى أن توقظ والديها والجيران. تظن أنه يجب عليها أن تشارك محبوبها البرد الذي يتعرض له. لذلك...

تفتح ساراً نافذة غرفة نومها وتهزّ رأسها لكي تتطاير خصلات شعرها بحرّية مثل آلاف الحبال. تخلع قميصها لكي يغزو البرد جسمها أيضاً، وليدفئ عريها محبوبها الواقف هناك في البرد القارس. ولكن لقرون عديدة، حُرم دارا البائس، بخلاف خسرو، من رؤية هذه المشاهد الحارة، وحُرمت أنا من كتابتها.

إذًا اسألوا، كيف ستكتب هذا المشهد الحار؟ لأكتب:

تفتح سارا نافذة غرفة نومها. جميع عواطفها المكبوتة تطالبها أن تشارك في معاناة محبوبها. الثلج عباءة باردة تلتصق بجسم دارا، بينما تشعر بالدفء بأنانية وهي ترتدي ثيابها. تهبّ الريح عليها. ومن طرف كمّيها وياقة قميصها يلعق ذراعيها وعنقها. تتوق لأن تكون في سهل يغطيه الثلج، وحيدة، غير مرئية، حرة. ترى نفسها في واد يغطيه الثلج. دفء جسدها يذيب الملابس التي تكسوها شيئاً فشيئاً. يأتيها إلهام بأن تمنح حقيقة وجودها إلى الطبيعة التي ولدت منها، وهي... الرياح الثلجية تهبّ عليها. تحوّل كتفيها إلى جليد، وتملأ حفرة حنجرتها الغائرة بالثلج. وتلمس يدا ملكة الثلج هاتين الهضبتين التي لا توجد لهما كلمات باللغة الفارسية... الثلج الذي يكسو جسم دارا يذوب برقة...

لدى رؤية ملكة الثلج، تُفتح عينا دارا، عينا ذلك الفتى البكر، على وسعيهما. يجتاز الشارع، وأمام بيت سارا، وبأفكار لا توجد في اللغة الفارسية كلمات للتعبير عنها، يقف رافعاً بصره محدّقاً في تلك النافذة المنيرة. . . لقد توقّف الزمن بالنسبة له. كم دقيقة مرّت؟ إنه لا يعرف، وأنا لا أعرف. بسرعة يحوّل الثلج جسم سارا إلى جليد، ~~ومع ذلك تشعر بحلمتيها تحترقان، بخار وردي يتصاعد منهما~~. وبعد قليل، يفيق دارا ويدرك بأنه يعذّب محبوبته. يحاول بحركات يديه أن يفهمها أنها ستصاب بالبرد. لكن سارا تسيء فهمه. ~~تظن أن دارا يطلب منها أن تخلع حمالة صدرها أيضاً. تمدّ يدها إلى الوراء، وتفك الإبزيم الذي لا يحبّه أي رجل في العالم. دارا، يشعر بعينيه تحترقان، ويحسّ بأن دخاناً أسود ينبعث منهما~~. مثل تمثال يقف محدّقاً في النافذة التي تطل على كلّ الألم وكلّ النكران الذي يعانيه منذ سن البلوغ.

[في ذلك الشارع، لا يرى هو ولا ترى سارا جيش المغول عائداً من الأسر ليهدّم مدينة راي الرائعة. ويقتاد آلاف الأسرى لحمل الغنائم. رنين الذهب يتردد في شوارع طهران، ندفة ثلج تقبع فوق شفتي دارا. يلعقها. طعمها حلو المذاق. ودون أن يبعد عينيه عن تلك النافذة، يفتح يده ليمسك بضع ندف من الثلج. يتذوقها. لا، لم يكن ذلك تخيّلاً. ندف الثلج حلوة الطعم كالبوظة. تمدّ سارا يدها من النافذة، وتندفع ندف الثلج نحوها. البلل يغمر دارا، ولكي لا يقع يتكئ بيده على حائط بيت سارا. حائط مرتفع، مثل جميع الجدران التي تحيط بالبيوت الإيرانية لكي لا يتمكن اللصوص من الدخول إليها، والتي يعلوها شبك من الفولاذ وسهام مدببة، فيبدو هذا البيت، مثل معظم البيوت الإيرانية، كالقفص. محدّقاً في النافذة، يشعر دارا أن أحجار بيت سارا طرية ورقيقة الملمس. يبدأ

يداعبها. الأحجار تُرسل إحساساً لطيفاً إلى يده. لا، إنك مخطئ. إنه شاب مهذب لا يخطر بباله أن يتسلّق الجدار ليصعد إلى غرفة سارا. ينظر إلى الأحجار التي يداعبها ويشعر بأنه يريد أن يعانق ذاك الجدار بكامل القوّة الكامنة في ذراعيه. يقف ويضغط بجسمه على الجدار ويرفع رأسه لينقل هذا الشعور بطريقة ما إلى سارا. لكن سارا تختفي من النافذة وتطفئ الضوء في غرفتها. يقول دارا لنفسه:

أيتها الشيطانة الصغيرة!

ويقفز لدى لمسة يد على كتفه. سعيداً، يلتفت ليجد سارا، لكنه يرى بدلاً منها شرطياً يلوّح بمسدسه.

في الواقع، كانت سارا قد رأت سيارة الشرطة تقترب من نهاية الشارع فأطفأت نور غرفتها في الوقت المناسب. يسأله الشرطي بعنف:

«ماذا تفعل؟».

دارا، متلعثماً، يقول الحقيقة:

«كنت أداعب الحائط».

يضحك الشرطي ويعود إلى زميله الجالس وراء المقود في سيارة الشرطة.

«هل سمعت هذا؟ كان هذا الرجل المحترم يداعب الحائط».

يبدأ دارا يضحك أيضاً. الشرطي الذي تقفز بطنه الكبيرة إلى الأعلى والأسفل من الضحك، يقول:

«لا بدّ أنك ضممته بين ذراعيك أيضاً».

يضحك دارا ويهزّ رأسه. الشرطي يقول لزميله:

«هل سمعت ذلك؟ إنه يعانق الحائط».

يضرب الشرطي الجالس في سيارة الشرطة قبضته على المقود

ويضحك. ثلاثتهم يضحكون الآن. وللإضافة لهذا الشعور بالمودة، يمرر دارا يده فوق الحائط، لكن صفعة قوية تهوي فوق أذنه. يتطاير الثلج من شعره. يصبح الشرطي جدّياً بسرعة.

«أيها الوغد، كنت تريد أن تتسلّق الحائط وتسرق البيت».

دارا، واضعاً يده على خده اللاهب، يهز رأسه. وبركلة سريعة، يلقي الشرطي دارا على الأرض ويضع يديه خلف ظهره. ومن عتمة غرفتها، ترى سارا الشرطي يدفع دارا، رأسه أولاً في سيارة الشرطة. ثمّ تختفي الأضواء الدوّارة في نهاية الشارع.

تعرف سارا أنه في هذه الليلة، سيُصفع دارا في مخفر الشرطة كثيراً حتى يعترف بأنه كان ينوي اقتحام منزلهم، وتعرف أيضاً بأنه ربما صُفع في الغد أكثر ليعترف بالسرقات السابقة. تتهاوى وتجلس بجانب النافذة وتبكي.

لا يوجد الكثير من الوقت حتى تبزغ الشمس فوق الأسطح العالية والمنخفضة في طهران. غبار أصفر من دنان خمر فخارية محطّمة تتساقط من السماء.

«طيور الكناري المشوية على نار من الزنبق والياسمين...»
(أحمد شاملو)

كان سندباد واقفاً أمام المرآة في بيته، يشذّب لحيته، عندما سمع رنين الهاتف. صوت سارا المضطرب والمرتعش يثير خوفه. هذه هي أول مرة تتصل فيها سارا به في بيته.

تقول:

«إني بحاجة إلى مساعدتك. أرجوك تعال».

«ما المشكلة يا سارا؟ لكن... بالتأكيد...سأغادر فوراً... إلى أين يجب أن أذهب؟».

في التاسعة والربع بتوقيت طهران، يدخل سندباد إلى مقهى الإنترنت نفسه الذي لجأ إليه دارا وسارا في أول يوم التقيا فيه. سارا، الزبونة الوحيدة في المقهى، تجلس في زاوية من المقهى. وجهها شاحب، وعيناها حمراوان من البكاء. يبدو أنها فقدت الكثير من وزنها خلال ساعات قليلة فقط. يجلس سندباد، بقلق حبيب، أمامها.

«اعتراني خوف شديد عندما سمعت صوتك. قلت إنه لا بد أن شيئاً قد حدث لأمّك أو لأبيك... تعرفين أنني سأساعدك بقدر ما أستطيع. لذلك أخبريني ما الذي حدث».

سارا، مرهقة وتحاول أن توقف دموعها، تسأله:

«هل أنت مستعد لتساعدني من دون أن تسألني أيّ سؤال؟».

يحدّق سندباد في عينيها الغائرتين. إنه رجل ذكي وذو خبرة. عندما تلاحظ سارا تردده، تقول متوسلة:

«أرجوك ساعدني... لكن لا تسأل أيّ أسئلة».

يتطلع سندباد حوله. إنها المرّة الأولى التي يدخل فيها إلى مثل هذا المقهى.

«هل تأتين إلى هنا كثيراً؟».

الدموع تنهمر على وجنتي سارا. إنها تعرف أنه إذا اكتشفت الشرطة أن دارا كان سجيناً سياسياً، فإن الفتى المسكين سيتعرض إلى أكبر محنة في حياته.

تقول وهي تنشج:

«لا تسألني شيئاً... ساعدني فقط... وسأتزوّجك من دون شرط».

يطلب سندباد كوبين من الشاي.

شرطيتان متشحتان بعباءتين سوداوين ومسلّحتان بعصي تجوبان المقهى. خبرتهما تجعلهما تعرفان أن سندباد واحداً منهم من مظهره، ولا تضايقان هذا الأخ.

في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم، يُجَرّ دارا من زنزانة احتجازه الموقت في مخفر الشرطة. وبغية حماية سارا، اعترف بأنه كان ينوي سرقة بيت أسرتها، وتحت جميع أساليب الإرغام، كرّر أن هذه هي المرّة الأولى في حياته التي يحاول فيها السرقة.

اقتيد إلى مكتب قائد الشرطة، وهناك يرى دارا سندباد، ويرى سندباد دارا لأول مرة. يوضح قائد الشرطة أن السيد سندباد، الرجل المحترم

وصاحب النفوذ، قد كفله وقدم تفسيرات أقنعته بأن دارا لم يكن ينوي سرقة ذلك البيت. ويضيف القائد أنه بالرغم من أن الشرطة تعامل المشتبه فيهم بقسوة أحياناً، وهو أمر ضروري في بعض الأحيان، فإن رجالها، بصورة عامة، يتمتعون بقلوب طيبة ويعرفون كيف يغفرون، لأنهم يعرفون متى يندم المجرم على ما اقترفت يداه وأنه لن يكرّر جريمته... يضع القائد تعهداً أمام دارا ليوقع عليه. في رسالة التوبة هذه، لا توجد أي عبارة تشير إلى جريمة دارا، بل تفيد فقط بأنه يأسف على الأعمال غير القانونية التي ارتكبها، ويقسم فيها بأنه لن يرتكب جريمة ثانية. يوقّع دارا الإفادة. ثمّ، بنبرة أبوية، يقول قائد الشرطة:

«أيها الشاب، إنك حرّ. اذهب إلى البيت ولا تفكّر مطلقاً بأن تقترف جريمة».

يغادر دارا مخفر الشرطة. لا توجد في الشارع ما يدلّ على أن الثلج قد هطل ليلة البارحة. شاعراً بالخدر، وبالإنهاك، وبالمهانة، يتلو قصيدة لوركا الشهيرة في عقله، «في الساعة الخامسة بعد الظهر. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر تماماً. أحضر الفتى صفحة بيضاء في الساعة الخامسة بعد الظهر... والباقي كان الموت، والموت وحده في الساعة الخامسة بعد الظهر». وعلى مسافة بضع خطوات من مخفر الشرطة، استنفد الطاقة التي تجعله يقف على قدميه. تنثني ركبتاه ضعفاً. يجلس على الرصيف ويستند إلى الحائط. عيناه تريان العالم في غشاوة، ويرى السابلة وكأنهم ظلال داكنة... بعد دقائق قليلة، يشعر برجل يقف فوقه. ثمّ يجلس بجانبه الرجل الذي يبدو أنه يفتقر، مثله، إلى القدرة على متابعة السير.

«شكراً».

لا يسمع رداً.

يتذكّر وجه سندباد من مخفر الشرطة. رجل ذو لحية أنيقة، يبدو حزيناً ومهزوماً يتحاشى النظر إليه.

«لقد أنقذتني. شكراً لك».

«يجب أن تشكر سارا. هي التي أنقذتك».

يبدو سندباد متعباً أيضاً ومهاناً.

يقول دارا بصوت مرتفع:

«في الساعة الخامسة بعد الظهر. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر تماماً...».

«منذ متى تعرف سارا؟».

«منذ فترة طويلة. لكنها تعرّفت عليّ مؤخراً فقط».

«هل تحبّك؟».

«لا أعرف... لكنني أعشقها».

ينبعث صوت من فم سندباد:

«أيّ عاشق أنت ولا تعرف هل تحبّك محبوبتك أم لا... هل أنت غبي؟».

«أظن ذلك. إنني غبي حقاً. لكن هذه هي المرة الأولى التي أعشق فيها».

«المرء يعشق مرة واحدة فقط. هل أنتم، يا من تدّعون بأنكم مثقفون، تعشقون بعدد المرات التي تذهبون فيها إلى دورة المياه؟».

يبدو سندباد وكأن كتلة تقف في حنجرته. يشعر دارا بأنه يشارك هذا الرجل ألمه، لذلك يمكنه أن يكون صادقاً وينزع ذلك القناع الإيراني عن وجهه. يسأله:

«هل تحب سارا أيضاً؟».

«كنت أحبها حتى هذا الصباح».

«فهمت! عندما يحبّ أحد، فإن التحرر من ذلك الحبّ ليس بيده. هل تحبّ بعدد المرات التي تذهب فيها إلى دورة المياه؟».

«إنك محق. لكنني رأيت اليوم مدى حبّ سارا لك... عندما وعدتها بأنني سأساعدك، عاهدت نفسي بأن لا أثق بأي امرأة في حياتي... لقد وعدت سارا بأنها ستتزوجني إن أنا أنقذتك».

في هذه النقطة من قصّة الحبّ التي أكتبها، يقول دارا الجملة الأكثر حكمة في حياته كلها.

غاضباً، يضرب دارا رأسه بالحائط ويقول:

«سيدي! عندما تحبّ امرأة، يجب أن تقول ليذهب كل شيء إلى الجحيم، انس كلّ شيء كنت تثق به طوال حياتك، كنت تؤمن به، وكنت واثقاً منه».

بعد أن قيلت هذه الكلمات على أحد الأرصفة في هذا العالم، يلتفت كلا الرجلين أحدهما إلى الآخر، كلاهما يرى العالم في غشاوة.

«لقد أرسلت أحداً ليقتلني».

«ليقتلك؟».

«نعم».

حلّت قوة السخرية مكان الحزن على وجه سندباد.

«يبدو أن رجال الشرطة قد وجهوا لكمات قوية على رأسك!».

«نعم. لكنني لست مجنوناً».

«إنك مجنون حقاً. أولاً، أنت لست واحداً من الأشخاص الذين يهمني أن أراهم ميتين. وثانياً، حتى اليوم أخفت عني الآنسة العزيزة سارا السرّ بأن لديها حبيباً مثلك».

الآن فقط يسمع دارا صوت رجل ثان يجلس إلى جانبه:

«عندي تعويذة أيضاً من أجل الكراهية والتحرر من الحبّ».

واهناً، يضع دارا رأسه على ركبتيه لكي لا يرى أحد دموعه. ويسمع صوت سندباد الحزين:

«كم تريد ثمن التعويذة؟».

«من أجلك فقط، مائة قطعة وقطعة معدنية ذهبية».

«هذا كثير. ما الذي يضمن لي أنها ستفعل فعلها؟».

«حالما أعطيها لك فإنك ستتحرر من كلّ الحبّ الموجود. يمكنك أن تدفع لي ثمنها في وقت لاحق».

«هل تقبل شيكاً؟».

«الجميع يقبلون شيكاتك يا سيد سندباد، حتى الشركات الأمريكية التي تبيع مرشحات الإنترنت».

«إذاً حضّر التعويذة بينما أكتب لك الشيك».

يظل العالم غشاوة أمام عيني دارا. إنه يريد أن ينام في المكان الذي يجلس فيه لألف سنة وسنة ليعود ويستيقظ ثانية في طفولته. جفناه الثقيلان يغلقان... وفي فترة لاحقة، يستيقظ من ضغط يد سندباد على كتفه.

«سأغادر. لن تراني سارا ثانية... لا تظن أنني لن أقدم تضحيات كبيرة وألعب ألعاب هؤلاء العشاق المعتوهين. لا. لا أريد أن أعيش في بيت واحد مع امرأة تفكّر برجل آخر. هل فهمت ما أقصده يا فتى؟».

«نعم».

تضغط الأصابع المستندة إلى كتفي دارا برفق.

«احرص على الفتاة جيداً».

في الوقت الحاضر، يغادر سندباد قصّة الحبّ هذه من دون أن يعرف أنه

في لحظة خروجه هذه، ربما تحرّر إلى الأبد من عذاب أنه يتعين عليه أن يشذّب لحيته باستمرار.

يبذل دارا جهداً لينهض ويعود إلى البيت ليطمئن أبويه عليه ويحررهما من قلقهما. يسمع صوت بائع الطلاسم السحرية:

«طلسم يحررك من الحبّ والحقد لقاء سيجارة واحدة فقط... هل عندك سيجارة؟».

دارا ينهض.

«لا يوجد معي سيجارة. حتى لو كان عندي فلن أعطيك».

«هل تريدني أن أعطيك واحدة؟».

«هل لديك؟».

يد تضع سيجارة مشتعلة بين سبابته وإصبعه الوسطى.

سيقول السيد بيتروفيتش:

«لم يعجبني هذا المشهد على الإطلاق. إنك تقول إن رجلاً مثل سندباد قد ترك الميدان مفتوحاً تماماً لشيوعي سابق تافه وبائع أفلام متجول. هذا الأمر غير مقبول على الإطلاق. إنك تخرق مبادئ الواقعية التي تعظ بها. إن سندباد أقوى من هذا بكثير».

وسأقول:

«حسناً، وأنا أقول أيضاً إن سندباد شخص قوي جداً».

«إنك كاتب ضعيف لأنك لم تتمكن من معرفة شخصيات قصّتك. في رأيي، يجب أن يقاتل سندباد حتى النفس الأخير».

«حسناً، إنه يحارب».

«يحارب من؟».

«نفسه».

«لماذا تقول كلاماً سخيفاً؟ كما لو كان ذلك عن الحرب الأهلية في العراق؟ كما لو أنه لا يوجد لديه شيء أفضل من أن يحارب نفسه؟».

«هل لأنه لا يوجد للعراقيين شيء أفضل من أن يتحاربوا فيما بينهم؟».

«ليس من المفروض أن تتحدّث في السياسة».

«وإذا كنت تريد أن تتحدّث عن حرب أهلية، فمن الأفضل أن يكون حديثك عن الحرب الأهلية الأمريكية».

«في جميع الأحوال، لا أستطيع أن أغيّر هذا الجزء من قصّتي».

«لماذا؟».

«لأن الشخصية في قصتي اتخذت قرارها بنفسها. لم يكن تصرف سندباد جزءاً من الحبكة. لقد اتخذ قراره بشكل مستقل وتصرف بناء على ذلك».

«إن كنت صادقاً فيما تقول، فلماذا إذاً لم يتخذ دارا في قصّتك قراراً معقولاً ولم يفعل شيئاً لكي يغيّر نفسه؟».

«مثلاً؟».

«مثلاً، شخص أحمق مثله يرتكب أخطاء عديدة في الحياة، شخص ارتكب حماقات كثيرة وأزعج الشرطة، يجب أن يتخذ مساراً حكيماً في الحياة في النهاية».

«أتقصد التطور الشخصي؟».

«لا . . . أقصد الانتحار».

زقاق القاتل

حذراً، يمدّ دارا رأسه من باب بيته ليتأكد من أنه لا يوجد أحد يكمن له في الزقاق. لا تبدو أي إشارة على وجود شبح الحشاشين. يغادر البيت، لكن المكان الأكثر خطورة هو مدخل الزقاق المسدود حيث يمكن أن يكمن القاتل في الزاوية اليسرى أو اليمنى ليضرب دارا بالسكين، ما إن يضع قدمه في الشارع. ولكي لا يُباغت من اليسار أو اليمين، يقرر دارا أن يسير وسط الزقاق. عند نهاية الزقاق يتطلع بسرعة في جميع الاتجاهات، وعندما يتأكّد من أنه لا يوجد خنجر بانتظاره، يتجه إلى الشارع بخطوات سريعة.

لم يكن دارا ليغادر البيت لو لم يكن مضطراً إلى ذلك. لكنه يتعين عليه اليوم أن يقبض الدفعة الأولى لطلاء مخزن ليتمكن من شراء الطلاء. لم تعد للرصيف شخصيته المعروفة. يهرع الناس مسرعين نحو الجانب الغربي من الشارع. يسأل دارا بائع الطيور في الحيّ، الذي يغلق نوافذ محله، ماذا يجري. يتناهى إليه أن شاباً متهماً بشرب الخمرة سيُجلد في الساحة. منذ خمسين سنة يبيع بائع الطيور طيور الحبّ وطيور الكناري والحمام إلى أهالي الحيّ. يسأله دارا هل سيذهب هو أيضاً إلى الساحة ليتفرج. يلقي الرجل العجوز نظرة إلى الشارع باشمئزاز ويقول:

«لا. سأذهب إلى البيت لأمنع زوجتي من الذهاب إذا سوّلت لها نفسها أن تذهب».

وينطلق في عكس الاتجاه الذي يسير فيه باقي الناس. يتبعه دارا بعينيه ويرى القاتل فجأة. بتصميم فولاذي، يسير نحوه. يبدأ دارا يجري. ينعطف إلى أول زقاق، ثمّ إلى الزقاق التالي. الأزقة في هذا الحيّ القديم، التي تحفّها جميعها بيوت صغيرة يعود عمرها إلى مائتي سنة اسودّت جدرانها بالسخام، يفضي أحدها إلى الآخر مثل متاهة. وفي كلّ مرة يبطئ فيها دارا خطاه ليلتقط أنفاسه، ينظر إلى الوراء ويرى القاتل الذي لا يبدو عليه الإعياء أو ضيق النفس، لا يزال يلاحقه. يعرف دارا هذا الحيّ جيداً، لكنه عندما ينظر إلى الخلف يخطئ ويجري في زقاق مسدود، وعندما يدرك خطأه، يكون الأوان قد فات. لا يرى وجه القاتل الداكن، الذي يشعر بالرضا لأنه استطاع أن يحاصر فريسته، ترتسم الآن ابتسامة على شفتيه. عادة ما يرتاد هذا الزقاق بائعو الأفيون والحشيش. خمسة رجال، من الواضح أن ثلاثة منهم مدمنون، والشخصين الآخرين عنيفان، واقفين ومقرفصين هنا وهناك.

عند الطرف المسدود من الزقاق، يتطلع دارا حوله يائساً ليجد وسيلة للهرب، أول شيء يخطر بباله هو أن يذهب ويقف إلى جانب بائع المخدّرات الأضخم جسماً. اضطر القاتل لأن يتوقّف على بعد بضع خطوات.

قلب دارا يخفق مثل قلب عصفور مأسور في يدي رجل مثارٍ جنسياً. تعبق في الزقاق رائحة الأفيون المنبعثة من البيوت. بائع المخدّرات، المكسو وجهه ورقبته بالندوب، الذي يمكن معرفة أنه رئيس العصابة من وقفته، يسأل دارا:

«ماذا تريد؟».

«ماذا لديك؟».

«هل أنت مبتدئ؟».

«نعم».

«عندنا أفيون وحشيش».

«أريد حشيشاً. كم ثمنه؟».

يشير الرجل إلى أحد أتباعه مقرفصاً بجوار الجدار ويقول:

«سأعطيك خمسة غرامات لقاء خمسة آلاف تومان».

في تلك اللحظة خطرت ببال دارا البريء الفطري فكرة في غاية الدهاء.

يشير دارا إلى القاتل ويقول:

«لكنه يبيعها بثلاثة آلاف تومان».

إن هذا التعليق هو أكثر التعليقات مكراً ودهاء يمكن للمرء أن يقوله في زقاق ينتشر فيه تجار المخدّرات. بعبارة أخرى، هناك منافسون جدد في سوقك. يطلق الرجل الفظ صافرة، وعلى الفور، ينهض أحد المدمنين الذي كان على وشك أن يغفو، وبإشارة من رئيسه، ويده في جيبه ـ أي سكينه جاهزة ـ يسير باتجاه القاتل. لكنه قبل أن يتمكن من لفظ كلمة التهديد الأولى، تكون ركبة القاتل قد هوت على صدره، وفي اللحظة التي ينحني فيها متألّماً، يوجّه القاتل ضربة قوية بمرفقه على رقبته الهزيلة. يتهاوى الرجل. لكن بعد لحظات قليلة، يجد القاتل نفسه محاطاً بأربعة رجال شاهرين سكاكينهم. إن أجلاف طهران وقبضاياتها أكثر مهارة من أجلاف بورخيس. بخنجره، يجرح القاتل وجه اثنين منهم وصدريهما، لكن الرجل الذي كان قد سقط على الأرض، يوجّه ضربة بسكينه إلى قدم القاتل اليمنى ويمزق الأربطة فيها، فيجعل قدم القاتل عديمة الفائدة. يتدفّق الدم من كاحل القاتل، يتكئ على الحائط ليظل واقفاً، لكنه لا يقوى على ذلك. محاصراً بأربعة سكاكين، يتهاوى على ركبتيه. يجد دارا

أنها اللحظة المناسبة للهرب. ويطمئن إلى أنه لن يعود بمقدور القاتل أن يلحق به.

مذهولاً، أنظر إلى دارا وهو يغادر الزقاق المسدود، وأشعر أنا بنصل سكين في أربطة كاحلي.

الزفاف

مرّ شهر على حادثة إلقاء القبض على دارا. ورفض خلال هذه الفترة أن يرى سارا. لا لأنه لم يكن يريد ذلك، بل لأنه كان يشعر بالمهانة. فقد تحطّم كلّ كبريائه الذكوري وكلّ الكرامة التي بناها كلمة كلمة في عيني محبوبته في تلك الليلة المثلجة التي حُشر فيها في سيارة الشرطة رأسه أولاً، أمام عيني سارا، والأسوأ من ذلك، عندما جاء منافسه لإنقاذه. إلا أنه خلال هذا الشهر، وخلال الدردشة التي دارت بينهما على الكمبيوتر ومكالماتهما الهاتفية القليلة، حاولت سارا بحكمتها الأنثوية أن تبرئ جروح المهانة، وأن تساعد دارا على نسيانها. وقد اكتشف في الأسبوع الماضي، أفضل علاج لذلك هو السخرية.

«يا رجل! لقد كنت قوياً وذكياً للغاية. لقد قلت الصدق لكن الشرطة لم تصدقك. إن رجال الشرطة المساكين هؤلاء يستمعون إلى أكاذيب كثيرة من المجرمين، لذلك حتى عندما يقول لهم أحدهم الصدق فإنهم لا يصدقونه. فكّر في الأمر. لو قلت أي شيء آخر، لارتابت الشرطة ببيتنا، وألقت القبض عليّ أنا أيضاً... وربما ازدادت الأمور سوءاً... لقد عرّضت نفسك للمهانة لتنقذ سمعتي. وعندما أذللت نفسك أدركت أنك تحبّني حقاً... يجب أن نحمد الله على أن الشرطة اعتقلتك، وإلا لكنت قد ثملت وأنت تنظر إليّ. الطريقة التي كانت عيناك الوحشيتان تحدّقان

فيها إليّ مثل الشيطان، عندما كنت تريد أن تحدث فتحة في الجدار. . . حسناً، أكثر من فتحة. كان من الممكن أن تهدم الجدار مثل سوبرمان، وأن تكسر الباب، وتدخل إلى البيت. تخيّل أن أبي المسكين وأمّي ذات القلب الرهيف، كانا سيستيقظان ويريان سوبرمان في غاية الهياج والحماسة في بيتهما. من يعرف، في تلك الليلة المعتمة، وفي الحالة التي كنت فيها، كان من الممكن أن تخطئ وتطارد أمّي، تماماً كما فعل خسرو».

إن إحدى مواهب النساء العديدة هي أنهن يعرفن كيف يصحّحن ذاكرة الرجل أو يمحونها. لذلك، في نهاية اعتزاله طوال شهر، أخذ دارا يضحك على ما حدث في تلك الليلة. لكن ليس هذا موضوع هذا الفصل.

إذاً اسألوني، ماذا يفترض أن يحدث في هذا الفصل؟

لكي أكتب:

يحضر دارا وسارا حفل زفاف في إحدى تلك الحدائق الإيرانية المشهورة في العالم بجمالها؛ جمال ألف ليلة وليلة الذي يميّز بعضها. فمثل سراب، نبتت فجأة حديقة خضراء في واد، أو بين جبلين، أو في أرض صحراوية قاحلة، وازدهرت مثل معجزة ربيعية. وغالباً ما يكون روّاد هذه الحدائق من المدمنين على الأفيون، أو زوجان من العنادل المغردة في الليل، حيث تمتد أجمات من الورود والأزهار على ضفة جدول ضيّق، يروي فيضه ظمأ الأرض.

في طهران، وعلى سفح جبال ألبورز، كانت هناك آلاف من هذه الحدائق. لكن خلال العقود القليلة الماضية، تُرك الكثير منها لتجف عمداً، وأطلقت الأرض مكانها جميع أنواع البنايات المرتفعة.

يقام حفل زفاف ابن عم سارا في إحدى الحدائق المتبقية تلك. وقد استطاعت سارا أن تجلب دعوة إلى دارا. يشعر كلاهما بالسعادة لأنهما موجودان معاً في حديقة جميلة.

لكن لن يتمكن أحدهما من الجلوس إلى جانب الآخر أو يتحدث إليه.

لا شكّ أنكم ستسألون لماذا.

أولاً، في المكان الذي يجتمع فيه أعمامها وعمّاتها وأقرباؤها، لا تستطيع سارا أن تجلس هكذا مع خليلها. فما أن يروها مع ذلك الفتى حتى يبدأوا في نشر إشاعات تنتقل من فم إلى فم، وستزداد شيوعاً أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر حتى تكتسب سارا سمعة سيئة بين الجميع بأنها فتاة عديمة الأخلاق. ويكمن السبب الآخر في أن حفلات الزفاف أصبحت تنقسم بعد الثورة الإيرانية إلى قسمين منفصلين: قسم للرجال وقسم للنساء، ولا تستطيع أي من المجموعتين أن تختلط بالأخرى تحت أي ظرف كان. أما في المدن، فتقام حفلات الأعراس عادة في قاعات مخصصة للرجال وقاعات مخصصة للنساء. لذلك يودّع الزوج زوجته عند الباب ويذهب كلٍ منهما إلى القسم المخصص له. وبما أنه يسمح بعزف الموسيقى الإيرانية التقليدية إلى حد معين، فإنه تُعزف بعض المعزوفات في هذه القاعات، لكنها لا تكون عادة معزوفات حيوية مليئة بأنغام راقصة تستطيع أن تجعل الإيرانيين يهزّون أوراكهم بشكل تلقائي. وبين الحين والآخر، وفي وسط هذه المعزوفات التقليدية، وبشكل متعمد أو غير متعمد، تُعزف أيضاً أناشيد ملحمية من بقايا سنوات الحرب ـ أناشيد تحكي عن حمل السلاح والتوجه إلى ساحة الوغى حيث تسيل دماء المرء وتسقي الأرض. ويجلس الرجال، الذين يكونون عادة متجهّمين ومكفهري الأوجه، على كراسٍ مصفوفة، ويتناولون الحلوى

والفواكه، ويتحدّثون عن السياسة، وعن ارتفاع أسعار السلع كل يوم، وسعر الدولار، والاختلاسات التي تجري في الدوائر الحكومية ببلايين الدولارات، وهجوم الولايات المتحدة الوشيك، والارتفاع المرعب في عدد مدمني المخدّرات، وغالباً ما تتخلل مناقشاتهم نكات عن الزعماء الحكوميين والثورة.

«يا سيدي! إنك لا تعرف شيئاً. بحسب ظروف البلاد الراهنة، سيصبح الخبز نادراً أيضاً في السنة القادمة، مثل أيام الحرب العالمية الثانية عندما كانت بريطانيا تحتل إيران».

«من يكترث إن كان لدينا خبز نأكله. يا سيدي، لقد ضاع شرفنا! إن الفتيات الإيرانيات الفقيرات يُصَدَّرن إلى دبي بالمئات ليعملن مومسات».

«يقولون إن أميركا ستهاجم إيران خلال الشهرين أو الثلاثة الأشهر القادمة».

«يا سيدي، إنك ساذج! إن هذا النظام نفسه هو نظام أمريكي».

«لا يا سيدي! إن البريطانيين هم الذين جلبوا هذا النظام إلى السلطة».

أما النساء، في القسم الخاص بهن، فهن أكثر بهجة وحيوية. إذ يكن قد خلعن عباءاتهن وخُمُرِهن عن رؤوسهن، وارتدين فساتين زاهية الألوان، ذات فتحات واسعة عند النحر، ومن دون أردان، ويحلِّقن مثل أسراب العصافير القلقة من جهة إلى أخرى. ويضحكن ويدردشن، وتجد اللعوبات منهن وسيلة أخيراً، ولو لبضع ثوان، بأن يسترقن النظر ويتلصصن على قسم الرجال، الذين لا ينفك ثمانون في المائة منهم تقريباً ينظرون إلى ساعاتهم منتظرين العشاء، لعدم وجود أيّ شيء يمكنهم أن يفعلوه للترفيه عن أنفسهم. وعلى طاولات ضخمة، تمدّ صوانٍ كبيرة من الأطباق الإيرانية من جميع الأشكال والألوان، ومع إعلان عبارة «العشاء

جاهز»، يندفع الضيوف إلى الطاولات التي تصبح، بعد دقائق قليلة، أشبه بحقول من القمح هاجمتها أسراب الجراد.

أما قصّة حفلات الزفاف التي تقام في حدائق خاصة، فهي مختلفة تماماً. فإذا كان أهل العريس أو العروس يملكون إحدى هذه الحدائق، فإنهم يقيمون حفل الزفاف في ليلة جميلة ـ طبعاً، بطريقة شبه سرية، بعيداً عن عيون دوريات حملة مكافحة الفساد الاجتماعي. ومع أنه لا توجد في حدائق إيران أقسام منفصلة للرجال والنساء، بدأت العائلات الإيرانية تفصل بين الجنسين، فينتقل الرجال إلى جانب، والنساء إلى جانب آخر بشكل تلقائي. وإذا كانت الحديقة بعيدة عن المدينة، فإنه تدعى عادة إحدى الفرق الموسيقية السرية لإحياء الحفلة بأغانٍ حزينة من الماضي.

عندما يصل دارا إلى الحديقة، يكون جميع المدعوين تقريباً قد وصلوا. يشعر بالتوتر لأنه لا يعرف ماذا يقول إذا ما سأله أحد هل هو على صلة قرابة بالعريس أم بالعروس. فهو لا يستطيع أن يقول إنه صديق ابنة عم العروس، لأنه، من المحتمل عندئذ، بدلاً من أن يتناول الرزّ والكباب، فإنه ينال ضرباً مبرحاً. وبما أننا في فصل الشتاء، فقد نُصبت خيمة كبيرة من المشمّع في رقعة من الحديقة خالية من الأشجار، وكانت مدافئ الغاز تنتثر هنا وهناك لتشيع الدفء في المكان. وداخل الخيمة، كان هناك جدول رقراق يجري بين صفوف الكراسي، وقد زُيِّنت مختلف المداخل والمخارج بالأضواء والأزهار. لم يكن الطقس بارداً، وكان المدعوون يذهبون ويجيئون بين الحديقة والخيمة. ووجد دارا ركناً منعزلاً جلس فيه وحده. وكان بين الحين والآخر، راجياً أن يرى سارا، يختلس نظرة خاطفة إلى القسم الذي تتجمع فيه النساء. وكانت سارا قد أخبرته أنها

سترتدي أجمل فستان لديها كرمى لعينيه. لكنه مهما استرق النظر، لا يرى شيئاً يدلّ على وجودها. ينشغل بالتفكير بسارا إلى حد أنه كاد ينسى ذلك القاتل. وبين الفينة والأخرى، كان يرى في مخيّلته اللحظة التي حاول فيها القاتل أن يظل واقفاً على ساقه غير المصابة، ومع ذلك فقد تهاوى على الأرض. ولم يعد دارا يفكّر بالحكمة الذكية التي واتته والتي انبثقت من مكان في أعماق اللاشعور لديه، فجعلته يتهم القاتل الذي ينتمي إلى جماعة الحشاشين بأنه يبيع الحشيش ـ لأن الحبّ قادر على جلب النسيان إلى ضمير المرء.

يمر من أمامه رجل عجوز يشي وجهه وضعفه بسنوات من تعاطي الأفيون؛ يمشي مترنحاً بطريقة تدلّ بأنه قد جرع كأساً أو كأسين من الفودكا في بقعة سرية في الحديقة. على مسافة بضع خطوات، يتوقّف، ثم يستدير، ويحدّق في دارا. يبتسم دارا بعصبية ويتظاهر بأنه يراقب المطرب الذي يقطّب حاجبيه وهو يغني ويرتدي قميصاً موشى بالخرز. مترنحاً، يجلس الرجل العجوز إلى جانب دارا. وبابتسامة ماكرة على شفتيه، وبصوت مليء بالهذيان والسكر، يقول:

«حسناً، حسناً، يا لك من شابّ مؤدّب ومحترم. هل أنت من عائلة العروس؟».

بأدب يقول دارا لا. يواصل الرجل العجوز التحديق فيه.

«لقد أعجبتني. بهذا الوجه الجميل، لو كنت شاباً آخر، لحامت حولك الفتيات، لكني أرى أنك، أيها الشاب المهذب، قد أتيت لتجلس في هذا الركن وحيداً، مؤدّباً وخجولاً، ولا تسبب أي مشكلة. ماذا يمكنني أن أقول عن شبابنا اليوم؟ إن قلبي يدمى. خذ ابني مثلاً على ذلك. ذلك الشاب الذي يغني. انظر إلى ذاك الحمار. لقد جعل نفسه يشبه النساء، إنه

يرتدي ثياباً ضيقة. انظر كيف يهزّ مؤخرته... أما أنت فشاب مهذب... لقد أعجبتني حقاً. ما اسمك؟».

«دارا».

العرق ينضح من جسم دارا بسبب نظرة الرجل العجوز السوقية. ثمة جرح تحت حنجرته لم يلتئم. ينتاب دارا شعور بأنه رأى الرجل العجوز من قبل، لكن مع أنه بذل قصارى جهده، لم يتذكر أين.

«هل تريد كأساً من العرق المصنوع في البيت؟».

«لا، شكراً».

يضع الرجل العجوز يديه بحميمية فوق فخذ دارا.

«لا تكن رسمياً معي. انظر هناك، وراء الأشجار، أقاموا خلوة للشاربين من أمثالنا. إذا أحببت، يمكننا أن نذهب ونبلّ ريقنا».

«لقد شربتَ كفاية عنا، نحن الاثنين، شكراً».

«لكن طعمه لا يحلو من دونك».

دارا يتجاهل تعليق الرجل العجوز. يتطلع حوله يائساً راجياً أن يرى سارا ليلتمس منها المساعدة بصمت.

في الجانب الآخر من الجدول، بدأت النساء والفتيات يرقصن على أنغام الأغنية الجديدة التي بدأ المطرب يغنيها. يقول الرجل العجوز وهو يفوق:

«إنك شابّ مؤدّب ونظيف، هل أنت من عائلة العريس؟».

«نعم».

«ما مدى قرابتك؟».

«أنا صديق».

«أرجو أن يكون لأبني أصدقاء مثلك. هذا القملة. جميع أصدقائه مثله؛ هؤلاء الصبية الوسيمون لا يجلسون معي لندردش ولا دقيقة لكي لا يجعلوني أشعر بالوحدة».

بتأدب يرفع دارا يد الرجل العجوز عن فخذه. الرجل يبتسم ثملاً.

«أيها الشيطان! لا تكن فظاً».

ينتقل دارا إلى كرسي آخر، لكن الرجل العجوز ينتقل إلى الكرسي بجانبه.

«إنك خجول أيضاً! يا إلهي كم أحبّ الشبان الخجولين».

يمر من أمامهما رجل فمه محشو بالحلوى. بالطريقة الإيرانية لإبداء الصداقة والاحترام، يضع الرجل العجوز يده على صدره وينهض قليلاً عن كرسيه.

«تحياتي يا سيد كاجي».

السيد كاجي، بقطع صغيرة من الحلوى تتناثر من فمه، يحيّي الرجل العجوز بحرارة.

«عزيزي السيد كاجي، أنت تعرف مدى حبي لك ومدى احترامي لعائلتك المحترمة».

يضع كاجي أيضاً يده على صدره، وكبادرة احترام ينحني قليلاً.

«من المؤكد أنني سآتي لزيارتكم لأقدم لكم احترامي».

يبتعد. الرجل العجوز يهمس:

«هل ترى هذا الرجل، كاجي؟ إنه ابن قحبة، خسيس، وغد. قبل عشر سنوات فقط، كان هو وزوجته يعيشان في غرفة مستأجرة. ثم لا أعرف كيف تمكن من أن يشقّ طريقه في إحدى الدوائر الحكومية، والآن فهو يسرق بالمليارات. لقد أرسل زوجته وأولاده إلى كندا، وله زوجتان موقتتان تعيشان في بيتين منفصلين، ويتدبر أموره بشكل جيد. إنني لا أطيقه. حقاً إنني لا أطيقه. لا أريد أن أنظر إلى وجهه الشرير لثانية واحدة».

إن رؤية هذا الضرب من النفاق الإيراني يثير غضب دارا على الدوام. نصل خنجر القاتل يلمع في مخيلته. في لحظات الحزن يفتقد إلى شبح الحشاش وربما يشعر بالأسف لأنه أخفق في مهمّته.

لا تزال لا توجد أي إشارة تدل على وجود سارا. يفكّر دارا بالمغادرة. لكن بناء على طلب العروس، اختيرت سارا وصيفة للعروس وذهبت معها إلى صالون التجميل لتصفيف شعرها. وهناك، تخضع العروس وحاشيتها إلى أشد أنواع التجميل كثافة. وفي ساعة معيّنة، يظهر العريس، بسيارة مزدانة بالأزهار، تتبعها بضع سيارات أخرى ممتلئة بالأصدقاء والأقرباء، أمام الصالون. العروس، مكسوة بعباءة بيضاء، لكي لا يتمكن أحد في الشارع من رؤية فستانها العديم الأردان وكتفيها العاريتين، تصعد إلى سيارة العريس، وتنطلق القافلة عبر الشوارع، مطلقة أبواقها على أشدها، متوجهة إلى حفل الزفاف.

من صوت زغردة النساء وتهليلهن، يعلم دارا أن العروس والعريس قد وصلا. تعزف الفرقة الموسيقية أغاني الأعراس القديمة. ينبعث لحن بهيج قديم من أغصان الأشجار العارية من الأوراق. ويرى دارا حبيبته الجميلة سارا. ترتدي فستاناً أبيض ضيقاً تنسل فيه خيوط من الفضة. كتفاها البيضاوان المكورتان وذراعاها المكتنزتان قليلاً تشع بلا رحمة. ترتفع تنورتها فوق ركبتيها، ويلمح دارا ربلتي ساقي سارا. عضلاتها المتطاولة عريضة تكفي لأن تلفّها يد رجل وهي تتحرك برقة وخفة فوق قوسها المنحني، ثم تصبح مستدقة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى أعلى كاحليها، تكفي لأن يلفّها إبهام يد رجل وأصبعه الوسطى. وللحظة يرى دارا صورة فخذي سارا تلتفان حول جسده، وربلتي ساقيها تنزلقان فوق مؤخرة ساقيه الملتهبتين. يهزّ رأسه ليتخلص من هذه الصورة المخجلة.

ومن حركات نهدي سارا الرقيقة، تلمع خيوط الفضة على فستانها، ويكتشف دارا أن خصر المرأة يضيق في منتصف الطريق بين عرض كتفيها وعرض وركيها لكي تطوقه يدا الرجل وتكمّله. وفجأة تميل سارا برأسها قليلاً، ويتناثر الشعر الكثيف على رأسها، ويبتعد عن وجهها، وتجد عيناها دارا جالساً في الزاوية. تبتسم خلسة له وتتسلّ نحو أمها.

تعرفون الآن تماماً أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً لكي أوقف مقصّ الرقيب من قصّ نهدي سارا، وربلة ساقيها، وخصرها، لذلك يجب أن أكتب الجمل بالرقابة الذاتية بالأسلوب التالي.

دارا يرى محبوبته سارا الجميلة. يرى بروز عظم ترقوتها البلّوري ينحني وينتهي مثل مقبضي قدحين بلوريين. ذراعا سارا مثل ندف الثلج يتلألأ فوقهما شعاع القمر وهما تتدليان إلى جانب صورتين مقوّستين. . .

لا، يعتريني شعور بالبرودة من هذا التصوير الجليدي. أشعر بالرغبة لأن أشبّه ظهور محاسن سارا بعبارة ظهور أوروسلا أندورز التي ترتدي بكيني على شاطئ البحر في فيلم «الدكتور نو»، لكن يرجح كثيراً أن السيد بيتروفيتش قد شاهد هذا الفيلم. ومن الناحية الأخرى، لا أريد حقاً أن أحوّل قصّتي إلى طبيعة صامتة يرسمها رسّام نهم، وأكتب عن رمانتين مرتعشتين، وأقارن بشرة سارا البيضاء باللوز المقشّر، وأصف بروز مؤخرتها بالتفاحة. لعلي أستطيع أن أكتب:

تفيق الأشجار بهزّة مفاجئة من سباتها الشتوي وتطلق عنان صهيل الرغبة. ويتحرك اللحم المنحوت بينها.

لا. لا أحبّ هذه الاستعارة أيضاً. سأكتب:

في جنة لا فصول فيها، أفعى فضية تلتف حول عمودين رفيعين مصنوعين من الرخام تنزلق إلى الأعلى. تقفز فوق نبع من العسل، وتصل

إلى قوسين محدبين. تواصل تسلقها إلى الأعلى، وتحكّ حراشفها الباردة على لهبين أبيضين لهما نهايتان قرمزيتان، ثمّ، بلسانها الباحث عن الحرارة، تزيح اللؤلؤة الوحيدة المعلقة على القلادة وتلعق ذلك التجويف الصغير الناعم تحتها.

لا، لا أحبّ هذا أيضاً.

تسير سارا الهوينا باتجاه الجدول لتصبح على مرأى من دارا. الأضواء الملونة العديدة تنعكس فوق صفحة الماء. في تلك المرآة الزئبقية، من امتزاج الأخضر والأزرق والنيلي، يظهر لون جديد إلى العالم. ينعكس على بياض ذراعي سارا وكتفيها، ويتشكل لون أكثر نضارة...

لست أنا من يريد أن يكشف لقرّائي محاسن سارا، دارا لا يريد أن يرى الرجال الآخرون عري جسد سارا. في الواقع، يشعر بالغضب منها لأنها ارتدت هذا الفستان.

فتاة تمرّ بجانبه وتبتسم له بإصرار. محرجاً، يطرق دارا بعينيه. الرجل العجوز يصيح:

«أرأيت؟ أرأيت كيف غازلتك هذه الفتاة الحقيرة؟ لعن الله تلك الشابات اللاتي جعلن شبابنا الأبرياء يضلون السبيل».

يتعب دارا من مراقبة سارا خلسة. ينهض ويتوجه إلى أقرب بقعة منها. سارا تراه يقترب. تعضّ على شفتها السفلى، بإشارة أن لا. دارا يقف على مسافة بضع خطوات. سارا تدير ظهرها له وتبدأ تتحدث مع رجل يقف وحيداً بالقرب من الجدول ويراقب الماء وهو يتدفق. دارا يشعر وكأن إحدى مدافئ الخيمة تلك الساكنة قد اشتعلت في جسمه، وبدأت تتلظى. إنه يعرف الرجل ذا الوجه المتعب والكتفين المتهدلتين. إنه الدكتور فرهاد، رأسه يتدلى إلى الأسفل، وبين الحين والآخر، يرفع عينيه وينظر إلى عيني سارا المتلألئتين، ثم، عندما يشعر بالقلق، يستدير.

يسأل:
«أين رأيتك من قبل؟».
«في المستشفى. هل تتذكّر عندما أجريت عملية لشيرين وقطّبت جروحها؟ كنت واقفة إلى جانبها».
«نعم، نعم. الآن أتذكّر. كان الأمر فظيعاً».
يقف دارا بالقرب منهما، ويتظاهر بأنه منهمك في مراقبة تدفق المياه في الجدول.
لعلكم تريدون الآن أن تسألوا لماذا تحدّق جميع شخصيات هذه القصّة في ذلك الجدول.
أولاً، وقبل كل شيء، يعتبر جدول الماء في بلد صحراوي مثل إيران، أحد أجمل المشاهد التي يمكن النظر إليها. وثانياً، في بلد يصل فيه معدل إنتاج العاملين في المكاتب عشرين دقيقة في يوم عمل يتكون من ثماني ساعات، فإن الإنصات إلى خرير الماء والتمعن فيه وهو يتدفق لهو شكل من أشكال الراحة العقلية والطبيعية والاسترخاء المطلوب، وخاصة عندما نعرف جميعنا عن ظهر قلب، ونذكّر بعضنا البعض باستمرار، بشطر البيت المشهور من قصيدة كان قد كتبها أحد شعرائنا الكبار منذ سبعمائة سنة:

اجلس على ضفة الجدول وانظر كيف تتدفق الحياة.

لذلك، في قصّتي الواقعية، من الطبيعي ومن المستحسن ألا تتحرك الشخصيات في قصّتي من جانب ذلك الجدول.
سارا تقول:
«دكتور، لقد فوجئت برؤيتك هنا».
«الحقّ أقول، فأنا لا أحبّ حفلات الزفاف كثيراً. لكن والد العروس هو

ابن عمة أمّي، فاضطررت للمجيء. لا بد أنك هنا مع عائلتك أو مع زوجك».

«لا، ليس عندي زوج».

يسعل دارا. تنظر سارا إلى عينيه الغاضبتين وتلف خصلة من شعرها حول إصبعها.

«دكتور، ليست الفتيات في إيران اليوم كما كنّ في الماضي، فهن لا يتزوّجن أول رجل يتقدم لطلب يدهن. لقد أصبحن انتقائيات جداً. بل يدرسن جميع خياراتهن، ويتأكدن من أن الرجل الذي يصرّح بحبه يريد سعادتهن حقاً، لا سعادته فقط، فإنهن لا يقعن في مصيدة الزواج. ماذا عنك؟ لا بد أنك هنا مع صديقتك أو مع زوجتك».

يحمرّ وجه الطبيب خجلاً.

«لا. أنا وحدي. لم يكن لدي الوقت لأتخذ صديقات لي، ولا يوجد لدي وقت لأمضيه مع خطيبة».

كانت كلّ الشجاعة التي يمتلكها هي أن ينظر في عيني سارا لخمس ثوان فقط.

«في أحد الأيام ستجد فتاة تحبها، فتاة تقدّر شخصيتك النبيلة والناكرة للذات، وتعيش حياة سعيدة».

يبدو أن الطبيب يفتّش بشكل محموم في ثنايا عقله بحثاً عن جملة ملائمة ليقولها، ظل فمه فاغراً، ولم يستطع أن يجد جملة واحدة. تبتسم سارا لبراءته وخجله.

يقول الطبيب متذمراً:

«أرجو ذلك... إن الوحدة هي... إن الوحدة هي حقاً... لقد بدأت أدرك هذه الأيام أنني وحيد جداً...».

ويشيح بعينيه الإيرانيتين المحرومتين عن مشهد شق صدر سارا.

«تحلم الكثير من الفتيات في هذا البلد بأن يصبحن زوجة لك. . . بالمناسبة، إذا مرضت، أين عيادتك؟».

يضع الطبيب يده في جيبه بعصبية، وتسقط حقيبته مرتين، إلى أن يخرج أخيراً بطاقة عمل ويقدمها إلى سارا. ثمّ، مضطرباً ومشوشاً، يخرج من الخيمة. . . يعود دارا إلى مقعده. يأخذ برتقالة ويعصرها في قبضته. يتسرب العصير بين أصابعه.

الرجل العجوز يقول:

«هكذا تعصرين قلبي».

يبدأ المطرب في الحديقة يغني أغنية راب إيرانية، صادرة من لوس أنجلوس؟

«قلت، هزّي ردفيك وهزّي نهديك. قلتِ، سأهزّ ردفي وسأهزّ العالم. . .».

تبدأ النساء يرقصن. وعلى مسافة قريبة، يشكل الفتيان والصبايا مجموعة خاصة بهم. شابان، برأسيهما ورقبتيهما إلى الأرض، وساقيهما في الهواء، يبدآن يدوران.

سيسأل السيد بيتروفيتش:

«هل تسمع صوت الموسيقى السوقية والرقص وفقش الأصابع من مكان ما؟».

وسأجيب:

«لا. اطمئن. إن جميع الناس في المدينة نائمون. البيوت صامتة وهادئة. النوافذ مغلقة، والستائر مسدلة. براءة، مثل نسيم ربيعي، تهب في الشوارع والأزقة، والملائكة تتثاءب».

فتاة تمسك يد سارا وتسحبها إلى الحشد حيث يرقص الفتيان والفتيات.
سارا تحرّك يديها ووركيها بتردّد، ثم تبتعد عن المجموعة ببطء وتقف لتتفرج على فرحهم البريء. وبما أنه لا تتاح لهم مثل هذه الفرص إلا نادراً، فقد راح الفتيان والفتيات يرقصون بشكل محموم حتى بدا أنهم دخلوا في مسابقة للتفريج عن الطاقة التي تعذبهم.

يشير الرجل العجوز إلى سارا.

«أمعن النظر في هذه الفتاة الجميلة. لا تصدّق أنها تقف هناك وتبدو خجولة. من الواضح أنها تريد أن ترقص، لكنها تتظاهر بالخجل ليسحبوها من يدها لتشاركهم الرقص. وما أن تصبح هناك، حتى تتحول إلى كرة من نار. إني أعرف تلك النساء كما أعرف قفا يدي. لا تثق بحياتك بما يظهرنه ولا بالكلمات التي تخرج من أفواههن. اعكسها».

يرى دارا وجه سارا من الجانب، ولا يرى في جانب وجهها أي إشارة تدل على البهجة. يبدو أن سارا هذه، على عكس ما كانت عليه قبل دقائق قليلة تغازل الدكتور فرهاد، عادت الآن لتصبح سارا التي كانت واقفة أمام جامعة طهران حاملة لافتة كتب عليها الموت للحرية، الموت للعبودية.
يشير الرجل العجوز إلى ساقي سارا.

«انظر إلى كاحليها النحيلين. لقد علّمني أبي المرحوم أن المرأة ذات الكاحلين المستدقين لها فتحة ضيّقة، والمرأة ذات الكاحلين الغليظين لها شيء كبير حقاً، ذو شفتين سميكتين وغليظتين. هكذا».

ويضم راحتي يديه معاً أمام عيني دارا.

مرة أخرى، يبتعد دارا ويجلس على كرسي آخر مبتعداً عنه. قلبه يوجعه. إن رؤية الآخرين يرقصون مبتهجين كان يجعله حزيناً دائماً. إذ إن ذلك يذكّره بالسعادة التي لم يذقها، ويذكّره بأنه لا يعرف، ولن يتعلم

كيف سيعثر على سعادته. ومع كلّ سنة تمرّ، أصبح يزداد قناعة بأننا نحن الإيرانيين أمة يغمرها الحزن والكرب. إننا لا نعرف طعم السعادة، وعندما نظهر السعادة أحياناً، فإننا في الواقع نتظاهر بذلك.

إن رؤية الفتيان والفتيات يرقصون تذكّر دارا بابنتي جيرانه. كانتا توأمين متماثلين. بعد الثورة، انضمت إحداهما إلى حزب الله، وأصبحت الأخرى شيوعية. وعندما داهمت الشرطة بيتهما لإلقاء القبض على الأخت الشيوعية، ادّعت الفتاة التي تنتمي إلى حزب الله بأنها هي. وفي السجن، وضعوها في تابوت مغلق لمدة ثلاثة أشهر لكي تتخلّى عن فكرة إنكارها لله لأنها شيوعية ماركسية وتتوب. وبعد خمس سنوات، عندما أطلق سراحها، لم تعد تشبه أختها التوأم، فقد قطعت أختها صلاتها بذلك الحزب اليساري، وأمضت تلك السنوات وهي تصلّي وتتضرع إلى الله بأن يعيد أختها إلى العائلة وهي لا تزال على قيد الحياة. لكن الفتاتين اختفيتا بعد عدة سنوات. ولفترة طويلة لم يسمع أحد عنهما، إلى أن سمعنا أنه في إسطنبول، أمام وكالة الأمم المتحدة للاجئين، يداً بيد، أحرقت الفتاتان نفسيهما، احتجاجاً على سياسات أوروبا المنافقة تجاه إيران...

يلوم دارا نفسه لأنه لم يغادر، لكن ليست لديه الإرادة لأن يغادر، وليست لديه الإرادة لأن يبعد نظره عن سارا، وتستمر عيناه في دعوتها إلى المجيء إلى جانبه.

سارا، تحمل صحنين صغيرين مليئين بالحلوى، تسير نحوه. تقدم الصحن الأول للرجل العجوز. الرجل العجوز يقول:

«إني أعشقك، يا ابنتي العزيزة، لم يعرني أحد اهتماماً غيرك. إنك مثل واحدة من بناتي».

سارا تنحني وتمدّ يدها بالصحن الثاني أمام دارا. عندما يمدّ دارا يده لتناول الصحن منها، تهمس سارا:

«في اللحظة التي تراني فيها أتكلّم مع رجل تجتاح عقلك أقبح الشكوك».

وتسقط دمعة واحدة فوق قطعة الحلوى.

يقدم دارا صحنه إلى الرجل العجوز ويتبع الجدول نحو العتمة في طرف الحديقة. يرى ظل فتى وصبية يقبّل أحدهما الآخر. عندما يسمعان وقع خطواته، ينفصلان ويديران ظهريهما له. على مسافة قليلة، يتكئ دارا على شجرة ويشعل سيجارة. مندهشاً كيف رأت سارا ثعابين الغيرة في عينيه، يفكّر بمستقبل علاقته المجهول بها. يشعر بأن حبّهما يسير في درب لا يستطيع أن يسيطر عليه. عندما يشعل سيجارته الثانية، يرى في وهج اللهب سارا واقفة أمامه؛ يمد يده نحو كتفها. سارا تبتعد. ينزلق دارا، الذي لا يزال يتّكئ على الشجرة، إلى الأسفل ويجلس على الأرض. الخدوش التي يحدثها لحاء الشجرة في ظهره يشعره بالراحة. يقول:

«بدأت الآن فقط أدرك أنني لا أعرفك تمام المعرفة. إنك لست سارا التي كنت أعرفها. إنني مشوّش للغاية».

«لأنك، بأنانية، تريدني أن أكون دائماً كما تخيلتني في عقلك. إن الشخص الوحيد الذي رآني كما أنا حقاً هو ذلك الشاعر الذي كان يبيع الكتب. عد إلى الحفلة. أريد أن أرقص لك».

تبدأ تسير في الاتجاه المعاكس لتيار الجدول. بعد بضع دقائق، يشعل دارا سيجارته الثالثة. تنبعث ضحكة مغناجة من فتاة من مكان ما في عتمة الحديقة. يقول دارا لنفسه إنه لو كانت سارا تحبّه حقاً، لأعطته ذلك المخطوط. يرمي السيجارة نصف المدخّنة في الجدول. في الظلام، لا يرى وردة جورية تطفو بين الحين والآخر فوق ماء الجدول. ذات الوردة التي كانت جدّاتنا يحكين لنا خرافات عنها: وحش يقع في حبّ فتاة

جميلة، يخطفها، ويأخذها إلى حديقته. وعندما يريد أن يغادر الحديقة، وليتأكد من عدم هروب الفتاة، يقطع رأسها ويعلّقه فوق شجرة. تتساقط قطرات دم الفتاة فوق الجدول، وتتحوّل كل نقطة من دمها إلى وردة جورية، إلى أن يرى الشابّ تلك الوردات ويتبعها حتى يصل إلى الحديقة ويقتل الوحش وينقذ الفتاة. دارا يعود إلى الحفلة ويجلس في المكان الذي كان يجلس فيه من قبل. يختلط العروس والعريس مع المدعوين ويتبادلان المجاملات معهم. دارا يتخيّل سارا في فستان الزفاف الذي جرّبته في ذلك المحل، ويرى نفسه في مكان ذلك العريس الذي يمسك يدها. في نومها الشتوي، تحمل الأشجار تخيلات ألف ليلة وليلة من أحدهما إلى الآخر في النسيم العليل.

فجأة، يتناهى إليهم صوت تكسر صحون خزفية.

يلقي المطرب الميكروفون جانباً، وعندما يقفز نحو أحد منافذ الخيمة يرتطم بطاولة مليئة بصواني الحلويات. المرأة التي تقرع الطبل، تلقي الطبل وتلحق بقفزات المطرب باتجاه الحديقة المظلمة. عازف الغيتار المسكين، الذي يضع رباط غيتار كهربائي حول رقبته، لم يتمكن من أن يخلّص نفسه من الأسلاك ووقع على الأرض. عندها فقط يلاحظ الجميع فجأة ظهور دورية مكافحة الفساد الاجتماعي التي يرتدي أفرادها بدلات خضراً عند مدخل الخيمة. يمسك أحد أفراد الدورية عازف الغيتار من خلف رقبته ويلقي به أرضاً. الأفراد الثلاثة الآخرون يطاردون العازفين الهاربين. أخذت النساء والفتيات يجرين باتجاه الفيلا في الحديقة وهن يصرخن ويولولن.

يقول الرجل العجوز نادباً:

«يا إلهي! هذا سيئ. إن اللقطاء...».

أخذ شرطي الدورية الذي أمسك عازف الغيتار يحطّم غيتار الرجل بقدميه. يعود الثلاثة الآخرون وهم خالو الوفاض. يشحب لون الرجال الذين كانوا يشربون، ويختبئون في الزوايا. أما الآخرون، بمن فيهم العريس ووالداه وأقرباؤه الآخرون، فقد تحلقوا حول اثنين من أفراد الدورية. وراحوا، الواحد تلو الآخر، يتوسلون إليهما بأن يغضا الطرف عن الحفلة، وأن لا يفسدا هذه المناسبة السعيدة. يأخذ الرجل العجوز قطعة خيار من صينية الفواكه، ظناً منه أنها ستزيل رائحة الكحول من أنفاسه، يقضمها بعصبية. ثم يفرك يديه ويقول:

«إن الطريقة التي يتوسل فيها العريس ستزيد الأمر سوءاً. دعوا هذا الأمر لي. أنت، أيها الشاب، لا تذهب إلى أي مكان حتى أذهب وأتفاوض معهم وأعود».

ينهض، ويبدأ يترنح على الفور. يسوّي ظهره، ويأخذ نَفَساً عميقاً، ويبلع عقب الخيارة، ويتجه بشجاعة نحو أفراد الدورية. عندما يصل إليهم، يبدأ يسير باستقامة تامة. يصيح:

«حسناً! حسناً! إنني أشمّ رائحة ماء الورد من ساحة وغى الحقيقة ضد الإثم».

يشقّ طريقه عبر الحشد المتحلّق حول أفراد الدورية، يفتح ذراعيه، ويعانق الضابط المسؤول، ويطبع بضع قبلات مبللة بالبصاق على خدي الرجل.

«أهلاً بكم! لقد شرفتمونا. سيد كاجي، أحضر بعض الحلوى لإخوتنا... أيها السادة، أيها السادة! هؤلاء الأخوة لا يفعلون سوى واجبهم. يجب ألا نجادلهم... ليذهب أحدكم وراء هذين العازفين الغندورين ويحضرهما. يجب أن يتعهدا لإخوتنا هنا أنهما لن يكررا مثل

هذا العمل البغيض. . . سيد كاجي، هل أحضرت الحلوى؟».

ينظر المسؤول في الدورية إلى الرجل العجوز بارتياب. الرجل العجوز يقبّل الفرد الآخر على كتفيه.

«ممتازا أشعر بالحيوية ثانية. يا إخوتي، ألم تعرفوني؟».

ينظر أفراد الدورية أحدهم إلى الآخر ويهزون رؤوسهم.

«ههها حقاً من الواضح أنكم جدد يا أخوتي. فجميع الشباب في حملة مكافحة الفساد الاجتماعي، من أدنى رتبة إلى أعلى رتبة، يعرفون سيادتي ويعرفون جميع منجزاتي الثوروية قبل الثورة. وجميع الأشخاص الموجودين هنا يعرفون أنني تبرعت بكل ثروتي لشراء بيوت للإخوة في الثورة. إذا لم تصدقوني، اسألوا قائد القاعدة عندكم، العقيد سلمان. ففي كل يوم جمعة، نذهب أنا وهو إلى صلاة الجمعة حافيين. إنني مكرس نفسي لجميع الإخوة في الثورة. أنا حاجي كريم. . . من ذهب وراء ذاك المطرب والعازفة اللعينين؟».

ومثل قائد يشير إلى حفنة من الشبان.

«أنتم، أنتم، اذهبوا واعثروا عليهما واجلبوهما إلى هنا».

كان ثمة سلطة في صوته فركض الشبان الثلاثة طائعين نحو الحديقة. يقف الآخرون، فاغرين أفواههم، وعيونهم مفتوحة على وسعها، يحدّقون في ما يفعله الرجل العجوز. ويكاد يرغم كل فرد من أفراد الدورية على أن يأخذ صحناً من الحلوى، ويجعلهم يجلسون على الكراسي. وتمكن شيئاً فشيئاً من إطفاء لهيب غضبهم بعد أن رأوا تلك الحفلة المنحطة. وفجأة، يركل الرجل العجوز الطبل، وبينما يحاول أن يُخرج قدمه التي علقت في وسطه، يقول بمكر إنه سيقود الحفلة بنفسه، ولن يسمح للنساء بأن يخرجن من أبواب الفيلا من دون خُمُرٍ

على رؤوسهن، وإنه سيتخلص من تلك الأدوات الموسيقية، بل إنهم إذا لم يعثروا على المطرب والعازفة الأخرى، فإنه سيسلمهما في الغد ويداهما مقيدتان إلى الإخوة في الثورة. وبحسب العادة الإيرانية القديمة، يقتلع شعرة من لحيته ويضعها في راحة المسؤول عن الدورية كضمانة للوعد الذي قطعه على نفسه. وبعد نصف ساعة، تزول القسمات القاسية والفظة من وجوه أفراد الدورية. ويوضحون بودّ أنهم لا يريدون إزعاج هذا الحفل البهيج، لكن بعض العائلات تغالي في احتفالاتها.

كانت الحادثة على وشك أن تنتهي نهاية سعيدة، وسار الرجل العجوز ليوصل أفراد الدورية إلى بوابة الحديقة عندما اشتغل جهاز لاسلكي المسؤول عن الدورية. يقول إن حاجي حكيم قد وعده بالنيابة عن جميع المدعوين في الحفلة، وأنهم في طريق عودتهم إلى القاعدة... فينطلق صراخ قائد القاعدة:

«من هو حاجي كريم هذا بحق الجحيم؟».

«سيدي العقيد! حاجي كريم، صديقك. إنه يقول إن جميع الإخوة يعرفونه... الرجل الذي تذهب معه إلى صلاة الجمعة حافيين».

ويفهم عندها معنى صيحات ضابط القاعدة.

وعندها فقط يفهم الرجل العجوز معنى نظرة المسؤول عن الدورية الغاضبة.

ويلقون القبض على حاجي كريم المزيف، وعلى عازف الغيتار، وعلى والد العروس، وعلى العروس، وعلى العريس ويصطحبونهم معهم.

المدعوون، مذهولون، يتهاوون على كراسيهم. لا يملك أحدهم القدرة

على الكلام، ولا يعرف أحد منهم ماذا عليه أن يفعل. الآن يمكن سماع خرير جدول ألف ليلة وليلة الرقيق بوضوح. يختار دارا أن يسير في الدرب ليمر من أمام سارا. يشمّ عبيرها ويهمس:

«إلى اللقاء».

سارا تهمهم:

«أنا آسفة».

يتجه دارا نحو باب الحديقة. وفجأة، مثل معجزة في طهران، في أعلى الصمت المطبق الذي يشبه صمت المقابر والذي حلّ على الأشخاص المحطمة قلوبهم، في أعلى وهج المصابيح الملونة التي بدأت تبدو الآن بشعة، وفوق غيتار مكسور، بدأت تنبعث أغنية عندليب يغرد في الليل من الحديقة. عندليب ينبغي ألا يكون في الحديقة في هذا الفصل البارد، عندليب، في ألف بيت من الشعر الإيراني، في ساعات الظلام، من أجل حبّ وردة حمراء حزناً على انفصاله عنها، غرّد منذ الأزل وسيغني إلى الأبد.

«عند الفجر ينضح عبير الأزهار من سريري...».

المشهد التالي من قصتنا يبدأ في بيت دارا.

كان والدا دارا قد ذهبا في رحلة لمدة ثلاثة أيام. في إيران، يعتبر ذلك فرصة ذهبية. لذلك، وبعد الكثير من اللغط والإعداد ووخز الضمير والخجل، يدعو دارا سارا إلى بيته. وسارا، وبعد الكثير من اللغط، ووخز الضمير والخجل، تقبل الدعوة. لكنها كانت تلحّ باستمرار:

«فقط لمدة نصف ساعة. سنجلس فقط ونحتسي كوباً من الشاي معاً، ثم أغادر. نصف ساعة فقط.

في الواقع، بعد حادثة ذلك اليوم الذي تساقط فيه الثلج، أصبحا أشد

حذراً وأكثر تحفظاً، بعبارة أخرى، أكثر ذكاء. ستعجب السيد بيتروفيتش جملتي الأخيرة. بالطبع، لكي يتعرف أحدهما على الآخر بشكل أفضل، ولكي يحميا حبهما الطاهر والعفيف، كانا يفضلان أن يخرجا في نزهة إلى إحدى الحدائق الجميلة في شمال طهران.

تناقش العاشقان في قصتنا بإسهاب، وخططا كيف ستقترب سارا من باب بيت دارا، وكيف ستدخل بسرعة. ومثل مناضلين في مدينة يطاردهما رجال الشرطة السرية، استعرضا جميع الأحداث والمشاكل غير المتوقعة التي يمكن أن تبرز لهما. في الحقيقة، كان خوفهما الشديد من الجيران الفضوليين الذين يعرفون أن والدي دارا مسافران، والذين إذا رأوا فتاة تدخل البيت، فإنهم سيستنتجون على الفور بأن عملية مضاجعة سترتكب في ذلك البيت. وربما اتصل الأخ عطا بمكتب من مكاتب حملة مكافحة الفساد الاجتماعي العديدة، وطلب أن يهرعوا بأسرع ما يمكنهم، قبل أن ترتكب خطيئة تحت سماء هذه المدينة. وإذا تأخر أفراد دورية مكافحة الفساد أو إذا لم يقوموا بواجبهم كما يجب، فإن عطا، الذي يعتقد بأنه مسؤول عن جميع الأعضاء الجنسية في إيران، سيمطرهم بوابل من الاتصالات الهاتفية إلى أن يداهموا ذلك البيت، ويلقوا القبض على الشريكين الآثمين.

كما خططا، ترك دارا الباب مفتوحاً قليلاً قبل خمس دقائق من الموعد المحدد. وفي الساعة التاسعة صباحاً، تدخل سارا الخائفة إلى المنزل. تجتاز أجمة الياسمين في الباحة الأمامية، وتلقي بنفسها داخل المبنى.

السيد بيتروفيتش يتغاضى عن هذا المشهد، راجياً أن تعاني الشخصيتان الآثمتان في نهاية روايتي من الندم وعذاب الضمير والبؤس والدمار لكي

تأخذ قصتي على الأقل جانباً أخلاقياً تعليمياً، وأن تصبح درساً وعبرة لجميع الفتيان والفتيات الذين، كما يقول مثل إيراني قديم، مثل القطن والنار: إذا ما تركا وحدهما فلن يدمّرا نفسيهما فقط، بل بيتهما أيضاً. لعلي أنا أيضا، باعتباري كاتباً لا يزال يكتب منذ سنوات طويلة تحت رقابة الحكومة والرقابة الثقافية لشعب بلدي، سأرتب لا شعورياً نهاية كئيبة مليئة بالتوبة والعار والخجل لبطليْ قصتي، لكي تحصل على موافقة للنشر. وفي جميع الأحوال، وبحسب قدرتي على التذكر، باستثناء بعض القصص القديمة القليلة، يحب الإيرانيون جميعهم منذ قرون قصص الحبّ، سواء أكانت نثراً أم شعراً، التي تنتهي جميعها بفراق الحبيبين، وبضحكة الموت، وبسخرية الشيطان.

في البيت، يقود دارا سارا إلى غرفته. وكان قد فرش الدرب الذي ستسير عليه سارا من مدخل باب البيت وحتى منتصف غرفته، بأوراق الورد... سارا، التي تبدو شاحبة، تتكئ على الجدار. دارا، من زاوية الستارة المسدلة، يجيل النظر مدققاً في نوافذ البيوت على الطرف المقابل من الشارع ليرى هل يتلصص أحد على منزلهم من وراء ستارة مسدلة. قلباهما يخفقان بشدة ويكادان ينفجران.

سارا تريد أن تسأل، هل أنت متأكد من أن أحداً لا يأتي إلى بيتك من دون استئذان وتوقع؟ لكنها لا تسأل، لأنني إن كتبت هذه الجملة، فإن السيد بيتروفيتش سيسأل، ماذا يريدان أن يفعلا حتى يخشيا أن يأتي أحدهم على غير توقع؟ حتى لو لم يسأل هذا السؤال، فإنه سيصبح شديد الحساسية إزاء الشخصيات في قصتي.

يقدم دارا لسارا شيئاً لتشربه.

بالطبع يقدم لها شراباً حقيقياً، وليس من ذلك الشراب الذي تجرع منه كأسين في هذا الصباح.

لا تزال سارا تلهث لتتنشق الهواء. تُخرج مخطوطة خسرو وشيرين من حقيبتها وتلقيه أمام دارا.

«كنت أتصفحه كل يوم. لقد أحببته حقاً. لكنه لم يعد مفيداً لي».

«كيف حدث ذلك؟».

«ألق نظرة عليه!».

دارا يفتح المخطوطة. بهتت جميع الألوان البراقة النابضة بالحياة والمنمنمات والزينات فيه. انتشر ظلّ مظلم فوق شعر النساء وأذرعهن وسيقانهن المكشوفة والعارية، ويبدو أن ممحاة خشنة قد حكّت ولطّخت بعض الكلمات والجمل. تفوح من صفحات المخطوطة رائحة عفن. يلقي به دارا جانباً. إنه يريد أن يقول تلك الجملة التي اعتاد معظم الرجال الإيرانيين على ترديدها على مسامع زوجاتهم، أو حبيباتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم التي أخبرتكم بها. لكنه يصمت. حتى إنه لا يبتسم بتكلّف، بل يقول:

«شكراً لمجيئك».

سارا تقول بأنين:

«ماذا فعلت؟ ما كان ينبغي لي أن آتي».

اغرورقت عينا سارا بالدموع الآن. يعرف دارا، من دون أن يسأل، سبب بكاء محبوبته.

اسألوني ما هو رأي السيد بيتروفيتش بهذا المشهد، وسأقول:

إنه يطلق الآن جميع ملكاته العقلية وحاسته السادسة أيضاً. لذلك سأكتب:

لم تعد ثمة قوّة في ركبتيهما. تجثم سارا في هذا الركن من الغرفة، ويقبع دارا في ذلك الركن من الغرفة. . . وبصوت مرتعش تسأل سارا: «لماذا؟».

إن «لماذا» التي سألتها سارا هي «لماذا» التاريخية التي لا تظهر في أدبنا فقط، بل إنها مشحونة بالحنين، والشوق، والحزن، والفراق، حتى في أغانينا الشعبية. إن الأغنية الشعبية التي أحب الاستماع إليها كثيراً، مفعمة بالحزن والشهوة:

النسيم الذي يهفو من خصلات شعرك،
يبهجني أكثر من رائحة زهرة الياقوتية.
في الليل، عندما أحمل صورتك في يدي،
في الفجر ينضح عبير الأزهار من سريري. . .

يبدو إننا، نحن الإيرانيين، لا نملّ ولا نكلّ من هذه الأشعار والأغاني.

إن «لماذا» التي سألتها سارا هي «لماذا» التي دأب العشاق البائسون المحرومون في أرض إيران على سؤالها منذ قرون لأرض إيران. ولم يكلّف أحد من المفكّرين والمثقفين الإيرانيين العظماء ـ الذين لم يكتشفهم العالم بعد ـ نفسه عناء البحث لإيجاد جواب على هذا السؤال.

أغنية قديمة تنبعث من جهاز تسجيل دارا الذي عفا عليه الزمن. يغني المطرب نادباً: «*في الليل، عندما أحمل صورتك في يدي. . .*»، *ويجلس دارا وسارا، كلّ في زاوية من الغرفة، يحدّق أحدهما في عيني الآخر المليئتين بالدموع.*

لعلك لاحظت أنه منذ دخول سارا إلى الغرفة، لم أكتب أنها خلعت خمارها، ولن أكتب ذلك خشية أن تكون مبللة بالعرق، وأن تكون قد

حلّت أزرار عباءتها، ولن أكتب أنها ترتدي قميصاً نسائياً شفافاً وقصيراً تحته: إذ يعرف القارئ الإيراني تماماً ماذا ترتدي بعض الفتيات الإيرانيات تحت عباءاتهن. تمرر سارا أصابعها في شعرها الذي أرسلته طليقاً على جبهتها وسرّحته إلى الوراء. يرى دارا تحت إبطها والظلّ الشاحب الذي يخلّفه شعرها الحليق. رائحة المسك المنبعثة من تحت إبطها تعبق في الغرفة.

لكن لكي أُعلم القارئ كيف أن دارا قد اعتراه الذعر والارتباك لدى رؤية كلّ هذا الجمال في متناوله، وكيف أنه راح يلتهم بعينيه شعر سارا الطويل الأسود الغزير، فإنني سأكتب بضع جمل بأسلوب تيار الوعي عن صور ليلة شتوية باردة ومظلمة، عندما تقرع الريح والرعد، مثل أشباح شريرة، على الأبواب والنوافذ ويرتعش تمثال الرخام في البيت.

عندها سأكتب:

يخفق قلب دارا وسارا مثل قلبي عصفورين حبيسين في قفص في حكاية رائعة. ليس فقط من الخوف من أن يكشف أمرهما ويتعرضا للخزي، بل ~~كذلك من تحليق تخيلاتهما مثل عصفورين إلى تلك الأعمال التي يمكن القيام بها وهما بمفردهما...~~

إنني أكره أن أشبّه دقات قلب متسارعة بدقات قلب عصفور، لأنني أظن أنها عبارة مكررة وقديمة. لكن في هذه النقطة من قصّتي، لا أستطيع أن أفكّر بجملة أكثر إبداعاً غير هذا التشبيه، وأنتم والسيد بيتروفيتش تعرفون السبب. وللحقيقة أقول، فإن قلبي في هذا المشهد يخفق بقوة أيضاً مثل قلب عصفور حبيس في قفص، لأنني أريد أن يتبادل دارا وسارا، بعد حديث صامت بعينيهما لمدة ثلاثين دقيقة، الابتسام. ثمّ، أريد أن ينهض دارا، ويتجه نحو سارا ويجلس إلى جانبها، وأريد أن يقبّل أحدهما

الآخر. أول قبلة في حياتهما ـ خرقاء، مذعورة، مليئة باللعاب، ومع ذلك فإنهما لن ينسياها طوال حياتهما. لكن في روحيهما، استيقظت قوّة أقوى من الرغبة لطبع قبلة. قوّة تخدّرهما وتضعفهما، قوّة بالرغم من جميع الكوابيس التي انتابتهما، تهدّدهما وتجلب لهما أنباء بالعقوبة المرعبة.

سارا، تكره المخاوف التي تعتريها وتمتري حبيبها ترمي فردتي صندلها بركلة سريعة إلى الجانب الآخر من الغرفة. تسقط إحدى فردتي صندلها أمام دارا. دارا يلتقطها. يلمسها و. . . يشمها، ويقبّلها.

إني متأكد من أن تقبيل الصندل لن ينال الموافقة على النشر، لذلك فإني مضطر إلى أن ألجأ إلى استخدام استعارة قديمة من الأدب الإيراني، وإلى أن أسعى إلى الحصول على مساعدة من عمر الخيّام. ومع أن الخيّام كان أعظم عالم رياضيات في زمنه، فقد كان يفضّل أن يجلس على ضفة جدول ماء في حديقته، وبعين على الحياة المتدفقة، وبالعين الأخرى على دنان النبيذ، يؤلّف رباعيات عن موت الأحبة وعن جمال أجسادهم وتحوّلها إلى تراب، وعن صانعي الدنان الذين يصنعونها من ذلك التراب، وعن الأحبة والحسناوات الذين يجلسون على ضفاف الجداول ويحتسون النبيذ من تلك الدنان. وهكذا، يأتي النظام البيئي الترابي الخيّامي لنجدتي، وأكتب:

يعلق التراب من نعل ذلك الصندل على يد دارا. . . يفرك ذلك التراب، الذي يبشّر بالوحدة الإلهية، بين أصابعه. . . البرودة التي تنبعث من أجساد الموتى تزحف إلى يديه. الكلمات الشبقة المهيأة في عقله التي يريد أن يقولها لسارا تصبح كلمات محفورة على شواهد القبور. يتذوق التراب. طعمه لاذع. طعمه بطعم نبيذ شيراز. جميع الدروب والأماكن التي مشت فوقها سارا، وجميع البساتين وضفاف أنهار الحياة، جميعها داخل هذا التراب وستعود جميعها ذات يوم إلى هذا

التراب، وتتحد بتراب صنادل الخيّام، وسيتدفق الجدول فوق ذلك التراب الذي ستنمو منه النباتات، وسيجلس العشاق الذين يجهلون أن عيون الموت تحدّق بهم على ضفة ذلك الجدول، ويكتبون قصيدة تتغنى بمحاسن عشيقاتهم الأبدية.

سيقدّر السيد بيتروفيتش هذه القطعة لأنها ستجعل القرّاء يفكّرون بالموت وبجهنم. لكن يمكن كتابة هذا المقطع أيضاً بهذه الطريقة:

دارا يقبّل نعل صندل سارا. للتراب طعم لاذع مثل نبيذ شيراز العتيق في الدوارق الفخارية التي كسرها الشاهنشاه وسقوا بها الأرض الجافة.

عِرقان يبرزان عند كاحلي سارا، نهرا دجلة والفرات، اللذان علّما الرجل عذاب الفراق عندما تحول من رجل إلى طائر النحام الفضي... عِرقان بنفسجيان يجريان على كاحليها، يلتقيان ثم يتدفقان ~~إلى ذلك المكان حيث تولد جميع عذابات الرجل ومباهجه...~~

لا تسمع سارا تيار الوعي لدى دارا، لكن بعد أن رأت مداعبته وقبلته المحمومة لصندلها، تطلق تنهيدة، تنهيدة أخاف أن يسمعها السيد بيتروفيتش من بين سطور قصّتي.

سارا تقول:

«لماذا تجلس بعيداً عني، اقترب».

دارا، الذي كان في حالة غير طبيعية بعد أن تذوّق طعم تراب دوارق النبيذ الفخارية المكسورة والنباتات المنتشرة على ضفّة النهر، يتحرّك نحو سارا على يديه وقدميه مثل شاة أليفة غير مؤذية. هذه هي أول مرة في حياة سارا يتحرك نحوها رجل ينطلق من عينيه لهيب النيران، وتتضوع من أنفاسه رائحة النبيذ، ولسانه ملطخ بالموت ـ مثل شاة يمكن أن تتحوّل بسرعة إلى ذئب. وعلى نحو أقوى وأشد ملوحة، يتفصد العرق من

مسامات بشرتها. وما إن يقترب من فريسته، حتى يحدّق الذئب الذي يشبه الشاة في اللحم الطازج والريّان الذي يكسو كتفي سارا اللتين يتدفق فيهما دم عذراء.

وفي أعماق أذني سارا، تنبعث أصوات الأمهات والجدّات والعمّات كما ينبعث الموتى يوم القيامة ـ يوم يدوم ثلاثمائة ألف يوم ـ كلّ كلمات الحكمة وكلمات التحذير التي كانت تصبّ في أذنيها منذ أيام الطفولة، وحتى أيام قليلة ماضية.

«يا فتاتي، لا تدعي أحداً من الصبية يلمس زهرتك! وإذا قال لك أحدهم دعيني أرَ زهرتك، فتعالي بسرعة واخبريني لكي أقطع أذنه».

«يا فتاتي، لقد بلغتِ العاشرة من العمر الآن، لذلك يجب أن تتوقفي عن اللعب مع أولاد الجيران».

«سارا، لا سمح الله، إذا سألك فتى في الحيّ أن تذهبي معه إلى زاوية منعزلة، لا تدعيه يخدعك. ستهدمين نفسك طوال حياتك، وسيعاقبك الله يوم القيامة. ففي جهنم، تُعلَّق النساء والفتيات من أثدائهن بخطّافات، ويشوين في النار».

«سارا، لقد كبرت الآن، يجب ألا تفتحي الباب وأنت ترتدين أكماماً قصيرة».

«سارا، إن عمّك جواد رجل شهواني، لا ترتدي تنورة عندما تأتين إلى بيتنا».

«يا ابنتي، ستذهبين إلى الجامعة وحدك الآن، لذلك يجب أن تكوني حذرة للغاية. لا تنسي أن الرجال لا يريدون من المرأة إلا شيئاً واحداً. ومهما قالوا لك كلمات لطيفة، فما أن يحصلوا على بغيتهم، حتى يرموك مثل منديل ورقي مستعمل. ومهما ضربوا لك وعوداً، فلن يتزوّجوك،

لأنهم يظنون أن الفتاة التي تمنح نفسها لهم قبل الزواج، لا تستحقّ أن تكون زوجة لهم».

«أترين هؤلاء الرجال! جميعهم ذئاب. بعضهم في جلد شاة، وبعضهم في جلد كلب، بل إن بعضهم في جلد فأر، إنهم يعرفون ألف حيلة وقصيدة. وما إن يعرفوا أي نوع من الرجال تحبين، حتى يصبحوا ذلك النوع من الرجال. وسينتهي بك الأمر في بيت للدعارة».

«سارا، لا تدعي الفتية والفتيات الخليعين الفاسقين في الجامعة يخدعونك ويقولون لك هيا نذهب إلى السينما، لنذهب لتناول قليل من البوظة. تتناولين البوظة مرة واحدة ويلحق بك العار في هذه المدينة. يا ابنتي، كوني حذرة جداً. لا تجلبي العار لنفسك ولعائلتك».

لكن ذلك الذئب الذي كان يدعى دارا ذات يوم، المتنكّر الآن في جلد فأر، يقترب من سارا. يمكنها أن تسمع الآن أنفاس الفأر المضطربة، وتحسّ بحرارة جسمه على جسمها. ترى حبّة عرق تسقط على الأرض من جبين دارا.

الغبار ينوح، ~~رغوة النبيذ في دنان نبيذ عمرها ألف سنة~~. . . يزداد قلب سارا ثقلاً من لحظة لأخرى. إنه يخفق ببطء. . .

سيقول السيد بيتروفيتش:

«انتظر! ماذا يجري؟ يبدو أن أشياء تجري في قصّتك لا أستطيع أن أراها. يبدو أن هناك أشياء غير لائقة تجري بين هذه النقاط الثلاث. لماذا أصبح قلب سارا يخفق ببطء؟».

«سيدي! إن غرائزك لا تقول لك الحقيقة دائماً. لم يحدث شيء. فلا يزال دارا يزيل الغبار عن نعل صندل سارا بين أصابعه. وقلب سارا، مثل قلوب جميع الناس الآخرين، يخفق بسرعة في بعض

الأحيان، ويبطء في أحيان أخرى. أنت نفسك قرأت في القصص أنه عندما يوشك أن يكون هناك لقاء جنسي، فإن خفقات قلوب الناس تزداد قوة وسرعة... اقرأ الجملة التالية وانظر كيف أن سارا ستفسد الأمور على دارا».

سارا تقول:

«إنك تبدو مثل ذئب».

دارا الذي يجلس على مسافة بضع أقدام من سارا، يتسمّر في مكانه ويقول بصوت مرتعش:

«أظن أنني أبدو مثل كلب بائس».

«لا، أفضّل أن تبدو مثل ذئب... تعال...».

يجتاز دارا أخيراً «أطول متر» في حياته، ويجلس بالقرب من سارا ويستند إلى الحائط. يتلامس الآن ساعداهما العاريان. تلامس سارا خدّ دارا بطرف إصبعها.

«لقد جرحت وجهك. هل كنت ترتعش عندما كنت تحلق هذا الصباح؟».

«نعم. لكنك تفضّلين رجلاً ملتحياً».

«اترك غيرتك لوقت آخر».

عادت الرعشة التي سرت في جسد دارا هذا الصباح إليه ثانية. وسببها لا يعدو كونه ملامسة غرامية لأصابع يد امرأة رقيقة على وجهه. وبشجاعة لم يكن يعرف أنه يمتلكها، يمسك دارا يد سارا. يلتقي العرق في راحتي يديهما. ينظران إلى يديهما وكل منهما مسترخية في يد الآخر.

وترى سارا لطخة زرقاء من الطلاء على طرف ظفر دارا.

ووراء الستائر التي تغطي نافذة تلك الغرفة، سماء زرقاء من دون حصان مجنّح وبلا بساط ريح تمتد نحو أفق طهران الشرقي، نحو نيسابور مدينة الخيام، حيث الفيروز الإيراني الجميل القابع تحت الأرض يحلم بأن يصبح حجراً كريماً على أصابع جميلة لإحدى الفتيات الإيرانيات، أصابع تتوجع الآن من ضغط يد الحبيب. سارا تبادل دارا الضغط على يده وتقول:

«برفق».

سيقول السيد بيتروفيتش:

«ماذا حدث؟ ماذا قالت سارا؟ ماذا يفعل دارا؟ ماذا لو طارد هذا الرجل المخادع سارا؟».

فسأقول:

«لا أظن ذلك. ربما لأنه يريد أن يفرّغ شحنات توتره العاطفي فإنه يضغط صندل سارا بقبضته، وتخشى سارا أن ينكسر صندلها إلى قطعتين».

ترفع سارا يد دارا إلى شفتيها، وتقبّل الإصبع التي تحمل البقعة الزرقاء. قبلة صامتة للغاية إلى حد أننا، لا السيد بيتروفيتش ولا حتى أنا، نستطيع أن نسمعها. من لمسة شفتي سارا على بشرته، هدير جهنمي يتردد في أذني دارا. إنه معقود اللسان، ولا تخطر بباله كلمة ولا تصرف. سارا، بعينيها المغمضتين، وشفتيها نصف الفاغرتين، تسند رأسها إلى الجدار. لا يزال دارا مشغولاً بتلك القبلة الحارقة على إصبعه. يبدو أن جميع مناجم الفيروز في نيسابور قد حفرت تحت ظفره، وعمّال المنجم الجرحى يصيحون طلباً للنجدة...

الكزه. «أيها الفتى الغبي! ماذا تنتظر؟ لقد فعلت الفتاة المسكينة أقصى

ما بوسعها. لقد جاء دورك الآن لتتحرك. انظر كيف أن شفتيها جاهزتان وتنتظران؟ افعل شيئاً أيها الأبله. عجّل! فصبر النساء لا يدوم أكثر من جرعة فودكا».

دارا يلتفت نحو سارا. يرى ذراعيها الممتلئتين بشكل جميل بانتظار أن تعصرهما ذراعاه والمكان الفارغ في يديه المريضتين على انحناءي كتفيها.

ينظر إلى البقعة السوداء على شفة سارا السفلى الوردية الضبابية، ثمرة عضّ شفتيها خوفاً، وعند البشرة البيضاء أسفل حاجبيها المتوفين حديثاً.

وأخيراً، محدقاً في عينيها المغمضتين، يفتح شفتيه.

«الموت للحرية، الموت للعبودية... التي كتبتها على لافتتك... كانت غريبة جداً. ماذا كنت تقصدين بها؟».

ترفع سارا رأسها من المكان الذي تسنده إلى الحائط. تفتح عينيها المغمضتين في تخيل قبلة.

تبتسم ابتسامة عريضة.

«كان قد جاءني الإلهام...».

هذا هو الردّ الأكثر عقلانية وسخرية الذي يمكن أن يصدر من شفتي امرأة إيرانية. فمنذ الأيام التي كانت فيها النساء الإيرانيات الأكثر روعة يُحملن إلى الحرملك منذ سبعمائة سنة في محفّات مغطاة مثبّتة على الجمال، حتى اليوم، الذي حصلت فيه سيدة إيرانية مدافعة عن حقوق الإنسان على جائزة نوبل للسلام بعد أن تحمّلت سنوات من الاضطهاد والتهديدات، وإزاءها امرأة إيرانية تجمع ثروة في الولايات المتحدة تشتري تذكرة في المركبة الفضائية الروسية لتصبح أول امرأة سائحة في الفضاء الخارجي، لم يأت امرأة إيرانية مثل هذا الإلهام مطلقاً.

سارا، تواصل تعليقها الغامض، وتقول:

«إنني متعبة. متعبة جداً، متعبة للغاية».

بعد أن اشتعل الحبّ الآن. في هذه اللحظة بالذات عندما تستيقظ تلك النظرة الغامضة في عيني سارا. نظرة لمعت في عيني حاملات النبيذ في الحانات المحرّمة قبل سبعمائة سنة، النظرة التي برقت في عيون نساء محبّات للحرية يحترقن تحت تعذيب الشرطة السرية بالحديد الحار، النظرة التي لمعت في عيني أمّ تلقت رفات ابنها الذي استشهد في الحرب، هي التي ستلمع في عيني الصبيّة التي ستكتب أجمل قصّة حبّ إيرانية ذات يوم.

قولوا لي:

يبدو أنك كاتب شارد الذهن! ألم تكتب سابقاً أن شرارة الحبّ قد اشتعلت للتو؟

وسأقول:

لماذا لا تنتبهون؟ إنني لا أتحدّث عن شرارة حبّ دارا. إني أتحدّث عن شرارة حبّ السيد بيتروفيتش. إنه يحدّق الآن في تلك العيون الشرقية النبيلة التي لا يتمكن نثري من وصفها. ويبدأ قلبه يخفق مثل قلب عصفور أسير في قبضة. لكنكم محقّون عندما تقولون إنني كاتب شارد الذهن. فلم أكن أعي ذلك على الإطلاق، طوال هذه القصّة التي تخلو من الخيال، تخيّل بيتروفيتش عن سارا كان نشيطاً جداً. والآن، بكلّ ذرة من عواطفه، يشعر بأنه وقع في غرام هذه الفتاة. هذه الفتاة التي ليست فاسقة ولا ورعة.

السيد بيتروفيتش يقول:

«أرجوك أخرج سارا من بيت زير النساء هذا. أعدها إلى بيتها! سأرسل سندباد إلى الصين لشراء أقلام رصاص».

«لكن سيدي، هذا لن ينفع! ماذا عن الحبكة في قصّتي؟».

«إذاً فإنني أمنعك من أن تجعل يد دارا تلمسها».

«سيدي، حتى لو أردت ذلك، فإن دارا هذا أخرق ومشوش جداً وغير قادر على عمل أيّ شيء. إنني متأكّد من أنه يريد أن يحدثها الآن بأنه قام بطلاء بيت قبل بضعة أيام باللون الأزرق الفيروزي».

«جيد جداً. في رأيي أنك كتبت قصّة حبّ ناجحة وراقية يمكنها أن تحصل على رخصة للنشر... ما عدا... ما عدا، عندي مشكلة واحدة».

«أي مشكلة؟».

«حسناً، إذا أردت أن ألتقي بسارا بطريقة ما، فإنني لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل... فمنذ أن قرأت بعض الأجزاء في قصّتك، جذبت انتباهي. لا يخطر ببالك أن لديّ نيات شرّيرة. أريد أن أطلب يدها للزواج. كن مطمئناً بأنني أستطيع أن أجعلها سعيدة... هل يمكنك أن تفكّر بطريقة نستطيع من خلالها أن نلتقي في مكان ما؟».

«لا... إذا أردت أن تلتقي مثلاً بآنا كارنينا، فربما استطعت أن أجد لك وسيلة، لكن...».

«من هي آنا كارنينا؟ هل هي مثل سارا؟».

«إنها أفضل من سارا. لا أستطيع أن أقول إنها جميلة جداً، لكن لديها سحر معين يمكنها أن تجعل أيّ رجل يجثو على ركبتيه أمامها. لعلك تستطيع أن تحذف الجزء الذي تحبّ فيه أحداً وتمنعها من الانتحار».

«لا . . . وتدعو نفسك كاتباً؟ ألا تعرف أنه عندما يحبّ رجل مثلي فإن عينيه لا تقعان على امرأة أخرى؟».

«أرجو أن تكون قد أخبرتني قبل ذلك. أظن أنني يجب أن أكتب رواية عنك وعن قصّة حبّك».

«عندما تكتب تلك الرواية، يكون الفتيان الجانحون المبتكرون من أمثال دارا قد دمّروا سارا. . . لكنّ لديّ فكرة. قل لي ما رأيك بها. اكتب أن سارا تُسقط المنديل الذي يقدمه لها دارا في مكان قريب من وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، يمكنك أن تفعل ذلك حتى أمام مكتبي لكي لا يراه أحد غيري. سألتقطه وأجري وراءها. سأقول لها، يا آنسة، هل هذا منديلك؟. . . تراني. تشكرني. عندها أقول، يا آنسة، إنك تستحقّين أكثر من مثل هذا المنديل. يجب أن يكون لديك منديل منسوج من الذهب موشى بلآلئ على حوافه. وبهذه الطريقة أفتح حديثاً معها».

هنا أتذكّر منديل دارا المشهور. ففي حفلات الزفاف الإيرانية التقليدية كانت العادة في نهاية الأمسية، بينما الاحتفالات لا تزال جارية على أشدها في البيت، أن يذهب العريس والعروس وأيديهما متشابكة إلى غرفة تعرف بـ«هجلة»، أو غرفة الزواج. حيث توجد امرأة عجوز تنتظر وراء الباب. وبعد أن يفتح العريس معقل العروس، يقدم للمرأة العجوز منديلاً عليه بقعة دم بكارة العروس. فتعرض المنديل على المدعوين، وتعلو الزغاريد وصيحات الفرح والبهجة لأن طهارة العروس ونقاوتها اجتازت الاختبار بافتخار، ويثبت أن العريس قد نجح في مسعاه. وبالطبع، إذا كانت العروس ذات غشاء بكارة دائري أو عمودي مثلاً، ولم

يخرج منها نقطة دم، فإما أن تُقتل في هذه الليلة، أو أنها تواجه العار والخزي أمام الجميع وتعاد إلى بيت أبويها. الآن اكتشفتم الأهمية الخفية لرمز قصّتي المعقّد، وبدأتم تفهمون لماذا أبدى السيد بيتروفيتش حساسية شديدة لهذا المنديل.

وكلمة «دم» تذكّرني بذلك القاتل الذي أراد أن يسيل دم دارا من صدغيه. أصيح:

«إذاً أنت الذي أرسل ذلك القاتل ليقتل دارا!».

يرفع السيد بيتروفيتش سبابته إلى أنفه، مشيراً بأن أخفض صوتي.

«إنك تتّهم مسؤولاً في حكومة ورعة في الجمهورية الإسلامية باغتيال معارضيه. سأتظاهر بأنني لم أسمع ما قلته».

ثمّ بنبرة سلطوية يقول:

«كلما بقي دارا وسارا معاً لفترة أطول، ازداد الخطر الذي يهدّد قصّتك. جد حلاً بسرعة؛ وإلا فأخرج حلم نشر قصّة الحبّ من رأسك».

أقول:

«هل تدعو هذه قصّة حبّ؟ أو...؟ انظر إلى ما حلّ بآمالي وأحلامي. فقد تكسرت كلّ عظمة في هذه القصّة. لقد ذهب كلّ فصل من فصولها إلى أرض مقفرة حول طهران، الأماكن التي يحرقون فيها القمامة. ربما كان عليّ أن أخنق سارا مثل ديدمونة منذ البداية وننتهي من كل هذه التعاسة التي لحقت بنا».

يقول:

«أظن أنها أصبحت قصّة تربوية جميلة! الآن ضع كل إبداعك لتكون النهاية أن تصبح سارا تكره دارا».

استعادت عيناه لمعانهما المخيف من الدهاء.

«لا تجبرني على أن أتخذ الإجراء بنفسي. أخرج سارا من بيت الخطيئة ذاك».

لم أعد أمتلك أيّ طاقة أو رغبة في الكتابة. يجب أن آخذ الحلم إلى قبري بوضع تلك الفترة الساحرة في نهاية قصّة حبّ جيدة.

أقول:

«سيدي، لا تضحك على نفسك! لقد فات الأوان. فأثناء كتابتي لهذه القصّة، وصلت إلى نتيجة ثانية أن كتابة قصّة حبّ ذات نهاية سعيدة ليست في قدر كتّاب من جيلي... وقد انتهى عملي في هذه القصّة. ولم يعد لدي أيّ قدرة على السيطرة عليها أو على الشخصيات فيها».

«ماذا تقصد؟ لماذا تقول كلاماً هراء؟ ابدأ الكتابة».

«يا صاحب السعادة، لا أستطيع! لقد انفصلت تماماً عن هذه القصّة. لقد انتهيت...».

اسألوني:

كيف؟

لكي أقول لكم وللسيد بيتروفيتش:

«اسمعوا! إن سارا تريد أن تتحدث عن نفسها».

سارا تقول لدارا:

«في البقعة التي تنمو فيها الأزهار في باحة بيتك الأمامية... أجمة الياسمين تلك...».

«نعم، كنت على وشك أن أقلّمها، لكن لم يكن لدي الوقت».

«لا، لا تفعل ذلك... إن السماح بأن تنتشر النباتات بحرية في أرجاء الحديقة شيء جميل».

ننظر أنا ودارا والسيد بيتروفيتش إلى جملة سارا الجميلة بوجل.

تحدّق دارا في العرقين البنفسجيين في كاحلها. تفركهما بطرف أصابعها، وتمسّد كاحلها المتعب.

ثمّ، وكأنها تذكّرت شيئاً فجأة، تتسع عيناها؛ وتتسمّر في مكانها.

«ما خطبك يا سارا؟ ماذا حدث؟».

«عندما دخلت إلى الباحة، كان أول شيء رأيته أجمة الياسمين تلك... صدقاً، لقد أخافتني. الآن بدأت أدرك وكأن هناك عينين مرعبتين تنظران إلي من داخل الأجمة».

«هذا مستحيل... لا يوجد أحد في البيت إلا أنا وأنت».

«لكني متأكدة من أنني رأيتهما. ربما عندما تركت باب البيت مفتوحاً دخل أحدهم واختبأ وراء الأجمة».

ينظر دارا، الذي كاد قلبه يقفز من صدره، من زاوية ستارة غرفة نومه إلى أجمة الياسمين. عيناه تتسعان خوفاً. يبدو أن هناك شيئاً في فروعها.

ثم، عندما أحس بالرعب، جرى إلى الباحة، ورأى هناك جثة قزم أحدب يحدّق في باب البيت الأمامي...

وكلّ ما أعرفه أنه قبل أن يفوت الأوان، وبأسرع ما يمكن، حتى لو بواسطة بساط ريح، يجب أن أعود إلى بيتي وأوصد الباب من الداخل...

المحتويات



هذا الكتاب

إذ يتعين عليه ألا يسمح بظهور كلمات وعبارات لا أخلاقية ومفسدة للأخلاق أمام عيون الناس البسطاء والأبرياء، وخاصة الشباب، وتفسد عقولهم النقية وتلوثها. وهو يقول لنفسه أحياناً:

«انظر هنا يا رجل! إذا أفلتت كلمة أو عبارة من قلمك وأثارت جنسياً أحد الشباب، فإنك تشاركه في الإثم الذي يقترفه، بل والأسوأ من ذلك، فإنك ستتحمل وزراً مثل هؤلاء المفسدين الذين ينتجون الأفلام والصور الإباحية، ويوزّعونها بصورة غير قانونية على عامة الناس».

